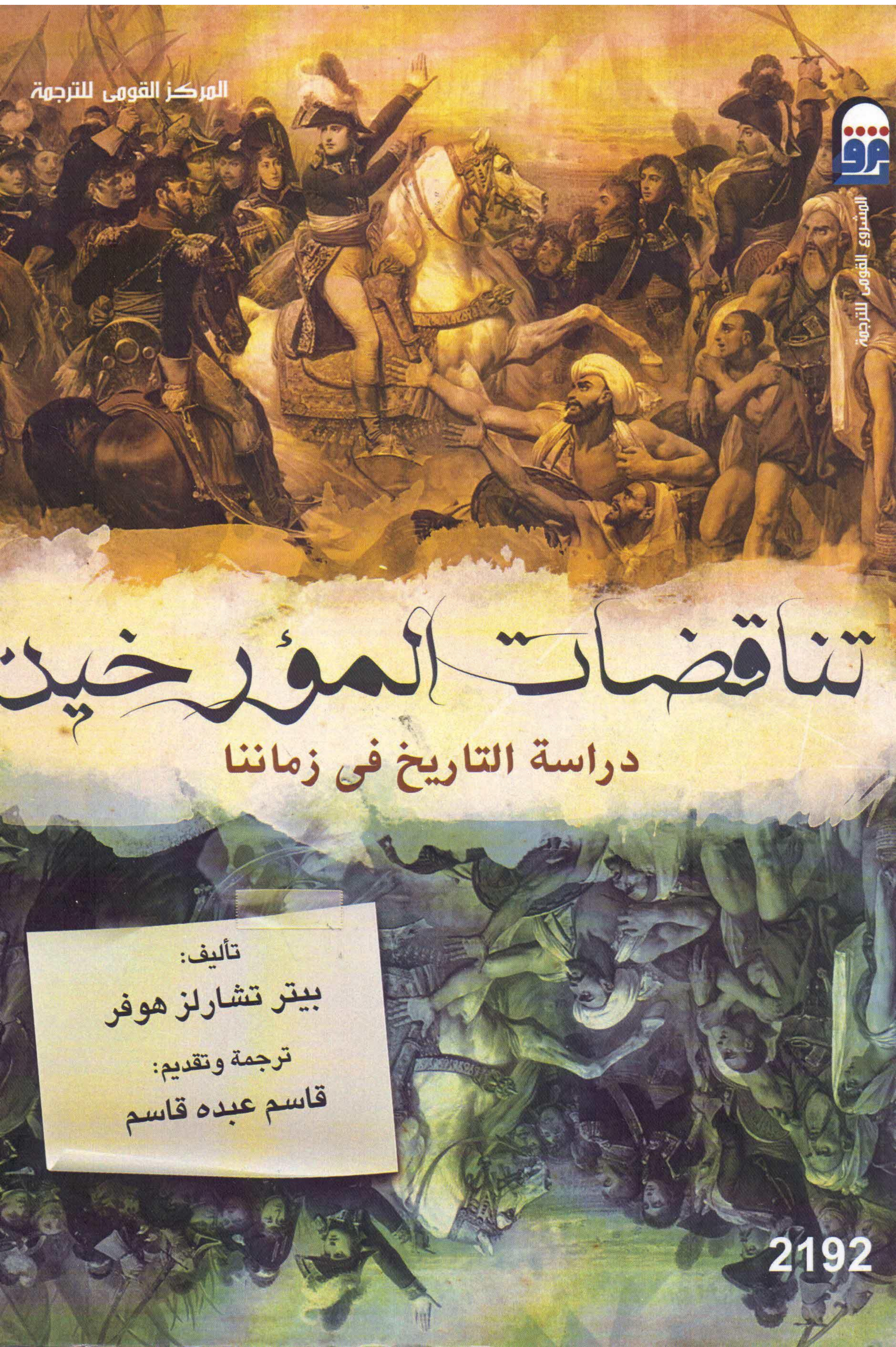
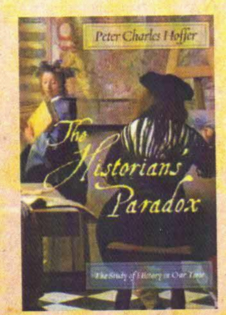


المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
تناقضات المؤرخين
دراسة التاريخ فى زماننا
تأليف:
بيتر تشارلز هوفر
ترجمة وتقديم:
قاسم عبده قاسم
2192





The Historian's Paradox

The Study of History in Our Time

هذا الكتاب يترجم إلى العربية للمرة الأولى، ويتناول موضوعًا مهمًا يتعلق بالفكر التاريخي المعاصر، وبدراسة التاريخ وتدريسه في الجامعات والمدارس الأمريكية، وهو حافل بالمعلومات المفيدة في هذا المجال، تلك التي توقفنا على بعض الجوانب المتعلقة بالتاريخ، وكيفية النشر في المجلات التاريخية التي تصدرها الجمعية التاريخية الأمريكية وغيرها. كما يرسم لنا صورة للنشر في دور النشر أو مطابع الجامعات في أمريكا، وحالات الغش والانتحال الشهيرة في تاريخ الجامعات الأمريكية، فضلاً عن كيفية تحول البحث التاريخي إلى نوع من "البزنس" في كثير من الحالات كما يخبرنا المؤلف.

تصميم الغلاف : وائل أحمد

تناقضات المؤرخين

دراسة التاريخ فى زماننا

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

- العدد: 2192
- تناقضات المؤرخين: دراسة التاريخ فى زماننا
- بيتر تشارلز هوفر
- قاسم عبده قاسم
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

THE HISTORIAN'S PARADOX:
The Study of History in Our Time
By: Peter Charles Hoffer

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

تناقضات المؤرخين

دراسة التاريخ فى زماننا

تأليف: بيتر تشارلز هوفر

ترجمة وتقديم: قاسم عبده قاسم



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هوفر، بيتر تشارلز.
تناقضات المؤرخين: دراسة التاريخ فى زمننا/ تأليف: بيتر تشارلز هوفر،
ترجمة وتقديم: قاسم عبده قاسم؛
ط ١ - القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣
٣٤٨ ص ، ٢٤ سم
١ - التاريخ
(أ) قاسم، قاسم عبده (مُترجم ومُقدم)
(ب) العنوان ٩٠٧,٢

رقم الإيداع ٨٩٦٨ / ٢٠١٢
الترقيم الدولي : I.S.B.N - 978- 977 - 216 – 089 - 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تقديم المترجم

التاريخ، علم صاحب الإنسان فى رحلته المستمرة فى رحاب الـزمن منذ طفولة العقل البشرى، الذي حاول السعى وراء المعرفـة منـذ عـصر الأسطورة حتى عصر العلم وتكنولوجيا المعرفة والمعلومات. كان التـاريخ جنينا فى رحم الأسطورة حينما قـام الإنـسان الأول بابتـداع الأسـطورة لترقيع النقص فى ذاكرته، لأنه لم يكن يعرف كيف يكتب أو يسجل ما مـر عليه من أحداث.

ومن رحم الأسطورة خرج التاريخ – علما ورفيقا – يسعى مع الإنسان فى رحلته الأبدية باحثا، وفاحصا، ومتسائلا فى محاولة لأن يفهم الإنـسان، ويفهمه، قصته فى هذا الكون وما تحمله من مغزى، ومهمته فى رحلة الحياة على سطح هذا الكوكب. ومثلما تطور الإنسان فى مختلف جوانـب حياتـه وسعيه فى الكون، منذ كان تحت رحمة الطبيعة ونزواتها تماما، حتى استطاع اكتشاف الكثير من حقائق حياته وحقائق الكون الذى يحيا فى كنفـه بفـضل العلم واكتشافاته وتطبيقاته، تطور التاريخ حتى صار علما متعدد المـشارب، كثير الوجوه والجوانب، له الكثير من الفروع والتخصصات التى تخـصص لها الأقسام فى مراكز البحوث المختلفة والجامعات، فى بلاد الدنيا على اتساع أرجائها وتنوع بلدانها.

وفى "تاريخ التاريخ" مر هذا العلم، الذى يقوم على ثلاثيـة الإنـسان والزمان والمكان، بتطورات عدة فى تاريخ الأمم والثقافات المختلفـة: مـن الأسطورة حتى العلم. ولم تكن تلك التطورات والمراحل المختلفة التى مر بها

التاريخ واحدة أو موازية زمنيا فى جميع ثقافات البشر وحضاراتهم بطبيعة الحال. فقد بدأ التاريخ ربيبا للحكام الذين كانوا فى كثير من الثقافات القديمة يعتبرون من نسل الآلهة، أو أعضاء فى حكومات الآلهة على أقل تقدير. ثم بدأ التاريخ ينزل من سماوات الآلهة وعليائها إلى أرض البشر وفعالهم؛ ولكنه بقى فى الغالب الأعم تاريخ الحكام والساسة والقادة: يمشى فى ركابهم، ويعيش على حكاياتهم وأسرارهم، يسعى وراء مؤامراتهم ومغامراتهم حتى ظن البعض من دراسى التاريخ أن "التاريخ سياسة الماضى وأن الماضى تاريخ المستقبل" ونسوا أنه قصة الإنسان فى الكون: يسجل أعماله، ويقدر رفعته، ويحيى نجاحاته، ويدون كل ما يتصل به من رفعة وضعة، من انتصار وانكسار، ويحاول أن يفهم سر الحياة الاجتماعية وقوانينها، وحقائق الصراع بين البشر والتعاون فيما بينهم أيضا. وكان حتما مقضيا، مع التطورات التى ألمت بحياة الناس فى المجتمعات المختلفة، أن يهتم التاريخ والمؤرخون بالبشر فى حياتهم اليومية والاجتماعية بشتى جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية... وما إلى ذلك. فظهرت الفروع المختلفة للدراسات التاريخية، وتكونت المدارس المتنوعة فى الفكر التاريخى، وكان التراث العربى الإسلامى، فى عصور السيادة الإسلامية، ثم التراث الأوربى منذ القرن الثامن عشر فصاعدا، من أهم القواعد التى قام عليها الفكر التاريخى الإنسانى لاسيما بعد تطور الاتصال والمواصلات الذى جعل العالم كله متقاربا وقريبا من بعضه فى كل شىء، ولم يكن الفكر التاريخى استثناء فى ذلك بطبيعة الحال.

وفى أثناء هذه الرحلة الطويلة تعددت فروع البحث التاريخى والدراسات التاريخية، ونشأت مدارس، وتبلورت فلسفات التاريخ المختلفة فى ثقافات الشعوب والأمم المختلفة تروج لفكرة التاريخ فى هذه الحضارة أو تلك

من ناحية وتحاول فهم القوانين الحاكمة لحركة الإنسان فى الكون من ناحية أخرى. وصار التاريخ جزءا مهما من ثقافة الإنسان فى الأمم المتقدمة. وصارت معرفة تاريخ الأمة مقياسا لمدى رقى الفرد من أبنائها. ولذلك السبب كان التاريخ باستمرار هدفا للمحتلين والغرباء والطغاة الذين رأوا فيه باستمرار عدوا لا يلين ولا يقهر؛ فحاولوا تغييبه عن الشعوب أو حاولوا تغييب الشعوب عنه.

ومن ناحية أخرى، كان لابد لعلم التاريخ نفسه أن يتطور بالشكل الذى يلبى حاجة الأمم والأفراد إليه، ولم يعد التاريخ رهين قاعات الدرس فى المدارس والجامعات، أو صفحات الكتب والمجلات، أو المناقشات فى الندوات والمؤتمرات. وخرج إلى الناس مسموعا على أثير الإذاعة على شكل دروس ومسلسلات درامية تمزج بين الحقيقة والخيال، ثم وجد فى السينما وأفلامها حظه الأوفر بما تتمتع به السينما من إمكانات تبعث التاريخ حيا أمام جمهور الناس الذين زادتهم الأفلام التاريخية شوقا لمعرفة التاريخ، وعلى شاشات ذلك الساحر والعجيب (التليفزيون) دخل التاريخ البيوت، ومخادع النوم، وصار وجبة ميسورة التناول: سواء على شكل علمى خالص تتناوله البرامج الحوارية والأفلام التسجيلية، أو على شكل الدراما التاريخية التى تثبت الإحصائيات أن الإقبال عليها كبير. وبات بالإمكان أن يعيش الناس صورا من الماضى أو قريبة منه فى أضعف الأحوال، ومع وجود الكمبيوتر وشبكة الإنترنت صار بوسع من يريد أن يجد التاريخ بالشكل الذى يرغب فيه أن يجده: مقروءا، أو مسموعا، أو مرئيا؛ فى صورة عملية أو درامية وتمثيلية.

وقد ظهرت كتب كثيرة لا تتناول الحوادث التاريخية، أو الظواهر التاريخية، وإنما تتناول علم التاريخ نفسه من حيث تطور منهج البحث

التاريخى وأساليبه، أو من حيث طرق البحث التاريخى، أو تاريخ الكتابة التاريخية، وإذا كان ابن خلدون يرتبط بالفكر التاريخى العربى بسبب فلسفة التاريخ التى ضمنتها مقدمته الشهيرة، فإن التراث التاريخى فى الثقافة العربية الإسلامية يحفل بالعديد من المؤرخين الحقيقيين الذين طوروا علم التاريخ ووضعوا كتبا مهمة فى تاريخ التاريخ وفلسفته: مثل الطبرى، والمسعودى، والمقريزى، وابن إياس وغيرهم من الذين طوروا هذا العلم ورفعوا مكانته فى تاريخ الفكر الإنسانى عامة. ومن ناحية أخرى، شهد الفكر الغربى الذى بدأ ينفض عن نفسه غبار العصور الوسطى تطورات جليلة ومهمة، وأخذ يطور نفسه منذ القرن الثامن عشر فى مجال المعرفة التاريخية، حتى وصل إلى درجة صار فيها الفكر المرجعى فى عالم المؤرخين اليوم. بيد أن ذلك يصدق بدرجة كبيرة على شرق المحيط الأطلنطى؛ أى أوربا، ولكن ظلال الشك تحوم حول مدى صدقه فيما يتعلق بأمريكا. ويبدو أن ضحالة التاريخ الأمريكى نفسه السبب فى ذلك: فليس هناك عمق فى التجربة التاريخية (الهيجلية، الماركسية، وأرنولد توينى، وشبنجلر... وغيرها). ومع أن هناك عددا كبيرا من المشتغلين بالتاريخ فى الولايات المتحدة الأمريكية ينتشرون فى جامعاتها العديدة ومراكز البحوث بها، فإن نتاجهم الفكرى، وليس التطبيقى، لا يزال بعيدا عن منافسة التراث الأوربى فى مجال الفكر التاريخى.

وهذا الكتاب الذى يترجم إلى اللغة العربية للمرة الأولى تحت عنوان "تناقضات المؤرخين – دراسة التاريخ فى زماننا" يتناول موضوعا مهما يتعلق بالفكر التاريخى المعاصر ودراسة التاريخ وتدريسه فى الجماعة والمدارس فى الولايات الأمريكية. والكتاب حافل بالمعلومات المفيدة فى هذا المجال، والتى توقفنا على بعض الجوانب المتعلقة به، وكيفية النشر فى

المجلات التاريخية التى تصدرها الجمعية التاريخية الأمريكية وغيرها، كما يرسم لنا صورة للنشر فى دور النشر أو مطابع الجامعات فى أمريكا، وحالات الغش والانتحال الشهيرة فى تاريخ الجامعات الأمريكية، فضلا عن كيفية تحول البحث التاريخى إلى نوع من "البيزنس" فى كثير من الحالات، كما يخبرنا المؤلف.

ويتناول الكتاب بعض الأمور الفكرية المهمة فى البحث التاريخى؛ ولكن المؤلف اختار أن يعالجه بطريقة تبدو غريبة على هذه النوعية من الكتابة فى علم التاريخ. ذلك أنه تناول عددا من الموضوعات على طريقة الصحافة وبعناوين مشابهة لها (ويلفت النظر أنه مغرم تماما بالكتب التى فازت بالجوائز) فقد بدأ المؤلف كلامه فى الفصل الأول مثلا، على أساس أن التاريخ مستحيل من وجهة نظره: وهو يقصد باستحالة التاريخ هنا أننا لا يمكن أن نعود القهقرى فى رحاب الزمان لكى نشاهد التاريخ مرة أخرى، أو لكى نراه ماثلاً بالشكل الذى يمكننا من دراسته. وهو كلام حقيقي إلى درجة كبيرة، ولكن الطريقة التى تناول بها الكتاب تدعو إلى التأمل وتثير الدهشة إلى حد ما. حقيقة أن الماضى قد ولى ولا سبيل إلى استعادته، أو الذهاب إليه، بيد أن البحث التاريخى لا يسعى للعودة إلى الماضى بقدر ما يسعى إلى استرداد أقرب صورة، لجزء من هذا الماضى، من ذمة الزمان مستعينا بمنهجه ووسائل البحث التى يعمل بها الباحثون والمؤرخون لكى يحاولوا رسم صورة أقرب ما تكون إلى ذلك الماضى. ولسنا هنا بصدد استعراض كل الأفكار التى يطرحها المؤلف فى طيات صفحات هذا الكتاب بطبيعة الحال، ولكن هذه الأفكار تستوجب الالتفات حقا، وتستحق مناقشة واعية.

وإذا كنا نشبه التاريخ فى أحد معانيه بأنه مثل النهر الذى يجرى من منبعه إلى مصبه، حاملا معه كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة من الحياة

البشرية فى هذا الكون منذ بداية الوجود الإنسانى حتى اليوم، فإن معنى هذا أننا لا نستطيع بأى حال من الأحوال أن ندرس التاريخ البشرى كلـــه مـــرة واحدة تحت أى ظرف من الظروف، ومهما كانت أعداد المـــؤرخين الـــذين يقومون بمثل هذه الدراسة المفترضة. ذلك أن دراسة التاريخ أشبه بدراســـة المياه التى يحملها النهر: فليس من المتصور، أو من المعقول، أن يتم تفريغ مياه النهر فى إناء كبير لدراسة خصائصها، وإنما تؤخذ عينة من هذه المياه من مناطق مختلفة لدراسة خصائصها. وبالمثل، تتم دراســـة التـــاريخ عـــن طريق "العينات". ويعنى هذا فى التحليل الأخير أن دراسة التـــاريخ ليـــست مستحيلة لأننا لا يمكن أن نعود إلى الماضى كما يقول المؤلف؛ وإنمـــا تـــتم دراسة التاريخ بالمناهج التى تطورت واستقرت طوال الفترة التى يمكـــن أن نسميها "تاريخ التاريخ". ويحاول المؤلف أن يناقش مسألة قتلت بحثا وكأنـــه يبدأ من البداية دون أن يكون هناك تراث سابق فى المعرفة التاريخية يبدأ منه ويضيف عليه!!

تتناول فصول هذا الكتاب التى تصل إلى تسعة فـــصول عـــددا مـــن القضايا التى يزعم المؤلف أنه يسعى من خلال مناقشتها للوصول إلى "فلسفة تاريخ زماننا" على حد تعبيره. ومن يقرأ الكتاب فسوف يكتشف بـــسهولة أن الكتاب يناقش غالبا قضايا فى الممارسة اليومية التى يمكنه أن يتخذ منه أمثلة على ما يريد الوصول إليه من ناحية، وأن الأمثلة التى يسوقها تـــشير إلـــى قضايا محلية نظرتها المحاكم الأمريكية: مثل حـــق الإجهـــاض، والتفرقـــة العنصرية، وأحداث ومواقف الحرب الأهلية الأمريكية من ناحيـــة أخـــرى. وهى أمثلة لا يمكن بحال من الأحوال أن تساعد المؤلف، أو أن تقدم الـــسند لأى فلسفة تاريخ فى أى زمان ومكان بسبب محدوديتها، وبسبب انحـــسارها

داخل ثوب التاريخ الأمريكى الضيق. وعلى الرغم من أن الكتاب ملىء بالمعلومات المتفرقة عن أمور وأبحاث مهمة فى التاريخ الأمريكى (وهو كله تاريخ معاصر على أية حال)، فإن الهدف الذى حدده المؤلف لكتابه ونفسه يبدو بعيدا للغاية، لأن المؤلف محبوس داخل تجربته المحدودة، وكذلك داخل تاريخ بلاده فقط.

يناقش الكتاب قضية الكذب فى الكتابة التاريخية، وفى رأيه أن الكذب ضرورى أحيانا بسبب عدم القدرة على الوصول إلى الحقيقة كاملة!! وينسى أو يتناسى، أن المؤرخ مقيد بمنهج البحث التاريخى: وفى الأمثلة التى يقدمها يخلط كثيرا بين الكذب على لسان السياسيين والزعماء وبين البحث التاريخى. والكتاب يناقش قضايا عديدة فى مجال سعيه للبحث عن "فلسفة تاريخ مناسبة لزماننا"، وهو ما أظن أنه لم يوفق فى الوصول إليه.

أما عن الترجمة فهى مهمة لا يعرف مشاقها، ومتعتها، سوى من يكابدها، وفى هذا الكتاب حاولت قدر طاقتى أن أضع النص فى لغة عربية سليمة مع الاحتفاظ تماما بالمعنى الذى يقصده المؤلف. وفى بعض نقاط الاختلاف مع النص رأيت أنه من واجبى تجاه القارئ العربى أن أوضح موقفى فى هوامش الكتاب، وفى أحيان أخرى، وضعت تفسيرات لبعض الكلمات والمصطلحات التى جاءت فى سياق النص. ولم أر فائدة من ترجمة "المقالة الببليوجرافية المختصرة جدا" التى كتبها المؤلف فى نهاية الكتاب، لأنها لا يمكن قراءتها بشكل مفيد للقارئ العربى؛ فليست هنا هوامش فى الكتاب كله تحيلنا إليه تلك المقالة، كما أنها تتناول موضوعات ببليوجرافية خالصة، كما أن المؤلف ابتكر فيها شكلاً خاصًا به، ولم تستقر عليه الدراسات التاريخية التى تقوم على أسس راسخة نتيجة خبرة تاريخية طويلة.

على أية حال، فإننى لا أريد أن أوجه القارئ العربـــى الكـــريم نحـــو موقف مسبق من الكتاب الذى أراه يستحق القراءة لأسباب كثيرة، ومن ناحية أخرى فإن الكتاب – على الرغم من حجمه الصغير نسبيا – كان رحلة غير مريحة فى جوانب متعددة حاول المؤلف سبر أغوارها ووفق أحيانـــا، ولـــم يوفق فى أحيان أخرى، فهل يجدنى القارئ موفقا فى الترجمة العربية. أرجو ذلك، والله والموفق والمستعان.

دكتور/ قاسم عبده قاسم

مدينة ٦ أكتوبر – ديسمبر ٢٠١١م

المؤرخ. ثرثرة على نطاق واسع

ـ أمبروزبييرس (١٩١١م)

المشكلة الحاسمة التي يجب علاجها هي: ما الذى يمكـــن أن تكون عليه فلسفة التاريخ الحقيقية؟.

ـ جاك ماريتين (١٩٥٧م)

فى جزء كبير تعتمد مزاعم المؤرخين بالجديـــة، والأصــالة والموضوعية، على قدرتهم فى إقناع أندادهم أنهـــم تجنبـــوا السفسطة والخداع والانجذاب إلى العواطف الـــتى تـــرتبط عادة بالبلاغة.

ـ هايدن هوايت (١٩٧٦م)

ولكننى يجب أن أكون واضحا لدى أولئـــك الـــذين قـــد تصدمهم خفة المناقشات وحماقتها من حيـــث إن مناقـــشتى ليست الأولى فى هذا الصدد، لكنها من النوع نفسه الـــذى كان كبار الكتاب يمارسونه غالبا.

إراسموس، فى مديح الحماقة (١٥٠٩)

مقدمة

كيف لنا أن نعرف ما حدث فى الماضى بالضبط؟ لا يمكننا أن نعود القهقرى فى رحاب الزمن، وحتى المؤرخين الذين يعدون بأنه فى وقت ما فى المستقبل سيكون المؤرخون قد جمعوا من الحقائق ما يكفى لفهم كيف كان الحال " آنذاك " بصورة يقينية مثل المؤرخ الألمانى فيلهلم دلتاى William Dilthey الذى اعترف أن " تفسير الروابط التاريخية... لا يمكن أن يبرر نفسه بواسطة براهين لا خلاف عليها إذا واجهت الشك التاريخى " أنى لنا أن نعرف أنك أصبت عين الصواب؟

فهل من الحماقة، إذن، أن نبحث فى التاريخ ونكتبه؟ وهل هى حماقة أكبر أن نقترح أصلا نظرية عن كيف أن التاريخ ممكن؟ لو كان ذلك كذلك، فإن لهذه الحماقة فوائدها. لقد كان ديسيديريوس إراسموس Desideriu Erasmus من روتردام، فى الأراضى الواطئة، واحدا من أكثر الرجال تعليما فى عصر النهضة. وقد قام بزيارة للعالم الإنجليزى توماس مور، الذى كان ندا لإراسموس فى ذكائه وفكره، وقد مكنته فطنته من تقدير قيمة السخرية اللطيفة عند إراسموس. وألف إراسموس مقالة باهرة بعنوان: " فى مديح الحماقة (In Praise of Folly (1509. وفيها سلخ العلماء البارزين الذين كانوا يتباهون بسعة علمهم مثلما يتباهون بأروابهم الأكاديمية. ولكنه يطلب العفو فى آخر هذا الدليل الحاد مثل شفرة الموسى على أساس أنه ليس بوسعنا معرفة الماضي، فقد استغل "الحرية التى كانت متاحة دائما للرجال ذوى الفطنة لكى يقوموا بتأملاتهم الذكية فى الأخطاء الشائعة للبشر".

من السهل أن نهدم فكرة المعرفة التاريخية من أساسها، ولكن من المستحيل تقويض أهمية المعرفة التاريخية. فمن ذا الذى يمكنه أن يعرف الماضى الذى انقضى إلى الأبد، ومن ذا الذى يستطيع أن يتجاهل الماضى الموجود معنا دائما؟ فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، صار التاريخ النقطة المحورية فى النضال الوطنى هنا وفى الخارج على السواء، وأصبح بمثابة نقطة مركزية فى حروب الثقافة المنتشرة شديدة التعصب. وقد تطابقت الانقسامات السياسية الأمريكية مع الانقسامات الثقافية حول الشذوذ الجنسي، والدين، والعلم، والحقوق التناسلية. وصارت كلمة ليبرالى liberal وكلمة محافظ conservative تعنى الموقف الذى يتخذه الشخص حيال الفن والتعليم والاقتصاد ودور الحكومة فى حياتنا. فقد صار الحرم الجامعى الذى كان ملاذا للخطاب المدنى يوما ما، معسكرات مسلحة لأن هيئة التدريس والإدارة والطلاب يجادلون حول خطاب الكراهية، والحرية الأكاديمية والفعل الإيجابي. وفى الأيام الأخيرة التى انتشر فيها العارفون بوسائل الاتصال الحديثة والمدونون المجهولون الذين يتبارون من أجل التاريخ، زادت قيمة امتلاك ناصية التاريخ فى الوقت نفسه الذى زادت ثقتنا فى التاريخ بوصفه طريقة لمعرفة فترات التدهور.

وهكذا، تطرح المعرفة التاريخية نوعا من التناقض – ذلك أنها كلما تطلبت المزيد، قلت إمكانية الاعتماد عليها. وربما يجب علينا فقط أن نتقبل التناقض القائل بأننا نحن المؤرخين لا يمكن أن نعرف ما نعلن أننا نعرفه. ومهما يكن الأمر، فإن التناقض مصدر بهجة للشخص المتعلم. إذ إنه يؤطر المزاج ويلهم التساؤل. ولهذا السبب حبذ جلبرت W. S. Gilbert مؤامرات الانقلاب رأسا على عقب – الألغاز المنطقية – فى أوبريتاته: مثل المنطقية اللامنطقية فى أوبريت The Mikado. ففيها يوضع كوكو فى السجن بسبب

تعديه الخطير فى عملية التصفية، وهى جريمة عقوبتها الموت، ولكنه يعـين فى منصب الجلاد الأكبر. ولكى يقوم بوظيفته، فلا بد له من أن يقطع رأسه هو أولا – وهو عمل لا يرغب فى القيام به حتى لـو كـان يمكنـه ذلـك. والتناقض يكمن فى لى الزمان والمكان بشكل لا منطقى – إنه عـالم غيـر حقيقى بالفعل ولكنه قريب جدا إلى عالمنا بحيث يمكننا فهمه وتقديره. شـأنه شأن التاريخ.

ولكى نوفق بين ما ينطوى عليه هذا التناقض – أن التاريخ مـستحيل ولكنه ضرورى – فإننى أقترح فلسفة تاريخ عملية تصلح لزماننا. والمشروع بمثابة حفل وداع جامعى بالنسبة لى. فإننى وأنا اقترب من نهايـة مـسيرتى النشطة فى التعليم، أجد أن الحكمة التى تلقيتها من أسـاتذتي، قـد تعـززت بتفاعلى مع ما يقرب من أربعة أجيال من الطلاب والـزملاء. وفـى هـذه المسيرة الزمنية، كنت أقوم، بشكل أو آخر، بتدريس " المناهج التاريخيـة " كما كتبت عن المناهج فى الكتب المدرسية وفى مقالات مطولـة. وقـد آن الأوان لكى أنسج الخيوط سويا فى ثوب واحد. وبطبيعة الحال لـيس هنـاك مقاس واحد يصلح للجميع، وتعكس الـصفحات التاليـة الآراء الشخـصية والنظرات السياسية التى لم يكن جميع القراء يشاركوننى فيها، ولن يستغرق الأمر وقتا طويلا عند الذين اكتسبوا الحساسية السياسية حتى يكتشفوا موقفى.

لقد استكشفت " الجانب المظلم " من الممارسة التاريخية فـى كتـابى الموسوم

(Past Imperfect: Facts, Fiction and Fraud in American History 2004)

وإننى لممتن لناشرى Public Affairs وكلايف بريدل Clive Priddle محرر كتبى فى دار النشر لأنهما سمحا لى باستخدام أجزاء من ذلك الكتـاب

مرة أخرى. وآمل أن تكمل المقالات كل منها الأخرى، وتفتح بـــاب الأمـــل لجيل جديد من المؤرخين وقراء التاريخ. سنة ١٩٨٨م أنهى بيتـــر نوفيـــك مقدمة كتابه The Noble Dream بقوله: "إن هدف الكتاب أن يستفز رفاقى من المؤرخين، ويحفزهم إلى مزيد من الوعى الذاتى بطبيعة عملنا " و"أن أقـــدم لأولئك الذين هم خارج المهنة التاريخية فهما أرحب لما نقوم به ". إنه هدف نبيل بالتأكيد. ويمكننى أن أضيف بتواضع أن هدف كتاب " تناقض المؤرخين أن يوسع مدى هذا المشروع.

أخيرا وليس آخرا، أريد أن أشكر الناس الذين تحلوا باللطف والكياسة بحيث تحملوا عبء قراءة المسودات الأولى لهذا الكتاب وعلقوا عليه- ستيفن آلن، وفيرلى تشيس، وهول، وديريك كريسوف، ومارلى وســرمان، وتـــوم هويجهام، وميشيل وينشيب، والحاضرين فى الدورة الدراسية لهيئة التدريس فى قسم التاريخ بجامعة جورجيا الذين قـــرأوا المقدمـــة والفـــصل الـــسابع وانتقدوهما. وقد رأى اثنان فى مطبعة جامعة نيويورك فى الكتاب قيمة بعـــد الانتهاء منه، وهما ديبورا جيرشنوفيتز، وهى زميلة مؤرخة ومحررة رئيسية فى المطبعة، وإيريك زينر رئيس المحررين بالمطبعة هو الذى شكل النسخة النهائية بحماسة وروح طيبة. وأشكر المدرسين الباحثين اللذان طلبت منهمـــا المطبعة تحكيم المخطوط وهما، بيتر أونوف وكلير بوتر، اللذين أدخلا على الكتاب تحسينا أساسيا بفضل تعليقاتهما. وقد نالتنى البركة لأن لدى شـــريكة حياة.وولدين يحبون التاريخ ويكتبون فيه، ولهم أهدى هذا الكتـــاب: نـــاتلى هول، ووليام جيمس هوفر، ولويس هوفر.

مقدمة

لماذا يكون التاريخ مستحيلا ولكنه ضرورى بالقدر نفسه؟

"إننى الآن وقد بلغت من الكبر عتيا يتحول الجانب الأكثر سحرا ليكون شيئا لا هو دراسة للتاريخ ولا هو التاريخ نفسه... وإنما هو دراسة تاريخ الدراسة التاريخية"

كارل بيكر ١٩٣٣

فى مرحلة باكرة من مسيرتى العملية فى تدريس التاريخ على مستوى الكلية، منذ ما يقرب من أربعين سنة، وجدت نفسى أحاضر وأكتب بثقة وإيجابية، عن شيء لم أستطع قط أن أعرفه حق المعرفة، محاولا أن أجعل تلاميذى وقرائى يقومون برحلة القهقرى إلى زمان ومكان لم أذهب أنا إليهما قط، وأطلب منهم أن يصدقوا ما قلته وما كتبته عن ذلك الزمان وذلك المكان. وكنت أعزز كتاباتى وتدريسى باقتباسات هائلة من علماء كبار كانوا بدورهم قد انشغلوا بهذه المهمة المستحيلة. ونحن نسمى هذه الممارسة التخيل التاريخى، كما لو أن هذه التسمية السحرية تجعلنا قادرين على تحقيق المهمة المستحيلة، وفى الوقت نفسه، كنت أعرف أنه إذا كانت رحلة القهقرى التى أقوم بها فى رحاب الزمان والمكان رحلة مستحيلة، فإنها مع هذا رحلة ضرورية، لأن السؤال يطرح نفسه: ماذا يكون الناس بلا تاريخ؟ إنهم غير موجودين؛ لأنه لا شعب بلا تاريخ. إن المؤرخين يعيدون ما هو ميت إلى

الحياة – ومن المؤكد أن هذا هو الأمر الأكثر استحالة بين جميع مساعينا، بيد أنه الأكثر إنسانية. فبدون التاريخ لا تكون هناك هوية لأى شعب، ولن يكون له حاضر ولا مستقبل.

ربما كان على أن أعرف بشكل أفضل. فمن ذا الذى يمتلك ناصية موضوع يتراجع فى غيبة الماضى بشكل دائم وأبدي؟ لقد كتب أوسكار هاندلين، فى تقدير أمين وجذاب أن مهمة التاريخ صنع الحياة، أى معرفة الماضى التى تشبه معرفة الطريق إلى قمة جبل ما: " نحن نعرف الآن أننا لن نصل القمة فى رحلة واحدة فقط، ولا يمكننا فى الواقع أن نتأكد من موقع القمة، أو حتى إذا ما كانت موجودة فى الحقيقة على الإطلاق، ولأن الوادى الذى نعيش فيه ليس مرتفعا بالقدر الذى يكفى للكشف عن تعقيدات سلاسل الجبال المحيطة بنا".

ولم تكن النظريات المسهبة عن التاريخ ومناهج البحث التاريخى التى ظهرت فى ستينيات القرن العشرين وما بعدها لتساعد فى هذا الصدد. كما أن استعارة نظريات العلم الاجتماعي، أو الوسائل الأدبية، لم تستطع أن توصلنا إلى اليقين، أو حتى تقدم لنا الوعد باليقين فى المعرفة التاريخية، وهو ما كان يسعى إليه هاندلين. وكما كتب آلين ميجيل Allen Migill فى مقدمة مقالته المعنونة.

(Historical Knowledge Historical Error 2007) ليس قصدى أن أقدم نظرية فى الكتابة التاريخية، لأننى لا أظن أنه يمكن طرح نظرية مفردة، سواء كانت عن الكتابة التاريخية عموما أو عن المعرفة التاريخية. وعلى أية حال، لا يمكن تقديم نظرية تحظى بقبول الجميع ". فماذا إذن؟

منذ قرن مضى كان المؤرخون – وجمهورهم – يواجهون مشكلة صغيرة حول مفهوم أن التاريخ ممكن. فقد كان علما. وقد حاضر المؤرخ

الفرنسى فوستل دى كولانج أمام زملائه فى سنة ١٨٦٢م قائلا: " التاريخ شيء أكبر من تمضية الوقت... إنه لا يبحث فقط لإرضاء فضولنا أو لسد الثغرات فى ذاكرتنا، فالتاريخ هو، ويجب أن يكون، علما ". وقد أوضح معاصره الألمانى ليوبولد فون رانكه الأمر بشكل أبسط عندما وجه طلابه إلى أن يحكوا عن الماضى " كما حدث بالضبط ". أما بيورى، الذى كان أستاذا للتاريخ بجامعة كمبردج، فقد علم تلاميذه بعد ذلك بأربعين سنة ما مؤداه " لم يعد تفضلا أن نصر على أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل ". لقد كانت المكتبة والسجلات بمثابة المعامل، وكان من الممكن استخدام الأدلة التاريخية التى تم اختبارها وتقديمها بموضوعية لإثبات الفروض المطروحة عن الماضى أو نفيها. والحقيقة أن أول غرفة خصصت للسيمنار فى جامعة هوبكنز سنة ١٨٨٠م كانت مصممة على شكل معمل.

استمرت اللهفة للوصول إلى الحقيقة، وحسبما كتب المؤرخ العملاق البريطانى إلتون فى كتابه (The Practice of History 1967) أن "ألفة المؤرخ الفطرية مع الأدلة ينتج عنها إحساس مفيد وضرورى يتعدى الحدود الصارمة للأدلة، بل إن التخمينات تحمل بصمة الحقيقة لأنها تناسب حقيقة الموقف ". أما المؤرخون المحترفون العارفون "فإن القاعدة التى يستندون إليها تقوم على فهم الخبراء لما يمكن أن يحدث، وما حدث بالفعل". ويمكننا أن نثق فى هذا لأن إلتون يؤكد لنا أن "مبادئ المؤرخين وممارساتهم فى مجال البحث التاريخي" سوف تأتى بالحقيقة.

ولكن مثل هذه المزاعم عن البحث التاريخى المنطقى والموضوعى، سواء كانت قائمة على المشابهة مع العلم أو الإيمان البسيط بالخبرة، لا يمكن أن تكتسى الجدارة بدون بعض الشك فى أنها كافية بحد ذاتها. وعلى أية حال، فإن هذه المزاعم تؤسس سلطة المؤرخ على شيء ليس أكبر من سلطة

المؤرخ. بيد أن المؤرخ شخص يعيش فى رحاب الزمان والمكان، وهو ليس مراقبا موضوعيا. بل إن المرء يمكن أن يترجم مقولة فون رانكه الشهيرة ليكون معناها أن المؤرخين " أرادوا " أن يبينوا الماضى كما حدث بالضبط، وليس أنهم استطاعوا تحقيق هذا. فما الذى حال دونهم وذلك؟ الحقيقة أن المؤرخ فاعل تاريخي، وحسبما قال كارل بيكر أمام الجمعية التاريخية فى سنة ١٩٣١م: " يجب إذن أن يكون واضحا أن معايشة التاريخ أى السلسلة المثالية من الحوادث التى نؤكد عليها ونحفظها فى الذاكرة، بما أنها وثيقة الصلة بما نفعله وما نأمل فى أن نفعله، لا يمكن أن تكون هى السلسلة نفسها بالنسبة للجميع فى الوقت نفسه، أو هى نفسها بالنسبة لجيل ما وجيل آخر غيره... إذ يخضع كل منا لحدود الزمان والمكان ". باختصار، إن " حقيقة الموقف " يمكن أن تكون من لدنا أكثر من ارتباطها بالأدلة والبراهين.

كان بيكر واحدا من النسبيين، وهو يخبرنا أننا جزء من التاريخ الذى نكتبه ونقوم بتدريسه. فلا يمكن أن ننزل باختياراتنا للموضوع، واختيار الأدلة وترتيبها، وتأكيداتنا وفروضنا الدقيقة، لأن تكون علما، فبالنسبة لتعليمنا والعالم من حولنا، يحكى لنا تاريخنا قصتنا الخاصة كما يحكى لنا قصص الأزمنة الماضية. إن كل رجل يكون مؤرخا فى كل مرة يقرأ فيها فواتير الكهرباء. وعلى أية حال، فإن الصيغة التى وضعها بيكر قاعدة لفلسفة التاريخ يشوبها الشك، مثل إيمان إلتون بالخبرة. ففى أغلب الأحيان لا يمكن أن نعول على أى رجل بوصفه قادرا على كشف الحقيقة أو على وزنها. ذلك أن آمال كل رجل ومخاوفه، وانحيازاته ومواطن العمى لديه، وتوقعاته، تشكل جميعا الكيفية التى يقرأ بها فاتورة الكهرباء والمشهد التمثيلى القصير الذى يحمل عنوان "الببغاء الميت dead parrot " وقدمه Python The Monty، ويواجه فيه صاحب محل حيوانات أليفة وطيور داجنة زبونا غامضا، يبين كيف يفكر كل رجل فى الحقائق باعتبار أنها فى صالحه:

الزبون: مرحبا، أريد أن أسجل شكوى... أريد أن أشكو بسبب هذا الببغاء الذى اشتريته منذ أقل من نصف ساعة مضت من هذا المحل نفسه.

صاحب المحل: آه، نعم أأ، الأزرق النرويجي... ما، ما... ما العيب فيه؟

الزبون: سأقول لك ما العيب فيه يا بني. إنه ميت، هذا هو العيب الذى فيه.

صاحب المحل: لا، لا... إنه يستريح.

الزبون: انظر يا صاحبي، إننى أعرف الببغاء الميت حين أراه، وأنا الآن أنظر إلى ببغاء ميت... اختبار، اختبار، اختبار هذا هو منبهك يدق الساعة التاسعة... والآن هذا ما أسميه ببغاء ميت.

صاحب المحل: لا، إنه دائخ.

الزبون: دائخ؟

صاحب المحل: نعم، أنت دوخته، عندما كان على وشك الاستيقاظ، إن الببغاوات النرويجية الزرقاء تدوخ بسهولة.

وإذا كان التاريخ ذاكرة كل امرئ، فليست هناك إذن طريقة لقياس إمكانية الاعتماد عليه. وبما أن الذاكرة عرضة للخطأ والاختراع، فهل ينبغى للتاريخ أن يكون كذلك؟ لقد تملص بيكر من مقولة " إن التاريخ الذى يكتبه المؤرخون، شأنه شأن التاريخ الذى يصوغ أسلوبه أى فرد، يكون خلطة توفيقية بين الحقيقة والخيال، وهو ما نميزه عادة على أنه " حقيقة " و"تفسير". وقد أوضح المؤرخ الثقافى هايدن هوايت المسألة بمزيد من الفظاظة. إذ يرى هوايت أن صناعة التاريخ تشبه الحيل التى يمارسها رجال الأدب على

جمهورهم طوال الوقت. والتاريخ دائما دعاية أو تحليق فى الخيال. لــك أن تتصور أن التاريخ كله كان " تصوريا ومجازيا "، أنَى له أن يكون شيئا آخر عدا ذلك عندما تكون معرفة الماضى نفسها تصويرا للكلام؟

لا يمكن أن نخلص إلى أن صنع التاريخ هو ذلك النوع من الحماقــة التى حذر منها إراسموس فى كتابه " مديح الحماقة "، وهم ذاتى ضار برهن دائما على أنه لا يمكن الاعتماد عليه، لأننــا نحتــاج التــاريخ – التــاريخ الصحيح، المفيد –احتياجا كبيرا للغاية. هذا هو تناقض المؤرخين. واقترح أن بوسعنا أن نضع نوعا من فلسفة التاريخ تكون فعالة وذات صــلة. وســوف أمزج فى هذا الكتاب بين الحكايات التاريخية، والقليل من الفلسفة الــشعبية، وبعض المبادئ المنطقية الأساسية لإنتاج خطة لمثل هذه الفلــسفة للتــاريخ. وهذه مواصفاتى لهذه الخطة: يجب أن تتوافق فلسفة التاريخ فى زماننا مــع خيال الناس العاديين، على حين لا تتخلى عن المتطلبات الصحيحة للتعمــق التحليلي، والعمق السردي، ويجب أن تبدى ترحيبا بــالغموض والــشجاعة، والحب. وينبغى أن تنطوى على شعور مناسب بالتواضع يعترف بــشرعية التناقض، والسخرية، وعدم اليقين، ويكون بها مكان للإيمان (على الرغم من أنه ليس بالضرورة أن يكون الإيمان بديانة منظمة). إنها خطــة طويلــة – ولكن انظر فى الفكرة التى تطرحها بعد الانتهاء منها.

إذا نجحنا، سوف تساعدنا فلسفة التاريخ التــى لــدينا علــى الفعــل، والقراءة، وعلى تدريس التاريخ بثقة، بيد أن تلك الثقة لن تــستقر علــى أى زعم هنا بوجود اليقين الفلسفي، وكما افتتح فيلسوف بارز مقالته الحديثة عن الموضوع: " إذا أخذنا فى اعتبارنا تعدد الأصوات داخل فلسفة التاريخ، فمن الصعب أن نجد مدخلا واحدا للحقل الذى يناســب هــذه المقاربــات كلهــا. والحقيقة أنه من قبيل التضليل أن نتصور أننا نشير إلى تراث فلسفى مفــرد

عندما نستنجد بعبارة " فلسفة التاريخ ". إذ إن خيوط البحث المحددة هنا نادرا ما يدخل كل منها فى حوار مع الآخر ". ونحن نقول آمين على هذا.

ولكن إذا لم يكن الفلاسفة قادرين على تحديد معنى مصطلحهم، فلماذا يجب على المؤرخين إعادة التفكير فى فلسفة التاريخ - أى فلسفة تاريخ هى؟ (بما فى ذلك المناقشات الواردة فى هذا الكتاب) - إن المؤرخين يختلفون بشأن ما يجب على الفلاسفة أن يقولوه عن التاريخ. وحسبما قال المؤرخ ريتشارد إيفانز ناعيا: " إن موضوع فلسفة التاريخ... نظرى للغاية، وبعيد تماما عن المشكلات الفعلية التى يجربها المؤرخون العاملون " بحيث إننا " لدينا ما كان يبدو حوار طرشان فى أغلب الأحوال ". بين المؤرخين والفلاسفة.

إجابتى أن فلسفة التاريخ مهمة جدا للمؤرخين بحيث لا يمكن تركها للفلاسفة. فكر فى المصطلح نفسه - الفلسفة معناها حب الحكمة، إذن يجب أن يكون معنى فلسفة التاريخ حب المعرفة التاريخية. فمن ذا الذى يحبها أكثر من المؤرخين؟ الحقيقة، كما قال المؤرخ تشارلز بيرد لسامعيه فى اجتماع للجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٣٣ م: " إن الفيلسوف الذى يمتلك القليل من المعرفة أو لا يعرف التاريخ على الإطلاق، يتظاهر أحيانا بأنه يكشف السر الداخلى للتاريخ، ولكن المؤرخ ينقلب عليه ويكشف سر الفيلسوف، بقدر ما يمكن للجميع كشفه، بأن يضعه فى علاقة مع حركة الأفكار والاهتمامات التى يقف فيها أو يطفو فوقها، بأن يضفى على مشروعه ما يناسبه من النسبية". وإذا كانت الفلسفة تنتمى إلى مجال التاريخ الفكري، فلا يمكن لفلسفة التاريخ أن تنتمى للفلسفة.

ولأننا لا نستطيع أن نعرف يقينا المعرفة التاريخية من الفلسفة فنحن لا نستطيع العودة إلى عصر التاريخ العلمى الذى كان عصر إرضاء الذات

ولدينا كل ما نحتاج إليه أى فلسفة التاريخ المتينة والواقعية التى تناسب زماننا. ويجب أن نتحدث إلى كل من ينضم إلى مشروعنا – أى نحن جميعا الذين نكتب التاريخ وندرسّه. وتعريف تلك الفلسفة هنا سيكون سابقا لأوانه؛ فهذا الكتاب برمته عبارة عن تعريف، ولكن ثمة نقطة بداية طيبة تتمثل فى الجهد الأخير لمارك بلوش، المؤرخ الفرنسى الذى عاش فى القرن العشرين لكى يشرح ما الذى كان يفعله ولماذا.

لم يكن هناك أحد أكثر شكا فى الفلسفات القديمة للتاريخ العلمى من مارك بلوش. وقد ولد سنة ١٨٨٦م فى " جيل دريفوس " الذى حذر اليهود المتعلمين من أنهم كانوا يلقون تسامحا بالكاد فى فرنسا فقط. ومع هذا كان بلوش يحب بلاده حبا جارفا، وكان متخصصا فى تاريخ العصور الوسطى، وكان هو المؤسس المشارك لمدرسة الحوليات Annales فى التاريخ الاجتماعي، كما كان مؤرخا محترفا صاحب إنجازات. ولكن بلوش لم يكن أكثر من كاتب ملطخ بالحبر. وكان بطلا نال الكثير من التقدير فى الحرب العالمية الأولى ومحاربا فى صفوف المقاومة فى الحرب العالمية الثانية، وقبض عليه النازيون فى سنة ١٩٤٤م وأعدموه. وحتى وهو يتفادى فرق الموت ويراوغهم لم يلق قلمه أبدا، وكان فى حافظة أوراقه عندما قبض عليه النازيون جزء من كتاب نشر فيما بعد تحت عنوان حرفة المؤرخ (The Historian's Craft 1953).

وقد سلم بلوش باستحالة التاريخ فى كتابه الموسوم " حرفة المؤرخ ". ذلك أن الزمن " استمرارية " يعرض " التغير المستمر ". وأساس حرفة المؤرخ أن يقفز فوق التغيرات، لكى يدخل عالم الماضى مرة أخرى. وهو لا يحتاج إلى فلسفة تاريخ لكى يفعل هذا. وقد اعترض بلوش على فكرة علم التاريخ: " الرأى عندى أن فكرة أن الماضى كما هو يمكن أن يكون هدف

العلم فكرة سخيفة ". وقد طرح كتاب " حرفة المؤرخ " بدلا من ذلك توصية للمؤرخ العامل، بأن التاريخ يتطلب منا الربط بين دراسة الموتى ودراسة الأحياء... أى دراسة ما هو أكثر شمولا وأقل حصرا، والأكثر شحنا بطاقة الذكريات الحافزة فى مسعى يتعدى حدود العمر ". فالتاريخ هو الجسر الذى الذى يجب أن نبنيه ليمتد من الماضى إلى الحاضر، أو على حد تعبير إدوارد كار فى كتابه What is History? 1962: " التاريخ حوار بلا نهاية بين الماضى والحاضر.

مرة أخرى، لماذا نحتاج إلى فلسفة تاريخ جديدة؟ أو لكى نتوخى الدقة، لماذا نحتاج إليها الآن؟ فى سنة ١٩٧٤م، عندما كان هناك الكثير من الاضطراب داخل مهنة التاريخ، كان هناك المؤرخون القدامى المعترضون على الاستعارة من نماذج العلم الاجتماعى والمناهج الكمية، والمحافظون الخائفون من أن يكون مؤرخو " اليسار الجديد " على وشك أن يهدموا البيت، وهم يتحدثون بصوت عال عن الخطأ الكامن فى التاريخ. ومن بين هؤلاء كان جاك بارزون، الذى كان واحدا يجسد نمطهم، وأعلن قلقه من أن " الملاحظة الإمبريقية تشير أيضا إلى أن التاريخ مريض، يلفظ أنفاسه الأخيرة، ميت. وسواء نظر المرء إلى الأعداد المسجلة فى مقررات التاريخ الدراسية أو اتجاه أقسام التاريخ أو نظر بشغف وهيام إلى الإحصائيين الجسورين، أو شعبية التاريخ المتدهورة بين عامة القراء... فمن الواضح أن مكانة التاريخ البارزة التى كانت فى القرن التاسع عشر لم تعد كما كانت. إذ إن الحس التاريخى لدى الجماهير الحديثة ضعيف أو لا وجود له ". بيد أن هذا النذير كان فى غير محله، حسبما برهنت الأحداث، فالتاريخ اليوم موضوع مزدهر، يقبل عليه المزيد والمزيد من الطلاب، وتصدر فيه المزيد والمزيد من الكتب، كما يحظى بشعبية أكثر من أى وقت مضى.

بيد أن أوقات الازدهار جلبت معها مشكلات فريدة فى بابها. فلم يعد من الواضح ما التاريخ الذى نكتبه وندرسه، وكيف لنا نحن الذين نكتبه وندرسه أن نتوافق مع استغلاله، هل يجب أن يكون التاريخ احتفالا بالرجال العظام وأفعالهم ليكون إلهاما وطنيا للأجيال الجديدة؟ هل ينبغى للتاريخ أن يذكرنا بالوعود التى قطعناها على أنفسنا وحنثنا فيها، أو لم نكن نقصد الوفاء بها، تجاه من هم الأضعف بيننا؟ هل للتاريخ أن يصير موضوعا فنيا للغاية بالنسبة لحفنة من الخبراء، ويكون مكتوبا بلغة لا يمكن لسواهم فهمها؟ هل للتاريخ أن يستسلم لمروجى البضائع الذين لا يعبأون باستشارة أحدث البحوث ويحكون القصص القديمة نفسها فى كتب ذات أغلفة جديدة؟

كيف يمكننا إذن أن نبنى جسرا إلى الماضى (إذا سلمنا بالانطلاق من أن "الجسر" تعبير مجازى عن المنهج) يربط المناهج السليمة بالأذواق الجديدة فى التاريخ؟ ونبدأ بفلسفة التاريخ لزماننا بمقولة إن التاريخ جدلى دائما، ومهما كانت فلسفة التاريخ الخاصة بنا، سواء كنا نفضل السرد أو التحليل، فإن الكتابة التاريخية المقنعة هى دائما كتابة جدلية. وأية فلسفة تاريخ تبدأ بهذه المقدمة المنطقية يجب أن تهتم، جزئيا على الأقل، بالمسائل المنطقية – وهو المطلب الذى يجعل الجدل التاريخى معقولا، وخاليا من المغالطة، ومدعوما بالأدلة المناسبة التى تصمد أمام النقد. وهكذا، بالمنطق والقرابة البلاغية نبدأ هذا الكتاب. نحن إذن نستكشف كيف أن فلسفة التاريخ بوصفها جدلا يمكن أن تصل إلى السؤال المثقل، والاصطناع الخيالي، والروابط الخفية التى نسميها السببية، وعندئذ يمكن أن نختبر الفلسفة فى الخطاب السياسي، وفى السوق، وفى مجالات الأدب والنقد اللغوي، وأخيرا، وربما الأكثر أهمية، نحن نزن فلسفتنا للتاريخ فى مقابل الزعم بأن القصد الأسمى لأى تاريخ هو الحكم الأخلاقي.

وكل من الفصول التالية عبارة عن مقالة قائمة بــذاتها تــدور حــول موضوع واحد، بيد أنها جميعا محطات فى طريق رحلة لمعرفة كيف يمكــن لفلسفة التاريخ لدى المؤرخين العاملين أن تساعدنا فى فهم الأسئلة الأساســية عن الحياة الإنسانية. وكل مقالة أصعب قليلا من سابقتها، لأن كلا منها مبنية على ما سبقها، وكل منها تقربنا قليلا إلى ذلك الشاطئ البعيد الــذى يغلفــه الضباب والذى نسميه الماضى. وعلى امتداد الطريق، ولتمــضية الوقــت، سوف نتشارك القصص لنرى ما الدروس التى يمكن أن نستخلصها منها. لقد علمنا إراسموس أن المزاج الإنسانى معلم عظيم، وسوف نتوقف فى رحلتنــا لكى نتعلم من أساتذة المزاح والفكاهة.

(١)

سيكون منطقيا أن نفترض...

يشعر المؤرخون أنهم فى أمان عندما يتعاملون مع الحقائق. نحن نتحدث عن "الحقائق الثابتة "وعن" الحقائق الباردة "وعن" ألا نكون قادرين على الوصول إلى الحقائق "وعن ضرورة بناء سردنا على" أساس سليم من الحقيقة ".. ولكن الحقيقة البسيطة تنقلب لتكون حقيقة غير بسيطة بالمرة، ولكن... تعميم بسيط لألف حقيقة وحقيقة... بيان... تأكيد... جدل.

كارل بيكر (١٩٢٦ م)

"الحقائق فقط"، هذا ما قاله محقق الشرطة السيرجنت جوى فرايداى للشهود. بيد أن الشهود تركوا الملاحظات الرئيسية، وأخطأوا الوجوه، وأعطوا للانطباعات العابرة وزن الحقائق. وكان على المحققين أن يستخرجوا الشظايا والقطع ويقوموا بتجميعها فى قضية واهية. لقد كانت رواية " الشبكة " خيالا، لأن الشرطة فيها كانت تمسك دائما بالرجل المطلوب، فهل سيكون المؤرخون محظوظين بالقدر نفسه، إذ إننا جميعا محققين، بيد أن مفاتيح القضية عندنا لها طريقتها فى الاختفاء أمام ناظرينا.

إذ ما الحقيقة التاريخية؟ كما تكشف بربارة شابيرو فى كتابها

(Culture of Fact: England 1550- 1720 2000)

عن مفهوم الحقيقة التاريخية، فتقول إنها بيان حقيقى عن الماضي الجدير بالتصديق، وهى نفسها تطور تاريخي. وبالتدريج فقط أدان المؤرخون فى بواكير العصر الحديث الخيال، والأسطورة، والسلفية والبلاغة، وحبذوا عدم الانحياز، ووزن الأدلة، والخبرة البحثية.

عند نهاية القرن التاسع عشر، كان بوسع المؤرخين أن يفخروا بمجالهم ويزهوا بإنجازاتهم بوصفهم أساتذة الحقيقة الراسخة. وعلى حد تعبير جيمس فورد رودس أمام الجمعية التاريخية الأمريكية فى سنة ١٨٩٩م: " هل كان هناك من قبل مثل هذا الوقت المواتى لكتابة التاريخ طوال السنوات الأربعين الماضية؟ لقد انتشر الحس التاريخى بين العموم. وتحسنت مناهج تدريس التاريخ بحيث يمكن أن نسميها مناهج علمية. بل إننا نتحدث عن الممارسة فى المعمل مثل عالم الكيمياء وعالم الفيزياء ". لقد اعتبر الرجال من أمثال رودس الحقائق الواردة فى رواياتهم حقائق ثابتة راسخة تبدأ بها أية رواية تاريخية عن الماضي. إذ كانت الوثائق، والخطابات، واليوميات، والأعمال الفنية، والصحف، وغيرها مما نجا من عوادى الماضي، مصدر هذه الحقائق، ومن مجموعها بنى المؤرخون سردياتهم، يقول رودس مرة أخرى: "إن السجايا الضرورية لأى مؤرخ هى المثابرة، والدقة، وحب الحقيقة، وعدم التحيز والاستيعاب الكامل لمادته بالاختيار الحذر والتأمل وقتا طويلا". ولو أن هناك مثل هذه الحقائق الراسخة، لأمكن للمؤرخ أن يشيد منها روايات كاملة. إنها ستصل إلى الحقيقة مباشرة على الدوام. ولن يكون التاريخ ممكنا فحسب، وإنما سيكون سهلا.

ولكن حتى عندما أسس هذا الجيل الأول روابطه المهنية، وسعى إلى حفظ مجموعات الوثائق، وقدم لطلاب الجامعة العاديين وطلاب الدكتوراه التوجيهات والإرشادات التى نتج عنها جيل جديد من المؤرخين، تعرض مفهوم عدم الحط من قيمة الحقائق التاريخية للنقد. إذ إن الباحثين الأصغر سنا، الذين افتتنوا بكل العلوم الاجتماعية التى كانت تبزغ إلى جانب علم التاريخ، كانوا يتساءلون: هل يمكن للتحكم فى الحقائق المنفردة أن يفسر تماما روح عصر ما؟ وهل يمكن للمؤرخ أن يضع من الحقائق ما يكفى لتغطية كل تنويعات الفعل والفاعلين؟ لقد اتفقوا على أن الحقائق ليست قوالب من الطوب، أو أية مواد بناء أخرى، فى متناول اليد، لأن المرء يمكن دائما أن يتساءل عن المصادر وعما إذا كانت أمينة وحقيقية ويمكن الاعتماد عليها.

لقد ابتعد جيمس هارفى روبنسون بهذه الفكرة التقدمية عن اليقينية عندما قال لجمهوره فى الاجتماع السنوى للجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٢٩م: " لقد قمنا باكتشاف جوهرى للغاية، التمييز بين المصادر الأولية والمصادر الثانوية. لقد استنشقنا الأريج العطر لروايات شهود العيان والوثائق الأصلية والرواية الرسمية. لقد وصلنا أخيرا إلى قاع الأشياء... ولكن بينما ننظر خلفنا عبر ثلاثين سنة مضت، نجد أن المؤرخين ربما كانوا أكثر تحذلقا والتزاما بالدفاع. إنهم الآن متواضعون تماما " لقد صار التحليل، بدلا من السرد، الشغل الشاغل بالنسبة للمؤرخين.

ولعب التاريخ نفسه دورا فى تحفيز الشك المتزايد لدى المؤرخين بشأن الحقائق. ففى الحرب العالمية الأولى، انضم مؤرخون أمريكيون بارزون إلى القوات المسلحة فى لجنة للإعلام العام لكى يلووا عنق الماضى ويشكلوه بحيث يتواءم مع مع إسهامنا فى الحرب ضد ألمانيا. وكان رئيس هذه اللجنة صحفيا هو جورج كريل الذى تذكر فى سنة ١٩٢٠م " أن هدفها كان غرس إيمان

عاطفى بعدالة القضية الأمريكية التى كان هدفها أن يلتحم الشعب الأمريكى فى كتلة بيضاء ساخنة تميزها الأخوة والإخلاص والشجاعة والعزم الذى لا يخبو" وبعد الحرب، تساءل المؤرخون إذا ما كانوا ضحية مكر وخداع من جانب حكومتهم فى توجههم الأسمى باعتبارهم باحثين. فقد صارت المناهج الدراسية التاريخية أشد فى نقد الذات. بل إن الوثائق القانونية باتت تخضع لنظرة ثانية ونظرة ثالثة. فهل كان كاتبو المسودات على علم بما يجرى؟ وهل أفسد انحيازهم فهمهم للأحداث، أم كان هذا الانحياز سببا للكذب؟

لقد صارت الحقيقة الراسخة محل جدل صغير تم بناؤه من قطع صغيرة من الأدلة التى انتقاها المؤرخون ورتبوها. لقد كان الاختيار والترتيب، والتأكيد والجدل من عمل المؤرخين، وليس من عمل الوثائق. وسواء كان التاريخ قصة، أو تحليلا، أو تأليفا فقد كان أبعد عن أن يكون"ما حدث بالضبط "، وصار ما يظن المؤرخون أنه قد حدث. لقد أصبحت رواية المؤرخ مجادلة كبيرة تقوم على أساس عدد من المجادلات الصغيرة.

هل تكون العقلانية سبيل الإنقاذ؟

إذا ما وضعنا فى اعتبارنا أننا لا نستطيع بعد الآن أن نقنع بأننا مجرد بنائين فكريين يرصون قوالب الطوب الفكري؛ نضع حقيقة فوق حقيقة ونحشو الفجوات باقتباسات من الصادر الأولية التى تتحدث عن نفسها، فهل يمكن للمؤرخين أن يستجيبوا إزاء الحالة المعضلة بزعم أن السببية عندهم تربط الماضى بالحاضر؟ أم أن للتاريخ نفسه أسبابه التى يمكن للمؤرخ العقلانى أن يكتشفها؟ إن معظم الباحثين فى التاريخ يتشاطرون الإيمان بأن العقلانية فى الجدل أمر طيب فى حد ذاته. وتبدو فلسفة التاريخ، التى تتخذ من قوة التعليل لدى المؤرخ أساسا لها، أمرا معقولا للغاية.

هذا الإيمان بالعقلانية له جذوره فى الثقافة الغربية، بداية من أفلاطون نفسه، بل إن أسرار الروح المرواغة يمكن أن – حقا يمكن فقط – تتكشف بالعقل. وحسبما قال سقراط عن الروح فى نهاية " جمهورية أفلاطون ": إن خلودها يتجلى من خلال المجادلة السابقة، وهناك براهين أخرى كثيرة، ولكن أن تبدو الروح على حقيقتها وليس كما نتخيلها نحن، أمر يفسده الاتصال بالجسد وغيره من عوامل البؤس، يجب أن نتأملها بعيون العقل فى نقائها الأصلى وبعدها سيتكشف جمالها وعدالتها كما أن كل الأشياء التى وصفناها سوف تتجلى بقدر أكبر من الوضوح ".

وليس التاريخ فى حال من الارتقاء الدائم. فقد كان سقراط الحقيقى أبعد كثيرا عن أن ينال إعجاب رفاقه من شخصيات الحوار: إذ كان مزعجا لجيرانه، لا يبالى بما عليه من التزامات منزلية، وزئر نساء، مثيرا للحرب طلبا للغنائم والأسلاب. وكان كلما زاد فى خطبه الحماسية التى يلقيها على رفاقه الآثينيين، زاد غضبهم. وعندما حوكم بتهمة الخيانة، قال لهم بوقاحة إن عليهم أن يبرئوه. وعندما أدين وطلب منه مغادرة المدينة، ساقه منطقه إلى الانتحار بدلا من ذلك. فقد أدى به الاستدلال المنطقى الجامد إلى أن يموت ميتة بلا جدارة.

ولكن كما يذكرنا تشارلز بيرد، فإن التعليل ليس عنصرا سائدا فى التاريخ، مثل الصياغات الواردة فى "جمهورية أفلاطون ". وإنما العقل بناء ثقافي، ونتاج جانبى للرغبة والأدب الإنساني. ولا غرو، إذن، أن حبنا للعقل له تاريخ، وأن التاريخ ملهم شأنه شأن التجربة. والأسوأ من هذا، رغم أنه لم يكن فى حسبان المؤرخين، أن مفهوم العقل نفسه حافل بالتناقضات.

وقد كتب أرسطو أول مقالة رسمية عن استخدام السببية فى وقت ما حول سنة ٣٥٠ ق. م. وعلى الرغم من أنه معروف أكثر بأنه كتب فى

السياسة والشعر، فإن كتبه الستة عن الأورجانون (مبادئ البحث العلمــي) اقترحت سلسلة من المصطلحات وقوانين المنطق ما تزال مستخدمة. كما أنه المبتكر الأصلي لمصطلحات الاستنباط والاستقراء. وقانونه الأول هو قانون الهوية: أن A هي دائما A. فليس ثمــة مكــان للتذبــذب، وليــست هنـــاك مصطلحات متحولة في غمار المجادلة. وقانون أرسطو الثاني هــو قــانون التناقض: A ليست أبدا غير A.

هذه المجموعة البسيطة من الناحية الحدسية تدخل في نطاق المتاعــب عندما تصير A مركبة ومحملة بالقيمة: وبعبارة أخرى، عندما يصير الرمز المجرد شيئا حيا في عالم الأشياء الحقيقية الذي يحكمه التنافس غالبا. ويجب على المؤرخين أن يختاروا الكلمات لوصف الأشياء. هــذا الاختيــار لــيس اعتباطيا ولا يمليه أي من قوانين المنطق. فمتى يكــون الــشخص الــوطني متمردا؟ عشية اندلاع الثورة الأمريكية، كــان المتمــردون (أو الوطنيــون) يسمون الموالين حزب التوري Tories ويشيرون إلى أنفسهم باســم حــزب الهويج Whigs(*) وقد استخدم هذان المصطلحان من قبل في إنجلترا القــرن السابع عشر. إذ كان التوري مدافعا عن سلطة الملوك المطلقة حسبما يقــول الهويج، كما كان الهويج متمردا حسبما يقــول التــوري. وعنــدما يختــار المؤرخون بين هذين المصطلحين لوصف أي من الجانبين المضادين في سنة ١٧٧٥م، فإنهم بذلك ينضمون إلى الجدل بدلا من الوقوف فوقــه. ونكــرر،

(*) التوري Tory اسم كان يطلق على عضو حزب سياسي محافظ مؤيد للتاج البريطاني، معاد للإصلاح والتغيير (حزب المحافظين اليوم)، وقد انتقل المــصطلح فــي أيــام الثورة الأمريكية ليطلق على الذين يؤيدون حكومة الاستعمار البريطاني الذي كــان يسيطر على الولايات الثلاث عشرة عشية الحرب الأمريكية قبــل الاســتقلال. أمــا الهويج Whig فكان الاسم الذي يدل على أعضاء حزب الإصــلاح والتغييــر فــي بريطانيا (حزب الأحرار فيما بعد) وقد أطلق بالتبعيــة علــى الثــوار الأمــريكيين (المترجم) .

يعرف المؤرخون أن الكلمات فى البيانات التى يدلون بها، تماما مثل الكلمات التى كانت ترد فى البيانات التى كان الناس يدلون بها فى الماضى، لا تعتمد فى معناها على منطق البيان نفسه، وإنما تعتمد على المعانى التى يضفيها الناس الحقيقيون فى الزمن الحقيقى على الكلمات.

كان ثالث قوانين أرسطو هو قانون الوسط المستبعد: A إما حقيقى وإما مزيف: ولا يمكن الجمع بين الاثنين. وفى قصة Fiddle on the Roof الحافلة بالإثارة الغنية عن الحياة اليهودية فى روسيا سنحت الفرصة لتيفاى بائع الحليب للموافقة على شيء ما يقوله أحد أقاربه. وقد ناقض زبون ثان ما قاله الزبون الأول، فوافق تيفاى الرجل الثاني، وعندما يقول رجل ثالث لتيفاى إنه لا يمكن أن يكون كل من الزبونين على حق فى الوقت نفسه، يتفق معه تيفاى أيضا. إن الحياة الحقيقية فى قرية ريفية حوالى سنة ١٩٠٥م تدحض القانون الأخير من قوانين أرسطو الشهيرة.

أو هل تدحضها؟ وتلتوى A داخل اللغز: فقد كان تيفاي، الذى كان شخصية خيالية من خلق شالوم أليشيم، فى مكان خيالى كان يبدو حقيقيا بالنسبة للجمهور الأمريكى مثل أية قصة شعبية مكتوبة بلغة اليديش. ولكن الحقيقة كانت مختلفة قليلا. فقد كان اسم شالوم أليشيم عبارة عن كلمة عبرية معناها " السلام عليكم "؛ وهو الاسم المستعار لشالوم رابينوفيتز، وهو باحث يهودى وكاتب روسي. وعندما نشرت القصة القصيرة " تيفاى وبناته " كان قد انتقل بالفعل إلى الولايات المتحدة. وكانت الأعراف الأدبية، لا الذاكرة الشعبية، هى التى توجه قلمه. فما هو الدرس؟ إن العقل ينحنى بفعل جذب الثقافة مثلما ينحنى الضوء عندما يمرُ من خلال الماء.

وهكذا، لا غرابة أن نعلم أنه فيما بين عصر أرسطو والعصر الحديث، كانت للعقل ومنطقه المصطنع تقلباته صعودا وهبوطا. ويكشف تاريخ المنطق

أنه كان متضمنا فى المقررات الدراسية بجامعات العصور الوسطى. ولم تتبدد كتابات أرسطو فى العصور المظلمة من التاريخ الأوربى هباء، بخلاف مؤلفات كتاب كلاسيكيين آخرين، وقد اعتمد الفلاسفة على أفكار أرسطو للدفاع عن حياة العقل ووجود الرب. وفى الوقت نفسه، جادل الفلاسفة المدرسيون بلا طائل حول ما إذا كان المنطق مصطنعا أو مرتبطا بالحقيقة بالضبط.

بالنسبة للاهوتيين – الفلاسفة، من أمثال الدومينيكانى توماس أكويناس (توما الأكوينى)، كان القصد الكلى للعقل أن يبرهن على وجود الرب. وكان لدى أكويناس برهان استنباطى بسيط على وجود الرب فى كتابه المسمى (Summa Theologica 1273): "فعلى الرغم من أن المعرفة الكاملة بالسبب لا يمكن تحصيلها من النتائج غير الكافية، فإنه يتبدى لنا من أى نتيجة أن السبب موجود بالفعل، حسبما قيل. وهكذا يمكن البرهنة على وجود الرب من أعماله، على الرغم من أننا لا يمكن بهذه الطريقة أن نعرفه معرفة تامة تتوافق مع جوهره " كان التفكير المنطقى عند أكويناس مؤداه أن العالم من حوله (ومن حولنا) يجب أن يكون النتيجة الناتجة عن أسباب بعينها، لأن لكل المسببات أسبابها. وإذا ما استطعنا اقتفاء الخط عودة إلى السبب الأول (العلة الأولى)، لأمكننا الحصول على برهان من الرب، إذ ماذا يمكن أن تكون العلة الأولى غير هذا.

مثل هذه " الأسباب النهائية "، حسبما كانتسمى آنذاك، تضع التاريخ فى نموذج طولى مرتب للغاية: الخليقة، الزمن على الأرض، ويوم الدينونة. كان هذا نموذجا منطقيا، عقلانيا، إجباريا، بيد أنه لم يكن كذلك بالنسبة لتوماس باينى. إذ جاء فى كتابه (Age of Reason 1795) " إن أكبر الشرور إثارة للكراهية، وأشد ضروب القسوة هولا، وأفظع حالات البؤس، التى لحقت

بالجنس البشرى، تضرب بجذورها فيما يسمى الوحي، أو الديانة السماوية. فقد كانت أحط ضروب العقائد ضد الألوهية، وأكثرها تحطيما للأخلاق، ولسلام الإنسان وسعادته، التى استشرت منذ بداية الوجود الإنسانى ". كان هذا تلخيصا للتاريخ يختلف تماما عن الملخص الذى وضعه توماس أكويناس وكان بالغ القسوة على المذهب الكاثوليكي. ولكن باينى كان يؤمن آنذاك بالحقوق العالمية والمساواة بين الرجال والنساء وهى مفاهيم لا أصل لها فى تاريخ الديانة الكاثوليكية، وإنما فى تاريخ الثورة الإنجليزية والثورة الأمريكية الأحدث زمنا.

وإذا ما نحينا الصورة التى وضعها باينى جانبا، فقد عدل المؤرخون اللاحقون عنوانه لكى يصف امتداح العقل الذى كان روحيا تطهريا بدرجة ما فى مؤلفات فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر. وكان الفيلسوف البارز بين هؤلاء المفكرين هو رينيه ديكارت، الفيلسوف الفرنسى وعالم الرياضيات الذى باتت مقولته " أنا أفكر، إذن أنا موجود " ترنيمة الرجل العقلاني، وفى كتابه Discourse on Mind الصادر سنة ١٦٣٣م كتب ديكارت عن القواعد الثلاث التى وضعها للتفكير الصافي، وهى تبدو موجهة للمؤرخين مباشرة:

" إننى لا أتقبل شيئا قط على أنه حقيقة ما لم أعرف بوضوح أنه كذلك بالفعل، ومعنى هذا أن أتجنب بحرص الاندفاع والانحياز، وألا أضع فى آرائى شيئا ما لا يطرح نفسه على عقلى بقدر من الوضوح والتمايز يمنعنى من الشك فيه... كما أننى أقسم كل صعوبة من الصعوبات التى ينبغى على فحصها إلى أجزاء كثيرة قدر الإمكان وحسبما يتطلب الشكل الأفضل لحلها... وأوجه أفكارى فى نظام بحيث أبدأ بأبسط الأهداف، وأسهلها فى معرفتها، بحيث أصعد رويدا رويدا كما لو كنت أسير بخطوات وئيدة نحو المعرفة الأكثر تعقيدا ".

يمكن للمرء أن ينظر كثيرا ولا يجد تقديما للجدل التاريخي أفضل من اعتباره تعليلا عمليا، ولكن عندما طبق ديكارت نفسه القواعد التي وضعها، فإنها عرضت نفسها في الثوب المناسب لزمانه، لا لزماننا. وبعبارة أخرى، فإن ما تتم قراءته معزولا باعتباره تعليلا سليما بالنسبة للمؤرخين، يتحول في سياق بقية الكلمات إلى تبرير للعقيدة التقليدية. فقد كان الواجب، مثلا، أن يكون أصل الفكر هو الرب ذلك أننا: " عندما نتأمل فكرة الرب التي ولدنا بها، نرى أنه خالد، عليم بكل شيء، قادر على كل شيء، وهو مصدر كل الخير والحق، خالق كل شيء، وأخيرا فهو المالك في ذاته لكل شيء ". وبما أن ديكارت لديه العقل فلا بد أن يجد الرب. إن المفهوم العقلاني للذهن قد أدى مباشرة إلى العودة لتوماس أكويناس. ومن سوء حظ المؤرخين في العصر الحديث، مع رغبتهم في توظيف ديكارت، أن منطق التاريخ يستند على فكرة أن الرب يبدو بعيد المنال قليلا.

أما مفكر إنجلترا جون لوك فلم يكن مؤرخا، ولكنه مثل ديكارت قدم ما يبدو في التجريد معادلة صالحة للسببية التاريخية. وعنده أن التجربة والعقل يعملان سويا. وكما كتب في (١٩٦٠) Essay Concerning Human Understanding" يعتمد الجزء الأكبر من معرفتنا على الاستنباطات والأفكار الوسيطة. وفي تلك الحالات التي نحبذ فيها وضع التوافق محل المعرفة، ونأخذ الفروض على أنها حقيقة، دون أن نكون متأكدين أنها كذلك بالفعل، إنما نكون بحاجة إلى أن نكتشف، ونفحص، ونقارن الأرضية التي تقوم عليها الاحتمالات. وفي كل من هاتين الحالتين، فإن القدرة على إيجاد الوسيلة، وتطبيقها بشكل سليم، لكي نكتشف اليقين في إحداها، والإمكانية في الأخرى، هي ما نسميه العقل. ذلك أنه بما أن العقل يستوعب بالمثل الرابطة الضرورية التي لا يشوبها الشك بين كل الأفكار والبراهين وتربطها ببعضها

البعض، فى كل خطوة من خطوات إنتاج المعرفة؛ فإنه يستوعب بالمثل الرابطة المحتملة التى قد تربط الأفكار والبراهين كلها الواحدة بالأخرى ".

كانت نظرية لوك المعرفية نظرية تتسرب إلى الخلايا – أى إننا نربط فكرة ما بما يليها. ذلك أن الاتساق والتناسب يقاس بقدرتنا على التعليل. وتؤكد لنا مجددا أن ما نشعر به فى العالم من حولنا إنما هو تقديم حقيقى لهذا العالم. ويستخدم المؤرخون المفهوم نفسه لكى ينتقلوا من حادث إلى الحادث الذى يليه فى السرد، أو ينتقلون من نقطة إلى النقطة التالية لها فى تحليلهم. ولكن ليس هناك فى تأكيد لوك على وجود ملكة التعليل فى كل منا ما يبرهن على أن هناك مثل هذه الملكة.

وقد كتب لوك فى رحاب أول عصر عظيم للعلم فى أوربا الغربية، عندما أسست إنجلترا وفرنسا أكاديميات ملكية لكى ترعى البحث العلمى والتجربة. إذ كان هناك إيمان بالمنهج العلمى يرقى إلى مستوى الإيمان بالعقل، كما كانت الاستدلالات المنطقية من التجارب العلمية بالنسبة للوك " براهين على كل منها الآخر فى كل خطوة من خطوات العرض العلمى " وقد تمكنت الدراسات التاريخية التى استلهمت أفكار لوك من تحرير نفسها من أصفاد المذهب الدينى لتؤكد على العنصر الإنسانى فى الأحداث. وكان الطريق مفتوحاً أمام عصر جديد من الكتابة التاريخية كان المؤرخون غير العاطفيين يؤكدون فيه على الأفعال الإنسانية والدوافع الإنسانية وقوانين التاريخ الراسخة. وهى الطريقة نفسها التى كان إسحق نيوتن قد اكتشف بها قوانين الجاذبية والحركة التى لا تقبل الشك. ولكن إيمان لوك بالعقل كان إيمانا بالأشباح. إذ ما هو العقل بعيدا عن وظائف المخ البشري؟ هل يطفو فى مادة أثيرية داخل كل مخ؟ ومن ذا الذى رآه من قبل؟ وقاسه؟ ولكى نقول للمؤرخين أن يستخدموا قوة العقل لديهم على طريقة لوك يعنى أننا نطلب

منهم ببساطة أن يفكروا فى عملهم؛ وهو أمر غامض بحيث لا يصلح جزءا من فلسفة التاريخ.

كــان كتــاب إدوارد جيبــون Decline and Fall of the Roman Empire1776-1788) خلاصة التواريخ العقلانية. إذ إن جيبون كان يـشاطر لوك الاعتقاد بأن التاريخ محكوم بالعقل، وأن العقل الإنسانى يمكن أن يميــز بوضوح الأسباب التى تكشف عنها الأحداث. أما تفسيره لدور الــدين فـــى سقوط الإمبراطورية الرومانية فهو تفسير كلاسيكى (اتباعي) :

"بما أن السعادة فى الحياة الأخرى هى الهدف العظيم للدين، فقد نسمع دونما دهشة أو إحساس بالفضيحة، أن تقديم المسيحية، أو إســاءة اســتغلال المسيحية على الأقل، كان له بعض الأثر على اضــمحلال الإمبراطوريــة الرومانية وسقوطها. فقد نجح بعض القساوسة فى التبشير بمــذاهب الــصبر والتخاذل؛ وتم تثبيط الفضائل النشطة فى المجتمع؛ ودفنت البقايا الأخيرة من الروح العسكرية فى رواق أحد الأديــرة... ذلــك أن الإيمــان، والغيــرة، والفضول، والعواطف الأكثر دنيوية من الطموح، هى التى أججــت شــعلة الخلاف اللاهوتى؛ وكانت الكنيسة، بل والدولة، مشتتة بفعل الفرقاء الدينيين، الذين كانت صراعاتهم دموية أحيانا، ولدودة دائما".

لقد ظن جيبون أن هذا المنعطف الذى اتخذته الأحداث مفيد فى زمانه "إن واجب الشخص الوطنى أن يفضل مجد بلاده ويرقى اهتمامه الحــصرى بهذا المجد: ولكن ربما يكون مسموحا للفيلسوف أن يوســع نطــاق آرائــه" و"التأملات نفسها سوف توضح أسباب سقوط هذه الإمبراطورية العظيمــة، وسوف تفسر الأسباب المحتملة لأمننا حقا." والواقع أن جيبون كــان يطبــق مفهوم لوك عن قوى التعليل العقلى لدى المؤرخ لكى يكشف ما حــدث فـــى الماضى ويفسره. لقد كان العقلانيون يفهمون أن التاريخ يقدم دروسا مفتوحة فى البحث العقلاني.

ولكن، ماذا لو أن الدروس لم تطبق، أو طبقت بطريقة مختلفة تماما لدى كل مجموعة من مجموعات المؤرخين المختلفة؟ كان هذا بالضبط ما حدث سنة ١٧٧٦م أول سنة ينشر فيها جيبون تاريخه. كانت إنجلترا تمتلك إمبراطورية احتفى بها جيبون، ولكن الدروس التى كان لجيبون أن يعيها من اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ويطبقها على أملاك إنجلترا الشاسعة لم تنجح فى تفادى الاستقلال الأمريكى وأخفقت فى تفسيره. وبدلا من ذلك رأى الثوريون الأمريكيون من أمثال دافيد رامزى، وميرسى أوتيس وارين، وجون مارشال فى تاريخ العلاقات الأنجلو - أمريكية قبل سنة ١٧٧٦م نوعا آخر من الحتمية. وحسب قول جورج واشنطن الذى اقتبسه مارشال ووافق عليه: " إن الخسارة المؤكدة والمطلقة لحرياتنا، سوف تنتج عن الطاعة والإذعان للمراسيم البرلمانية. ولن ينقذ الحرية الأمريكية سوى المقاومة الرجولية وحدها، والجهد البطولى فقط. وهذا ما حدث فعلا. لقد برهن التاريخ على أن الأمة الجديدة تختلف عن أية أمة أخرى وجدت من قبل - وهو افتراض ينطوى هلى مديح الذات كما يحمل تناقضا دالا فى الوقت نفسه. ولو أن قوانين التاريخ هى هى نفسها فى كل مكان وكانت (حسبما يرى لوك وجيبون) مفتوحة أمام البحث الإنساني، لكانت جميع الأمم خاضعة لها، بما فى ذلك الولايات المتحدة. فكيف أمكن أن تكون فريدة؟

فى الوقت نفسه عندما كتب المدافعون الأمريكيون عن الثورة حول حتمية الاستقلال، وصلاحية الجهود البطولية التى بذلت من أجل تحقيقه، استنتج المؤرخون غير الموالين للثورة الأمريكية أن التمرد كان نتيجة سلسلة من الحماقات المدهشة على الجانب البريطانى ومؤامرة من المهيجين الغوغائيين الذين لا ضمير لهم على الجانب الأمريكى - وهو ما لا يصلح دليلا على أن التاريخ أملى انتصار الثوريين. وقد كتب بيتر أوليفر، كبير

قضاة المحكمة العليا فى ماساشوستس والذى كان لاجئا مواليا فـــى إنجلتـــرا آنذاك، روايته الخاصة لما جرى فى كتاب يحمل عنوان:

(Origins and Progress of the American Rebellion، 1781) وكانت فقراته الختامية تعارض ما كتبه مارشال معارضة النقيض للنقيض. فبالنسبة "لوقاحة" المتمردين الذى نشروا هذا القدر الكبير من الحقائق المزيفة علـــى العالم " قد حزلت أمريكا، وتاريخها رأسا على عقب. " بلد جميل... يفــيض باللبن والعسل، قد انقلب إلى برية جرداء عليها بصمات ويـــلات الحـــرب، والمجاعة والوباء ". لقد أدت الأحداث التاريخية نفسها إلى روايات تاريخيـــة تختلف اختلافا شديدا، وهو نتاج لا يرجح أن يعزز الإيمـــان الـــساذج فـــى عقلانية التاريخ أو المؤرخين الذين يكتبون فى ذلك الموضوع

وقد تناولت أعظم مقالة كتبها جورج هيجل فى المنطق فـــى بـــدايات القرن التاسع عشر تلك المشكلة، وقـــد كانـــت بعنـــوان: Science of Logic 1816 -1812. فهم هيجل أن التناقضات مـــن الـــصفات الملازمـــة لطبيعـــة التاريخ. إذ إن الكائن المحدد متناقض بالفطرة. " الكينونـــة المباشـــرة غيـــر المحددة، هى فى حقيقتها شيء ولا تزيد عن لا شيء... وما هو فى حقيقته لا هو وجود ولا هو لا شيء. ولكن له كينونـــة – لا تمـــرُ ولكنهـــا مـــرَت – فاللاشيء، فقد مضى اللاشيء إلى الكينونة. وقد لا يبدو أن هـــذه المعادلـــة المغلقة ستكون مفيدة لفلسفة التاريخ، ولكن هذا بالضبط ما أوصـــل هيجـــل فلسفة التاريخ إليه.

اعتقد هيجل أن العقل لم يكن فقط عملية مفتوحة أمامنا ولكنه حضور العالم. وهكذا فإن للتاريخ أسبابه، التى يمكن لقوة المؤرخ العقلية أن تفهمها، وكما كتب فى محاضراته عن فلسفة التاريخ:

"إن هدف الباحث المحقق أن يحقق نظرة ما لشعب أو بلد، أو للعـــالم، أى ما نسميه التاريخ العالمى باختصار. وفى هـــذه الحـــال تكـــون النقطـــة الرئيسية تجميع المادة التاريخية. فالمؤرخ يتناول مهمته بروحه هو؛ وهـــى روح متمايزة عن روح العنصر الذى يجب أن يتناوله. وهناك اعتبار غايـــة فى الأهمية، يتمثل فى المبادئ التى يشير الكاتب إليهـــا، والتوجـــه ودوافـــع الأحداث والفعال التى يكتب عنها، وما يحدد شكل حكايته ".

لقد سبق هيجل كارل بيكر – إن الكتابة التاريخية الفعلية سوف تكـــون ذاتية قائمة على أهداف المؤلفين ودوافعهم. وهكذا لابد للوطنيين والموالين أن يختلفوا، مثلما يجب أن يكون التاريخ الذى كتبه المؤرخون الألمـــان مختلفـــا بالضرورة عن التاريخ الذى يكتبه المؤرخـــون الإنجليـــز، والـــذى يكتبـــه المؤرخون الفرنسيون.

فماذا إذن عن التاريخ العالمى الذى غايته الكشف عن العقـــل؟ " إنـــه تاريخ يتطلع إلى اختيار فترات طويلة من الزمـــان، أو أن يكـــون عالميـــا، ويجب حقا أن يسبق محاولة تقديم الأمثلة الفردية عن الماضـــي، كمـــا هـــو حاصل بالفعل. وينبغى اختصار صور الماضى مـــن خـــلال التجريـــد، ولا ينطوى هذا على مجرد حذف الأحداث والأفعال فحسب، وإنما كل ما تتضمنه الحقيقة مما نظن أنه التلخيص الأفضل للأحداث ". وهكذا، يجب على التاريخ أن ينحنى للفلسفة، أن ينحنى المحدد المعروف للمجـــرد، والواقـــع المعـــاش للمتخيل. لأن التاريخ نفسه كان قد برهن لهيجل أن " الشعوب والحكومات لم تتعلم شيئا على الإطلاق من التاريخ، أو تتصرف وفق مبادئ مستنبطة منه.

إذ إن كل فترة تدخل ضمن هذه الظروف الخاصة وتبدو الأمـور واضـحة متمايزة عن غيرها، ولا يمكن تنظيمها سوى وفق اعتباراتها الخاصة فقط ". وعندما أوشك المؤرخون على امتلاك فلسفة تاريخ تمنحهم القوة للجمع بـين العقل والخبرة والتجربة، جاء هيجل ليخطفها ويعطيها للفلاسفة.

إن المفهوم الجوهرى للتاريخ العالمى حسب هيجل يلتقى فـى نقطـة واحدة. إذ تتمزق كافة الفروق بين تواريخ الأمم وتذوى على مـر الزمـان عندما يصل كل منها إلى نقطة الاستقرار النهائية وحدها. أما نقطة الاستقرار النهائية نفسها – سواء كانت ديموقراطية، مثلا، أو دولة علمانية، حسبما كتب فرنسيس فوكوياما متفائلا فى كتابه End of History فـى سـنة ١٩٩٢ م – فهى مسألة تخضع للتأمل والتفكير، بلا ريب. ولكن عندما وضع فوكوياما نقطة التقاء هذه، اعترف أنها تتـاقض " لكـى تنفـع الديموقراطيـة، فـإن المواطنين بحاجة إلى تطوير الفخر اللاعقلانى بمؤسـساتهم الديموقراطيـة، وعليهم أيضا أن يطوروا ما أسماه توكيفيل فن الارتباط الـذى يقـوم علـى الارتباط الفخور بالجماعات الصغيرة ". وهكذا يتطلب الاتجاه العالمى للتاريخ وجود عملية ذات خصائص محددة تماما. وعلى الناس أن يجدوا الرضى فيما هو فريد ومتمايز للوصول إلى الهدف المشترك. وبغض النظر عن التنـازل الذى قدمه فوكوياما، فإن المراقب الشكاك قد يرى تشابهات قوية بين رؤيتـه العلمانية القوية والفكرة اليهودية – المسيحية عن تاريخ طولى ينتهى بالأيـام الأخيرة القريبة من يوم الدينونة، عندما يوزن الناس جميعا بالميزان نفـسه وبالمعايير نفسها.

كذلك أيضا، تقود اللهفة للوصول إلى تاريخ عالمى إلى نهاية أخـرى قاطعة للبحث عن طريق للخروج من الاستحالة. وإذا كـان تـاريخ القـرن العشرين قد علمنا شيئا، فهو أن نقاط التلاقى مثل حتمية التقدم وأن الرابطـة

بين التكنولوجيا والحضارة ليست قائمة على أساس نوع من العقلانية الأفلاطونية المطلقة. ولا هي تتفق مع روح العقل التي سماها هيجل "الروح المرشدة داخليا للأحداث والأفعال التي تحتل صفحات حوليات أمة من الأمم". وبدلا من ذلك، يمكن أن تؤدي إلى دمار شامل؛ أي اللاعقلانية المطلقة.

ولكن المؤرخين، العاملين منهم على الأقل، لن ينالهم الإحباط، ولا ينبغي لهم أن يحبطوا، من جراء اكتشاف أن العقل لا يمكن أن يوفر الأساس لفلسفة التاريخ. والسبب في ذلك، كما كتب الشاعر والكاتب بابلو نيرودا في السوناتة ١٧ من كتابه المسمى مائة سوناتة للحب One Hundred Love Sonnets 1959 أن المؤرخين يحبون التاريخ " مثلما تحب أشياء بعينها معتمة / سرا فيما بين الظل والروح /... مثل النبات الذي لم يزهر أبدا / ولكنه يحمل في ذاته ضوء الأزهار المخبوءة " فنحن نحب الماضي " دون أن نعرف كيف، أو متى، أو من أين ". وبالنسبة لنا وبالنسبة لفلسفة التاريخ التي تصلح لزماننا، العقل ليس شيئا موجودا، سواء في داخلنا أو في الخارج، ولكنه تعبير مجازي يدل على الذهن الباحث المستفسر. فالعقل يطالبنا أن ننظر. والعقل يطالبنا بألا نبقى قانعين بما استنتجه الآخرون. والعقل مهماز يحثنا على أن نبحث من جديد.

وإذا لم يلمع العقل في ثنايا التاريخ، وإذا لم تستطع دراسة التاريخ أن تقدم ما يكفي من الأسباب لحل المنازعات المهمة بالنسبة لنا، فربما يمكن للعقل والمنطق الغربي أن ينقذ التاريخ من استحالته.

منطق للمؤرخين:

يقرر قاموس Oxford Unabridged Dictionary أن كلمة منطق logic مأخوذة من الكلمة اليونانية التي تعني " الاستدلال " و " الجدل الصوري"

والاستدلال هو كيفية استخدام الأدلة لإثبات نقطة ما أو البرهنة على فرض ما، أما الجدل فهو بناء مكون من بيانات والمقدمات المنطقية، والفروض المطروحة لتدعيم استنتاج ما. والتحليل التاريخى يعمل بأسلوب مشابه. إذ إننا نبدأ بالأدلة التى نشكلها فى بيانات تدعم سويا استنتاجا ما. وتنطبق قواعد المنطق التى تصلح لكل المجالات على البحث التاريخى أيضا.

وحتى أبسط البيانات يمكن أن تخضع للتعقيدات المنطقية. ويرجع هذا إلى أن لغتنا ليست نظاما مغلقا، فهى تختلف عن المنطق. خذ مثلا الأمر الوارد فى المرسوم المعروف باسم Florida Omnibus Education Act of 2006 ونصه: " سوف ينظر إلى التاريخ الأمريكى على أنه حقيقي، وليس مركبا، وسوف ينظر إليه باعتباره قابلا للمعرفة، والتدريس، والاختبار، وسوف يتم تعريفه بوصفه عملية خلق أمة جديدة قائمة بدرجة كبيرة على المبادئ العالمية المقررة فى إعلان الاستقلال " إن هذا أمر مباشر تماما ومحير للغاية. لأن الجزء الأخير ليس حقيقة ولكنه بناء، وربما يكون قابلا للتدريس وقابلا للاختبار، ولكنه ليس قابلا للمعرفة إلا إذا كان حقيقيا، وحقيقته تقبل التأكيد ولكنها ليست موضع إثبات، لأن الحقيقة ثابتة بذاتها. وهكذا، يتناقض إثبات أن التاريخ حقيقى مع بقية سياق نص المرسوم.

وتحت الإرشادات التى وضعت فى القرن التاسع عشر لتحليل النصوص، والمسماة بـ " الهرمنتيقا "، التى وضعت لوزن الحقيقة الفعلية فى عبارات الكتاب المقدس، يفترض أن نحدد قصد الناس الذين كتبوا القاعدة لكى نفهم معنى الجملة الواردة فى المرسوم. وكا وصفت المحكمة العليا فى أوريجين هذا النهج فى قضية ستراناهان ضد ماير سنة ٢٠٠٠ م كان الهدف " فهم الكلمات فى ضوء الطريقة التى كان لابد من فهم الكلمات بها وكيفية استخدام أولئك الذين كتبوا نص الوثيقة للغة " وبحسب قرار الجمعية التاريخية الأمريكية الذى تم تمريره فى ٧ يناير ٢٠٠٧م، " إن لغة المسودة

الأصلية يشير إلى أن من كتبوا الوثيقة لديهم زاد قليل من المعرفة المباشـــرة بالتاريخ كما كانت ممارسته فى العالم الحديث ". وقد استنتجت الجمعيـــة أن المشرعين الذين صوتوا على المرسوم أرادوا أن يزيلوا الجوانب المحرجـــة من تدريس التاريخ فى المدارس الثانوية. احتفل وخلِد الــذكرى، ولكــن لا تنتقد. هكذا ينبغى على المرء أن يقرأ نص المرسوم وهو يعرف أن قــصده منع أى جهد من التفكير النقدي.

يخبرنا المنطق الصورى (أو المنطق الافتراضي) كيف يمكن للبيانات البسيطة أن تدخل سويا فى مجادلات صحيحة من الناحية المنطقيـــة. وفـــى القائمة التالية، تمثل p بيانا أو المقدمة المنطقية التى يقوم عليها الجدل، وتمثل q بيانا آخر، على حين تمثل r بيانا ثالثا. وهم معا يشكلون فرضا. ومعنـــى then " تدل ضمنا على حقيقة ".

إذا كانت q تدل على حقيقة و p حقيقية، فإن q حقيقية أيضا. إذا كـــان جورج واشنطن قد انتخب رئيسا للجمهورية فى سنة ١٧٨٨م، إذن فقد كـــان أول رئيس لنا فى ظل الدستور الفيدرالي. فقد انتخب رئيسا للجمهورية فـــى سنة ١٧٨٨ م، وهو ما يعنى أنه كان أول رئيس لنا. لاحـــظ أن علينـــا أن نعرف أن الدستور كان قد تم إقراره عند وقت انتخاب الرئيس. هناك دائمـــا حقائق فى خلفية التاريخ، تشكل ما يسميه المؤرخون " السياق" الــذى يجـــب افتراض وجوده لكى تكون أية مجادلة منطقية بسيطة مجادلة حقيقية.

وإذا كانت p تدل ضمنا على حقيقة q، وإذا كانت q تدل ضمنا عـــى حقيقة r وكانت p حقيقية، فإن r تكون حقيقية أيضا. أى إذا كان جون آدامز قد انتخب بعد واشنطن مباشرة، إذن فقد كان آدامز رئيسنا الثاني. جون آدامز الذى كان نائب الرئيس واشنطن، انتخب رئيسا سنة ١٧٩٦. ثم يتبع ذلك أن جيفرسون كان رئيسنا الثالث.

وإذا كانت p و q حقيقية، إذن فكل منهما حقيقيـــة. وكـــان كـــل مـــن واشنطن وآدامز من الفيدراليين. وتبع ذلك أن آدامز كان فيدراليا وواشـــنطن كان فيدراليا.

والتعبيران " q أو p " و " q أو p " هما نفس " p و q " و " p and q " على التوالى. وفى الرياضيات، هذا هو قانون التحويل، وهو قانون حقيقى فى الجمع والضرب. ولا يهم أى نظام لتسلسل الحقائق هو الذى يؤخذ به، علـــى الرغم من أننا فى التاريخ نفضل النظام الزمنى التتابعي. وهناك المزيد مـــن القواعد المعقدة بصورة مطردة، والتى يمكن جعلها تتناسب سويا بشكل بديع، لأن المنطق هو ما يسمى نمط مغلق أو استنباطى من العلم.

ومرات كثيرة، يتم التأكيد على مجادلة منطقية صورية فى وسط نص تاريخى طويل – مقالة بحثية فى مجلة تاريخية، أو ورقة مقدمة لمؤتمر، أو كتاب، أو تقديم لمجموعة. وتحيك المجادلة المصادر الأولية سويا – الأدلة – فى كل مقنع. وهو يعلم ويكتب التقارير، ويراجه ويستشير. والأكثر شـــيوعا من هذه الأنماط الصورية هو التعليل من بيان عام؛ التعليل من أدلـــة غيـــر كافية، التعليل من التشابه؛ والجدل على طريقة " لو – فإن ".

الاستنباط والاستدلال:

إن التعليل من قاعدة عامة لحادثة خاصة تغطيها تلك القاعـــدة مثـــال على العملية المنطقية المسماة " الاستنباط ". وفى الاستنباط، إذا كانت المقدمة المنطقية، أو القاعدة، حقيقية، لا بد أن تكون الأمثلة عليها حقيقية أيضا. وفى التاريخ يمكن أن تكون هناك قواعد عامة نستطيع استنباط بيانـــات خاصـــة منها. ولكن، كما رأينا، فى التاريخ تكون كل القواعد العامة، باستثناء أكثرها وضوحا، مفتوحة أمام التساؤلات. ومع هذا، فمن القاعدة التى تقول إن الناس

جميعا يموتون، وهى قاعدة عامة، يمكننا أن نستنبط أن نابليون مات، ومن ثم مات جميع أفراد جيشه الكبير.

ومع هذا، يمكن أن تؤدى المقدمات الأقل عمومية فـــى مـــداها إلـــى الاستنباطات. على سبيل المثال، يمكن أن نقترح على سبيل المقدمة العامة أن الحروب الدينية تؤدى إلى مذابح رهيبة. وإذا كان هذا صحيحا، وهناك حرب دينية بعينها، فسوف تشوبها المذابح. ومن المؤكد أن هذا يبدو صحيحا فـــى الحملات الصليبية التى شنتها القوى المسيحية لفرض السيطرة على الأرض المقدسة، وفى حروب الدين بأوربا أثناء حركة الإصلاح البروتستانتي.

ويمكن للمرء أن يجد أمثلة معاكسة. فإذا وجدنا حربا دينية لـــم ينـــتج عنها مذابح، فربما نشك فى حقيقة المقدمة المنطقية. ولو كانت الحرب الأهلية الإنجليزية سنة ١٦٤٢- ١٦٤٧ م تعد حربا دينية، تضع كنيسة إنجلترا ضد حشد من المنشقين البيوريتان، فإن قصص المذابح القليلة نسبيا التى أفرزهـــا القتال (باستثناء أيرلندا) كانت لابد أن تشير إلى أن القاعدة العامة خاطئـــة. وبطبيعة الحال، فإن على المؤرخ الذى يريد الدفاع عن القاعـــدة العامـــة أن يقول إن الحرب الأهلية الإنجليزية كانـــت حقـــا صـــراعا داخـــل نطـــاق الأرستقراطية، أو كانت خصومة من هذا القبيل، أكثر منهـــا حربـــا دينيـــة حقيقية.

المشكلة، إذن، أن نرسخ حقيقة القاعدة العامة ثـــم نبـــرهن علـــى أن الحادثة الخاصة تتناسب مع هذه القاعدة العامة. بيد أن التاريخ لا ينسب نفسه لمثل هذه القواعد العامة إذا استثنينا القواعد العامة تماما ("كل الناس يموتون"، مثلا) بالدرجة التى تجعلها غير ذات فائدة فى تفـــسير أى شـــيء. كمـــا أن المؤرخين لا يوافقون على الأوصاف الخاصة للأحداث حتى ولو سلمنا بـــأن للقاعدة العامة قدرا من المشروعية.

لو كان التاريخ علما استنباطيا فقط، فلن يكون من السهل صياغة فلسفة تاريخ. وقد كتب جون أوبرى، وهو كاتب سير إنجليزى عاش فى القرن السابع عشر، عن الفيلسوف السياسى الشهير، والمؤرخ وعالم الرياضيات الذى علم نفسه بنفسه، توماس هوبس،: "كان عمره أربعين سنة قبل أن يبدأ النظر فى الهندسة، وهو الأمر الذى حدث بالصدفة، فقد كان فى مكتبة أحد الفضلاء ووجد كتاب العناصر لإقليديس "Euclid's Elements" مفتوحا، وكان الفرض السابع والأربعون فى الكتاب الأول. وقرأ الفرض وقال: "بحق السماء !! هذا مستحيل" وهكذا قرأ عرضا له أحاله إلى برهان، أحاله بدوره إلى فرض آخر قرأه أيضا... وهكذا اقتنع فى النهاية بتلك الحقيقة. وهذا ما جعله يحب الهندسة".

أشهر مؤلفات هوبز(Leviathan 1651 م)، مكرّس للبرهنة عن طريق الاستنباط على أن الطاعة المطلقة لسلطة مطلقة هى الحصاد المنطقى الوحيد للحكومة القائمة على أساس رضا المحكومين:

" من مؤسسة الكومنولث هذه خرجت جميع حقوق أولئك الذين أسبغت عليهم السلطة السيادية بموافقة الناس أجمعين... ومن ثم فإن أولئك الخاضعين لأحد الملوك لا يمكنهم أن يسقطوا الملكية بدون رحيله، ليعودوا إلى فوضى الجموع غير المتحدة؛ ولا يقدرون على نقل السلطة ممن يحملها إلى رجل آخر، أو جماعة أخرى من الناس لأنهم ملزمون، رجلا رجلا، بأن يكون معروفا أنه يمتلك كل ما هو موجود بالفعل فى حاكمهم وأنه سوف يصلح للعمل ويناسبه ".

وباختصار، ما إن يتفق الشعب على تولية ملك ما، فلا عودة للوراء، ولا مكان للانشقاق، ولا سبيل للحد من سلطات الملك – كانت هذه شجاعة

من هوبز عندما كتب هذا، والشجاعة الأكبر أنه قام بنشره فى غمار ثـــورة كان المنتصرون فيها قد قطعوا رأس الملك الحاكم. وإيمان هـــوبز المطلـــق بقدرته على الاستنباط هو الذى منحه الشجاعة للجدل حول التاريخ بالـــشكل الذى فعله، ولكنه كان فظا بحيث نشره فى باريس وليس فى إنجلتـــرا لكـــى يضمن سلامته.

وقد طرحت " النزعة التاريخية "، فلسفة التاريخ الكاملة التـــى تجـــسد الطبيعة الاستنباطية للبحث التاريخي، مع بداية القرن العشرين وعـــدا بـــأن التاريخ، شأنه شأن جميع العلوم، يمكنه أن يعرِف، وأن يفسر، ويتنبأ. وكانت النزعة التاريخية، كما لخصها كارل بوبر فى سنة ١٩٥٧ م، " النظرية التى سوف يغيرها المجتمع بالضرورة ولكن على مسار محدد سلفا لا يمكـــن أن يتغير، ومن خلال مراحل حددتها من قبل الضرورة الحتمية ".

وقد أدان كتاب بوبر(Poverty of Historicism 1957) أولئـــك الـــذين ظنوا أن سببا وحيدا يحسم التاريخ برمته، " إن النزعة التاريخية تعلمنا أن أية محاولة لتبديل التغيرات الوشيكة إنما هى محاولة عبثية؛ فثمة تنويعة خاصة من القدرية، وهى قدرية بالنظر إلى اتجاهات التاريخ، كما كانت ". وبالنسبة له، كانت نهاية مثل هذه العقلانية المنغلقة متناقضة بذاتها. " وبما أن الكثيـــر جدا تم فى وقت ما [فى الماضى]، فإنه يستحيل أن نقول أى مقياس معـــين هو المسئول عن أى النتائج؛ أو بدلا من ذلك، فإننا إذا نسينا فعلا نتيجة بعينها لمقياس بعينه، فإن هذا لا يمكن أن يحدث سوى على أســـاس مـــن بعـــض المعرفة النظرية المكتسبة من قبل، وليس من الخبرة المكتسبة من السؤال "

وعلى الرغم من أن بوبر كان فيلسوفا، فإن هدمه للتاريخ الاستنباطى كان ذا رنة مألوفة بالنسبة للمؤرخين، وربما كان هذا بسبب خطاب تـــشارلز

بيرد الرئاسى الشهير سنة ١٩٣٣ م أمام الجمعية التاريخية الأمريكية الذى هدم النزعة التاريخية بطريقة مماثلة: " إن الفكر المعاصر حول التاريخ، يتنصل بالتالى من المفهوم الذى كان سائدا بين رجال المدارس فى أثناء الشطر الأخير من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين – وهو مفهوم يقول بإمكانية وصف الماضى كما كان بالفعل، وهو مفهوم يشبه إلى حد ما وصف المهندس لآلة واحدة. لقد كات المعادلة نفسها مرحلة عابرة فى تاريخ الفكر حول الماضى ".

واستنباط قواعد صلبة وسريعة من التاريخ طريقة ناجعة لتجاهل تعقيدات التاريخ. فعلى سبيل المثال، عندما استمعت المحكمة العليا فى الولايات المتحدة إلى القضايا القانونية فى القضية التى كان NAACP قد رفعها ضد الفصل العنصرى فى المدارس الابتدائية بإشراف الدولة، ضمت هذه القضايا سويا، ونظرت فيها تحت عنوان قضية براون ضد هيئة التعليم (١٩٥٤ م)، ووجدت بالإجماع أنه" فى مجال التعليم العام لا محل لعقيدة " منفصلين لكن متساوين". إذ إن التسهيلات التعليمية المنفصلة ليست متساوية بطبيعتها. ومن ثم، فإننا نتمسك بأن المدعين وغيرهم يقفون بصورة متماثلة من أجل الذين رفعت الدعوى من أجلهم، وحرموا، بسبب الفصل العنصرى المشكو منه، من الحماية المتساوية بالقوانين التى تضمنها التعديل الرابع ". كيف توصلت المحكمة إلى ذلك القرار؟ قال الناقدون إن المحكمة تحركت بفعل المناقشات الخارجة عن نطاق القانون؛ وعلى سبيل المثال، هناك أدلة على أن الأطفال السود كانوا يظنون أن الدمى البيضاء جيدة وأن الدمى السوداء سيئة. ولكن المحكمة لم تعتمد على اكتشافات علم النفس الاجتماعي. وبدلا من ذلك انطلقت المحكمة من الفقرة الخاصة بالحماية المتساوية فى التعديل الرابع من الدستور الأمريكي. وتتطلب هذه الفقرة من الولايات

المتحدة، التى تقدم تسيلات التعليم العام، أن تقدم لجميع المواطنين " الفرصة للتعليم. ومثل هذه الفرصة التى تعهدت الولاية بتوفيرها، حق يجب أن يتـاح للجميع على قدم المساواة ".

وتكمن مشكلة هذا التطبيق المحكم فى الاستنباط التاريخى اعتمادا على تعليل الحوادث بحيث استطاعت المحكمة أن تختار بهذه السهولة فئة أخـرى من القانون؛ وأن تقرأ صيغة الأمر فى هذه الفئة بشكل مختلف، أو تـستنبط منها نتائج مختلفة. وفى القضية التى قلبتها هيئة براون للتعليم رأسـا علـى عقب ضمنيا، وجد بليسى فيرجسون (١٨٩٦) قاضى المحكمـة العليـا فـى الولايات المتحدة أن هدف التعديل الرابع عشر كان بلا شك فرض المـساواة المطلقة للعنصرين أمام القانون، ولكن بطبيعة الأمور لم يكن ممكنا أن يكون القصد منه القضاء على التمييز القائم على أسـاس اللـون، أو أن تفـرض المساواة الاجتماعية، التى تختلف عن المساواة الـسياسية، أو مزيجـا مـن الاثنتين وفق شروط غير مرضية لأى منهما ". وأى قانون يحدد أين يجلس شخص ما، من لون معين، فى قطار يمر عبر لويزيانا، لا يكبح بهذا شخصا من لون آخر، أو يؤذيه، أو ينوه عنه بأى شكل. " نحـن نظـن أن الفـصل الإجبارى بين العناصر، كما هو مطبق على التجارة الداخلية فى الولاية، لا ينتقص من الامتيازات أو الحصانة للرجل الملون، أو يحرمه من ممتلكاتـه بدون العملية القانونية المناسبة، ولا يحرمه من الحماية المتساوية التى تكفلها القوانين، وبعبارة أخرى، كانت قوة التعليل الاستنباطية هنا بلاغة ولم تكـن تاريخا.

وتنبهنا إشارات بدء الكلام أو الكتابة إلى أن هناك عملية استنباط سوف تحدث. وعندما نسمع أو نقرأ كلمات من قبيل: وهكذا، ومـن ثـم، وبالتـالى، ويستتبع هذا أن فسوف يعقب هذا فورا عملية استنباط (أو زعم بالاستنباط).

لاحظ أن استنتاجي أن هذا ليس استنباطا بالمرة ولكنه نوع من المجادلة المنطقية، أو استدلال من الخبرة. والتعليل من الأدلة للوصول إلى استنتاج من الأدلة كلها سمى استقراء أو استدلال. ويشير مجمل الأدلة إلى الاستنتاج ولكنه لا يضمن أنه كذلك. ويعتمد المؤرخون على الاستدلال لتفسير الأحداث.

يمكن للاستدلال أن يوفر الدوافع. لقد أخَر الجنرال لونجستريت الهجمة الفيدرالية على سميترى ريدج فى ثالث أيام معركة جتيسبرج إلى ما بعد الظهر، وفى ذلك الوقت كانت قوات الاتحاد قد عززت موقعها. ولم يكن يحبذ هجوم المواجهة ولا يمكننا أن نستنبط الأسباب التى دعته لذلك، ولكن بإمكاننا أن نستدل عليها مما نعرفه عنه وعن الوضع الذى كان عليه أن يتخذ قراره فيه. فلم يكن مع الهجوم مواجهة، وكان يعرف بشكل صحيح تماما أن الهجوم الكثيف للمشاة على أرض مفتوحة مساحتها حوالى ميل ضد موقع حصين سيؤدى إلى مذبحة فى صفوف المهاجمين على الأرجح. وكان قد رأى ذلك بأم عينيه عندما هاجمت القوات الفيدرالية المواقع الكونفدرالية فى فريدريكسبورج. كان يأمل أن يؤدى قصف المدفعية الذى أمر به إلى تنظيف الساحة من العدو، ولم يستكمل هذا القصف تماما حتى الثانية بعد الظهر. وربما كان يأمل أيضا أن يستجيب قائده الميداني، روبرت لى، ويسمح للونجستريت بالمناورة حول موقع الاتحاد. وضاعت آماله سدى كما كانت هزيمة جيشه علامة النهاية لعمليات الهجوم الكونفدرالية فى المسرح الشرقى للعمليات فى الحرب الأهلية الأمريكية. وبعد الحرب اشتبك لونجستريت والمدافعون عن " لى" فى حرب كلمات، فقد كان كل جانب يلوم الجانب الآخر على الهزيمة، ويستقرئ ما هو أسوأ عن دوافع الجانب الآخر.

وفى بعض الأحيان يكون على المؤرخين أن يستدلوا على اتجاه ما فى مجموعة من الأحداث اعتمادا على مجموعة غير كاملة من المعلومات. وإذا كانت المعلومات التى يدرسها المؤرخ قاصدا ضمن مجموعة أكبر من المعلومات – مثلا، كل حالة عاشرة فى سجل إحصائى – يكون المؤرخ هنا فى سبيل تقديم عينات. وفى المناهج الإحصائية السليمة يجب أن تكون العينة ممثلة للمجموعة (أى تم اختيارها بحيث تكون خصائصها متناسبة بشكل مباشر مع خصائص المجموعة كلها)، أو تكون عينة عشوائية حقا (أى تم اختيارها بحيث تكون متحررة من كل انحياز إحصائى ومن انحياز المضمون على السواء). ويجب أن تعكس الاتجاهات التى يحددها المؤرخون فى العينة ممثلة للاتجاهات الموجودة فى الكل.

ويمكن أن يكون تقديم العينات أساس الاستدلال السليم، بيد أن هناك أمثلة تاريخية كثيرة عن مغالطات اختيار العينات، أو عملية اختيار العينات التى تبوء بالفشل. فعندما يستدل أصحاب الاستبيانات من عينات قليلة للغاية أو من عينات مرصوصة سويا عن توزيع الآراء فى البلاد بأسرها، يجب أن تكون لديهم عينات تمثيلية تماما. وكانت أكثر غلطة تسببت فى الفرح الشديد فى تصميم عملية اختيار العينات هى تلك التى جاءت فى استبيان تنبأ بفوز المرشح الجمهورى للرئاسة آلف لاندون على المرشح الديموقراطى فرانكلين ديلانو روزفيلت ١٩٣٩م. فقد فاز روزفلت بأغلبية ساحقة، فقد اختار أصحاب الاستبيان أن يرسلوا استبياناتهم إلى أناس كانوا قد سجلوا سياراتهم – ولم يدركوا أن تلك لم تكن حقا عينة ممثلة للأمريكيين فى أسوأ سنوات الركود الاقتصادى بالنسبة للأمريكيين.

ويمكن أن تتكرر عملية اختيار العينات لزيادة قدر المصداقية فيها، ولكن المؤرخين يواجهون مشكلة خاصة فى الاستدلال لا تواجهها الدراسات

الاجتماعية الأخرى. وتقوم أفضل أنواع الاستدلال على أساس التجارب التى يمكن تكرارها وتكون نتائجها واضحة لكل المراقبين. بيد أن الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست متاحة بحيث يمكن استخدامها فى تجارب متكررة. ويمكننا أن نكتب ما نشاء من الكتب عن نشوب الحرب الأهلية الأمريكية، ولكننا لا نستطيع أن نعيد خلق هذه الحرب فى العالم الحقيقى كما كان سنة ١٨٦٠ م. وهذا هو السبب فى أن تفسيرات نشوب الحرب الأهلية تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا للغاية. وكلما زادت لدينا الأدلة، كلما زادت التفاصيل فى الرواية، ولكن زيادة الأدلة الباقية لا يزيد من دقة استدلالنا تلقائيا. فنحن نعرف قدرا من الأحداث التى أحاطت بقرار الرئيس هارى ترومان بإسقاط القنبلة الذرية على اليابان أكبر كثيرا مما نعرفه عن قرار لنكولن بإعادة تزويد فورت سومتر، بيد أن الجدل حول قرار ترومان يفوق كثيرا الجدل حول قرار لنكولن.

وفى بعض الأحيان يطلق على من يعتمدون على الاستدلال من مجموعات الأدلة اسم الإمبريقيين. والمؤرخون إمبريقيون (تجريبيون). ولا يمكننا أن نكون غير هذا. فنحن دائما نحاول أن نستدل على الدوافع والسببية من الأدلة الدالة على الفعل الإنسانى والفكر الإنساني. إن مصادر دراسة الماضى – أى الوثائق الباقية، مثلا – لا تتحدث إلينا. ذلك أن علينا أن نقوم باستدلال علمى من الشظايا والقطع. ولكى نفعل هذا، فإننا غالبا ما نقوم بالتعليل اعتمادا على التشابه. هل هذا الحدث مثل حدث آخر درسناه؟ هل هذه القضية القانونية مشابهة لقضية أخرى سابقة؟

فى التفكير بالتشابه نشتبك فى تدريب منطقي، فنقارن حدثا، أو شخصا، أو موضوعالا نعرفه بموضوع آخر نعرفه على أساس خصائص مشتركة بعينها. وجميعا لمشابهات عبارة عن مقارنات (على الرغم من أنه

ليست كل المقارنات مشابهات). فالتشابه مقارنة جيدة. والتشابه الضعيف ليس حقا تشابها بالمرة، على الرغم من أن له المظهر الخارجي نفسه.

والتعليل بالمشابهة، على الرغم من أنه خطير أحيانا، مثل جميع أشكال المقارنة، ضرورة نفسية. إذ كيف يمكن لنا أن نمضى قدما عندما نواجه موقفا جديدا؟ الإجابة أننا نحاول أن نقارن بينه وبين أحداث أخرى واجهناها فعلا. ونحن نفكر " هذا يذكرنا بـ.... ". وكلما عرفنا المزيد عن الحدث الجديد والحدث السابق، أو كلما فهمناهما بشكل أفضل، كان بوسعنا أن نرسم التشابهات بقدر أكبرمن الدقة، ونكون أكثر نجاحا فى التعامل مع الجديد.

ولكن بعض التشابهات، مثل بعض التعميمات، بها دافع خفى وهى لا تقوم على الرغبة فى تبسيط ما يجب عمله، وإنما تقوم على ما يحاول الشخص الذى يصنع المشابهة الدفاع عنه. فى سنة ١٩٠٢ م، وفى رسالة تمجد الإمبريالية الأوربية فى إفريقيا، جادل جاك هوبسون بأنه " لا يمكن أن يكون هناك حق طبيعى فطرى فى أمة ترفض التعليم الإجبارى الذى سوف يرفعها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة بين الأمم ". ولم يكن التشبيه بمراحل النضج توضيحيا فقط ولكنه قدم الدليل على أن الرعايا الأفارقة للمستعمرين الأوربيين لا يحق لهم الاعتراض على خضوعهم. " والتشبيه بتعليم الطفل قد يبدو سليما للوهلة الأولى. فليس للأطفال أن يكون لهم رأى فى تعليمهم، تماما مثل الشعوب الجاهلة التى لا تعيش " فى البلاد الغربية البيضاء " وهى شعوب لا ينبغى أن يكون لها صوت فى مسألة فرض التمدين عليها، على حد قول هوبسون. وتتطلب معرفة متى تكون المشابهة التى يقوم بها المؤرخ قوية ومتى تكون ضعيفة ما هو أكثر من المنطق. إن الالتزام بالانتظار حتى يعرف المرء المزيد ويستطيع وزن الدليل،

الذى يساعد بدوره فى معرفة متى تكون المقارنة مبـررة، إحـدى سـجايا المؤرخ الجيد.

لو – إذن:

نحن على ألفة بصيغ " لو – إذن " فى التعليـل مـن خـلال رحلتنـا القصيرة عبر المنطق الافتراضى – " لو p إذن q ". ومنطق " لـو – إذن " شائع للغاية ولكنه أحيانا يتسلل متخفيا. خذ مثلا " المربع A له أربعة أضلاع ". يبدو هذا مثل تعريف ويكون حقيقيا كتعريف. ولكن البيان الذى نحـصل عليه فى العالم الحقيقى غالبا ما يأخذ شكل " لو كان هذا الـشكل الهندسـى مربعا، إذن فله أربعة جوانب ". تلك هى الجملة الـشرطية " لـو – إذن ". يمكن أن تتحول إلى نقيضها: " لو أن هذا الشكل له أربعة أضلاع إذن يجب أن يكون مربعا "، ويمكن للجملة أن تتخذ شكل النفي، بحيـث تتغيـر إلـى عكسها " لو أنه ليس مربعا، إذن فليست له أربعة أضلاع ".

لاحظ أن التناقض والعكس فى فرض حقيقى ربما لا يكـون حقيقيـا. فالشكل ربما تكون له أربعة أضلاع ولا يكون مربعا، كما قد يكون شكل ليس مربعا له أربعة أضلاع. وذلك لا يمنع الناس، بمن فيهم الذين يعرفون أكثـر من غيرهم، من المجادلة من النقيض للنقيض. فقد كان بعض المؤرخين فى أثناء الحرب العالمية الثانية مقتنعين بأن الرئيس فرانكلين روزفلت قد تجاهل عمدا الإشارات التحذيرية من أن اليابان كانت تستعد لهجوم مباغـت علـى بيرل هاربور. ووفقا لهذه المقولة، يكون قد أراد دخول الحرب وكان يحتاج إلى مبرر درامى للتغلب على الرغبة الشعبية فى الحياد. وقد أدى "يوم العار " فى بيرل هاربور إلى موافقة الكونجرس على إعلان الحرب، ولكن الجدل

على أساس أنه لولا بيرل هاربور لما كنا دخلنا الحرب إنما هو جدل من موقع النقيض.

يستخدم المؤرخون صورة واهية من " لو- إذن " طوال الوقت وفى كتابى عن الكتابة التاريخية Past Imperfect كان رأيي: "إذا كانت تلك الأخطاء [التى يرتكبها المؤلف عندما لا يكشف عن مصادره]، بما فيها الانتحال والسرقة العلمية، يكون المؤلف مسئولا، لأن اسمه موجود على العمل المنشور" . وليس هذا دليلا منطقيا من قبيل 'لو – إذن'، إنما هو عرف أسلوبى استخدمته لتحديد المسئولية الأخلاقية. وثمة شكل آخر من هذا العرف يتمثل فى طريقة "لو – إذن " للتعريف (لو اقتبس المؤلف كلمات من كاتب آخر دون أن يشير إلى الاقتباس، فإنه يكون مدانا إذن بالانتحال والسرقة العلمية ".

فى صيغة " لو – إذن " قد تكون المقدمة المنطقية حقيقية ولكن الاستنتاج قد لا يكون متماشيا معها. ويسمى هذا الخطأ الشائع فى المنطق " اللاتناسب ". وفى رواية لورنس شتيرن الموسومة Tristrum Shandy، التى يدور موضوعها حول اللامنطق فى الحياة، يتجلى اللاتناسب مبكرا. فهى مجموعة تعيسة من الأفكار التى لا تجمعها علاقة فى الطبيعة. وهناك صيغة معاصرة من هذا فى عبارة " إنهم إرهابيون شرق أوسطيون، فلا بد إذن أنهم ينتمون إلى تنظيم القاعدة ". وربما تكون المقدمة المنطقية والاستنتاج صحيحين، بيد أنه لا يمكن إثبات الاستنتاج النهائى من المقدمة. إذ إن هناك وسطا مفقودا يجب إعلانه حتى تستقيم الحقيقة، وهو بالتحديد " عبارة " جميع الإرهابيين فى الشرق الأوسط ينتمون إلى القاعدة ".

منافسو التعليل التاريخي:

إن التفوق فى المنطق الصوري، وهو نظام مغلق، يبعث شعورا بالاطمئنان، شأنه شأن أى نظام فكرى آخر. بيد أن التفوق فى نظام مغلق لا

يضم العالم فى داخل نظام فكرى ما. وبالمثل، سوف يساعد التفوق فى المنطق المجادلات فى إطارها التاريخى ولكن المنطق نفسه لا يمكن أن يرسخ الحقيقة أو الزيف الموجود فى المقدمات المنطقية. وبقدر ما قد يكون تصنيفنا للموضوعات والعلاقات فى التاريخ دقيقا ومرضيا ،فإن المنطق نفسه لا يمس الماضى سوى بقدر ما نسمح للعالم الحقيقى أن يكون مصدر معلومات تعليلنا المنطقي.

ولأنه يمكن الاحتفاظ بالمجادلة المنطقية فى خدمة سادة آخرين غير التاريخ، ولأن الذاكرة التاريخية مرنة لينة، فقد يواجه التعليل التاريخى منافسين محتملين فى التراث الغربي: السحر والعقائد الدينية الجامدة (الدوجما). وكلاهما، بحسب طريقة كل منهما، صارم وقهرى (لمن يؤمنون بالسحر أو بالعقائد الجامدة) ومرض تماما مثل الفكر التاريخي. ولكل منهما منطقه الخاص.

ويزعم السحر القدرة على الوصول إلى الحقائق المطلقة من خلال وسائل لا خلاف عليها. تلك الوسائل – التعاويذ السحرية، المعرفة السرية، والتوسل بقوى خفية – تضرب طبعا بجذورها فى تربة التاريخ. فقد كان السحر أحيانا يعلمهم من شخص ما تعلمه هو من شخص آخر، وهكذا دواليك حتى يعودوا القهقرى إلى ماض غامض وسحري. وقد وجد المؤرخون أن التفكير السحرى جزء من كل هو الثقافة المسجلة، فقد كانت للسحر وظيفة ثقافية حيوية. وقديما لم يكن السحر يفسر أسرار العالم فحسب، ولكن التعاويذ التى كان السحرة والكهنة يقومون بها كانت تجعل العالم يدور. إذ كان يمكن للساحر أن يكون أهم شخص فى القرية بأسرها لأنهم كانوا يظنون أنه يشفى المرضى، ويساعد المحاصيل على النمو، ويجعل الصيد وفيرا.

وكشفت الدراسات الحديثة التى أوردها بندكت كـارى فـى صـحيفة النيويورك تايمز بتاريخ ٢٤ يناير ٢٠٠٧ م أن الناس يتقبلون المئات مـن " طقوسهم الصغيرة " اليومية باعتبارها أمورا " لاعقلانية " ومع ذلـك فـإنهم يثابرون عليها. وهم يعرفون أن العلم الحديث قد بدد قوة السحر وجاء بـدلا منها بتفسيرات مادية وبيولوجية وكيميائية. ومع هذا يثابر الناس على اللمس والقول وتصور وجود القوى السحرية. ويشير علماء البيولوجيا وعلم النفس إلى أن العقل هو ذلك التفكير السحرى المركب فـى أجـسادنا إلـى أنـه: "الإحساس بامتلاك قوى خاصة ترفع من الروح المعنوية للناس فى مواقـف تحمل تهديدا وتساعد على الحد من المخاوف اليوميـة وتفـادى الاكتئـاب الذهني".

ويعرف المؤرخون أن التسمية نوع من السحر الـذى يجمـع سـويا حاجاتنا الجسدية والاجتماعية. ففى أثناء كتاب عن النار فى أمريكا بعنـوان Seven Fires علمت " أننا نسمى نيران خاصة بأسماء آثمـة، كمـا لـو أن التسمية تمكننا من تخفيف وطأة الرعب الذى تحطمه التسمية... نحن نعترف بقوة الحريق الكبير بأن نسميه حريقـا كبيـرا– مثـل " حريـق شـيكاغو الكبيير"سنة ١٨٦١ م. ما الذى تفعله تسمية الحرائق؟ أنها تحولها إلى ظاهرة طبيعية مخيفة إلى حدث إنسانى يسهل التحكم فيه. وللسبب نفسه، فإن إعـادة تسمية التاريخ باسم آخر فى سبعينيات القرن العشرين لبت حاجة كثيرين فى المهنة وخارجها ممن طالبوا بحق النساء المشروع فى أن يكون لهن مكـان فى الحوليات.

ويمكن لسحر التسمية أن يدخل فى طيات التاريخ السياسي. فعندما أراد كريستوفر كولومبس أن يدعى ملكية إسبانيا لجـزر الأنتيـل فـى البحـر الكاريبي، بدأ يسمى الجزر بأسماء إسبانية وهذه هى الأسماء التى تظهر الآن

على الخرائط. لقد سمى السكان الهنود Indiosوهى الكلمة الإسبانية الدالة على سكان " جزر الهند " (فقد ظن أنه وصل إلى حافة جزر التوابل الهندية فى الشرق)، وهو مصطلح آخر قيض له أن يستمر. واختفت أسماء التاينو، ومعها جمهرة سكان التاينو. وقد سجل التاريخ الإمبراطورية الإسبانية، وإسبانيا الرئيسية، وإسبانى الجديدة، والمكسيك، وهو الاسم الذى أطلقته شعوب المكسيك Mexica لبلادها، وقد تبناه الإسبان الذين غزوا البلاد ليستمر باقيا حتى الآن. وهكذا أيضا، رتب هرنان كورتيس لضباطه عملية الزاوج من بنات نخبة الإزتك بحيث يضمن استمرار الحكم الإسبانى من خلال تسمية الأميرات الإزتكيات بأسماء إسبانية.

والنظام الفكرى الثانى الذى يتحدى التاريخ بمنطقه الخاص هو العقيدة الجامدة. وكلمة دوجما dogma مشتقة من الكلمة اليونانية الدالة على الرأى أو الاعتقاد الذى نتمسك به فى قوة لا تسمح بالخروج عليه. والعقيدة الجوهرية الجامدة نوع من التعليل الذى تتخذ تأكيداته شكلا فى داخل صندوق النزعة التقليدية المنغلق. ويحشر المدافعون عن بعض العقائد الجوهرية الجامدة قراءات من التاريخ فى سياق دفاعهم. كما أن بعض كتب القانون الكنسى المرتبطة بالعقائد الدينية جزء من التاريخ فى حقيقة أمرها، وجزء من الكوزمولوجى، وجزء من الإرشاد الخاص بالطقوس. والكتاب المقدس واحد حسبما جادل المؤرخون: فقد كتب فى زمن تاريخي، بواسطة فاعلين تاريخيين حقيقيين، متضمنا أحداثا تاريخية سابقة. ولكن الكتاب المقدس نفسه يمكن تفسيره خارج نطاق الزمان والمكان التاريخيين تماما، وذلك باعتباره نظاما مغلقا من المفاهيم والتطبيقات.

ورفض الإجماع أو الاعتراف بالخطأ نوع من التصلب، ويدين الفكر المستتير التصلب فى العقيدة والتطرف zealotry، الذى نشتق منه كلمة غيور zealous هو التصلب المتطرف فى الفعل. وكان المتطرفون الأصليون طائفة من غلاة اليهود الذين رفضوا قبول الوجود الرومانى فى فلسطين، كما كرهوا اليهود الآخرين الذين لم يكونوا على نفس درجة تشددهم، وبدأوا حركة تمرد ضد الحكام الرومان فى فلسطين فى القرن الأول الميلادي. وعندما تم الإيقاع بهم فى قلعة مسعدة (الماسادا) فوق قمة الجبل، قتلوا النساء والأطفال ثم قتلوا أنفسهم ورفضوا الاستسلام.

وغالبا ما ترتدى العقيدة الجوهرية الجامدة ثوب الأخلاق. وهو ما يعنى أن يطبق منطقها على مواقف أخلاقية فعلية. وقد أدان أنصار تحرير العبيد الرق قبل الحرب الأهلية الأمريكية باعتباره شرا أخلاقيا مطلقا. وبدورهم أدان المثقفون الجنوبيون أنصار تحرير العبيد بوصفهم متطرفين كما أدانوا معاداة الرق باعتبارها نوعا من التصلب المتطرف.

وقد زعم كل من الجانبين أن العقل حليفهم عندما اعتبر كل منهما الجانب الآخر العدو الأخلاقى. وقد حلت الحرب الأهلية المسألة عندما لم تستطع المبارزة بالمواقف المنطقية أن تحله.

وقد اعتمد المتنازعون فى الجدل حول الرق أساسا على مقدمات منطقية مختلفة. فبالنسبة لأنصار إلغاء الرق، كان إنكار حقوق الإنسان الأساسية، بما فيها التمتع بثمار عمله، خطأ. ولم يكن ذلك موقفا منطقيا بحد ذاته ولكنه موقف يضرب بجذوره فى مجموعة من القيم والمثل. كذلك لم يكن موقفهم متسقا كله، لأن بعض أنصار إلغاء الرق كانوا يعارضون منح العبيد المحررين حقوقا أساسية أخرى من حقوق الإنسان: مثل الحق فى

اختيار شركاء الزواج من عناصر عرقية مختلفة، وحق التصويت، وحق تولى المناصب. أما بالنسبة للمدافعين عن الرق، فكانت حقوق الإنسان كلها تتناسب " مع مكانة الفرد فى المجتمع ". وسواء بالدونية البيولوجية التى لا يمكن تغييرها أو بالإذلال الاجتماعى الذى لم يكن بوسعهم تبديله، لم يكن للعبيد أن ينالوا أيا من حقوق الإنسان. كان هذا موقفا قائما، لاعلى المنطق، وإنما على الحقائق الاجتماعية والنفسية لـ " الموقف الخاص " الذى اتخذه الجنوبيون البيض.

ويكشف التاريخ عن أن العقيدة الجوهرية الجامدة والتطرف لهما قوة باقية يجب أن يعترف بها حتى الذين ينتقدونهم. والراحة التى يوفرها للمرء كونه مؤمنا حقيقيا ليست مستمدة من المنطق الكامن فى العقائد الجامدة، ولكنها مستمدة من مكاسبها النفسية. ذلك أن الاعتقاد المتصلب يقلل من التنافر الإدراكي، والقلق العقلى الذى يوجد عندما نواجه انطباعات شعورية، أو معلومات، أو أفكارا لا تتناسب مع إطارنا الإدراكى الموجود. وعلى حد تعبير عالم النفس الاجتماعى ليون فستينجر" إن وجود التنافر يؤدى إلى ظهور الضغوط لتقليل التنافر أو التخلص منه ".

قدم فستينجر هذا المصطلح للطلاب الذين كانوا يدرسون علم النفس الإدراكى سنة ١٩٥٧ م فى مسار واحدة من أهم التجارب وأكثرها إثارة فى ذلك المجال. وكان قد سأل، من بين أسئلة أخرى، كيف يمكن لطائفة ألفية (أى تؤمن بنهاية العالم فى نهاية الألف الثانية بعد المسيح) فى ولاية نيويورك أن تلمس الحقيقة عندما لم ينته العالم فى الموعد الذى كانوا قد تنبأوا به. هل انفرط عقدهم؟ هل أطاحوا برؤسائهم؟ لم يحدث شىء من هذا – فقد راجعوا حساباتهم ببساطة ليكتشفوا أن هناك خطأ ما – إذ كان المفترض أن ينتهى العالم فى وقت لاحق فى ذلك العام. إنهم لا يبدأون الشك

فى فروضهم الأساسية سوى عندما تخفق النبوءات بصورة متكـــررة. لقــد كانت نظرية فستينجر عن التنافر الإدراكى مثالا كلاسيكيا.

إن فلسفة تاريخ تصلح للعصر الحديث يجب أن تسير بمحاذاة الأسراب العديدة من التفكير السحرى أو التمنى ودوامات العقيدة الجوهرية الجامـــدة. إنها زيف التعليل المنطقى والقطب المضاد لجمع الحقائق. وليس ذلك بالأمر الهين كما قد يبدو. إذ إن هناك منظمات بعينها و" معاهد " تدعى لنفسها مـــا ليس فيها، فتضع نفسها داخل الحرم الجامعي. (على الرغم من أنها غالبا ما تكون منفصلة عن الكلية)، أو يصورون أنفسهم على أنها مراكـــز تفكيـــر مستقلة توظف المؤرخين باعتبارهم باحثين مقيمين أو تتعهد بالإنفاق علـــى المشروعات التاريخية لأهداف تتصل بالتحزب والعصبية. وهناك معهد مـــن هذا النوع طور أغراضه علـــى أنهـــا دراســـة " الحريـــة، والديموقراطيـــة والرأسمالية " ومعاهد أخرى تعقد مؤتمرات عن " مبادئ تأسيس أمريكـــا ". وفى مقابلة جرت فى ١٦ مارس٢٠٠٧ م مع الـــصحفى روبـــرت كرينـــاك بمجلة مؤرخة التعليم العالى "Chronicle of Higher Education" شرح مـــدير المركزالموجود فى جامعة كوجيت باسم Center for Freedom and Western Civilization أهدافه بقوله " هذه هى المشكلة العامة المرتبطـــة بـــالتوازن الإيديولوجى داخل الحرم الجامعي، لديك جدل حول الحرب فـــى العـــراق، والجميع ضد هذه الحرب، ولا أحد فى هيئة التدريس سيأخذ موقفـــا مؤيـــدا للحرب. كيف يمكن أن تعلم الطلاب إذا لم يكونوا قد تحدثوا قط إلى واحد من الأنجيليين، أو شخص فى الجيش، أو أحد مناهضى الإجهاض؟ كل هـــؤلاء الناس ليسوا موجودين بالمرة بين أعضاء هيئة التدريس بالكلية ".

ولنفترض أن المفهوم هو أن التاريخ الجيد نتاج لمناقشة بين اثنين على طرفي نقيض، شيء أشبه بطرفين فى قضية قانونية، ومن ثم يجـــب علـــى

كليهما التواجد فى المحكمة لطرح القضية. فماذا لو أنه لم يكن هناك مــؤرخ يمكن أن يمثل أحد الطرفين؟ منطقيا، قد يستنتج المرء أن مثل هذا الموقــف ليست له مصداقية بحثية – ولكنه ليس كذلك إذا ما كان واحد فقط يشك فـــى ذلك الرأى. إذن، فإن القراءات السحرية أو العقائديــة للأحــداث الجاريــة والتطبيق الانتقائى للغاية، أو التطبيق الخاص للحكايات التاريخية من أجــل دعم سياسات معينة، هى التى تنتزع الخطاب التاريخى العقلاني.

إن استحالة التاريخ لا يخفف منها ربط التاريخ بالعقــل أو بـــالمنطق، ولكن المؤرخين لا يمكنهم العمل بدون العقل والمنطق، ويجـــب أن يكونـــوا قادرين على الجدل اعتمادا على الاستدلال واختيار القطع المناسبة من الأدلة، التى قد لا تكون هى نفسها جسرا فوق الفجـــوة المـــستحيلة بـــين الحاضـــر والماضى، ولكنها تقدم مقاربة ثابتة وراسخة تصلح أساسا يـــربط مـــا بـــين الحاضر والماضي. ونحن بحاجة إلى أن نفترض أن المنطق التعليلى سوف يكون بمثابة المرحلة التى تمتد من الجسر إلى الشاطئ، وإلا فلن يمكننـــا أن نتخيل المسافة كلها.

(٢)

ما الخطأ فى هذه المجادلة؟

المشكلات التاريخية لا تطرح نفسها كتمارين منطقية مرتبة يجب حل كل معضلة تاريخية على حدة، وبشكل كلى غالبا وبمناهج خاصة بهذه المعضلة. ويمضى معظم المؤرخين فى تحيد المقدات والنتائج بوضوح وليس حسب قواعد المنطق.

ألان نيفيتز (١٩٣٩ م)

إذا لم تكن هناك فائدة فى الالتزام بالعقل ومعرفة القواعد المنطقية أكثر من البدء فى بناء المسافة بين الحاضر والماضى، فإن هذا يطمئننا أن بوسعنا أن نضفى المعنى على ما بقى من الماضى. وفى سنة ١٩٣٨ م أوصانا ألان نيفيتز أن نثق فى رشدنا فى مجادلاتنا التاريخية، بيد أن الرشد يقع فريسة الأخطاء المنطقية الشائعة.

ولست أول من يرى أن المغالطات المنطقية ترتبط بالتاريخ الذى يتخذ شكل المجادلة. ففى سنة ١٩٧٠م، نشر المؤرخ دافيد هاكيت كتابه الذى يحمل عنوان Historians' Fallacies، والذى كان سردا قاسيا يفتقر إلى الكياسة لتلك

المغالطات المنطقية التى قام بها مؤرخون مشهورون. وقد أزعج فيشر أن " أعمال كثير من المؤرخين المحترفين تشوبها فكرة معادية للعقل استحوذت عليهم – فانحازوا بشدة ضد المنهج، والمنطق، والعلم. .. والحقيقة أن المؤرخين ... يتخبطون فى الأخطاء وهم يقومون بعملهم دونما إحساس كاف بالغرض أو بالإجراء الذى يتخذونه ".

لقد اعتبر فيشر أن كل المغالطات المنطقية عبارة عن" انحرافات خاطئة". إذ إنها مضللة وتسيء التفسير، وخاطئة. والتحدى الذى يطرحه فى وجوهنا، بأن نتجنب المغالطات المنطقية، سوف يجعل البحث التاريخى – ودروس التاريخ – جديرا بمزيد من الثقة. بيد أن الكتالوج الذى وضعه فيشر للزلل والمزالق التى تؤدى بمعظم المؤرخين فى المغالطة المنطقية – بل إنه اتهم " مؤرخا موهوبا عظيما " اسمه ألان نيفيتز فى قسم من كتابه عن المغالطات المنطقية بأنه ينزلق " فى الأدلة غير المرتبطة بالموضوع " – هذا الكتالوج لم يشرح لماذا كان أمثال هؤلاء المؤرخين الممتازين مدانين بارتكاب مثل هذه الأخطاء الأولية. وإذا ما قلبنا مجادلة فيشر رأسا على عقب، يمكن للمرء أن يسأل: إذا كان أفراد النخبة فى المهنة مدانين بارتكاب تنويعة من المغالطات المنطقية، فهل يمكن أن يكون هناك دور ضرورى مشروع، بديلا، لأنماط بعينها من المغالطات المنطقية فى السرد والتحليل التاريخي؟

ويسلم المؤرخون بالدور الذى لعبه التفكير القائم على المغالطات المنطقية فى الماضى. ووفقا للمؤرخ الدبلوماسى إرنست ماى، فإن المشابهة مع التهدئة التى تمت فى ميونخ قبل الحرب العالمية الثانية قادت هارى ترومان إلى سوء فهم أبعاد الحرب الأهلية فى كوريا مما جعل حلها النهائى أصعب كثيرا. وكما أخبر الكونجرس فى ١٩ يوليو ١٩٥٠ م: " إن الأحداث

الأخيرة التى وقعت فى ثلاثينيات القرن العشرين، عندما أدى العدوان الذى لم يعارضه أحد إلى المزيد من العدوان، ثم أدى فى نهاية المطاف إلى الحرب، ما تزال ماثلة فى أذهاننا ". وثمة مغالطة منطقية أخرى، فقد كان افتراض أن كل الصراعات التى تضم قوى شيوعية لا بد أن تكون جزءا من الحرب الباردة تعميما كاسحا جعل من حرب وطنية أحد الاعتداءات الشيوعية، مما جعل الرئيس جون كينيدى والرئيس ليندون جونسون يوسع التزام أمريكا تجاه إدارة فاسدة وغير شعبية فى جنوب فيتنام، فقد قرر جونسون أمام الكونجرس فى ٥ أغسطس سنة ١٩٦٤ م: " هذه ليست مجرد حرب أدغال، وإنما نضال من أجل الحرية على كل جبهات النشاط الإنساني. والقصد من مساعدتنا لفيتنام الجنوبية ولاوس على وجه خاص أن نعينها على دفع العدوان وتقوية استقلالها ".

هل يمكن أن تكون المغالطة المنطقية صحيحة؟ إن غريزتنا العقلية تخبرنا أن هذا لا يمكن أن يحدث، بيد أن المغالطات المنطقية يمكن أن تكون تعليمية، خاصة عندما تكون محاولات أمينة لتلخيص كم هائل من المعلومات. والحدود بين ضغط التفكير والمغالطة المنطقية ليست حائطا عاليا وإنما هى أشبه بغشاء رقيق يمكن النفاذ منه. وبعض المجادلات تقترب من المغالطة المنطقية ولكنها تتحول إلى مساعدات معينة بل وضرورية للتفكير الرائق. ولا يمكن للمؤرخين أن يمضوا فى عملهم بدون هذه المجادلات الشبيهة بالمغالطات المنطقية.

شبه المغالطة المنطقية:

نحن بحاجة إلى التمييز بين المغالطات المنطقية غير الصورية التى أسميها شبه المغالطات، والمغالطات المنطقية الصورية. فالأولى عبارة عن

أنماط من الجدل الذى يباعد مابين ساقيه على الخط الفاصل بين ما هو مقبول وما هو غير مقبول فى الكتابة التاريخية. وتتضمن شبه المغالطات المنطقية: التعميم المتسرع، والتنميط والمجادلة من موقع السلطة، والمغالطة المنطقية " إما، أو "، والمجادلات القائمة على أساس التشابهات الضعيفة أو الخاطئة، والتعميم الكاسح، واستجداء السؤال.

ولنبدأ بالتعميم المتسرع، فى أية نقطة من الزمن يصبح التعميم المتسرع هو التخمين العلمي؟ هل كان على المؤرخين أن ينتظروا حتى تكون الأدلة كلها موجودة قبل القيام بأى تعميم؟ لو أنهم فعلوا هذا لما كتبوا كلمة واحدة. وكما كتب إدوارد هالليت كار فى What is History? يجب على المؤرخين الذين يريدون نشر أى شىء أن يبدأوا الكتابة قبل الانتهاء من جمع المادة. وقد صرح قائلا: " بالنسبة لى فبمجرد أن أحصل على عدد قليل مما اعتبره المصادر الرئيسية، تصبح الرغبة قوية للغاية وأبدأ الكتابة ". ولن تتوفر الأدلة كلها أبدا لأنه لا يمكن الحصول على الأدلة كلها فهناك الكثير منها ضاع إلى الأبد، بل إن الشطر الصغير الذى بقى منها تشوبه العيوب والنواقص. وقد عرفت مؤرخين أكاديميين قرروا أنهم لن يكتبوا كلمة قبل استيفاء الأدلة كلها. والنتيجة: أنهم يجدون أنمن المستحيل تقريبا أن ينجزوا ورقة بحثية يقدمونها. وإذ يفشلون فى النشر فإنهم يهلكون.

لقد طور المؤرخون المحترفون المناهج كثيرا لتحسين التخمينات التى لا تسندها الأدلة، ولكنهم إذا ما أرادوا النشر فى حياتهم، فإن عليهم القيام ببعض التعميمات البسيطة؛ بسيطة ولكنها متسرعة. ونحن نتيه عجبا بأنفسنا إذا كان البحث عميقا. ولكن الحقيقة أننا نقفز إلى الاستنتاجات طوال الوقت. وفى بعض الأوقات تكون غير كافية، على حين تكون مقبولة فى أحيان أخرى. وهناك مثالان سوف يوضحان ما أعنيه. فى المثال الأول، كان

المؤرخ دانيل بورستين متسرعا بأكثر مما ينبغى. ففى كتابه الفائز بجائزة Bancraft Prize، والذى يحمل عنوان :

(The Americans: The National Experience 1965) يصور العبيد بشكل عابر على أنهم ضحايا لا حول لهم ولا قوة. وقد جادل بورستين بأن الرق " كان يميل إلى تدمير ثقافة العبد الإفريقية، ويعريه من تراثه عندما وضعه فى العالم الجديد ". والأسوأ من هذا، فى أمريكا، أن" المهاجر الأفريقى كان رجلا بلا عائلة. .. ومن بين التأثيرات اللاإنسانية للرق، لم يكن هناك ما هو أعمق من إعاقة الأمومة وتحويلها ". لقد كان بورستين قد عمم بتسرع مفرط، لأن الأفارقة قد جلبوا بالفعل الأساليب الإفريقية إلى أمريكا، كما أن العبيد أعادوا بناء عائلاتهم فيها، على الرغم من أن القانون لم يعترف بها غالبا. هذه التعميمات المتسرعة لم تحظ بالقبول.

وإذا كانت هناك مخاطرة فى التعميم المتسرع، فإن التفكير النمطى فعل متهور. ذلك أن التصنيف الذى يشبه رعشة الركبة للآخرين الذين يختلفون عنا والذيلا نرى فيه الفردية ولكننا نجعله تنميطا متسرعا لمجموعة تم تعريفها تعريفا هزيلا فى عجالة، يتركنا فريسة لانحيازاتنا الخاصة. وبينما يمكن الدفاع عن بعض التنميط بوصفه اختصارا، فإننا غالبا ما نستنتج أن " هم " أدنى منا، وخطيرون، وأغراب. وثمة تعليق من جانب قاضى المحكمة العليا فى الولايات المتحدة هوجو بلاك بعد الحرب العالمية الثانية بأنه فى أثناء الحرب " كان الناس يخافون عن حق من اليابانيين... فهم جميعا يبدون متشابهين أمام الشخص غير اليابانى "، وقد عكس هذا التعليق موقفه المتطرف. وشاركه هذا الرأى فى احتمال عدم ولاء كل أمريكى يابانى عاش على الساحل الغربي، الكونجرس والرئيس فرانكلين روزفيلت الذى أمر بترحيل الأمريكيين اليابانيين من الساحل الغربى " وإعادة توطينهم " فى "

معسكرات تجميع ". ولو كانت السلطات قد نظرت بقدر أكبر من الحـــرص إلى مائتى سنة تقريبا من تجربة الأمريكيين اليابانيين، لوجـــدوا قومـــا ذوى وطنية عميقة.

سقط المؤرخون فى هذا الفخ. والمثال الكلاسيكى على هذا هو المؤرخ الأمريكى الشهير فرنسيس باركمان الذى عاش فى القرن التاسع عشر، فـــى الصورة الكاريكاتورية التـــى رســـمها للهنـــود فـــى The Jesuits in North America الذى صدر سنة ١٨٦٧ م، وقد زاوج باركمان بين التعميم الكاسح والتنميط الخالص، فى وصفه: " إن التحكم فى النفس المعروف تماما، والذى يرجع أصله إلى شكل من أشكال الكبرياء، يغطى الطبيعة الوحشية للإنـــسان بقناع أو نقابعلى الرغم من أنه قناع رفيع. .. وعلى الرغم مـــن أن الهنـــدى أجوف، متباه، شرس، فإنه يتحمل الإساءة والسخرية بصبر مدهش ". وهو ما يعنى أن الهنود جميعا على هذه الشاكلة، ولم يغير وصول الأوربيـــين فـــيهم شيئا، لأنها حضارة تجمدت فى الزمن. إنه لتنميط ظالم حقا.

ويضرب التنميط الذى وضعه باركمان بجذوره فى الانحيازات الطبقيـــة والثقافية. وكما وضعها هنرى لودج، وهو براهمانى آخر من بوسطون، فـــى خطبة له سنة ١٨٩ م: " إن الناس من كل جنس يمتلكون رصـــيدا لا يمكـــن تدميره من الأفكار، والتقاليد، والعواطف، وحالات الفكر، وتراث فى اللاوعى جاءهم من أسلافهم، وليست للمجادلة عليه أى تأثير ". ووراء كل نمط توجـــد بشكل حاد فسيفساء أقل تمايزا من الافتراضات القائمة عن الناس وأساليبهم فى الحياة. والمؤرخون اليوم تنتابهم قشعريرة من جراء حشر باركمـــان بـــسهولة لكل الهنود فى فئة متوحشة وغادرة، وإزاء عنصرية لودج المكشوفة، ولكـــن الحقيقة أن لدينا خرائطنا المعرفية الخاصة التى شـــكلتها التجربـــة والتقاليـــد والتطلعات التى تؤثر على كيفية تعريفنا لشخصيات الآخرين.

ويمكن أن يكون التنميط الذى نقوم به متحذلقا إلى حد كبير. ففى دفاعه عن الرأسمالية الغربية، أطلق المؤرخ دافيد لانديس قذيفة على " الفاشـلين " فى السباق من أجل الثروة محتفيا بمهارات الرابحين: " من العمل بمعـدات وتقنيات متواضعة، وإن كانت بارعة، صرنا نحن السادة الغـربيين أسـاتذة الآلات العظيمة والقوى الخفية. وإذا ما نحينا السحر والخرافات جانبا، فإننـا قد عبرنا من المحاولة والتجربة الذكية إلى قدر كبير ومتزايد مـن المعرفـة العلمية التى تولد فيضا من التطبيقات المفيدة " كان الأفراد الحديثون الأقـل ارتباطا بأصنام العلم والتحسن المادى يخدعون أنفـسهم. " وأولئـك الـذين ينفصلون عن العالم المادى الغنى ليجدوا التجديد الروحى فى الطبيعة ربمـا يتركون ساعاتهم وراءهم ولكن... إنهم عادة يعرفون ما يكفى للحصول على المساعدة الطبية عند الحاجة إليها ". وفى هامش بكتابه يتحدث لانديس إلـى القارئ مباشرة: " إننى أتذكر أن الخرافات والسحر لم تمـت، وقـد يجـادل البعض بأن العقيدة الدينية جزء من هذه الحزمة. ولا شك فى هذا، لأننا فانون وضعفاء، نبحث عن الراحة حيث ينبغى أن تكون " – إنه تنميط غايـة فـى التعقيد لكل أولئك الفانين الذى لم يروا العالم من خلال نظارات لانديس.

ومن السهل تماما أن نحدد التنميط الشرير وندينه فى كتاب من كتـب التاريخ اليوم، وإن لم يكن بمثل هذه السهولة فى السنوات الفائتة. والأمر ليس كذلك بالنسبة لمجادلة مزيفة تقوم على لماذا، ومتى (أو إذا). ذلك أن المجادلة التى يقوم بها عالم حجة لها شعبتان، وهما على عكس نهايات المدراة، تنطبق كل منهما على الأخرى. الشعبة الأولى تقول إننى على حق لأننى حجة فـى الموضوع (سلطة). خذ مثلا، المجادلة من موقـع الـسلطة فـى الأوسـاط الأكاديمية. فعلى الرغم مما قد تقوله أى من الكليات والجامعات فى الولايات المتحدة اليوم عن استقلالية هيئة التدريس، فإن السلطة فى الجامعـات مـن أعلى لأسفل. فالأمناء يقولون لرئيس الجامعة ما الذى ينبغى عمله؛ ورئـيس

الجامعة يخبر العمداء؛ وهم يقولون لرؤساء الأقسام. والآن، فى أى موضوع محدد، قد يقول أى عضو من أعضاء هيئة التدريس أن من حقه أن يستمعوا له ويأخذوا برأيه لأنه حجة فى الموضوع. هذا عندما تتقاطع الشعبتان. وهناك مثال آخر: عندما يصوت أعضاء هيئة التدريس لترقية أحد الزملاء، يصوت الأساتذة لترقية الأساتذة المساعدين، وكلاهما يصوت لترقية المدرسين. ذلك أن السلطة والمرتبة العلمية تتوافقان. ولكن أى واحد على ألفة باجتماعات الأقسام أو مجلس الكلية يعرف أن السلطة تأتى من الخبرة، وليس من المرتبة الرسمية. وثمة مثال ثالث: الباحثون الذين يبحثون عن ناشر لمخطوطاتهم يعلمون أن هناك تراتبية فى دور النشر. انشر فى واحدة من مطابع جامعات القمة، وسوف يكتسى الكتاب ومؤلفه سلطة. وانشر فى مطبعة أقل مرتبة، فسيكون الكتاب ذا سلطة أقل. وسوف يعانى المؤلف تبعا لذلك.

وبالنسبة لأولئك الذين خارج النطاق الأكاديمى (وكذلك بعض الذين داخله) ربما تستند السلطة إلى تراتبية المؤسسات. إذ إن منشورات مؤسسة مثل:

The Chronicle of Higher ،US News and World Report Education وغيرها من المنشورات، عبارة عن مدارس فى التنظيم التراتبي. وفى كليات القمة يتحدث أعضاء هيئة التدريس بسلطة أكبر من أعضاء هيئة التدريس فى الكليات الأدنى مرتبة، أو على الأقل تفضل وسائل الإعلام أن تقتبس كلام أعضاء هيئة التدريس فى كليات القمة. ويقول الباحثون الشباب الذين يبحثون عن وظائف إن المؤسسة العلمية التى تمنح الدرجات العلمية هى أهم ميزة أولية – أو عيب – يحسب لطالب الوظيفة فى المقابلات. ويظهر ترتيب برامج تدريب الخريجين الأعلى رتبة سنويا فى مجلة U S News and World Report مما يشكل مصدرا لقلق الجميع ومصدر

عذاب لتلك البرامج التى تنزل فى الترتيب. وقد دعى تحالف فضفاض من كليات وجامعات القمة، احتجاجا على ذلك، إلى فرض حظر على المعلومات لتلك المجلة.

وإذا ما تضافرت الخبرة والموقع الرسمى سويا فإنها تضفى المصداقية على مجادلة السلطة. بيد أن الأمريكيين يترددون أحيانا فى التسليم بسلطة الخبراء عندما يتعلق الأمر بالتاريخ. ولو أن كل رجل هو مؤرخ نفسه، لكانت الذاكرة مقياس التاريخ، ومن ثم، فإن طبيب الأسنان وعامل توصيل الطلبات لديهما مما يقولانه عن التاريخ ما يضاهى ما لدى المؤرخين المحترفين. وفى المناقشة حول مستويات التاريخ الوطنى فى المدارس العامة، لعبت كل من تنويعتى مجادلة السلطة دورا حاسما. وفى سنة ١٩٨٨م قام الوقف المسمى The National Endowment for the Humanities بتمويل معهد بجامعة كاليفورنيا، فى لوس أنجليس، لكتابة مناهج نموذجية لتدريس التاريخ فى المدارس من الصف الخامس إلى الصف الثانى عشر. وقد جمع المعهد نخبة من الخبراء فى التدريس والباحثين لإعداد مستويات التاريخ الوطني. وإذ عملوا تحت قيادة المؤرخ جارى ناش، فإنهم فى الواقع قاموا بمجادلة من موقع السلطة؛ نحن الخبراء، ونعرف الرواية الأكثر دقة والأشمل فائدة فى التاريخ للطلاب.

وقد شرح ناش ما ظن أنه الاتجاه الذى ينبغى أن تسير فيه المعايير: " والرأى القائل إن التاريخ مع الناس رأى لا يناسب المجتمع الديموقراطي، الذى يفترض فيه أن تكون المواطنة النشطة جوهرية للحفاظ على الحرية، فحسب، بل إنه أيضا الرأى الأكثر دقة ". وقد دخلت الجمعية التاريخية الأمريكية أيضا فى الموضوع، وجادلت بأن معايير تاريخ العالم يجب أن تتخلى عن النموذج المركزى الأوربى وتعطى وقتا مساويا لمراكز

الحضارات الأخرى فى العالم. وعندما نشر " المركز الوطنى للتـــاريخ فـــى المدارس "، بعد ست سنوات وعدد كبير من اجتماعات اللجنة، والمـــسودات، والمراجعات، ثم المزيد من المراجعـــات، المعـــايير والخطـــط النموذجيـــة للدروس، سقطت السماء فوق رءوسهم.

كان ذلك يوم الذروة فى " الحروب الثقافية " عندما قـــام الليبراليـــون والمحافظون بكتابة مقالات يردون بها على بعضهم البعض "من" الذى يجب أن يقوم بتعليم " ماذا " فى المدارس والكليات الأمريكية. وبدلا من الاحتفـــاء بما كان الرجال العظماء قد أنجزوه، اتخذت معايير التاريخ الـــوطنى رؤيـــة أكثر نقدية عن الماضى الأمريكي، وهى الرؤية التى كانت دعامة " التـــاريخ الجديد " فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وهى رؤية شـــارك فيها كثير من المؤرخين البارزين. وقد صوت السناتور فى الولايات المتحدة يوم ١٨ يناير ١٩٩٥ م، بنسبة ٩٩ إلى واحد، بأن المعايير ليست مقبولة لأن الخبراء قد وجهوها الوجهة الخطأ وعلى حد تعبير السناتور الجمهورى سليد جورتون من واشنطون: " إذا كانت وزارة التعليم، ووقف الإنسانيات، أو أية وكالة فيدرالية أخرى، تقدم الميزانيات لتطوير المعايير... فإن من يتلقى مثل هذه الميزانيات يجب أن يكون لديه احترام وافر لإسهامات الحضارة الغربية، وتاريخ الولايات المتحدة، وأفكارها، ومؤسساتها، لزيادة الحرية والرخاء فى جميع أنحاء العالم". وفى خارج الكونجرس، كان الهجـــوم علـــى المعـــايير والخبرة، أشد وطأة ووقاحة. فقد تباهى المعلق الإذاعى المعروف ذو النزعة السياسية المحافظة، روش ليمباج، بأنه لم يكن خبيرا وأنه لهذا السبب نفـــسه كان يعرف أكثر من جميع الأساتذة سويا. وأن أى سائق حافلـــة أو طبيـــب أسنان يمكنه أن يعمل بطريق أفضل منهم، حسب رأيه.

ومن بواعث السخرية أن بعضا من أقسى النقاد فى وسائل الإعلام لمعايير التاريخ الوطنى قالوا ما يعنى أن للتاريخ سلطته الخاصة. فعبارات مثل " التاريخ يخبرنا " و" التاريخ يعلمنا " و"درس التاريخ هو " هى ما يردده هؤلاء الذين عينوا أنفسهم علماء جهابذة، ويدعون أن من يرفض الاستماع إليهم هم الحمقى والمتصلبون فى آرائهم. ومن قبيل الإحسان يمكن للمرء أن يضع مصطلحا لهذا الشكل من مجادلة السلطة يصفه بأنه شكل ساذج من أشكال الموضوعية التاريخية، ولكن المزاعم من هذا النوع غالبا ما تكون لها جذور فى الموضوعية السياسية. فعلى سبيل المثال، جذب نيوت جينجريش الأنظار لروايته عن بيرل هاربور بقوله: " باعتبارى مدرسا سابقا للتاريخ، فإننى استعد للمستقبل بدراسة الماضى. ولهذا فنحن على يقين أننا ننقل من خلال القصص المروية فى بيرل هاربور بعض الدروس المهمة لأمريكا اليوم " كان ذلك الدرس سياسيا: " الحقيقة الأكثر رسوخا عن ذلك الصباح المشئوم فى هاواى سنة ١٩٤١ م أن شيئا يبدو أنه بقى دون أن نتعلم منه – فى الروح الأمريكية. ذلك أن هناك حكايات كثيرة عن البطولة التى تجلت فى ذلك الصباح وليست هناك حكايات عن الجبن " وما يزال الدرس جيدا: " فكروا فى هذا، لقد شهدنا الشيء نفسه بالضبط فى ٩/١١ ". وقد استثار جينجريش ما سبق أن قاله لودج من أن هناك " مخزونا لا يمكن تدميره من الأفكار "، واستثار روح الشعب الفطرية وما يرتبط بها من القدرة على التغلب على أى تحد. لقد أعطى التاريخ نفسه لجينجريش سلطة الاحتفال بالبطولة الأمريكية.

وقد أثار نقاد معايير التاريخ الوطنى الرأى العام عندما اتهموا الخبراء بأنهم يقومون بمغالطات منطقية جدلية من موقع السلطة. ولكن تاريخ المهنة

التاريخية يظهر التطور المعاكس – أى التحول من الهواة إلى الموهوبين فى القرن التاسع عشر إلى المحترفين ذوى الجدارة فى زماننا. ومعظم التاريخ يكتبه الآن الحاصلون على درجة الدكتوراه فى أحسن الجامعات. والدراسة صارمة، ولا يجتازها كل من يلتحقون بها. بل إن الأفضل بينهم يجد صعوبة فى الحصول على عمل فى إحدى الكليات أو الجامعات، إذ إن المنافسة تلهب سوق العمل، ومن ثم فإن على المدرسين الجامعيين، إذا ما وجدوا أية فرصة، أن يقبلوا تحديات مقابلات الحصول على الوظيفة. ويقرأ المحكمون الخارجيون ما نشره المرشح للوظيفة. وتزن اللجان والمجالس الداخلية إنجازات المرشح فى مجال البحوث. وفى معظم الكليات والجامعات، يحتاج المتقدم للوظيفة إلى نشر كتاب فى دار نشر طيبة السمعة، ويحصل على مراجعات وعروض جيدة لكتابه، ويكون له مشروع رئيسى جديد يعمل فيه لكى يحصل على الوظيفة. والأمر برمته مخيف ولكن عندما يتم تخطى هذه العقبات، يكون المؤرخ الشاب قد بدأ فى تعلم المهنة. والخبرة فيما بين البداية والنهاية هى التى تصنع الفرق كله.

وثمة شكل آخر من الجدل يقوم على أساس الخبرة هو ما نسميه جاذبية السلطة. والتسمية اللاتينية لها argument ad verecudiam. والمشكلة بالنسبة للمؤرخين هى نفسها المشكلة التى تواجه كل امرئ. ولا تتفق السلطات دائما. والمحكمة العليا فى الولايات المتحدة إحدى هذه السلطات. فبعد سنتين معذبتين من الجدل الشفاهى، والمؤتمرات، والمسودات والمراجعات، أصدرت المحكمة حكما فى قضية " روى ضد ويد " سنة ١٩٧٣ م. وكتب القاضى هارى بلاكمون عن نفسه وعن ستة من رفاقه أن لروى الحق فى " الخصوصية " وأن هذا الحق يتضمن حق الإجهاض فى مراحل الحمل الأولى. وانضم القاضى وليم دوجلاس إلى بلاكمون فى رأيه وأضاف قائلا

فى موافقته: "إن حرية الاختيار فى القرارات الأساسية فى حياة المرء فيما يتعلق بالزواج والطلاق، وإنجاب الأطفال، والحمل وتعليم الأطفال وتربيتهم" أمور يحميها الدستور الذى هو المصدر الأساسى للسلطة فى أمريكا: "والمرأة حرة فى اتخاذ القرارات المتعلقة بحمل طفلغير مرغوب فيه ". وعلى كل ولاية تحرم قوانينها الإجهاض أن تلقى بتلك القوانين فى النفايات.

ولكن القاضى بايرون هوايت والقاضى وليم رينوكويست اختلفا مع هذا الرأى وعارضاه بشدة. وشرح القاضى رينوكويست سبب اعتراضه بقوله: "أجد صعوبة فى الوصول لاستنتاج، أن الحق فى "الخصوصية" يدخل ضمن هذه القضية، إذ إن تكساس، حسبما يقضى القانون هنا، تمنع الإجهاض الطبى على يد طبيب لمدعية مثل روي، والاتفاق الذى تنتج عنه عملية مثل هذه ليس اتفاقا "خاصا "بحسب الاستخدام العادى للكلمة". ولقد كشفت تعليقات القاضى هوايت عداء شخصيا أشد ضد الإجهاض: "فى قلب الجدل حول هذه القضية توجد تلك الحالات من الحمل الذى لا يمثل أى خطر على حياة الأم أو صحتها، بأية صورة، ولكنها مع هذا حالات حمل غير مرغوب فيها لسبب أو لآخر – المواءمة، التخطيط الأسري، الجوانب الاقتصادية، عدم حب الأطفال، الحرج من عدم الشرعية... إلخ – إن الدعوى العامة التى أمامنا هى أنه يحق لأية امرأة، ولأى من هذه الأسباب، أو دونما سبب على الإطلاق، وبدون تأكيد أو ادعاء وجود تهديد للحياة أو الصحة، أن تقوم بالإجهاض حسب طلبها إذا ما استطاعت أن تجد طبيبا على استعداد للقيام بالعملية".

وأصدر The National Conference of Catholic Bishops، عندما صدر قرار المحكمة بيانا رسميا يقول نصه: " لا يمكن أن يكون هناك أى قبول أخلاقى للقرار الصادر حديثا من المحكمة العليا فى الولايات المتحدة،

والذى يقضى بإضفاء الشرعية على الإجهاض... يجب على الكاثوليك أن يتبعوا السلطة الأعلى كما يفسرها آباء الكنيسة، لا سلطة المحكمة ". لقد كانت تلك سلطة ضد سلطة، ويستمر النزاع لأن السلطتين لا يمكن أن تتفقا.

ويمكن للمرء أن يجد أمثلة أقل عاطفية فى كل باب من أبواب " بريد المحرر " فى كل مجلة من المجلات التاريخية العلمية. فالباحث الذى لقى كتابه مراجعة تخلو من المجاملة سوف يجادل بأنه يعرف أكثر من الذى قام بالمراجعة وأنه كان من الواجب أن يلقى قدرا كر من الاحترام. وعبارة " ألم يكن حريا بالمراجع الذى يعرض للكتاب أن يقدم للقراء نظرة كلية على محتويات الكتاب؟ " عبارة تتواتر كثيرا فى الخطابات التى يتلقاها محررو عروض الكتب. وربما يرمى المؤلف الغاضب، أو من يعرض الكتاب بطريقة صحيحة، خصمه بنقص الخبرة أو انعدام المؤهلات. ففى إحدى المرات رمى المراجع مؤلف الكتاب بأنه " ميال إلى القتال بشراسة ومع هذا فهو مشوش "، وقد ردَ المؤلف بقوله إن خصمه قد وصمه بما ليس فيه وأنه أخفق فى تقديم ما يدعم هجومه.

وبعض مواقع الإنترنت لبعض الباحثين مكرسة للحط من شأن خصومهم اعتمادا على السلطة. ففى أحد هذه المواقع، يدين أستاذ كبير فى القانون ويمارس الكتابة فى التاريخ " الأكاذيب الفاضحة " التى قالها أو كتبها " البروفسور فلان ". والبروفسور فلان هذا مدرس فى العلوم السياسية يكتب أيضا فى التاريخ، وقد رد ردا من النوع نفسه: " إن البروفسور علان قد شن حملة شعواء من الذم والقدح " ضد البروفسور فلان. وقد تضمنت الحملة التى شنها " علان " خطابات أرسلها إلى ناشر كتاب البروفسور "فلان "، وإلى حاكم الولاية التى يمارس فيها الناشر عمله طالبا تغييرات فى الكتاب، ثم أرسل بعد سنة خطابات إلى الجامعة التى يعمل بها المدرس الجامعى يسبه

ويطلب من زملائه حرمانه من وظيفته. وعلى الرغم من أن الجامعة أنكرت بحرارة أن خطابات المهاجم كان لها أثر على قرارها، فإنها أنهت خدمة المدرس الشاب. وتستمر المعركة على الإنترنت بين الخصوم. أما الذى يجعل هذه الاتهامات والردود عليها ترتفع فوق مستوى الجامعة فهو أن كلا الأستاذين يزعمان أنهما خبيران فى موضوعهما المشترك: تاريخ إسرائيل التى قامت منذ زمن قريب. وفى غمرة التنافس بين سلطة وسلطة أخرى كتب كل منهما الكتب للرد على الآخر بلا مواربة.

وفى صورة أخرى من صور شبه المغالطة المنطقية هذه، هناك اثنان أو أكثر مشتبكان فى نزاع حول ما إذا كانت العبارات حقيقية، ولهذا فإنهم يسعون إلى السلطة لكى تحل النزاع. وفى حلقة نقاش بحثية غالبا ما تتخذ المجادلات حول أعمال الباحثين الآخرين شكلا مماثلا، مع وجود أفراد يمتدحون أو يذمون البحث على أساس جاذبية سلطة المؤلفين. وهناك اثنان من حلقات نقاش التاريخ هذه (السيمنارات) وكلاهما فى جامعة بارزة، نالتهما الفضيحة بسبب التنابذ بالألفاظ. وفى إحداهما، يتطابق النزاع مع تقسيم سياسى بين اثنين من الباحثين الكبار فى التاريخ الأمريكى فى القرن التاسع عشر. وفى السيمنار الثاني، جلب الداعى إلى السيمنار، وهو إنجليزى خبير فى تاريخ إنجلترا القرن السابع عشر، النمط الأكاديمى الإنجليزى فى النقد الحاد واستئثار رجل واحد بالسيمنار. بيد أن اللجوء إلى السلطة ليس سوى شبه مغالطة منطقية. ففى أية حالة خاصة، إذا كانت السلطة جيدة، فلابد للمجادلة من موقع السلطة أن تكون ذات وزن، على الرغم من أن السلطة قد تكون على خطأ.

وفى المغالطة المنطقية على أساس " إما، أو " يكون كل شىء إما أبيض أو أسود، طيبا أو سيئا، حقيقيا أو زائفا. وتؤكد المغالطة المنطقية "

إما، أو " أنه إذا كانت هناك مقدمة منطقية غير حقيقة، فلابد أن يكون عكسها كذلك. وبمفهوم المنطق الصوري، تكون "P" حقيقية أو تكون "q" حقيقيــة. وإن كانت "p" غير حقيقية، فلابد أن تكون " q" حقيقية. ولكــن فــى العــالم الحقيقي، ربما تكون كل من "p " و "q" غير حقيقية، أو ربما تكون كلتاهمــا حقيقيتين، أو قد لا تكون هناك علاقة بين "p" و "q" على الإطلاق. ولا تسلم تعقيدات التاريخ نفسها طواعية لمثل هذه الأحكام المرهقة.

وعندما اتفق المؤرخون على إعداد ملخص ليكــون بمثابــة " واســطة تحليل" فى قضية وبستر ضد " خدمات الصحة الإنجابية " (١٩٨٩ م) لمساندة حق النساء فى الإجهاض، كانوا يظنون أن تقريرا مفصلا عن دقــائق قــانون الإجهاض فى الماضى سوف سيحل النزاع. وقد أخبــر المحــامون الكاتــب الرئيسى للتقرير أن التعقيد غير مطلوب وبدلا من ذلك، يجب أن يقدم التقريــر دليلا واضحا أحادى الجانب على أن النساء فى أمريكا القرن التاسع عشر كان لهن الحق فى الإجهاض. ولم يؤد الملخص الذى قدموه إلــى إنهــاء النــزاع، واستمرت المواجهة بين مؤيدى الإجهاض ومعارضيه. وإذا كانت مثــل هــذه المعارضة بين الأبيض والأسود حقيقية اليوم بشكل واضح، فإن السبب فى ذلك يرجع فقط إلى أن المدافعين على كلا الجانبين يدفعون فى الموضوع بمجموعة من الفئات الأخلاقية. وينبغى على المؤرخين أن يكونوا على حذر من مثل هذه التجاوزات العالمية، ويجب أن تكون فلسفة التاريخ كذلك.

وثمة بعد نفسى فى المغالطة المنطقية القائمة على قاعــدة" إمــا، أو " والتى تروق للمؤرخين فى أساليبهم التلقائية. ويصدق هذا بصفة خاصة على كاتبى السير والتراجم الشخصية. فالسيرة التى كتبها روبرت كارو عن حياة مخطط المدن روزبرت روبرت موسى صورة لاذعة لشخص مصاب بجنون العظمة فالفقرات الأخيرة من كتاب:

الذى نشره سنة ١٩٧٤ م، فقرات من الصعب نسيانها: " لقد تـوفرت لديه ذات مرة الكتائب التى يقودها والتى تمكنــه مــن اســتعراض قدرتــه الإدارية؛ ولم يعد لديه الآن سوى سكرتيرته وسائقه اللذين يتصرف معهمــا على هذا النحو. كان الرجل فظا، خشنا ومتغطرسا فى الحديث معهما وعنهما ... وقد توارى اسمه من العناوين الرئيسية فى مدينة نيويورك منذ زمن بعيد ... وفى حياته الخاصة كانت أحاديثه تتناول باستمرار موضوعا واحــدا – نكران الجميل الذى يلاقيه من العامة تجاه رجــل عظــيم... فلمــاذا كــانوا جاحدين؟ ".

لقد كان الكتاب الذى وضعه كارو عن موسى سلبيا يفتقر إلى الرحمة. ولكن كارو كان استثناء فى هذا. إذ إن معظم كتاب التراجم الشخصية يقعون فى غرام موضوعاتهم فقد كتب دافيد ماكوللوف سيرتين فازتا بجائزة بوليتزر عن هارى ترومان وجون أدامز، ويتألق كل من الرجلين فى تقديره. ويحكى عن آدامز مقابلة قال فيها: " أن تجد شخصا يتولى أعلى المناصب الــسياسية عندنا ويفعل ما يظن أنه الصواب، بغض النظر عما قد يعنيه بالنسبة لموقعه السياسى – وبالنسبة لى فإن ذلك موضوع جذاب... الحرمان من متع الحياة واتساع نطاق أسفاره والمخاطر التى خاضها فى حياتــه. وحقيقــة أن هــذا الرجل لم يتقاعس قط عن تلبية نداء الخدمة، بصرف النظر عــن مــصالحه الخاصة أو وسائل تأمين عائلته ".

كان التفكير بطريقة " إما، أو " وراء بعض أفدح الأخطاء التى ارتكبها قادتنا فى تاريخنا. فقد كان الجنرال فيليب شريدان، مثلا، انعكاسا لعملية نزع ممتلكات الأهالى الأصليين حتى من كانوا منهم حلفاء أو أصدقاء، أو تقبلــوا الطريقة الأوربية فى الحياة، على الرغم من أن الهنود الوحيــدين الطيبــين

الذين عرفهم كانوا الموتى منهم فقط. وكانت اللافتات التـــى تعلـــن " لـــيس مطلوبا أيرلنديين "، فى إعلانات الوظائف فى أمريكا قبل الحرب الأهلية، لا تنبذ الأيرلنديين فحسب، وإنما كانت تحرض الجار على جـــاره، والجماعـــة العرقية ضد جماعة عرقية أخرى. كان شعار مقاتلى الحرب الباردة فى أثناء " الفزع الأحمر " هو " إما أن تكون وطنيا أو متعاطفا مع الشيوعية "، وهـــو الشعار الذى ساد فى خمسينيات القرن العشرين وكلف الكثيـــر مـــن النـــاس الجيدين مستقبلهم وسمعتهم.

وتستند أحكام " إما، أو " على شبه مغالطـــة منطقيـــة أخـــرى طلبـــا للمساندة. هذه هى المغالطة المنطقية القائمة على التعميم الكاسح، أو باللاتينية dicto simpliciter. وفى كتابه الكلاسيكى الكاســـح بعنـــوان Modern Times 1938 يفتتح بول جونسون الفصل المسمى The Collective Seventies بتعميم كاسح بقوله: " إن الفوضى الاقتصادية تسبق الفوضى العسكرية فى الحـــرب ". ولا يمكن للمرء أن يجادل فى هذا، لأن الحرب فعلا تجئ عقب فترة مـــن الارتباك الاقتصادي. إلا أنها أيضا تعقب فترات النمو والتوسع الاقتـــصادى (فمثلا، أدى التوسع الاقتصادى فى أوربا إلى الحـــروب الاســـتعمارية فـــى القرنين السابع عشر والثامن عشر مباشرة). ويحدث أيضا ألا يؤدى الركود الاقتصادى إلى الحرب، لأنه لم تكن هنـــاك حـــرب فـــى أعقـــاب الركـــود الاقتصادى والكساد الذى ساد أمريكا فى ثمانينيات القرن العشرين، ففى كتاب الراحل دافيد هالبر ستام المدهش والمثير (The Fifties 1993) يبدأ فصل عن بناء ضواحى المدن بقوله: " بينما كان المزيد والمزيد من الناس ينتقلون إلى الضواحى، برزت الحاجة إلى أماكن جديدة وطرق جديدة للتسوق – وظهرت الحاجة أيضا إلى أشياء جديدة تشترى لملء هذه الآلاف الجديدة من المنازل الجديدة... وكان مقدرا للتسوق والشراء أن يستأثرا بمعظم وقت الأمريكيين".

حقا، ولكن التعميم الكاسح يخفى حقيقة أنه منذ اللحظة التى جلب فيها التجار الأوربيون بضائعهم من الأوانى الحديدية والمسابح الزجاجية إلى أمريكا، صار التسوق هواية الأمريكيين لتمضية الوقت وأصبح مركز التسوق فى الضاحية بديلا لسوق القرية الذى كان يقام فى مفترق الطرق من قبل، وأصبح وكيل الإعلانات خليفة البائع المتجول فى المناطق النائية. باختصار لم يوجد شيء جديد حقا فى خمسينيات القرن العشرين يتعلق بالنزعة الاستهلاكية. لقد أضلنا التعميم الكاسح.

ولكن قبل أن نقرر عدم الثقة فى أى كتاب يتناول موضوعا كبيرا (ويجب قبل أن تكون لدينا بعض التعميمات الكاسحة) فإننا بحاجة إلى فهم مدى ضرورته ومدى شعبيته. فإذا كان هناك تعميم كاسح يميل إلى تجاهل سياق بعينه، بما فى ذلك الأحداث السابقة، فى غمرة الجهد لربط الكثير من القطع والأجزاء الصغيرة سويا، فمن الممكن أيضا جمع الخيوط العديدة لقصة ما سويا فى كل يفرض نفسه. وكما قال برنارد بايلين، وهو أحد مؤرخى أمريكا البارزين، أمام المؤتمر السنوى للجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٨١ م: " إن التكاثر العظيم فى الكتابة التاريخية لم يخدم فى إلقاء الضوء على الموضوعات المركزية فى التاريخ الغربى وإنما أسهم فى حجبها... وكتابة مثل هذه السرديات الأساسية – التى يحكمها إحساس بالحركة خلال الزمان، وضم الدراسات الفنية، المكرسة لبيان كيف أن العالم الحالى قد تشكل عندما ظهر فى ماض مختلف تماما ومن ثم ركز على التحولات الحاسمة من الماضى صوب الحاضر – تبدو لى تحديا كبيرا يواجه البحث التاريخى الحديث".

وبطريقة أقل فى مداه نعتمد على التعليل بقصور الأدلة للوصول إلى القرارت. ولا يعتبر التعليل بالقصور وغياب الأدلة برهانا ولا دليلا. فالحقيقة

أنه مجرد معيار تقديرى للطول من النوع الذى يستخدمه النجـــارون. ولأن بعضنا قد يمتلكون أصابع كبيرة والبعض الآخر أصابعهم قصيرة فإن القياس بالشبر (على طريقة النجارين) ليس قياسا دقيقا. ومن ثم، فإن أى استنتاج قد يكون مبنيا على التقريب والتقدير الظنى، ولكن كما هو الحال فـــى التعمـــيم المتسرع، نحن نحتاج إلى القياس بالشبر أو التعليل بالقصور. ونحن نـــسمى هذا فى الأوساط الأكاديمية مستويات، وأحيانا، عندما نضع الـــدرجات فـــى امتحان كتابة مقال، يكون صعبا أن نفعل ما هو أكثر من التعمـــيم. وعنـــدما كان على القاضى بوتر ستيوارت فى المحكمة العليـــا بالولايـــات المتحـــدة الأمريكية أن يحدد الأدب المكشوف فى قـــضية جـــاكوبللى ضـــد أوهيـــو (١٩٦٤ م) لم يستطع أن يضع قاعدة، وإنما قدم قاعدة تقريبية: " إننى أعرفه عندما أراه ". وباستخدام قاعدة القياس التقريبي، وجدت المحكمـــة أن الفـــيلم الفرنسى The Lovers ليس منافيا للآداب العامة.

ومثلما يحتاج المؤرخ إلى التعميم، فإنه يحتاج إلـــى قواعـــد القيـــاس التقريبي. ولا يكمن الخطر فى قاعدة القياس التقريبى نفسها وإنما فى كيفيـــة تشكيلنا لهذه القاعدة. لقد كانت القاعدة التقريبية القائلة " لا تثق فى أحد فـــوق سن الثلاثين " القاعدة الوحيدة للمرشدين الروحيين للثقافـــة المـــضادة فـــى ستينيات القرن العشرين. وأصبحت هذه القاعدة مسألة مطروحة للنقاش عندما تجاوز المروجون لها سن اللاعودة. ذلك أن قواعد القياس التقريبى لا توضع فى عجالة أو بدافع من الغضب. فقد كان جميع الإرهابيين فى ١١ ســـبتمبر ٢٠٠١ م من العرب الذين كانوا قد أمضوا ردحا من الزمن فـــى الولايـــات المتحدة. وقفز كثير من الأمريكيين إلى استنتاج أن كل العـــرب الأمـــريكيين إرهابيون محتملون. وربما تكون هناك خلايا إرهابية نائمـــة أخـــرى بـــين جماعات العرب الأمريكيين، وربما كان بعض العرب الأمريكيين قد ساعدوا

الإرهابيين أو تعاطفوا معهم، بيد أن ذلك لا يمكن أن يؤدى منطقيا إلى الشك في جميع العرب الأمريكيين، أكثر مما يعنى تفجير مدينة أوكلاهوما على أيدى تيموتى ماكفيج وحلفائه فى حركة الميليشيا، وهم جميعا من الأنجلوس، أن كل الأنجلوس أعضاء فى منظمات إرهابية محلية.

إن قواعد القياس التقريبى التاريخية الجيدة تأتى من تمكن المؤرخ من مادته. فعلى سبيل المثال، عندما كان المؤرخ ويلسون كوتيس مضطرا إلى تحديد عدد الرجال الذين شاركوا فى أحداث شغب حدث بين الإنجليز فى القرن السابع عشر، قبل بحساب الحد الأدنى. وكانت قاعدة القياس التقريبى عنده أنه فى مثل هذه المناسبات تميل الحسابات صوب الهيستيرية أو تتجه نحو المبالغة. وقاعدة القياس النسبى هذه يمكن تطبيقها على أحداث عنيفة أخرى – مثلا فى تقدير عدد القتلى فى إحدى المعارك.

خذ، مثلا، الخسائر الرهيبة التى لحقت بجيش البوتوماك فى معركة كولد هاربور فى ٣ يونيو ١٨٦٤ م. وقد حكى الجنرال جرانت فيما بعد قائلا: " فى اليوم الثالث من يونيو هاجمنا مواقع العدو مرة أخرى على أمل طرده من موقعه. وفى هذه المحاولة كانت خسائرنا فادحة، على حين كانت خسائر العدو، حسبما اعتقد، خفيفة نسبيا. لقد كان الهجوم العام الوحيد الذى قام به الرابيدان على جيمس ولم يلحق بالعدو خسائر تعوض خسائرنا. ولن أكون صادقا إذا ما قلت إن الهجمات السابقة حققت انتصارات لجيوشنا، أو أنها أنجزت ما كنت آمله منها، ولكنها أوقعت بالعدو خسائر قاسية، أدت فى النهاية إلى القضاء على التمرد تماما".

لم يقدم جرانت تقريرا عن عدد القتلى والجرحى والمفقودين بالضبط. فكم كان عددهم؟ وقد كرر جيمس ماكفيرسون، أبرز مؤرخى الحرب الأهلية، العدد المعتاد: " هاجم جرانت وميدى فى ٣ يونيو. وفى سلسلة من هجمات

المواجهة، تم ذبح الفيدراليين، وتكبدوا ما يقرب من سبعة آلاف قتيل مقارنة بخسائر الكونفدراليين التي بلغت ألفا وخمسمائة. وقد ندم جرانت دائما على إصدار الأوامر بالهجوم على كولد هاربور "وينزل جوردون رى في Cold Harbor 2002) بالتقدير إلى أربعة آلاف قتيل وجريح ومفقود في ٣ يونيو بكولد هاربور، وربما كان هناك ألفان آخران سقطوا في معركة أخرى قريبة. وبسبب ظروف المعركة لا يمكن معرفة العدد الدقيق أبدا. فأى تقدير منها ربما كان الأكثر دقة؟ إذا ما استخدمنا قاعدة القياس التقريبى (القياس بالشبر) التي وضعها كوتيس، سيختار المرء التقدير الأكثر تحفظا، لأن بعض الرجال الذين يحسبون من بين القتلى أو المفقودين يمكن أن يعودوا إلى وحداتهم بعد عدة أيام من المعركة.

بيد أن قواعد القياس التقريبي، والتقديرات القائمة على أساسها، يمكن أن تكون مضللة بشكل سيئ إذا كان من يقوم بالتقدير منحازا أو له مصلحة ما في النتيجة. وفي واحدة من أشهر حالات استخدام القياس التقريبي أمر القائد الميداني في فيتنام، الجنرال وليم ويستمورلاند، مرؤوسيه أن يبلغوا "إحصاء الجثث" عن قتلى الفييت كونج والفيتناميين الشماليين بعد كل معركة. فقد صار النصر في المعركة يقاس بعدد جثث القتلى. ولكن لأن الأعداء الفيتاميين يحملون جثث موتاهم وجرحاهم من أرض المعركة، كان لابد أن تكون هذه الأعداد مجرد تقديرات. ولأن قادة الميدان كانوا يريدون إدخال السرور على رؤسائهم، ولأن القائد كان يريد أن يبين للأمريكيين أنه يمكن كسب الحرب، إذ كان هناك دافع خفي يدفعهم لزيادة الأعداد، فقد بدت قاعدة القياس التقريبى لكثير من معارضى الحرب دليلا على عدم جدارة العسكريين بالثقة.

وقد تذكرت باتريشيا سولليفان، المحررة فى جريدة الواشنطون بوست فى عمودها الجنرال ويستمورلاند نتيجة هذا الجدل: " فى سنة ١٩٨٢ م، رفع الجنرال ويستمورلاند، قضية ضد شبكة السى بى إس، وقد أغضبه فيلم وثائقى لقناة CBS عنوانه " The Uncounted Enemy: A Vietnam Deception "، وطلب تعويضا قدره مائة وعشرون مليون دولار. وكان البرنامج الذى استغرق تسعين دقيقة قد اتهم ويستمورلاند بأنه كان يدير " مؤامرة " لكى يكبت المثقفين المعارضين ويغير موقفهم من العدو " وذلك بالتقليل من قوة العدو سنة ١٩٦٧م وسنة ١٩٦٨م لكى يخدع الأمريكيين ويجعلهم يظنون أننا فى سبيلنا لأن نكسب الحرب. وتمت تسوية القضية بين ويستمورلاند وقناة CBS، واعترفت الشبكة التليفزيونية بأنه كانت هناك بعض الأخطاء فى تقريرها. بيد أن حساب عدد الجثث كان قد بات مرادفا لقاعدة قياس تقريبى سيئة.

والتشبيهات شكل من أشكال المقارنة، ويجب على المؤرخين القيام بمقارنات. فبدون المقارنات سيكون التاريخ سردا بلا تفكير للأسماء، والتواريخ، والأماكن. ذلك أن التشبيه يساعد المؤرخ على المقارنة والمقابلة. ولا تتمثل المشكلات التى يواجهها المؤرخون لتجنب التشبيهات الضعيفة فى التعليل القائم على التشبيهات نفسها، وإنما تتمثل فى تجاهل الحقائق المتعلقة بها. وتنطوى إنذارت التشبيهات الضعيفة على اللغة المفرطة (تأمل كلمات وصيغ أفعل التفضيل مثل: أحسن، أسوأ، معظم، أقل)، وقفزات الزمان والمكان، ورفاق الفراش الغرباء (أى مقارنة شخص عادى تماما بطريقة غير مناسبة بهتلر، أو ستالين، أو أتيلا زعيم الهون، أو المسيح الدجال).

ومع هذا، يمكن للتشبيه الضعيف أن يصنع علاقة ارتباط قوية. تأمل التشبيه المذهل الذى ساقه الناشط المعادى للشذوذ الجنسى بول كريمون: "إن

الشذوذ الجنسى شهوة معدية لها عواقب شخصية واجتماعية، أنها مثل كلب يتذوق طعم الدم بعد أن يقتل ضحيته الأولى، فيريد الحصول على مزيد من الضحايا بعد ذلك وهو يتضور جوعا ". هذه التشبيه غير منصف بالنسبة للكلاب وللشواذ جنسيا على السواء. فمن ناحية النسبة المئوية نجد أن من يتملكهم النهم الجنسى بين الشواذ من الرجال والنساء أقل من أقرانهم العاديين فى المجموعة العمرية نفسها. كما أن معظم الكلاب الأليفة لا يجذبها طعم الدم بعد أول عملية قتل تقوم بها، ولا تبحث عن ضحايا من أى نوع. أما الكلاب البرية فلديها هذه الشهوة منذ ولادتها.

والكلمات المفاتيح فى التشبيه هى"is to " و "as". وكانت الصيغ القديمة فى اختبار الاستعداد الطبيعى عند المدرسين تحدد ملامح التشبيهات مع is to بنقطتين فوق بعضهما (:) و as بنقطتين مزدوجتين فوق بعضهما (::)، مثل :

"man :skin :: beaver: pelt". ويرفض بعض المؤرخين فكرة مثل هذه التشبيهات فى التاريخ، لأنه لا توجد حادثتان متشابهتان. فالتاريخ لا يعيد نفسه. ويحب مستخدمو الإنترنت الإشارة إلى أن الشخصيات العامة يكونون أحيانا أغبياء أو مخادعين باستخدام التشبيهات التاريخية الضعيفة أو الوقحة. ومع هذا فإن المشابهة التاريخية المفيدة لا تتطلب ازدواجية متقنة. إنها ببساطة تبحث عن وجوه التشابه وتحددها.

وبعض الأحداث والحركات فى التاريخ تشبه إحداها الأخرى بالقدر الذى يجعل المنافسة مفيدة. والبعض الآخر ليس كذلك. ومهمة المؤرخ أن يميز الحدث عن غيره. وقد قارن توماس باينى وغيره من الراديكاليين بين الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية. وجاءت المقارنات مثقلة بالأخطاء – فقد كانت هناك الكثير من الاختلافات بين الثورتين بحيث لا يمكن القيام سوى

بمقارنة سطحية للغاية. حقا كان هناك " اضطراب ثورى "، مثلما لاحظ الراحل بالمر فى السنوات الثلاثين الأخيرة من القرن الثامن عشر، و" أفكار قديمة معينة، أو كلمات وعبارات قديمة، استخدمت فى تطبيقات جديدة، ومعنى أكثر اتساعا وأشد إلحاحا ".

جاءت الثورة الصناعية إلى الولايات المتحدة متأخرة نصف قرن بعد أن كانت قد بدأت تغير بشكل شامل وعميق رأس المال والعمل فى بريطانيا العظمى. بيد أن هناك تشابهات بعينها موجودة بين الحدثين، وبالعمل عليها يمكن للمرء أن يخرج بروابط يصعب أن نراها فى مكان آخر. فعلى سبيل المثال، ظهر فى كل من الثورتين نوع من " الاقتصاد الأخلاقى " بشكل واضح، وفى كل منهما تراجعت مكانة الحرفيين والصناع وتأثروا بفرص العمل فى المصانع واحتجوا ضد الظلم الذى مارسته طبقة الملاك. وقد علمتهم هذه الاحتجاجات تأسيس أول منظمات عمالية. وبدون التشابه بين إنجلترا وأمريكا، والتى تعمق فهمنا للثوابت الأخلاقية للحركة العمالية، يصعب أن نشرح السبب فى أن اتحاد العمال المسمى Knights of Labor، وغيره من اتحادات العمال الأمريكية فى القرن التاسع عشر كانوا ينظرون إلى العامل فى ضوء هذه المصطلحات الأخلاقية.

والتعليل الدائرى والذى يعرف أيضا باستجداء السؤال، (أى تفسير الماء بعد الجهد بالماء) لا يفيد على هذا النحو. ففى هذه المغالطة المنطقية، إما أن يقرر المرء أن ما يحاول إثباته أمر مثبت، أو يفترض الاستنتاج قبل البرهنة عليه. فإذا كان المرء يحاول ببساطة تعريف مصطلح ما، أو فكرة ما، فلا يمكن للمرء أن يستخدم المصطلح أو الفكرة نفسها فى التعريف. ومن الناحية المنطقية، لا يمكن للمرء أن يقول إن " الدائرة شكل دائرى ". وبالطريقة نفسها، لا ينبغى للمرء أن يفترض حقيقة ما يحاول البرهنة عليها.

وقد زعم الجنوبيون المدافعون عن الرق قبل الحرب الأهلية أن الأمــريكيين الأفارقة كانوا لائقين للعمل الزراعى الشاق بشكل خاص. وقد قدموا القليــل من الأدلة الفعلية على هذا التعميم الكاسح فى مغالطة منطقيــة مؤداهــا أن الأمريكيين الأفارقة الذين يعملون من مطلع الشمس حتى غروبها فى مزارع الدخان، والقطن، وقصب السكر، والأرز، كانوا لائقين لهذا العمــل وإلا مــا قاموا به. فى هذا المثال، كما فى أمثلة كثيرة غيرهمن التعليل الدائري، يكون لدى الشخص الذى يقوم بالمغالطة المنطقية دافع خفي. وهنا، كــان الــدافع تبرير الرق.

واستجداء السؤال يمكن أن يقلل من قيمة الأسئلة المركبة والمتنافــسة وينزل بها إلى مستوى المساواة التبسيطية. وحتى محكمتنا العليا وقعت فـــى هذا الفخ. ففى قضية بليسى ضد فيرجسون (١٨٩٦ م) قررت المحكمـــة أن ولاية لويزيانا يمكن أن تشرف على الفصل العنصرى فى القطارات التى تمر عبر أراضيها. وبينما كان هذا يبدو انتهاكا مباشرا للمادة الثالثة عشرة والمادة الرابعة عشرة من الدستور بالنسبة لجون مارشال هارلان، صاحب الــرأى المخالف الوحيد، كان بقية القضاة على قناعة بأن الفــصل العنــصرى مــع المساواة فى التسهيلات إعمال للمرسوم القضائى بالتعديلات التى أدخلت على الدستور. ولكن ماذا لو اعترض السود المرغمون على الركوب فى عربـــات القطار التى خصصت لعزلهم باعتبار أن مثل هذه التفرقـــة علامـــة علـــى الدونية؟ لقد وجد القاضى هنرى براون طريقة منطقية للرد علـــى شـــكوى الضحية: " إن الدولة حرة فى أن تتصرف وفقا للعادات والتقاليد الراســخة، وتراث الشعب، بالنظر إلى تحسين وسائل الراحة لهم، والحفاظ على الــسلام العمومى والنظام الجيد. ونحن إذا حكمنا بهذا المعيار، لا يمكن أن نقـــول إن القانون الذى يمنح السلطة، أو حتى يتطلب الفصل بين عنصرين فى وســـائل

النقل العامة، قانون غير معقول. " والواقع أن مثل هذه التفرقـــة المنغـصة كانت كريهة ومنفرة " لسبب وحيد هو أن الجنس الملون يختار أن يضع ذلك البناء فوقها ". إن تعليل الشيء بنفسه قد منح تصريح المحكمة العليا الفرصة للتغطية على خمسين سنة من الفصل العنصرى تحت إشراف الدولة.

أخطاء المنطق الصورى

نأتى بعد ذلك إلى مغالطات المنطق الصورى أو أخطائه، وهى صور من العبارات التى تنتهك قواعد التعليل الافتراضي. وأريـد أن أميـز هـذه المغالطات عن شبه المغالطات. إنها أخطاء فى المنطق ليس لها غرض مفيد فى الأفعال التاريخية. والتوائم فى هذه المجموعة من المغالطـات المنطقيـة تنكر السابقة وتؤكد اللاحقة. وتتمثل بعض أخطاء المنطق الصورى الأخرى فى مغالطة التعريف الزائد ومغالطة الشك.

وفى المغالطة المنطقية التى تقوم على إنكار السابقة، يكـون التعليـل على النحو التالى: " إذا كان الثلج يتساقط، فهناك ثلج على الأرض. إنهـا لا تمطر ثلجا. ومن، ثم، ليس هناك ثلج على الأرض ". كنت أقـوم بتـدريس التاريخ سنة واحدة فى حرم جامعة نوتردام الذى يغطيه الثلج، بنوتردام فـى ولاية إنديانا. وكان الطلاب، وهيئة التدريس والآباء مدهشين، ولكن المنـاخ كان فظيعا. ففى تلك السنة بلغ سمك طبقة الجليد ١٩٢ بوصة. وكان الـثلج يتساقط فى بعض الأيام. وفى أيام أخر لا يحدث ذلك. ولكن الجليد كان على الأرض من نوفمبر إلى إبريل. وأنت ببساطة لا تستطيع أن تحدد ما إذا كان الجليد اللاصق على الأرض من الجليد المتساقط فى وقتها أم لا.

وفى المغالطة القائمة على تأكيد اللاحق، نقلب ببساطة قطبى المغالطة المنطقية القائلة " إذا كانت السماء تسقط ثلجا، فسيكون هنـاك جليـد علـى

الأرض. هناك جليد على الأرض، ومن ثم لابد أن تكون هناك ثلوج تتساقط ". ليس إذا كان الثلج قد سقط أمس ولم يذب. ليس في نوتردام بإنديانا. وكل ما هو ضروري لجعل التوأم الشرير مجادلة استنباطية صالحة، أن نعيد ترتيب العبارات " عندما يهطل الثلج، يكون هناك جليد على الأرض. إن الثلج يتساقط، ومن ثم هناك جليد على الأرض ". لاحظ أنه في هذا، كما في المنطق الصوري كله، ما يهم هي العلاقة المزعومة بين العبارات، وليست حقيقتها.

في بعض الأحيان يؤدى تأكيد التالي إلى سياسة عامة سيئة. ففي عملية البحث في الصور تتوقف الشرطة لتفحص مجموعات بعينها، لأنه وفقا للصورة الثابتة، يكون من الأرجح أنهم هم الذين يرتكبون الجرائم. وعندما تحدث القاضي بمحكمة الاستئناف الفيدرالية، ريتشارد بوسنر (وهو واحد من ألمع أعضاء المحكمة الفيدرالية، كما أنه مؤلف غزير الإنتاج، وأستاذ للقانون، ومفكر عام)، عن التصوير قال إنه: " يمكن أن يتخذ شكل البحث الكثير غير المتناسب عن السيارات التي يقودها الهسبانو لأنهم يشكلون نسبة لا تتماشى مع أعداد من يقودون وهم سكارى "، لأنه يتم توقيفهم وتفتيشهم بصورة لا تتناسب مع أعدادهم. كما أن توقيف مجموعة أخرى يسهل تصويرها قد ينتج عنه عدم التناسب نفسه. والنتيجة أن تنشأ العداوة بين الشرطة وجماعات الأمريكيين الناطقين بالإسبانية بسبب المنطق الخاطئ.

وتمضي المقدمة المنطقية الزائفة في التعريف كما يلي: إذا كان الروائي الشهير " جورج إليوت " هو حقا " ماري آن إيفانز "، وكان " جورج إليوت " هو الذي كتب روايتي:

The Mill on the Floss و Silas Marner إذن فإن "ماري آن إيفانز" قد كتبت الروايتين (وهي حقيقة بالقياس المنطقي) والحقيقة أن "جورج إليوت"

كان الاسم المستعار الذى كتبت به " مارى آن إيفانز". ويمكنك باستمرار أن تستبدل الأشياء بصورة منطقية إذا ما كانت متطابقة مع أحدها الآخر. ولكنك إذا حاولت هذا مع أشياء أو أسماء أو أناس ليسوا متطابقين، فإنك تقوم عندئذ بمغالطة منطقية. ولهذا إذا قلت إن مؤلف Tom Sawer هو مارك توين، والقارئ يعرف أن الكتاب مكتوب بشكل جيد، فإنك لا يمكن أن تستمر منطقيا فى القول إن القارئ يعتقد أن مارك توين كان كاتبا جيدا. ذلك أن مارك توين والكتاب ليسا شيئا واحدا. وسيكون رأى القارئ عن الكتاب، وليس عن المؤلف. فربما يكون قد أعجبه الكتاب حتى اكتشف أن توين هو ذلك الوغد الذى كتبه.

آخر أخطاء المنطق الصورى يتمثل فى التفاف طفيف على كل المغالطات المنطقية الأخرى. إنها لمغالطة منطقية أن تجادل بأن شيئا لا يمكن أن يكون حقيقيا إذا ما كانت المجادلة من أجله مجادلة خاطئة – وهى المغالطة المنطقية عند الشكاكين. إذ إن الاستنتاج يمكن أن يكون حقيقيا على الرغم من عدم منطقية الفرض. وأفضل حالة معروفة عن هذا هى آخر نظرية رياضية وضعها بيير دى فيرمات، الذى كان محاميا فرنسيا وبارعا فى الرياضيات عاش فى القرن السابع عشر. وقد كتب على هامش نص إغريقى قديم فى الرياضيات أنه وجد دليلا جيدا لحل إحدى النظريات الرياضية. ولكنه كتب أن هامش الكتاب كان ضيقا للغاية بحيث لم يتمكن من وضع البرهنة. وعلى مدى الثلاثمائة وخمسين سنة التالية عمل علماء الرياضيات من أجل إيجاد البرهنة، بادئين من البدايات الزائفة (وكثير من النهايات الزائفة).

ولأن براهينهم باتت منقوصة أو خاطئة، فإن هذا لم يكن يعنى أن فيرمات كان مخطئا. وفى سنة ١٩٩٤ م، وجد أندرو وايلز الحل أخيرا. وكما

هو الحال فى جميع الألغاز، يوجد حل لعقدة اللغز. وكان علــى وايلــز أن يستخدم الكثير من العمليات الرياضية المعقدة للغاية، والتى لم يكن معظمهــا موجودا عندما كتب فيرمات ملاحظاته على هامش الكتاب. ومــن الممكــن تماما أن حل فيرمات الذكى لم يكن شيئا سوى أولى المحاولات العديدة جرت قبل العمل الذى قام به وايلز.

هناك الكثير جدا مما لا نعرفه عن أنفسنا وعن العالم من حولنا، وهو كثير جدا لدرجة أننا نتعلم كل يوم أننا لا يجب أن نترك البــدايات الزائفــة والمقدمات الخاطئة التى تنحرف بشوقنا لمعرفة المزيد. خــذ مــثلا قــضية الكارثة، وهى النظرية القائلة بأن تاريخ الأرض كان يتميــز بسلــسلة مــن الأحداث قصيرة المدى لكنها مرعبة فى أزمنة ما قبل التاريخ. وحسبما أشار إيمانويل فليكوفكس فى خمسينيات القرن العشرين، فإن فكرة أن شيئا ســقط من حرب فضائية كان القوة الأولى وراء التغير الجيولوجى والبيولوجى على الأرض، قد باتت محل استهانة العلماء، بل إنها كانت ممنوعة فــى قــوائم القراءة بالكليات. وبدلا من ذلك بات من المفترض أن التطــور الجيولــوجى والبيولوجى كان عملية تدريجية – وهذا هو معنى التطور.

وفى مثال عن المغالطة المنطقية للشكاكين، قوض غضب العلماء من رؤية فيلكوفكس للموضوع من استعدادهم للقبول بإمكانية سقوط أشياء مــن الفضاء ربما تكون قد اصطدمت بكوكبنا وكانت لها عواقب هائلة. وقد أثبتت الدراسات الأحدث أنه كانت هناك ثلاث حوداث كارثية جسيمة على الأقــل، قصيرة المدى للغاية، وفجائية، فى ماضينا، وتسببت كل منها فى موت جميع الكائنات الحية تقريبا. وإحدى هذه الحوادث ربما كانت بتأثير شهاب أو مذنب منذ خمسة وستين مليون سنة. ذلك الصدام الذى أنهى فتــرة الديناصــورات الطويلة، وفتح الطريق أمام تطور الثدييات، وأدى فى النهاية إلــى وجودنــا نحن البشر.

ليس هناك مكان لمغالطات المنطق الصورى فى التعليل التاريخى. إنها الرمال المتحركة تحت أساسات الجسر الذى نحتاجه ليأخذنا القهقرى فى الزمن إلى الماضي. فالمجادلات التى ستبنى عليها سوف تذروها الرياح وتكتسحها مياه المد. بيد أن شبه المغالطات جزء من الوصف والتصوير التاريخي. وبوسعنا أن نحددها وندينها، إذا ما اخترنا ذلك بسهولة. ولكننا لا يمكن أن نخلص أنفسنا منها. ذلك أن وجودها المستمر فى كتابتنا وفى تفكيرنا قد نعزوه إلى خطأ فينا، أو بصورة أدق، بسبب فائدتها لنا.

فما الفائدة التى يمكن أن توجد فى شبه المغالطات للخطاب العقلاني؟ وما فائدتها فى جدل يقوم على البرهنة والمنطق؟ حسنا، تذكر أن فعل التاريخ يقوم على أساس الزعم المستحيل بقدرتنا على معرفة ما لا نعرفه. وكل الاختصارات، والقفزات والالتواءات التى تتسم بها شبه المغالطات، إذا كنا نعرف ما نحن فاعلوه، تقربنا أكثر إلى موضع لا يمكن الوصول إليه قط بالوسائل المنطقية الصارمة. إنها الرمال التى نصبها فى الدعامات التى سوف يرسو الجسر عليها.

وقد ألقى جروشو ماركس نكتة توضح تماما كيف تصبح المغالطة المنطقية ممارسة شائعة فى دراسة التاريخ وقد تساعد فى تأطير فلسفة تاريخ لزماننا. ذهب رجل إلى عيادة طبيب نفسى وقال له: "دكتور هل لك أن تساعد شقيق زوجتي؛ إنه يظن نفسه دجاجة" فأجاب الطبيب: "ولماذا لا تدخلونه المستشفى؟" ورد عليه الرجل: "يا دكتور نحن لا نستطيع؛ لأننا نحتاج البيض". ولأننا لا يمكن أن نقارب هدفنا سوى بالتقريب يجب أن نكون قادرين على إدارة الأمور بحيث نملأ الفراغات بالتقديرات، بل بالاختراع المحسوب جيدا. فالمؤرخون يحتاجون البيض.

(٣)

المؤرخون والسؤال المشحون

ما الغرب؟ ماذا كان يعنى فى الحياة الأمريكية؟ إن الوصول إلى إجابة لهذا السؤال يعنى أن نفهم أهم ملامح الولايات المتحدة... إن مشكلة الغرب ليست سوى مشكلة التطور الأمريكي. وإن نظرة على خريطة الولايات المتحدة تكشف هذه الحقيقة.

فردريك جاكسون تيرنر (١٩٤٥)

ثمة مغالطة منطقية تكيد للمؤرخين، وتبدو معاندة لهم، وتستحق أن نخصص لها فصلا فى هذا الكتاب. تلك هى المغالطة المنطقية التى أسميها مغالطة السؤال المشحون. وهى تسمية خاطئة لأنه ليس سؤالا على الإطلاق، وإنما هى عبارة تتخفى فى هيئة سؤال، وتكون إجابته مسئولية من يطرحه، ما لم يكن المرء مثل فردريك جاكسون تيرنر، هو مؤلف السؤال. ومن ثم، فإن إجابته تبعث التاريخ حيا. فهل يمكن لمثل هذه الوسيلة المراوغة أن تكون جزءا مشروعا فى فلسفة تاريخ تصلح لزماننا؟ نعم.

لقد غيرت الأسئلة المشحونة تاريخنا. فعندما فاز إبراهام لنكولن فى انتخابات الرئاسة سنة ١٨٦٠، دعا المتشددون فى كارولينا الجنوبية إلى

اجتماع للاتفاق على الانفصال. لقد سألوا أنفسهم السؤال المشحون. ماذا لو أن الحزب الجمهوري الذى فاز حديثا " أعلن أن الجنوب سوف يستبعد من الأراضى العامة، وأن المحاكم الكلية سوف تصير جزئية، وأنه لابد من شن الحرب على الرق حتى يختفى تماما من الولايات المتحدة؟ " حسنا، عندها سيكون على كارولينا الجنوبية الخروج من الاتحاد. وعند هذه النقطة أعلن المندوبون جميعا موافقتهم على الانفصال، حتى مع أن سؤالهم لم يتلق إجابة سوى تصرفهم المتهور.

سأل المؤرخون أنفسهم أسئلة مشحونة، أسئلة كانوا يعرفون إجاباتها، (أو يظنون أنهم يعرفونها). وفى مقالة شهيرة بمجلة The Mississipi Historical Review نشرت سنة ١٩٤٠ م، قال راندل إن الرجال الذين تربوا فى خضم الحرب الأهلية كانوا جيلا أحمق يسوقه طموحه الخاص، وطمعه، وعاطفته. فماذا لو أن رومانسية الحرب الأهلية تخلت عن مكانها لمصطلحات من قبيل " المذابح البشرية " أو " القتل المنظم " – هل كان المؤرخون سيفكرون فى الحرب نفسها؟ باعتبار أنها "حرب بلا ضرورة" و"صراع قمعي"، هل كان جيل سنة ١٨٥٠ م مضللا بحيث يدخل فى أتونها المهلك؟ إنه لسؤال مشحون بقوة، وكان راندل يعرف إجابته – لقد كانت الحرب الأهلية تبديدا بلا داع للأرواح والممتلكات، ومن ثم فإن الرجال الذين تعثروا فيها كانوا قد ضلوا طريقهم.

ولكن ليس كل سؤال مشحون يمكن للمؤرخين طرحه. وإذا كانت بعض الأسئلة المشحونة موجهة إلينا بقصد شرير، ونحن لا نستطيع أن نجيب عليها بغير أن نحرج أنفسنا، فإن هناك آخرين من طبعهم أن يحركونا للفعل، كما أن البعض الآخر يستخدمونها باعتبارها وسيلة تعليمية لطيفة. بل إن البعض يكشفون لنا عن أوجه القصور فى قدراتنا المعرفية، وهى أداة

مفيدة فى صياغة فلسفة التاريخ. ومن أقارب السؤال المشحون – المداعبة المرحة، والقصة المليئة بتفاصيل تافهة تنتهى فجأة نهاية مضحكة (والتى تعرف بحكاية الكلب الأشعث)، ولعبة الكلمات – تتحول إلى كلمات سخرية لا منطقية. وربما تكون السخرية أهم موضوع فى التاريخ. والواقع، أن السخرية تربط الأحداث التاريخية بدراسة التاريخ بطريقة حيوية.

شحن السؤال:

كان السؤال المشحون الكلاسيكى يحمل إجابته فى داخله، إجابة يعرفها السائل بالفعل. إذ كان الانفصاليون فى كارولينا الجنوبية ومؤرخو الحرب الأهلية يعرفون إجابات أسئلتهم، أو كانوا يظنون أنهم يعرفونها. فإذا ما طرح عليك سؤال من هذا القبيل فربما تعرف أنه لا توجد إجابة صحيحة عليه، ولكنك تضع نفسك فى موقف فظيع إذا ما حاولت تجنبه.

ويمكن للأسئلة المشحونة أن تكون مدمرة بين يدى محاور ماهر. وإذا ما وجهت هذه الأسئلة إلى أحد المرشحين السياسيين، فإنها يمكن أن تحدد نتيجة الانتخابات. والأمثلة التاريخية على ذلك وافرة. ففى بداية الجدل الرئاسى الذى دار آنذاك بين نائب الرئيس جورج دبليو بوش وحاكم ماساتشوستس ميخائيل دوكاكيس، سنة ١٩٨٨ م، سأل المحاور دوكاكيس: " أيها الحاكم، إذا تعرضت السيدة كيتى دوكاكيس (زوجة الحاكم المرشح) للاغتصاب ثم قتلت، فهل ستحبذ الموت للقاتل؟ "كان هذا سؤالا مشحونا، من ناحية لأنه كان شخصيا للغاية، ومن ناحية أخرى لأن دوكاكيس كان معروفا بأنه ضد عقوبة الإعدام. والحقيقة أنه كان يتعرض لهجوم فى ذلك الوقت لأنه كان ناعما بشأن عقوبة الإعدام. وقد أجاب بأمانة: " لا، لست... وأظن أنك تعرف أننى عارضت عقوبة الإعدام طوال حياتى. إننى لا أرى أى دليل

على أنها عقوبة رادعة، وأظن أن هناك طرقا أفضل وأكثر فاعلية للتعامل مع الجريمة العنيفة ". وقد خسر دوكاكيس الانتخابات بسبب موقفه من الجريمة، الذى لعب دورا رئيسيا فى خسارته، وفقا لنتائج التصويت.

والأسئلة التى تسألها إدارة الهجرة فى الولايات المتحدة للمواطنين المستقبليين جذابة ومباشرة – كم فرعا للحكومة الفيدرالية، كم نجمة على العلم، من هو الرئيس، وما أشبه ذلك من الأسئلة. وليست هناك بلاد أخرى لا تريد أن تمنح الجنسية لمجموعة بعينها تتصرف على هذا النحو. خذ مثلا الأسئلة المطلوب إجابتها من مسلم يطلب الجنسية الألمانية من ولاية بادن – فورتمبرج، حسبما جاء فى تقرير للنيويورك تايمز فى ٢٥ يناير ٢٠٠٦ م " ما موقفك من التصريح الذى يقول إن على الزوجة أن تتبع زوجها، وأنه يستطيع ضربها إذا لم تكن مطيعة؟ " ما رأيك فى الوالدين اللذين يفرضان الزواج بالإكراه على أبنائهما؟ هل تظن أن مثل هذه الزيجات تتوافق مع الكرامة الإنسانية؟ "وعندما تعلم أن هذه الأسئلة لا توجه سوى للمسلمين، وأن بعض المسلمين الواعين لا يشاركون الألمان المثل العليا والقيم الواردة فى الدستور الألمانى أو الدساتير الأوربية عن حرية المرأة، يبدو شحن الأسئلة واضحا بينا. فالإجابات الصحيحة – أى الإجابات التى تبين أن المتقدم بالطلب ليس مسلما محافظا – هى التى كان الموظفون فى بادن – فورتمبرج يريدونها.

وربما كانت مثل هذه الأسئلة المشحونة تسمم البئر أو تنطوى على الإدانة بالارتباط. وفى تسميم البئر ينطوى السؤال ضمنا على أن الجانب الآخر، أو الشخص الآخر، مدان أخلاقيا أو معيب فكريا وبذلك لا يمكن أن يؤخذ موقفه بقيمته الظاهرية. بيد أن الأسئلة نفسها لا تخلو من منطق. بل إن قوتها مستمدة من خلطها بين المنطق واللامنطق.

وربما يكون أصل مصطلح "تسميم البئر" واحدا من مصطلحات ما يسمى "افتراءات الدم" التى صيغت ضد اليهود فى أوربا العصور الوسطى. فقد اتهم اليهود بتسميم الآبار بالمدن التى كانوا يعيشون فيها بدم الأطفال المسيحيين. وحسبما يستخدم المصطلح اليوم، يخلق السؤال المشحون عن "تسميم البئر" عدم الثقة ويفترض سوء النية، لدرجة أنه عندما يحاول ضحاياه أن يشرحوا أنفسهم تكون العقول قد أوصدت بالفعل ضدهم. وعلى سبيل المثال، إذا ما أراد المرء أن يسمم البئر ضد الليبراليين فى سياق جدل وطنى حول الشئون السياسية، فقد يتساءل، مع الكاتبة المحافظة آن كولتر: " ألا يكره جميع الليبراليين أمريكا؟ " أو يتساءل مع كاتب العمود ميشيل ماكلين، إذا أراد أن يوجه لطمة لوسائل الإعلام الليبرالية، فيكتب مثلا : "يا من تديرون الأخبار التى يبثها التليفزيون ويا محررى الصحف الذين تتصرفون وكأنكم تعانون الحساسية ضد الأحمر والأبيض والأزرق، هل تخططون لمقاطعة الاحتفال بيوم الرابع من يوليو أيضا؟ ". هذه الأسئلة المشحونة تسمم البئر.

وكما فى المثال السابق، يمكن لسؤالٌ تسميم البئر أن ينمو على حافة الكذب والافتراء. وحسبما كتب فيليب روث فى كتابه Operation Shylock، يكون طرح الأسئلة المشحونة المسممة عندما تبدأ " الحملة الهامسة التى لا يمكن وقفها، والشائعات التى يستحيل تفنيدها، والتلويث الذى لن نتخلص منه قط، والقصص الكاذبة والمفتراة للتقليل من مؤهلاتك المهنية، والتقارير المشينة، ووصمك بالخداع فى تصرفاتك، وادعاء شذوذك العقلى المشوه، ووجود الهجائيين الغاضبين الذين يدينون إخفاقاتك الأخلاقية، وأخطاءك، فضلا عن خصائص شخصيتك الخاطئة ".

والإدانة بالارتباط محاولة عمدية للحط من شأن أى شخص أو تلويث سمعته بالقول، مثلا، إنه شخص منحل أخلاقيا وبشع، إنه يشحن الأسئلة

بتعريفات مزيفة وتشبيهات واهية، أو تأكيدات لا برهان عليها. وقد ارتكب المؤرخون مثل هذا النوع من الجدل. ففى حرب الكلمات التى نشبت فيما بين المؤرخين حول دولة إسرائيل، كان ما فعله جميع الأطراف هو الإدانة بالارتباط. هل يدين أحدهم إسرائيل بسبب سوء معاملتها للفلسطينيين؟ إذن، لابد أن يكون هذا الشخص نازيا، أو معاديا للسامية على الأقل. هل يدافع أحدهم عن إسرائيل؟ لابد، إذن، أن يكون نازيا، أو عنصريا على الأقل. إن هناك رايات حمراء معينة تميز الجدل القائم على الإدانة بالارتباط مع حادثة تاريخية ما. إن " هذه مطاردة للساحرات " تربط ما بين اتهام ما ومحاكمات السحرة التى تخلو من المصداقية، مثلا. وفى صيغة أحدث لهذا، إذا اتخذ المرء موقفا " بدافع من الموضوعية " فلا بد أن يكون على خطأ لأن الموضوع المطروح قد تم تفنيده – الإدانة بالارتباط، ليست ارتباطا بشخص أو حركة، وإنما هى ارتباط بمجموعة من الكلمات.

إذا كنت تريد الإطاحة بالأساتذة الراديكاليين فى الكليات الأمريكية، مثلا، فلا تقارنهم بغيرهم من الراديكاليين فى التاريخ الأمريكى من أمثال توماس باينى، ومرجريت فوللر، ووليم لويد جاريسون، وسوزان أنطونى، ويوجين ديبس، ودوبوا، وريتا ماى براون (وهؤلاء قليل من كثير) مقارنة واضحة، أو تضعهم فى سياق التاريخ الطويل للراديكالية داخل الجامعة. وأستاذ هذا النوع من المجادلات التى تقوم على الإدانة بالارتباط، هو دافيد هوروفيتز، الذى كان من قبل ناشطا راديكاليا وهو طالب، ولكنه ثاب الآن إلى رشده حسبما يقول.

لقد قدم هوروفيتز صيغة من خطوتين للإدانة بالارتباط لكى ينال من مارابل أستاذ التاريخ بالجامعة. فقد أدان مارابل بسبب ارتباطه بصحبته التى حافظ عليها، وأدان الصحبة بالارتباط. كانت تلك أبلغ أشكال الإدانة بالأسئلة

المشحونة التى تجلت واضحة على صفحة هوروفيتز فى الإنترنت. فقد زعم أن طاقم مارابل المنحوس عبارة عن" هيئة عنصرية تغص بالمرارة " تضم هودريك بل، وكاثلين كليفر البلطجية غير التائبة منذ ستينيات القرن العشرين، وهى الآن ضمن هيئة التدريس بمدرسة القانون فى إيمورى، وميخائيل إيريك دايسون، الذى كرس سيمناره عن "المفكرين الدينيين العظام" على مدى فصل دراسى كامل للنثر الدينى الذى كتبه توباك شاكور، و"كاتبة مقالات تافهة ماركسية وأستاذة جامعية " هى أنجيلا ديفيز، التى كانت عضوة فى اللجنة نفسها " اللجنة العامة للحزب الشيوعى نفسه " التى كان مارابل عضوا بها، وأخيرا وليس آخرا، " كاره اليهود "، والذى يكتب الشعر أحيانا، البروفيسور أميرى بركة من نيوجيرسى. ثم يأتى السؤال المشحون: " كيف أمكن للجامعة أن توظف فردا بمثل هذه الشخصية المريبة، وله مثل هذه الآراء الوقحة، وأن ترفعه لمثل هذه المناصب العليا...؟ "

لاحظ أن هوروفيتز لم يلق نظرة على إنجازات الخمسة الخطرين، أو يجلس ليتكلم معهم حول آرائهم. إنه لم يقم بواجباته المنزلية فى الدراسة التاريخية حول أفكارهم. وبدلا من ذلك شحن ظهر سفينته بالارتباطات – مثل ارتباط دايسون مع توباك شاكور. ويتمثل اللامنطق فى الارتباط هنا فى أن دايسون غشاش لأنه يدرس عن المجرمين، وأن مارابل غشاش لأنه صديق لدايسون. وبينما يمكن أن تكون نقطة المبالغة والإدانة عند هوروفيتز منطقية تماما بالمصطلحات التجارية – لكى يبيع كتابه الذى يحمل عنوان The 101 Most Dangerous Academics in America فإن فرقعة هوروفيتز مثال كامل على الإدانة بالارتباط التى تمتطى ظهر سؤال مشحون يقول " كيف كانت القراءة المركبة للمصالح السياسية والبحوث الأكاديمية متفشية فى رحاب الجامعات أو قاعات الدراسة بالكليات؟ ".

وقد حكى أستاذ القانون جيوفرى ستون الخبير فـــى تـــاريخ التعـــديل الدستورى الأول، عن مثال من الأمثلة المشحونة عن الأحـــداث التاريخيـــة الحديثة. ففى محكمة شيكاغو يوم ٢٤ ديسمبر سنة ٢٠٠٤ م: " كنت مـــدعوا للظهور على شاشة التليفزيون فى برنـــامج The O'Reilly Factot لمناقـــشة سؤال: هل يمكن لأمريكى يريد أن تخسر الولايات المتحـــدة الحـــرب فـــى العراق أن يكون وطنيا؟ " لقد حل سؤال مشحون محل سؤال مشحون آخر.

وكما هو الحال فى قيام هوروفيتز بنهش أعراض الأساتذة، وهجـــوم أوليرى الذى لا يقل عنفا على الخصوم المناوئين لحرب العـــراق، تتعامـــل الإدانة بالارتباط مع مجموعة يخشى بأسها بالطريقة نفسها التى تتعامل بهـــا مع شخص مكروه. وفى أثناء الفترة المكارثية فى التاريخ الأمريكـــي، عنـــد بداية خمسينيات القرن العشرين، وصلت الإدانة بالارتباط إلى ذروتها. فقـــد افتتح النائب الجمهورى عن ولاية ويسكونسين، جوزيف مكـــارثى، حملتـــه الصليبية ضد العدو الأحمر، بخطبة فى هويلنج، غـــرب فرجينيـــا، يـــوم ٦ فبراير سنة ١٩٥٠ م. وجاءت اللحظة البلاغية الحاسمة على شـــكل ســـؤال مشحون تماما: " أيها السيدات والسادة، هل يمكن أن يكون هناك أحد الليلـــة أعمى لدرجة أن يقول إن الحرب ليست... بين الشيوعية والمسيحية؟ " وكل من انتقد بحث مكارثى عن الشيوعيين فى الحكومة، والتعليم والفنون، اتهمه بالتعاطف مع الشيوعية، أو بأنه أحمر pinko فى خدمة الاتحاد السوفييتي.

وعلى الرغم من ظلمه لكثير ممن كانوا يدافعون ببساطة عن مفهـــوم الكلام الحر والحرية الفكرية ولم تكـــن لهـــم علاقـــة بالاتحـــاد الـــسوفييتى أو تعاطف معه، فإن استخدام مكارثى الفعال للإدانة بالارتباط دفع الكثير من خصومه إلى الاختباء ودفع بعضهم إلى الانتحار - مثل فيليب لويب، الـــذى كانت ارتباطاته وتعاطفه ذات الميول اليسارية مع الحـــزب الـــشيوعى فـــى

ثلاثينيات القرن العشرين قد جعلت منه هدفا للرعب الأحمر. وقد كلفه ذلك دور جاك جولدبرج الذى كان يلعبه فى البرنامج التليفزيونى المحبوب Goldbergs The، وعندما لم يستطع فى سنة ١٩٥٥ م أن يحصل على وظيفة فى التمثيل لأنه كان ضمن " القائمة السوداء " أقدم على الانتحار.

فى يوم ٩ يونيو ١٩٥٤ م قلب المحامى جوزيف وولش الطاولة على مكارثى فى برنامج تليفزيونى شهير عن النفوذ الشيوعى فى جيش الولايات المتحدة. ففى غمرة دفاعه عن واحد من صغار المحامين فى مؤسسة وولش كان مكارثى قد لوث سمعته، وتولى وولش الدفاع عنه، سأل الدفاع: " لقد فعلت ما فيه الكفاية. أليس لديك أى إحساس بالرأفة يا سيدى بعد كل هذا الوقت الطويل؟ ألم يتبق لك أى إحساس يا للياقة؟ " ولم يمنع هذا مكارثى من الكلام، وإنما استمر فى خطبته المليئة بالاستطرادات، وهو لا يدرك أن سؤالين مشحونين قد انفجرا للتو فى وجهه.

الأسئلة المشحونة المفيدة:

كان لسؤال وولش المشحون الذى وجهه إلى مكارثى مردود مفيد – فقد ألزم البلطجى مكانه. وليس كل سؤال مشحون أفعى كامنة تنتظر أن تلدغ لدغتها. إذ يمكن للسؤال المشحون أن يكون وديا، بل يمكن أن يكون مجاملة أو عرضا بالمساندة فى صورة سؤال. ويجد المرء هذه الأسئلة الودية فى الحشد السياسى المكتوب، حيث يتم طرح الاستبيانات التى تم اختيارها مسبقا على شكل أسئلة مشحونة ودية. وحسب رواية الأسوشيتدبرس فى ٢٣ يناير سنة ٢٠٠٦ م فإن " الرئيس جورج دبليو بوش قال على سبيل الممازحة فى الأسبوع الماضى فى إستيرلنج بعد أن قامت امرأة لتقول إنها فخورة به: "من الأمور الجيدة دائما أن يكون لديك عملاء مدسوسون داخل كل جمهور". حتى

المؤتمر الصحفى الذى يفترض أن يكون تلقائيا يمكن أن يكون بـــه بعـــض "المؤيدين " الذين يطرحون أسئلة مشحونة مؤيدة. وفـــى أحـــد المـــؤتمرات الصحفية، سأل جيمس جوكيرت الرئيس كيـــف اســـتطاع أن يتعامـــل مـــع الديموقراطيين "الذين يبدو أنهم انفصلوا عن الحقيقة ". ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى كان جوكيرت يقدم فيها عرضا لتأييد الرئيس عن طريق شـــحن سؤال ودي.

وتتمثل فضيلة السؤال البلاغى فى أنه أمين مع نفسه. وعندما تطـــرح سؤالا بلاغيا، فإنك تشير على نحو ما إلى أنه ليس مطلوبـــا، أو ضـــروريا، الإجابة على السؤال. ويمكن أن يكون اتهاما للذات: " لماذا أنا على هذا القدر من الغباء؟ " ويمكن أن يكون شكلا ممتدا من التعجب أو الاستجابة العاطفية: " لماذا يحدث لى هذا طوال الوقت؟ " ويمكن أن يكون دعوة لقاض أو واحد من المستمعين (كيف يمكن أن تدين شخصا له مثل هذا الوجه البـــرىء؟)، أو وسيلة أدبية (هل أقارن بينك وبين يوم من أيـــام الـــصيف؟) ويمكـــن، وغالبا، ما يعبر عن إجابته الخاصة أو يتضمنها، وهذه الإجابة قـــد تكـــون ساخرة أحيانا، ومميتة أحيانا أخرى. ففى فيلم Bugsy، يسأل رجل العصابات بنيامين سيبجل، قبل أن يقتل موظفا كان قد غشه: " هل ظننت أنك يمكن أن تخدعنى؟ ". وقد يبدأ السؤال البلاغى استفسارا عن موضوع كان المرء يظن من قبل أنه غير مهم. فعلى سبيل المثال، افتتح الناقد المتخصص فى العمارة بصحيفة نيويورك تايمز، نيكولاى أوروسوف، موضوعا فى فبرايـــر ســـنة ٢٠٠٦ م بالسؤال البلاغي: "هل هناك معرض أكثر تخلفا من معرض رئيسى عن العمارة الإسبانية المعاصرة؟ " من الذى كان يعرف؟

لقد كانت بلاغته الاستهلالية وسيلة تعليمية. فالبلاغة تمزج مـــا بـــين الجدل المنطقى والخيال الأدبي. فقد كان بوئيثيوس يحمل فى ذهنه مـــا هـــو

أكثر من الفلسفة عندما كتب النص التأسيسى للبلاغة فى العصور الوسطى " سلوى الفلسفة " فى القرن السادس(*). فقد كان العالم الرومانى فى أوربا قد انهار، تاركا التعليم الرومانى فى حال من الترنح والسقوط. ووجد رجل الأدب فى الفلسفة ملجأ ضد العنف الذى ساد فى تلك الأيام: " إن قائدنا، العقل، قد جمع قواته فى قلعته، على حين كان العدو منهمكا فى نهب متاع لا قيمة له. وبينما استولوا على الأشياء عديمة القيمة بالمرة كنا نضحك عليهم من أعلى، ولا تزعجنا عصبة المغيرين المجانين كلها، ونحن نحتمى بتلك المتاريس التى لا يستطيع الحمقى المشاغبون الاستيلاء عليها". إن التاريخ يجثم بوطأته على أكتاف الرجال المتعلمين فى زمن بوئيثيوس بحيث لم يطرحوا أسئلة بلاغية عن الماضى.

ولكن المراقب الأكثر عزلة لم يكن بوسعه العمل دون طرح أسئلة بلاغية: " كيف يمكن أيضا أن تكون العناية الإلهية أفضل من رأى الإنسان، إذا كان الرب، مثل البشر، يرى أن للأشياء غير المؤكدة نتائج غير مؤكدة؟ " يجب أن يكون كل شيء مؤكدا عند الرب، هذا هو الاعتقاد الذى ينزل بمسار التاريخ إلى مستوى إجابة السؤال البلاغي. " إن نظام الكون، الذى يمضى قدما بمتوالياته الحتمية، يسبب هذا التوافق الزمنى بين الأسباب. وينبعث هذا النظام نفسه من مصدره، أى العناية الإلهية، ليضع كل الأشياء فى زمانها ومكانها المناسبين ".

(*) بوئيثيوس، فيلسوف كان فى خدمة الملك ثيودريك صاحب مملكة الأوستروقوط فى إيطاليا، وكانت هذه الفرقة من القوط تدين بالمسيحية على المذهب الأريوسي، وقد اتهم بوئيثيوس فيما عرف باسم"المؤامرة الكاثوليكية ". وفى أثناء فترة سجنه ألف كتاب سلوى الفلسفة، الذى وصف فيه عجلة الحظ فى الحياة بأنها مثل عجلة بيد امرأة لعوب تدحرجها كيفما شاءت بحيث تتغير مصائر البشر ما بين الصعود والهبوط. وقد لقى بوئيثيوس حتفه فى نهاية الأمر عندما أمر الملك القوطى ثيودوريكب إعدامه (المترجم)

في سنة ٣٩٩ ق. م. تمت محاكمة سقراط الأثينى وأدين بالإساءة إلى الآلهة والدولة وحكم عليه بالنفى أو الإعدام، وكان من بين الأسباب أنه استخدم الأساليب البلاغية مثل السؤال البلاغي. ففى محاكمته كلها اعتمد سقراط على المناهج الجدلية نفسها التى كان يعتمد عليها طوال حياته فيلسوفا، حسبما جاء فى كتاب أفلاطون Apologia(وهى كلمة تعنى باليونانية الشرح). وقد بدأت التبادلات الفلسفية التى يفترض أن سقراط كان يتبادلها مع الطلاب، والمستهزئين، بل وعابرى السبيل، عندما أخذ سقراط يطرح سلسلة من الأسئلة التى قادت من يجيبون عليه تجاه الإجابة الصحيحة أو الإجابة المحرجة. وفى أثناء محاكمته، سأل نفسه هذه الأسئلة: " إننى أجرؤ أيها الأثينيون على القول بأن أحدكم قد يجيب بقوله: لماذا هذا يا سقراط، وما أصل هذه الاتهامات الموجهة إليك؟ لابد أنك كنت تفعل شيئا إدا؟ كل هذه الشهرة العطيمة والكلام العظيم عنك لم يكن ليظهر لو كنت مثل الرجال الآخرين: أخبرنا، إذن، لم يحدث هذا، لأننا سوف نندم إذا تسرعنا فى الحكم عليك ". لقد كان السؤال البلاغى دعوة سقراط لنفسه لتقديم روايته الخاصة للقصة: " لقد اكتشفت أن الرجال الأعظم شهرة هم الأكثر حماقة؛ وأن بعض الرجال الأدنى مكانة هم الأكثر حكمة والأفضل فعلا. سوف أحكى لكم عن جولاتى وعن أعمال هرقليوس حسبما أسميها ". بيد أن السؤال البلاغى، وإجابات سقراط عليه، لم تكن كافية لتنقذه من عداء الجمهور تجاهه بسبب هدمه الأصنام الفكرية طوال حياته.

إن السؤال البلاغى عبارة عن رواية تاريخية قد تجعلنا نعى إخفاقاتنا الأخلاقية وقد حكى توماس جيفرسون قصته الحقيقية: على حدود ولاية فرجينيا سنة ١٧٧٤ م، اشتبك اثنان من هنود الشاونى فى قتال مع اثنين من البيض وقتلاهما. وقررت عصابة من منظمة القصاص فى فرجينيا، وقد

ألهبهم الغضب ضد الهنود جميعا، أن ينتقموا من أى هندى تقع عليه عيونهم. وعند منحنى النهر أكمنوا كمينا لمجموعة صغيرة من النساء والأطفال كانوا يسافرون فى قارب ولم يكونوا متورطين فى الحادثة السابقة؛ والواقع أنهم كانوا من عائلة الزعيم الهندى لوجان، الذى كان صديقا للبيض وحليفا لهم، وكان قد ساعد على إقرار السلم على الحدود. كان لوجان خطيبا مفوها فى تراث سكان أمريكا الأصليين الذى يحتفى بالكلام الراقى فى المناسبات العامة، على شكل سلسلة من الأسئلة المشحونة للتعبير عن حزنه: " إننى أطلب من أى رجل أبيض أن يقول إذا كان قد دخل مرة بيتا وهو جوعان ولم يعطه أهل البيت اللحم، وإذا جاء بردانا وعريانا ولم يعطوه الكسوة؟ ... من يحزن من أجل لوجان؟ لا أحد ".

لقد باتت الخطبة الرائعة التى ألقاها لوجان أمام ممثل الحاكم الملكى لفرجينيا، اللورد دونمورى سنة ١٧٧٤ م قطعة كلاسيكية من الخطابة. وسمعها جيفرسون من دونمورى الذى كان قد نسخها فى مفكرة، ثم نقلها بعد ذلك فى كتابه الذى يحمل عنوان

State of Virginia (1785) Notes on the.

ولقد كان جيفرسون، شأنه شأن كثير من رفاقه فى جيل المؤسسين، قارئا نهما للتاريخ. إذ كانوا يعتقدون أن التاريخ يعلم دروسا حيوية فى قيادة الدولة. وكان جيفرسون قلقا من أن التاريخ الحقيقى لجيله لن يكتب أبدا وقد سأل أصدقاءه بعد أن تقاعد واعتزل الحياة السياسية: " ترى ماذا سيكون عن ماضينا؟ " وكان هذا سؤالا بلاغيا. وسأله أحد الشكاكين سنة ١٧٩٧ م ماذا لو كان لوجان قد تكلم بالحقيقة، وأجاب جيفرسون: " إذا وجدت أن لوجان كان على حق فى اتهاماته، فسوف أبرئ ساحة... زعيم جلبت له موهبته وسوء حظه احترام العالم وتعازيه ". لقد كان اهتمام جيفرسون العميق

بالتاريخ الثورى ورده على من انتقد حكايته عن لوجان قد صيغ على شكل أسئلة بلاغية.

وثمة تنويعة على السؤال البلاغى تتمثل فى السؤال الذى يطرح ما هو معروف أنه عكس الحقيقة. هذا السؤال المعاكس سؤال مشحون يفتح الطريق للاستفسار. وقد يكون السؤال المعاكس سؤالا مشحونا للغاية، لاسيما عندما يقوم شخص غير متعلم بالخوض فى أسئلة تاريخية معاكسة. ففى يوم ٢٩ يناير سنة ٢٠٠٦ م، سأل عالم الوراثة الملحد الشهير ريتشارد داوكيز، فى كلمة المحرر بمجلة Philadelphia Inquirer " هل الدين أصل الشر؟ ". كان هذا سؤالا معاكسا مشحونا، ولم تكن الإجابة عليه ممكنة سوى بواسطة التاريخ. وكان قد كتب سنة ٢٠٠٣ م: " إن فكرتى الأساسية ليست أن الدين نفسه الدافع إلى الحرب، والاغتيالات، والهجمات الإرهابية، ولكن أن الدين هو اللافتة الرئيسية التى يمكن بها تعريف " هم " فى مواجهة " نحن " بشكل مطلق ".

وهناك أمثلة معاكسة أخرى أقل شحنا تواجهنا، حتى وإن كان واضحا أنها تعاكس الحقيقة وتناقضها. فعلى سبيل المثال، كيف يتأتى للمؤرخ أن يقيم الفرض القائل بأنه لولا الهجرة من الريف لتدهورت المدن التى أنشئت فى بواكير العصر الحديث؟ إن السؤال المشحون هو " ما الاستنتاج الآخر الذى يمكن أن نصل إليه؟ " الحقيقة أن المدن مثل لندن فى القرن السابع عشر كانت مستنقعات للأمراض؛ والحقيقة أنه كانت هناك هجرة من الريف، كما أن مدن العصر الحديث قد ازدهرت. ولا يمكن أن نجد الإجابة سوى بمساعدة سؤال معاكس. ويوضح نموذج الجملة المناقضة للحقيقة عن النمو السكاني، بعد استبعاد تأثير الهجرة، أن المهاجرين رفعوا بالفعل معدل وفيات الأطفال فى المدينة لكنهم لم يرفعوا معدل المواليد – وهو اكتشاف تحليلى مذهل. إذ كانت المدن ستكسب سكانا أكثر بدون الهجرات الداخلية.

وثمة أنواع أخرى من الدراسات التاريخية المناقضة للحقيقة تغير خط القصة المروية لتساعد فى الإجابة على الأسئلة المطروحة عما حدث فى الحقيقة. ويمكن أن نسمى هذا سؤال " ماذا لو ". إنها جملة على نقيض الحقيقة تتخذ شكل السؤال. " ماذا لو أن البريطانيين تحت قيادة وليم هاو كانوا قد طاردوا جورج واشنطن وأتباعه إلى داخل نيوجيرسى بعد أن كان واشنطن قد خسر المعركة للسيطرة على مانهاتن فى سبتمبر سنة ١٧٧٦ م؟ ". إنهم لم يفعلوا ذلك، واستطاع أن يعيد تجميع قواته ويحرز الانتصارات المذهلة عند ترينتون وبرينستون فى نهاية السنة، ولكن لو أنهم كانوا قد أرغموا جيش واشنطن على التفرق والفرار، هل كان يمكن للبريطانيين كسب الحرب ضد الثوار؟ هذا السؤال المعاكس يساعدنا على فهم السبب فى هزيمة البريطانيين – لأن واشنطن وأتباعه كان بوسعهم دائما مقايضة المكان بالزمان، ولكن خطوط الإمداد البريطانية كانت مقيدة بالبحر. " ماذا لو كان روبرت لى وجيش فرجينيا الجنوبية قد هزموا قوات الاتحاد فى جيتسبرج وزحفوا إلى واشنطن العاصمة؟ " هل كان الكونفيدراليون سيربحون الحرب؟ لا، لأن خسائر الجنرال لى كانت فى حجم خسائر جورج ميد وجيش البوتوماك تقريبا. والدرس الذى نتعلمه من السؤال المعاكس هو أن المعارك لا تحسم مسار الحرب. إذ إن مزيجا من الإرادة والقدرة الفاعلة، التى يزيدها قوة على نحو ما حجم القوات، هو الذى أملى انتصار الاتحاد على الرغم من أن جيوش الاتحاد لم تكسب سوى عدد قليل من المعارك.

وكما كتب روبرت كاولى فى تقديمه للكتاب الذى يحمل عنوان :

What Ifs ? of American History: Eminent Historians Imagine What Might Have Been 2003

إن الكتابة التاريخية المعاكسة للحقيقة... يمكن أن تلقى ضوءا عاكسا على ما حدث بالفعل، فلماذا تسود أحداث معينة (والاتجاهات والمسارات التى خرجت منها) ولا تسود أحداث أخرى؟ عند أية نقطة صارت الممكنات مستحيلات؟ إن التفكير حول السؤال المعاكس يؤدى إلى فهم أشد وضوحا لطبيعة الحرب والسلام على السواء. ماذا لو أن لنكولن كان قد تفادى رصاصة جون ويليكس بوث؟ هل كان مشروع المساواة الكاملة بين الرجال والنساء العتقاء من الرق سنة ١٨٦٥ م سيتحقق؟ وما الدور الذى كان لنكولن سيلعبه فى دراما إعادة البناء؟ إن السؤال المعاكس للحقيقة سمح لنا أن نفسر الأحداث الفعلية بطريقة أفضل عن طريق وضع البدائل. ذلك أن السؤال المعاكس يسمح للبحث أن يمضى قدما مع غياب الحقائق، وبأخذ التفكير المنطقى إلى مملكة التخيل(*).

وربما يصيح ناقد لمثل هذا التفكير قائلا إن المؤرخين ليس لهم دخل بتخمين ما كان سينتج من الأحداث التى لم تحدث. إن تحديد أسباب حدوث الأشياء، على نحو ما حدثت أمر غاية فى الصعوبة. والأكثر من ذلك أن كل افتراض معاكس للحقيقة يفتح الباب أمام الكثير والمزيد من البدائل المعاكسة

(*) هذا النمط من التفكير لا يمكن أن يدخل فى نطاق البحث التاريخى لسبب بسيط هو أن التاريخ يدرس ما حدث بالفعل، واحتل مكانه فى الزمن والمكان، ولا يبحث فى الاحتمالات التى قد تحدث وقد لا تحدث فى المستقبل. والبحث التاريخى يحاول استرداد الحدث التاريخى من الماضى لتحليله وفهمه، وبيان العلاقة السببية فيه؛ فى محاولة لم تتوقف من جانب المؤرخين فى كل العصور وفى جميع الثقافات - لاكتشاف قوانين حركة الإنسان فى الكون. ومن ناحية أخرى، فإن التاريخ علم متزمن لأن الماضى (إحدى آنات الزمن) يمثل قاعدة الفعل التاريخي. وباختصار، فإن البحث فى احتمالات كان يمكن أن تقع فى الماضى ولكنها لم تقع، نوع من العبث الفكرى من جهة، كما أنه لا يمت للبحث التاريخى من جهة أخرى. ويبدو أن المؤلف يعكس مدى سطحية فكره التاريخى على الرغم من أنه يزعم أنه يقدم وصفة لفلسفة تاريخ "تصلح لزماننا" على حد تعبيره (المترجم)

التى تبرز من طيات الافتراض المعاكس للحقيقة الأولى. ومثل لعبة الشطرنج، لكل حركة الكثير من الحركات المضادة التى لها بدورها المزيد من الحركات المعاكسة. وسرعان ما يصبح العدد فلكيا. إن قواعد الشطرنج تكبح عدد الاستجابات لأية حركة، ولكن تخيلاتنا التاريخية ليست محدودة مثل القطع فوق رقعة الشطرنج فى حال تحررها من كوابح الحقيقة.

إضفاء المرح على السؤال المشحون

يقدم السؤال المشحون مفتاحا حيويا لكيفية عمل المستحيل – أى معرفة الماضى. ولكى نقترب من هذا المفتاح بدرجة أكبر، سيكون علينا أن نتعامل مع السمة الخاصة التى يتسم بها السؤال المشحون – أى المرح. ففى فيلم My Favorite Year ينطق " بيتر أوتول " بحقيقة كونية: " الموت سهل، والكوميديا صعبة ". ومع هذا، فإن روح المرح تبدو من الخصائص الأفضل تطورا وتفردا للبشر. وهناك تاريخ خاص للنكات، يتطور مع تغير الأزمنة؛ ولا تتغير سوى الأسماء فى النكتة لتوجيه إهانة لشخص برىء. وقد أعيد العمل وفق خطوط الكوميديا الرومانية القديمة فى مسرحية بلوتوس لتتحول إلى فيلم A Happy Thing Happened on the Way to the Forum حديث ومسرحية مضحكة. كما أن ذلك الكوميدى الإنجليزى العنيف الذى عاش فى القرن الثامن عشر قد أعطى اسمه لكتب النكات التى صدرت على مدى مائتى سنة، ولابد أن بلوتوس الرومانى كان يعرف بعضها قبله، ومن الواضح أن المرح ليس فى الموضوع فقط، ولكنه أمر تاريخى أيضا.

ويشير البحث التاريخى الحديث إلى أن بعض المؤرخين يعانون من الحساسية ضد المرح. ففى دراسة قدمت إلى رابطة أساتذة الجامعات الأمريكيين فى مجلتهم Academe (يناير ٢٠٠٦ م) وجد كارل بيتروسو،

عالم الأنثروبولوجيا بجامعة تكساس أن هيئة التدريس بقسم التاريخ فى إحدى الجامعات الرئيسية على الأقل كانت مجردة من روح المـــرح. " إن الهـــدف الأولى لهذه الدراسة بيان المستويات النسبية للتهريج والجديـــة فـــى هيئـــة التدريس فى مختلف التخصصات بكلية الآداب "، وهو ما يمثل نزوة تشذ عن كثير من البحوث فى العلوم الاجتماعية. لقد طور كارل بيتروسو "تـــصميما للبحث يقوم على أساس تنسيق أعداد الملصقات المرحة بالنسبة للملـــصقات الجادة على أبواب مكاتب الأساتذة ". وعلى أية حال، كان باب مكتب الأستاذ مرآة عاكسة لرؤيته للعالم !

وبعد جمع المعلومات ووزنها، وجد بيتروســـو أن " مكاتـــب أســـاتذة التاريخ تستدعى تعليقا خاصا ". وإذا ما استبعدنا "أستاذا مهرجا مجهول الاسم " يعرض على بابه أربعة وسبعين رسما كاريكاتوريا ليس من بينها شىء له طبيعة تربوية جادة "، فإن الفهرس الذى يضم هيئة التدريس بأقسام التـــاريخ ممن يتمتعون بروح المرح، أوضـــح أن نـــسبة الملـــصقات المرحـــة إلـــى الملصقات التربوية الصارمة كانت "نسبة ٤٣٣ فى الألف، وهو ما لابـــد أن يضع القسم – وعلم التاريخ بالتالى – فى الدرك الأسفل من انعدام المـــرح، ويمكن أن أضيف انطباعاتى الخاصة لدراسة بيتروسو الـــساخرة. فلأنننـــى حضرت ما يقرب من مائة مؤتمر للمؤرخين كما جلست فى عدد لا يحصى من الندوات لأساتذة يقرأون أوراقا تفصيلية جافة، ثم يعقبهم معلقون يقرأون تعليقات تفصيلية جافة مثلها، يمكننى القول إن الكثير من المؤرخين لا يبـــدو عليهم انهم مغرمون بالمرح والفكاهة. ويطلب منا محررو كتبنا الدراسية ألا نكتب بطريقة ملتوية فى هذه الكتب؛ لأن الطلاب لن يفهموا الفكاهة. ومـــن الواضح أنه لا يوجد شىء فكاهى فيما ندرسه، وليس للمرح والفكاهة مكـــان فى كيفية دراستنا. وإذا حاكينا عبارة جورج كليمنصو التى لاحـــظ فيهـــا أن

الحرب أمر غاية فى الخطورة بحيث لا ينبغى تركها للقادة العسكريين، نقول إن التاريخ ربما يكون جادا جدا بحيث لا نتركه لقوم تحكمهم روح الفكاهة والمرح.

ومع هذا، فعندما ينظر المرء إلى نوع من المرح والفكاهة يعرف فى اللغة الإنجليزية باسم shaggy dog story قصة الكلب الأشعث (وهى حكاية تغص بالتفاصيل التافهة وتنتهى بشكل مفاجئ)، فسوف يرى الرابطة التى تربط بين السؤال المشحون وفلسفة التاريخ التى تصلح لزماننا. وليس هناك أحد متأكد تماما من أصل المصطلح، على الرغم من أنه انتشر انتشارا واسعا فى أربعينيات القرن العشرين، وحكاية الكلب الأشعث عبارة عن لمحة تاريخية موجزة لا ترقى فى نهاية الأمر إلى مستوى توقعاتنا، وتشط تماما بعيدا عن الموضوع. وهنا واحدة من الحكايات المفضلة عندى من هذا النوع: قرر شاب أن يكتشف سر الحياة. وأخذ يتجول فى جميع أنحاء العالم سائلا أكثر الرجال والنساء المقدسين احتراما أن يشرحوا له سر الحياة. ولأن إجاباتهم لم تشف غليله، سافر إلى التبت باحثا عن الحكمة لدى أكثر الرجال قدسية هناك. وعلم الشاب من تلاميذ الرجل المقدس ما ينبغى عليه فعله لتطهير روحه وتجهيز عقله لتلقى الإجابة. وعلى مدى سنوات مارس أشد التدريبات صرامة، وأخيرا سمح له أن يقترب من الأستاذ المقدس. ويسأل الباحث عن الحكمة وقد صار آنذاك أكبر سنا وأكثر هزالا: " أيها الرجل المقدس، ما سر الحياة؟ " ويجيب الرجل المقدس: " إن الحياة مثل غصن منثن " ولما كان مازال مشوش الذهن سأل: " الحياة مثل غصن منثن؟ ". فأخذ الرجل المقدس يفكر برهة ثم قال: " هل تقصد أن الحياة ليست مثل غصن منثن؟ ".

إن نهاية هذه الحكاية، فى شكل سؤال مشحون، تعتمد على السخرية. فالسخرية مكون حيوى فى التاريخ كله. ففى حياتنا اليومية آلاف من السخريات البسيطة؛ فى التدريس، وفى البحث، وفى كتابة التاريخ. " إذا كان هناك شيء سوف يمضى بالخطأ، فسوف يمضى ". هذه صيغة أخرى من " قانون مورفى " تنطبق علينا إننا نضيع الإحالات إلى المراجع، وننسى أننا نعبر عن الموضوع بكلمات أخرى، ونستعير بمزيد من الحرية من الآخرين بقدر أكثر من اللازم، ولا نعترف أحيانا بما ندين به كما أننا نخضع لشكل أو آخر من " مبدأ بيتر" ومؤداه أن الناس سوف يرقون فى العمل إلى أن يصلوا إلى موقع هم غير مؤهلين لشغله. ومبدأ بيتر يعمل بالطريقة نفسها معنا. فسوف تتعدى فصول الكتاب النقطة التى ينبغى التوقف عندها. وفى غمرة فرحنا بالعثور على الدليل المناسب لمفاهيمنا سوف نبالغ فى النتائج التى توصلنا إليها ومن المؤكد أن " قانون باركنسون " القائل " إن العمل سوف يتمدد حتى يملأ الوقت المخصص له " ينطبق على المؤرخ الذى لا يستطيع الكف عن البحث لكى يبدأ فى الكتابة، أو المؤرخ الذى يصر على أن يضع كل بطاقات الملاحظات فى النص، وينفخ فى مقالة موجزة فى مائتى صفحة لتصير كتابا منتفخا من خمسمائة صفحة.

وفى التاريخ نفسه، تتوفر السخرية. ويمكن لتأثير الصدفة، والتطور الطارئ وغير المتوقع، والحدث العارض، أن يغير المسار الكلى للتاريخ صوب اتجاه غير متوقع. هذه النظرية تسمى " أنف كليوباترا "، لأنه لو كان أنفها أقصر قليلا أو أطول قليلا، فربما لم تكن جذابة لكل من يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس، وربما كانت الجمهورية الرومانية قد بقيت على حالها. ومثلما كتب دانييل بورستين فى كتابه Cleopatra's Nose: Essay on the Unexpected in History" عندما نركز على النقاط الفارقة فى التاريخ

نتعرف على الدور الحاسم الذى يلعبه الحدث الطارئ والحدث التافه ".
والتاريخ بهذا المعنى قصة طويلة عابثة من نوع حكايات الكلب الأشعث.

بيد أن هناك سخريات أخرى أكبر فى الحكايات التى نحكيها عن ماضينا، كما هو الحال فى السعى وراء فهم للحرب الأهلية الأمريكية. ويلاحظ إدوارد أيرس، فى حكايته المؤثرة للغاية عن قدوم الحرب إلى مقاطعتين فى وادى شناندوا، وفى مقاطعة فرانكلين ببنسلفانيا، وأرجوستا بفرجينيا، أن " الشمال دخل الحرب لكى يبقى الناس فى الاتحاد القائم على موافقة الحكومة ولكى يبقى على الرابطة مع المجتمع المتمسك بالرق الذى يحتقره... أما الجنوب، من ناحيته، فقد ذهب إلى الحرب تحت راية الحرية فى الاحتفاظ بعدد ضخم ومتزايد من العبيد ".

وثمة سخرية أقل كارثية تنطبق على ما هو غير متوقع وغير مخطط لتطور الأفكار. ذلك أن الاحتجاجات الأمريكية ضد مرسوم الطوابع الذى أصدره البرلمان الإنجليزى سنة ١٧٦٥ م كانت قائمة على أساس ما رأى المحتجون أنه الدستور الذى تتشارك فيه المستعمرات مع بريطانيا. ولما زادت الاحتجاجات ورفضها البرلمان، بدأ المحتجون يستكشفون بعض المضامين التى كانت مخبوءة حتى ذلك الحين فى مجادلاتهم هم. وقد اكتشفوا مؤامرة ضخمة ضد الحركة تقوم الحكومة الإمبراطورية بتولى رئاسة أركانها. وفى النهاية، صارت الأسس الفكرية لمقاومتهم فكرة عن القانون الطبيعى خارج الدستور الإنجليزى وفوقه، مجموعة من المفاهيم التى كان لها أن تؤدى ثانية إلى اتجاهات غير متوقعة بالمرة: الاستقلال ونهاية الرق فى الولايات المتحدة الجديدة، وحكومات جمهورية تقوم على أساس من الدساتير المكتوبة: العدالة فى الحقوق، والفصل بين السلطات، وسيادة الشعب.

إن صناعة التاريخ مثل الشرح الذى قدمه الرجل المقدس عن الغصن المنثنى. وعلى المرء أن يضع افتراضات معينة لصناعة التاريخ، وهذه، مثل حكايات الكلب الأشعث المضحكة، تكشف عن ينابيع ساخرة فى الحياة الإنسانية. والواقع أن المؤرخ وهو تحت ضغط خصم ينكر إمكانية أى شىء أكثر من التاريخ باعتباره نوعا من البلاغة لا يمكنه الإجابة سوى بالسؤال المشحون بالسخرية: " هل هناك من يشك فى دور حفظ الوثائق؟ ".

وترجمة ذلك أنه يجب علينا، نحن الذين نمارس صناعة التاريخ، أن نتحلى بقدر معين من التواضع يرتقى إلى إحساس بالابتهاج بأنفسنا ونتائج أعمالنا. وليس هذا سهلا، ليس بعد حياة مهنية كانت مكرسة لملاحقة الإيماءات ومفاتيح البحث فى أماكن غامضة. ولكن السؤال المشحون " أنى لك أن تعرف أن روايتك هى الصحيحة؟ ". سؤال لا يمكن الإجابة عليه ببساطة. فالاستعداد بمواصلة استفساراتنا، لكى نقوم بالقفزات الضرورية دونما شبكة أمان، أمر جوهرى إذا ما كان لنا أن نضع الجسر الذى يمتد من دعامة إلى دعامة مقابلة لها. بيد أن تأملنا للسؤال المشحون قادنا إلى أن نفهم أنفسنا على نحو أفضل قليلا، وجعلنا نقدر موارد التهلكة فى مهمتنا، حتى ولو لم تكن هناك إجابة عنها فى متناولنا.

(٤)

سبب الانتباه

من ذا الذى سمع عن إبينزير شابلين؟... لقــد اســتمر الجهد لفهم هذا المصير الثورى والتواصل معه وتحقيقه طوال فترة الجيل الثورى كله... فى ذلك الحين تم تحديد المقدمات المنطقية ووضع الفروض. وفى ذلك الحــين حدث استكشاف مجالات فكرية جديدة كانت تلك أكثــر الفترات إبداعا فى تاريخ الفكر السياسى الأمريكى تلــك أكثر الفترات إبداعا فى تاريخ الفكر السياسى الأمريكي، وكل ما أعقب ذلــك كــان مفترضــا علــى أساســه، ومبنيا عليه

برنارد بايلين (١٩٦٧ م)

يكمن جزء من قيمة أنواع بعينها من الأسئلة المــشحونة فــى قوتهــا التحليلية. فمن هو إبينزير شابلين؟ لقد كان شخصا صغيرا فى حدث كبيــر، إنه الأصل الفكرى للثورة الأمريكية. فقد كتب موعظة وأعيدت طباعتها فى كتيب صغير. هذه الكتابات التى كتبها ثوريو المستقبل فى كتيبات صــغيرة كشفت لهم النقاب عن مؤامرة تحاك ضد الحرية الأمريكية. وقــد أدى هــذا الكشف إلى تقوية الجدل الانتقالي. وأطلق الجدل جماح الثورة وحدد مسارها

فى الوقت نفسه. وكانت النتيجة محكومة بالقوانين والحرية. وتجعلنا نسأل " لماذا؟ "ونجيب بالأسئلة المشحونة مثل" من ذا الذى سمع على الإطلاق عن إبينزير شابلين؟ "، فيحول المؤلف التاريخ من حقائق تتلو إحداها الأخرى إلى شرح لهذه الحقائق. ومثلما لا يريد أحد تشخيص مرضه بأنه نتيجة "علة ذاتية"، فإن أحدا لا يريد التاريخ دون سببية.

بعد ٩/١١ طرح الأمريكيون الكثير جدا من الأسئلة التى تبدأ بكلمة " لماذا ". لماذا أصبحنا غير مستعدين لهجوم إرهابي؟ لماذا سقط البرجان التوأم؟ لماذا احتجز الكثير جدا من الذين هاجمتهم النيران فى المبنيين عندما انهارا؟ لقد غربلت لجنة من ذوى الأشرطة الزرقاء الأدلة، واستمعت إلى شهادات الشهود، وفى النهاية نشرت تقريرها. والنتيجة قراءة واعية: " فى بناء هذا السرد، حاولنا أن نتذكر أننا نكتب بعد وقوع الحدث بما فيه من مزايا الفهم، وجوانب القصور... ولكن مسار ما حدث مضىء بطريقة براقة للغاية بحيث يضع كل شىء آخر فى الظل... وبمرور الوقت، وظهور المزيد من الوثائق. .. تجلت الحقائق المجردة عما حدث بشكل أوضح. بيد أن الصورة عن كيفية حدوث هذه الأمور تصبح أصعب وأكثر استعصاء على التخيل من جديد ". ما السبب؟ إخفاقات متعددة فى التخيل، والسياسة، والقدرات، والإدارة ": باختصار أخطاء توالت يؤدى كل منها إلى الآخر.

وبينما يكون الخطأ المتعدد صيغة شائعة من الإجابة على السؤال الذى يبدأ بكلمة لماذا، فكلما ركزنا بكاميرا التاريخ على الأحداث الفردية، ظهر المزيد من الأسباب، بمزيد من الوضوح فى الصورة. واأسفاه، إن الوضوح لا يؤدى إلى الاتفاق حول الأسباب. مثلا، ليس هناك من يشك فى أن المبنيين فى مركز التجارة العالمى قد انهارا بسبب نوع من الخلط فى تصميمهما،

وبسبب الأثر المروع فى الصدامين. بيد أن التحقيقات اختلفت حول السبب الدقيق المحدد.

وكما كتبت فى كتابى Seven Fires، سئل المهندسون ومستشارو التصميم لتحديد أسباب انهيار البرجين فتوصلوا إلى استنتاجات متعارضة. لقد فحصوا بدقة الدعائم الحديدية المحترقة والحائط الخارجي، وبنوا محاكيات للمبنى على على أجهزة الكومبيوتر، وراجعوا تسجيلات الفيديو التى سجلت الانهيار فى المبنى، ثم عادوا إلى أجهزة الكومبيوتر الخاصة بهم، وما يزالون على خلافهم.

وعند فحص ناطحات السحاب نجدها عبارة عن أقفاص عملاقة ذات أطراف ثقيلة - أعمال مشبكة من الصلب، والخراسانة، والقرميد الذى يبلغ سمكه عدة أقدام. وبتأثير النيران المرعبة فى الحريق الذى حدث فى بالتيمور سنة ١٩٠٤ م، والتى حولت المبانى الشاهقة إلى هياكل محترقة، وضع البناؤون أقفاصا أكبرمن الصلب حول أقفاص أصغر حجما من الصلب أيضا حتى بدا المبنى الشاهق مثل متاهة لا يمكن اختراقها من الأعمدة والكمرات الصلب. وقد وضعت الأعمدة على مسافة عشرين قدما بين كل منها وتم تثبيتها فى الأرضيات. وقد أدت الوفرة إلى قوة المبنى. ولو كان هناك انهيار محلي، فإنه كان يمكن للأرضيات المنهارة أن تسند بقية المبنى. ولمنع النيران من الانتشار، كانت المكاتب والشقق عبارة عن مقصورات محكمة العزل، وكان الموجودون من الأفراد بها معزولين بالسيراميك المضاد للنيران والمسلح. كما كانت سلالم الحريق موزعة فى جميع أرجاء المبنى ومقواة بأبواب وحوائط مضادة للنيران.

والأمر ليس كذلك فى البرجين التوأم. فقد وجد المهندسون والبناؤون طريقة لوضع ألواح خارجية حاملة للثقل ودعامات ثقيلة فى قلب المبنى بدلا

من الأعمدة الداخلية الكثيرة. ولتخفيض الحمل علـــى الحـــوائط الخارجيـــة وأعمدة القلب الداخلية، استخدم الصلب الرفيع لعوارض الأرضيات، وحلــت رشاشات المياه التى تعمل فى حال حدوث حريق، محل القرميــد والمـــسلح التقليدى المضاد للنيران. وكانت النتيجة مساحة مفتوحة أكبر يمكن تأجيرها- وتتيح فرصة انتشار النيران بسرعة أكبر عبر أرضيات كاملة. كمـــا كانـــت مخارج الهرب من النيران التى لم يكن عددها كافيا على الإطـــلاق (ثلاثـــة) والضيقة، مجمعة فى قلب المبنى بدلا من توزيعها فى جميع أرجاء البرجين.

فى سنة ٢٠٠٢ م قامت إدارة الطوارئ الفيدرالية بنشر ما كشفت عنه دراستها عن أداء مبنى التجارة العالمى بشكل أولي. واستنتجت أن الواجهات الخاجية فى كلا المبنيين قد صمدت فى وجه صدمة الاصطدام. وكانت كـــرة النيران الناجمة عن وقود الطائرة ساخنة بالقدر الذى جعلها تـــشعل النيـــران التى أضعفت الأرضيات وزعزعت قوتها فى نهاية الأمر. ولم تكن الحوائط سبب الانهيار أو السقوط المفاجئ، وإنما كانت الأرضيات السبب فى ذلـــك. وفى الدقائق الأخيرة لكل من البرجين، بحسب قول الضحايا الذين كانوا فـــى الطوابق العليا ولجأوا إلى الردهات، كانت الأرضيات تتـــبعج فقـــد أطـــاح الانفجار بكثير من رشاشات الماء المضادة للحريق والمركبـــة علـــى تلـــك العوارض الحديدية. أما ما لم يطح به الانفجار فكان من بدايته بفتقـــر إلـــى الحماية الكافية من الحريق.

وفى ٢٢ أغسطس سنة ٢٠٠٢ م، بدأت الحكومة الفيدرالية تحقيقا آخر عن انهيار البرجين ومبنى البنتاجون. وقد أتـــم المعهـــد الـــوطنى للعلـــوم والتكنولوجيا هذه الدراسة فى شهر فبراير سنة ٢٠٠٥ م، وأعلنت نتائجها فى يوم ٥ إبريل ٢٠٠٥ م. كانت الدراسة التـــى قامـــت بهـــا إدارة الطـــوارئ الفيدرالية خاطئة – لم يكن التصميم خطأ: " هذه النيران، مع مدافع الحريـــق

المنزوعة من أماكنها، كانت المسئولة عن سلسلة من الأحداث التى تسببت فى إضعاف المبنى من القلب وبدأ يفقد قدرته على تحمل الثقل. وقد ضعفت الأرضيات وتدلت بفعل النيران، وسحبت معها إلى الداخل الأعمدة القائمة فى نطاق المبنى"، وتسببت فى انبعاج الأعمدة صوب الداخل " ثم حدث الانهيار".

ولم تكن الرسالة التى أرادت سلطة الميناء والمصممون سماعها مخبوءة – أن قدر البرجين لم يكن محتوما بسبب أخطاء التصميم. ذلك أن تأثير الطائرتين وحرارة الوقود، والنار نفسها، هو الذى أدى إلى الانهيار. وقد أصر المشرف على دراسة المعهد الوطنى للعلوم والتكنولوجيا على أن" أداء المبنيين كان كما ينبغى له أن يكون "وتجنب تماما السؤال عما إذا كان التصميم التقليدى وأساليب البناء التقليدية تصمد وقتا أطول فى وجه التأثير نفسه، والنيران نفسها، أو حتى تنجو منها.

وبدا أنه من المستحيل تحديد سبب الانهيار، وهو أمر حيوى للغاية بالنسبة لنا من حيث فهمه وإخضاعه للدراسة الدقيقة. ومع هذا فقد واصلنا طرح السؤال " لماذا؟ " إنه من بعض الوجوه أهم سؤال يمكن أن يطرحه المؤرخ، حتى مع أننا نادرا ما يمكن أن نصل إلى استنتاجات لا جدال فيها حول الأسباب ".

والآن، كيف حدث هذا؟

هل تكون بعض النتائج حتمية؟ أم أنه من قبيل إهدار الوقت أن نجادل حول مثل هذه الأسئلة، لأننا لا يمكن دائما أن نفترض نتيجة بديلة معقولة تماما؟ هل الوساطة البشرية – والاختيار البشرى – السبب الأساسى فى كل الأحداث البشرية، أم أن هناك قوى خارج السيطرة البشرية تملى نتاج التاريخ وتفرضه علينا؟

في القرن الثاني عشر، ظهرت التجربة العلمية التي حلت محل إرجاع كل شيء للمشيئة الربانية باعتبارها الطريقة المفضلة لتفسير الحوادث الطبيعية. وقد اقترح دافيد هيوم، الفيلسوف ومؤرخ أرسطو، أن السببية ببساطة هي استمرار اقتران نتائج معينة نتجت عن الأحداث التي مررنا بها ببعضها البعض. إذ إننا نظن أن A سبب B لأنه في تجربتنا A تسبق B مباشرة. وإذا كان للمؤرخ أن يطبق ببساطة معادلة هيوم، فلن تكون هناك حاجة إلى تحليل سببي على الإطلاق. ذلك أن السبب سيكون افتراضيا. وسوف تعقب كل تفصيلة تفصيلة أخرى، في سرد القطع التي تؤلف الأدلة بلا تفكير. وستكون الحقائق هي نفسها أسبابها، لأنها ستكون كل ما لدى المؤرخ. وكل ما عدا هذا سيكون تخمينا من المؤرخ.

وبدلا عن ذلك، فإننا قد نتبنى المنهج العلمي الذي يتعلمه جميع أطفالنا في المدرسة. وهو يقوم على نظرية السببية. أولا نلاحظ حدثا ما. ثم نحاول شرحه بوضع إجابة، تسمى الفرض العلمي، على سؤال أو سلسلة من الأسئلة يمكن اختبارها واختبار نتائجها. ثم نقوم بتلك الاختبارات التي نسميها تجارب. لنرى ما إذا كانت فروضنا صحيحة. يبدو الأمر بسيطا. ولكنه ليس بهذه البساطة، لأن التاريخ يختلف عن العلوم. إنه لا يعيد نفسه ومن المؤكد أنه لا يخضع للتجارب المعملية. وكان إيفان بافلوف، وهو عالم روسي، قد وجد أن قرع الجرس قبل إطعام كلبه يجعل الكلب يعتقد أن الجرس يعقبه الطعام دائما. ولأن الكلب كان يتوقع الطعام، فقد كان لعابه يسيل كلما قرع الجرس. فتخيل انزعاج الكلب عندما يقرع الجرس ويكون الإناء فارغا. إنه يظن أن الجرس سبب ظهور الطعام. ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفا. وفي التاريخ يكون الإناء فارغا دائما على الدوام.

وعندما نخطئ شرط الفعل من جانب واحد، نفترض الأسباب طوال الوقت. ذات يوم صاخب عاصف كنت أتمشى، ورأيت فرع شجرة ملقى على الطريق وتعجبت كيف وصل إلى هناك. وبدا لى أن أفضل تفسير عملى لهذا أن الريح قد قذفت به. ولم أر الريح تفعل هذا، فمن ذا الذى يرى الريح حقا؟ ولكننى كنت قد رأيت مناسبات سابقة كانت الأشجار تنحنى، وتتطاير الأغصان هنا وهناك، وكان ثمة ما يدفعها فى اتجاه واحد. إنها الريح ولا شك.

لماذا سقط فرع الشجرة على الطريق؟ لقد سقط بفعل الجاذبية. والجاذبية هى الاسم الذى نطلقه على القوة الموجودة فى كل الأشياء التى لها كتلة. لماذا؟ لأن إسحق نيوتن عرّف الجاذبية بأنها إحدى القوى الرئيسية التى تؤثر فى المادة. والأرض كتلة كبيرة ولها مجال جاذبية قوي. ولكن ما الجاذبية؟ هل سبق لك أن رأيتها؟ لا، مثلها مثل الريح. واعتقد أن الجاذبية موجودة لأن الأشياء تقع دائما (خاصة فى مطبخى)، ولكن هذا فى الحقيقة يزيد قليلا عما تعلمناه من هيوم. إن السبب يكمن فى عادات تجربتنا. بيد أن قراءتنا للتجربة، وتناولنا للسببية التاريخية، لابد وأن تكون معقدة قليلا.

وإذا ما هذبنا مفهوم هيوم، نصر على أنه إذا كان لنا أن نؤكد أن A تتسبب فىB، وأن A تسبق B، وأنه بدون حدوث A لن تحدث B. باختصار تجبرنا فكرة السبب على قبول مفهوم معين للزمن، إذ إن الزمن مفهوم صعب بالنسبة للطبيعة الفلكية، وعلم النفس المعرفي، ومن الواضح أنه مفهوم صعب على تلاميذى فى فصول الصباح الباكر. وإذا كان الزمن هو كما يقترح ستيفن بينكر فى كتابه الذى يحمل عنوان (The Stuff of Thought (2007)" نافذة متحركة تطل على الحياة متاحة لمعظمنا (الآن) وقدرا قليلا من (حينئذ) "، وعند المؤرخين يكون " حينئذ " أكبر كثيرا وأكثر ليونة. فإذا كتبت عن الحرب الأهلية الأمريكية، تمتد " الآن "عندى إلى "حينئذ " قبل مائة

وخمسين سنة. وفى زعمى عن السببية ينبغى أن أثنى الماضى لكى أجلب الماضى والحاضر سويا. ولست أدعو إلى نوع من الرحلة القهقرية فى رحاب الزمن، لأن الماضى الذى نسكنه نحن المؤرخين ليس زمنا عشناه، ولكنه زمن تذكرناه. نحن لا نأخذ القراء فى رحلة تقهقرية فى رحاب الزمن؛ بل إننا نستخدم لغة مؤقتة للدلالة على مرور الزمن.

فى بعض الأحيان يكون لدينا A ولا تليها B. وقد نقول وقتها إن A كانت ضرورية لحدوث B ولكنها لم تكن كافية. فلكى تحدث الثورة الأمريكية كان لابد للأمريكيين أن يكونوا متململين من الحكم البريطاني. وكانت تلك الأفعال ضرورية باعتبارها أسبابا ولكنها لم تكن كافية، فربما كان الأمريكيون سيسكتون قهرا عن هذا ولا يفعلون شيئا، أو ربما كانوا سيفعلون ما يفعلونه دائما - ينتهكون القانون بالتهريب مع دفع الرشاوى لموظفى الجمارك، ويجعلون القضاة ينظرون فى الاتجاه الآخر عند القبض على مذنبين من أمثال هانكوك فى حالة تلبس.

وإذا كانت A تؤدى دائما إلى B فعندها تكون A سببا كافيا. وإذا كانت موجة محددة من الأنفلونزا ينتج عنها ألم المفاصل، فإن جرثومة الأنفلونزا تكون سببا كافيا للألم. ولا يعنى هذا أنه ليست.هناك علل أخرى قد تسبب آلم المفاصل أيضا. والسبب الكافى ليس بالضرورة السبب الوحيد وراء أى حدث. لقد كانت الحرب الأهلية ناتجة عن قرار لنكولن بألا يدع الكونفيدرالية تفسخ الاتحاد، وهو سبب كاف. ولكن لو كان قادة ولايات الجنوب قد نحوا خوفهم من أن حزب لينكولن الجمهوري، الذى فاز فى انتخابات سنة ١٨٦٠ م، سوف يحرمهم من عبيدهم، جانبا، لما كانوا قد رغبوا فى الانفصال أو شكلوا الكونفيدرالية.

الأسباب الزائفة

بقدر ما قد يكون عليه هذا الفهم الضرورى للسببية من الوضوح والبساطة، تعثر المؤرخون وانزلقوا فى أخطاء التفسير. هذه الأخطاء تتضمن النزعة الحتمية؛ والمغالطة المنطقية عن التلازم الذى يربط الأحداث ببعضها، ومغالطة الإدراك بعد وقوع الحدث؛ ومغالطة الوهم العنقودي؛ والنبوءة المتحققة بذاتها، والسبب الزائف.

فى النزعة الحتمية يعرف المؤرخ كيف تحول كل ما لابد له أن يتحول، لأنه يعرف كيف كان ينبغى أن يتحول. لأن سببا واحدا كبيرا تفوق على الأسباب الأخرى جميعا. ويكون هذا السبب كبيرا جدا بحيث يندرج كل شيء تحته ولا يمكن لشيء أن يفلت منه، فهو مثل " الثقوب السوداء " فى الكون بجاذبيتها الكبيرة التى لا يمكن حتى للضوء أن يفلت منها. والنزعة الحتمية تنزل بجميع التفسيرات إلى تفسير واحد، ولهذا السبب سمى من يتبعونها " التخفيضيين ".

أنى لهم أن يعرفوا أن السبب الكبير وراء كل شيء؟ بالنسبة لكثيرين تكاد جاذبية السبب الواحد الكبير أن تكون جاذبية دينية – لأنه يفسر ويريح. ومن ثم، فإن وراء كثير من المجادلات السببية التخفيضية التزاما أخلاقيا أو إيديولوجيا. هذا النوع من السببية تاريخى لأنه يبدأ بدراسة الإيديولوجية نفسها، وليس بدراسة الماضى، لكى تتناسب مع أى دليل تم ليه وقولبته.

أشهر تلك النظريات الحتمية فى التاريخ هى النظرية الماركسية. فوفقا لكارل ماركس، كانت وسائل الإنتاج مفتاح تطور المجتمع الإنساني. فقد كانت الأساس الذى استقرت عليه المجتمعات، وشكل تفكير الناس وأعمالهم. وكان النضال من أجل السيطرة على وسائل الإنتاج بمثابة الآلة المحركة

للأحداث التاريخية. وفى وسط هذه الإيديولوجية يستقر مفهوم أن التاريخ مر خلال مراحل محددة، وأن هذه المراحل كانت تتبع كل منها الأخرى، وأنه لا شيء يمكن لفرد أو جماعة أن تفعله يستطيع أن يغير التتابع أو ما ينتج عنه. وفى المرحلة الرأسمالية من الصراع، يحارب العمال وطبقة البروليتاريا الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج، ولسوف تؤدى الثورة الناتجة عن ذلك إلى جلب المرحلة النهائية من التاريخ؛ أى الشيوعية الحقيقية. وعلى الرغم من أن حصاد الصراع فى سبيل السيطرة على وسائل الإنتاج كان حتميا شأنه شأن حصاد أى حادث طبيعي فى ظل قوانين مثل الجاذبية، فإنه يجب على الرجال ذوى التفكير الصائب، فى الوقت نفسه، الإسراع فى الوصول إلى المرحلة النهائية من التاريخ.

وتتمثل جاذبية الماركسية للباحثين، سواء كانوا من المعجبين بالشيوعية أو كارهين لها، أنها كانت علمية. ففى كتاب ماركس1847 PhilosophyPoverty of م يجد المرء المعادلة البسيطة، وهى معادلة رشيقة علميا وسارية عالميا:

"عند تغيير أنماط الإنتاج، يغير الجنس البشرى كافة علاقاته الاجتماعية. إذ إن الطاحونة اليدوية تخلق مجتمعا يحكمه سيده الإقطاعي؛ والطاحونة البخارية تخلق مجتمعا تسود فيه الرأسمالية الصناعية... وتحت النظام البطريركي، وفى ظل نظام الطوائف، وتحت النظام الإقطاعى والنظام التعاوني، كان ثمة تقسيم للعمل بين أفراد المجتمع بأسره وفق قواعد ثابتة. فهل تم إرساء هذه القواعد على يد أحد المشرعين؟ لا، إنها نشأت فى الأصل عن ظروف الإنتاج المادي، ثم ارتفعت إلى مرتبة القوانين بعد زمن طويل. وبهذه الطريقة، صارت هذه الأشكال المختلفة من تقسيم العمل قواعد كثيرة للغاية فى التنظيم الاجتماعى ".

وليس هناك أى حدث عارض هنا؛ ولا مفاجآت، ولا التواءات أو تحولات. إذ يحدث كل شيء بالطريقة التى يفترض أن يحدث بها: لأن التاريخ مثل العلم، مسألة قوانين طبيعية.

وفى الحتمية التاريخية ميزة نفسية لمن يؤمنون بها. فهى لا تفسر فقط كل ما حدث، وإنما تتنبأ بالمستقبل أيضا. وقد أدت نظريات هتلر العنصرية عن التاريخ إلى الوعد بأن الجنس الآرى سوف يرث الأرض: " إن الطبيعة لا ترغب فى التزاوج بين الضعفاء والأقوياء، بل إن رغبتها أقل فى خلط جنس أرقى بجنس أدنى، لأنها إن فعلت ذلك فربما دمرت كل عملها على مدى مئات الآلاف من السنين فى ضربة واحدة وتقدم الخبرة التاريخية براهين لا تحصى على هذا. إنها تبين بوضوح مرعب أنه فى كل خلط تم بين الدماء الآرية ودماء شعوب أدنى تمثلت النتيجة فى نهاية الشعب المتحضر " لقد منحت السببية الحتمية فى التاريخ هتلر الثقة بحيث يتنبأ بعصر يمتد ألف سنة لألمانيا النازية، طالما بقى الدم الألمانى نقيا.

والمؤرخون فى جمهورية تحكمها الأفكار الديموقراطية مثل جمهوريتنا ليسوا منزهين عن السقوط فى فخ افتراض وجود رابطة حتمية بين الماضى والمستقبل. فعلى سبيل المثال، ثمة افتراض أخاذ أن نفترض أن صعودنا إلى مراكز القوة السياسية والاقتصادية العالمية كان قائما على أساس نظام الحكم الخاص بنا ونظامنا الاقتصادى الخاص، ومن ثم فإن الديموقراطية والرأسمالية هى " نهاية التاريخ ". وقد شرح فرنسيس فوكوياما فى The End of History and the Last Man الذى نشره سنة ١٩٩٢ م، كيفية عمل مفهوم السببية هذا:

"لقد جادلت بأنه قد ظهر فى جميع أنحاء العالم اتفاق لافت على شرعية الديموقراطية الليبرالية نظاما للحكم على مدى السنوات القليلة الماضية،

عندما لحقت الهزيمة بالإيديولوجيات المنافسة مثل الملكية الوراثية، والفاشية، والشيوعية، منذ زمن قريب. وفضلا عن ذلك، جادلت بأن الديموقراطية الليبرالية ربما تشكل نقطة النهاية فى تطور البشر الإيديولوجي والشكل النهائى للحكومة البشرية كما شكلت نهاية التاريخ. وبينما كانت أشكال الحكم السابقة مشوبة بنقائص خطيرة وتتسم بخصائص لاعقلانية أدت إلى انهيارها فى نهاية الأمر، فإن هذه الديموقراطية الليبرالية متحررة من مثل هذه التناقضات الداخلية ".

لقد عاد هيجل من جديد – ولكن فى لغة أسهل كثيرا. يقول فوكوياما: " ما أشرت إلى أنه وصل نهايته ليس وقوع الأحداث، حتى ما هو منها مؤثر وعظيم؛ ولكنه التاريخ: بمعنى، التاريخ المفهوم باعتباره عملية تطورية واحدة متماسكة، عندما نأخذ فى حسابنا جميع الشعوب فى كل الأزمنة ".

وفى صيغة مختلفة تماما لرؤية المسار الحتمى لتاريخ الجمهورية الليبرالية، رأى نيال فرجسون، وهو مؤرخ من هارفارد، أن صعود الإمبراطوريات وسقوطها، وليس الديموقراطية الليبرالية، هو الموضوع الحتمى فى تاريخنا. وكتب فى طبعة سنة ٢٠٠٦ م من كتابه Foreign Policy عن "الإمبراطوريات التى تحمل تواريخ نهاية صلاحيتها" Empires with Expiration Dates: " إن الإمبراطورية الأمريكية شابة بمعايير التاريخ. وكان توسعها فى القرن التاسع عشر إمبرياليا بلا مواربة. ومع هذا فإن السهولة التى تم بها استيعاب أية أراض مأهولة فى البنية الأصلية الفيدرالية كانت عاملا مناوئا لتطور عقلية استعمارية حقيقية ووضعت كوابح على المؤسسات السياسية للجمهورية. وعلى النقيض من ذلك، كان عصر التوسع الأمريكى فيما وراء البحار، والذى يمكن رصده منذ الحرب الإسبانية – الأمريكية سنة ١٨٩٨ م، أصعب بكثير، ولهذا السبب بالضبط، فإننى أستحضر مرات ومرات شبح الرئاسة الإمبراطورية ".

ويستمر فيرجسون قائلا: " ولكن اهدأوا بالا، لأن إمبراطوريتنا، مثـل جميع الإمبراطوريات الحديثة، ليس مقدرا لها أن تستمر زمنا طويلا. أو على الأقل هذا هو حكم التاريخ. وبعملية حسابية بسيطة يشرح لماذا: " أية إمبراطورية إذن سوف تبرز إلى الوجود وتدوم طالما أن مكاسب ممارسة السلطة على الشعوب الأجنبية تفوق تكلفة ذلك فى عيون الإمبرياليين، وطالما أن فوائد قبول السيادة من جانب شعب أجنبى تتجاوز تكاليف المقاومة فى عيون الرعايا. إن مثل هذه العملية الحسابية تأخذ فى حسابها تكاليف انتقال السلطة إلى إمبراطورية أخرى ". هنا حلت محل جدل هيجل صيغة تحليل التكلفة المأخوذة عن النظرية الرواقية القديمة عن التاريخ الدوري.

وفى المغالطة المنطقية عن التلازم الزمني، يظن البعض خطأ أن الصدفة هى السببية. إذ يحدث أمران سويا فيقع الظن بأن أحدهما لابد أن يكون سببا فى الآخر. ففى معرض الدفاع عن سياسة إدارة جورج دبليو بوش فى فرض تشريع السلامة فى المناجم، حسبما جاء فى صحيفة نيويورك تايمز، حكى ديرك فيلبوت من إدارة سلامة المناجم والصحة أنه فى ظل السياسة المتسامحة كانت هناك فقط اثنتان وعشرون حالة وفاة بمناجم الفحم سنة ٢٠٠٥ م، وهو رقم تحت المعدل بكثير. وبالنسبة له، كان هذا يعنى أن " السلامة تتحسن بشكل واضح ". والحقيقة أنه ربما لا تكون هناك علاقة على الإطلاق بين غياب التنظيم والعدد المنخفض للحوادث. فقد افترض وجود علاقة سببية لا يمكن أن نتبين فيها سوى التلازم الزمني. وفى سنة ٢٠٠٦ م ارتفع عدد وفيات المناجم بشكل كبير، لأن أصحاب المناجم سمح لهم بتجاهل توصيات مفتشى السلامة فى السنة السابقة – هذه علاقة سببية بالفعل.

وأقرب أقارب مغالطة التلازم الزمنى هى المغالطة المنطقية القائلة بأن أى شئيأتى مباشرة قبل وقوع حدث ما يكون سبب الحدث (بعد هذا، وبالتالى

فهو بسبب هذا) وأوضح مثال على هذا: الديك يؤذن قبل انبلاج الفجر مباشرة. فالشمس تسطع بعد أن يؤذن الديك. ومن ثم فلابد أن يكون أذان الديك سبب شروق الشمس. وفي صيغة أخرى: "كنت أمضى يوما طيبا فعلا. ولابد أن السبب فى ذلك هى قدم الأرنب التى تجلب الحظ، والتى أحضرتها بالأمس ". أو تجربتى الخاصة فى بيع البضائع: "كل مرة أبيع فيها بضاعة، ترتفع قيمتها كثيرا. ربما يكون البيع سببا فى زيادة اهتمام المشترين ".

هذا النوع من الجدل يستخدم طوال الوقت لجعل الإحصائيات متوافقة مع مسار الجدل. فإذا مررت ولاية ماساشوسيت قوانين صارمة للتحكم فى حمل البنادق وانخفض عدد حالات القتل بشكل واضح فى السنة التالية، فسوف يزعم الداعون إلى التحكم فى حيازة السلاح أن القانون تسبب فى انخفاض عدد حالات القتل. وإذا قامت ولاية فلوريدا بتمرير قانون يجيز حمل الأسلحة مخبأة وانخفض عدد حالات القتل، فإن دعاة الحق فى حمل السلاح سوف يدعون أن القانون تسبب فى انخفاض معدل جرائم القتل. والحقيقة أن كلا الولايتين قد مررتا بالفعل هذه القوانين، وانخفض عدد جرائم القتل فى كل منهما بالفعل، كما أن المدافعين فى كل من الموقعين قد نسبوا فعلا انخفاض جرائم القتل إلى أسباب متناقضة.

وليس هناك مصطلح لاتينى يدل على الخلط بين السبب والنتيجة. إذ إن حدثا ما يقع فى وقت لاحق لا يمكن أن يكون السبب فيه حدث وقع قبله. خذ مثلا حكاية السحر فى مدينة سالم سنة ١٦٩٢م. ما الذى جعل الجار ينقلب على جاره، ولا يكتفى باتهام الجار بممارسة السحر وإنما يصر على محاكمته وتوقيع عقوبة الإعدام على من أدينوا بالتهمة؟ فى كتاب فاز بجائزة، اقترح بول بوير وستيفن نيسباوم أن الاقتتال الذى استمر زمنا طويلا بين

عشيرتين فى قرية سالم هما البورترز والبوتنامز، قسم المجتمع الفلاحى وفتح الباب أمام الاتهامات القاتلة " بالنسبة لقرية سالم. .. جاءت المرحلة الحرجة [فى التفسخ الاجتماعى] فى تسعينيات القرن السابع عشر، وأطلق القرويون الاتهامات ". فما الذى كان على المحك؟ - خسارة احتمالات المستقبل، والارتباط بالأرض، والأشجار، والمكانة. " بيد أن هناك ذنبا وغضبا أيضا فى كل هذا: لأنه عندما حرمت عائلة توماس بوتمان من حقوقها الموروثة " فى سلسلة من الوصايا المثيرة للنزاع " كانت مجبرة على مواجهة الحقيقة التى كانت تهمها بصورة صريحة وواعية، وأن تهتم بها اهتماما عميقا، وهى الحقيقة التى تتعلق بالمال والمكانة ". ثم جاءت الاتهامات.

وتتمثل مشكلة هذه السلسلة السببية التى جاء عرضها بصورة ذكية وجميلة فى أن " الضربة القاضية على العائلة جاءت فى شهر إبريل نفسه من سنة ١٦٩٥ م، عندما ماتت مارى فيرين بوتنام ". إذ كانت السيدة قد كافأت البورترز دون البوتنامز. فلماذا لم تترك الكثير لذوى قرباها؟ وقد أوضحت الوصية أنه كان من الممكن لهم أن "ينالوا المزيد لو لم يجلبوا على التهم غير المناسبة وغير الضرورية، وأزعجونى عدة مرات ". ولكن الاتهامات بدأت فى شتاء سنة ١٦٩٢ م الرهيب، أى قبل ثلاث سنوات من " الضربة القاضية" التى حفزت البوتمان ضد البورترز. والواقع أن الأزمة والفضيحة التى أعقبت ذلك وضعت الطائفتين إحداهما ضد الأخرى على نحو لم تكن المشاجرات السابقة تعرفه. وثمة تفسير قوى ومؤثر وجد طريقه إلى كل كتاب دراسى يستعرض التاريخ الأمريكى الباكر، مما يعد مثالا على وضع النتيجة قبل السبب.

وفى المغالطة المنطقية القائمة على فهم الحدث بعد وقوعه، يكون لدينا جميعا ميزة البصيرة النافذة بعد اكتمال الحقيقة. لأننا نستطيع أن نعرف ما

الذى كان سيحدث [لأنه حدث بالفعل]، والعبارة الدالة على هذه المغالطة المنطقية هى " لقد قلت ذلك " فالعرافون القدامى الذين كانوا يتكلمون بألغاز مبهمة يستحيل فهمها، والفلكيون فى الصحف الحديثة الذين تكون تنبؤاتهم غاية فى العمومية، والأوراق الصغيرة التى تخبرك عن حظك فى لفافات الشيكولاتة والكعك، كلهم يتعمدون الغموض البالغ بحيث يمكنهم الاستفادة من المغالطة المنطقية القائمة على فهم الحدث بعد وقوعه. وفى الأساطير الإغريقية أخبرت العرافة كاساندرا الطرواديين بما سيحدث لهم فى الحرب مع الإغريق، ولكن أحدا لم يستمع لها. وإذا ما أخذنا نحذر الجميع من كل شىء سيحدث، فإننى واثق من أننا سنكون على حق بعض الوقت، وأن الناس سوف يتجنبوننا طوال الوقت.

إن فهم الحدث بعد وقوعه ليس تفسيرا سببيا. إنه مجرد إعادة حكاية ما حدث فعلا بحيث نصدر حكمنا على المخطئ بعد اكتمال الحدث، ونحكم على ما كان يمكن أن يحدث. ولماذا ينبغى أن نحول دون وقوعه ثانية. وتقرير لجنة ١١/ ٩ الخاص بالهجوم على مركز التجارة العالمى والبنتاجون حافل بالمغالطات المنطقية القائمة على فهم الحدث بعد وقوعه. بل إن من كتبوه حذروا من مغالطة الفهم بعد وقوع الحدث على حين كانوا يطبقونه بالفعل. ففى المغالطة المنطقية القائمة على فهم الحدث بعد وقوعه، أمكن رؤية التهديد. وفى هذه المغالطة المنطقية قيل إن المخابرات فشلت فى العمل بكفاءة. وارتكبت الإدارة الأخطاء. وقامت اللجنة بالانتقاء من بين العديد من شذرات المعلومات والتقديرات المتاحة وقتها، ووضعتها سويا لتصير إنذارا بما كان قد حدث فعلا، ومن هذا كله خلقت لجنة التحقيق سردا سببيا سليما لا يمكن الطعن فى صحته. بيد أن النظر إلى تلك الأيام بأثر رجعى من منظور سنة ٢٠٠٣ م، ورفع هذه التهديدات الواهية إلى مستوى السببية من بين كل القوى الفاعلة الأخرى، ليس من المنهج التاريخى فى شىء.

معنى هذا، أن الفهم بعد وقوع الحدث يمكن أن يقدم للمؤرخ نتائج مفيدة. إذ يشرح عالم الاجتماع الشهير مالكولم جلادويل فى The Tipping Point كيف أن"التغيير يحدث غالبا بسرعة وبشكل غير متوقع ". وإذ يحكى جلادويل عن سلسلة من دراسات الحالة عن الأوبئة وما يشابهها، يشير إلى أن " الأمور يمكن أن تحدث فى الحال، كما أن تغييرات صغيرة يمكن أن تحدث فروقا هائلة ". وتأتى نقطة الانقلاب – أى التغير الكبير – عندما تكون هناك تغييرات صغيرة قد وقعت بما يكفى لقلب الموازين وتؤذن بتغيير كبير. " إنها نقطة الغليان. إنها اللحظة التى يبدأ فيها الخط انطلاقه بشكل مستقيم صاعدا فى الرسم البيانى ".

والحقيقة، أنه لا أحد يعرف فى وقت كهذا متى، أو كم، من هذه التغييرات الصغيرة يلزم لإحداث التغيير الكبير. ولا حتى جلادويل قدم بالفعل تفسيرات سببية بالمعنى التقليدي. فهو ببساطة يحكى قصصا عن سلسلة من التغيرات الكبرى ويلاحظ تراكم التغيرات الصغيرة التى سبقتها. والفهم بعد وقوع الحدث ليس تحليلا سببيا، يربط الاثنين معا. وعلى الرغم من أنه مثال على الفهم بعد وقوع الحدث، فإن " نقطة الانقلاب " عامل مساعد على الكشف، وسيلة تعليمية لها بعض الجدة والجدارة، لأنها تبين أن الأحداث الكبيرة يمكن أن تهبط علينا ونحن فى غفلة.

وهناك صيغة مفيدة أخرى من المغالطة المنطقية القائمة على الفهم بعد وقوع الحدث تتمثل فى موضوع " تغير المثال ". فعلى امتداد فترة من الزمن كانت هذه العبارة أكثر العبارات الشائعة فى الكتابة التريخية سخونة. فقد اقترح مؤرخ العلوم توماس كوهين سنة ١٩٦٠ م أن يفسر كيف أن نموذج كوبرنيكوس عن النظام الشمسى (الذى تكون الشمس مركزه) قد حل محل النموذج البطليموسى (الذى تكون الأرض مركزه)، مجادلا بأن كوبرنيكوس

كان قد أسهم فى تغير المثال. إذ كان المزيد والمزيد من الملاحظات الفلكية قد تراكمت بحيث لم تعد متماشية مع النظام الذى وضعه بطليموس. وقد تشبث الفلكيون بها، وعقدوها باطراد بحيث تناسب معلوماتهم. وفى الوقت الذى بدأ فيه كوبرنيكوس يفكر فى النظام الشمسى كان وزن الملاحظات قد بات أثقل من أن يتحمله النظام القديم. فقد كان الوقت مواتيا لنظام جديد يستوعب الملاحظات الجديدة. فهل تسبب تراكم الأدلة المناقضة على هذا النحو فى اكتساح نظام كوبرنيكوس القائل بأن الكواكب تدور فى مداراتها حول الشمس للنظام المنافس؟ وهل كان من المحتمل سحق نظرية كوبرنيكوس؟ إن " تغير المثال "يصف ما حدث ولكنه لا يفسره. فلم يتسبب وزن الأدلة الجديدة فى طى النظام القديم – ولكن دراسة كوبرنيكوس هى التى فعلت ذلك. وتتمثل قيمة " تغير المثال " فى أنه يذكر المؤرخين بأن يضعوا فى تقديرهم السبب فى عدم استعداد المؤرخين القدامى للتخلى عن الأفكار السائدة منذ زمن طويل، حتى مع وجود الكثير من الأدلة الجديدة المناقضة.

وتشبه المغالطة المنطقية بالوهم المتجمع المغالطة المنطقية القائمة على الفهم بعد وقوع الحدث. ففى العالم الحقيقي، قد تكون أية كمية من المعلومات، أو نقطة واحدة منها، جزءا من النموذج، وقد لا تكون كذلك. ويغامر الذين يدرسون حالات تفشى المرض بإساءة عرض السبب حين تتجمع حالات بالقرب من بيئة تثير الشكوك والقلق. ولا يبرهن تجاور حالات المرض المتجمعة مع البيئة المثيرة للشكوك على أن البيئة تسبب الأمراض. وقد حدث فى أثناء الحمى الصفراء المرعبة التى ضربت فيلادلفيا فى تسعينيات القرن الثامن عشر، أن نقل الأطباء الناس من مناطق المدينة المنخفضة وعالجوهم بأدوية تسبب القيء. ولم يصب الناس بالمرض فزعم

الأطباء أن هذه الأدوية كانت فعالة فى العلاج. والحقيقة أن المــرض كــان عبارة عن فيروس ينتقل عن طريق لدغة الناموس. وكان نقل النــاس مــن منطقة المستنقعات الغاصة بالناموس على ضفاف نهرى ديلاوير وشويكل هو الذى أنقذهم وليست الأدوية المسببة للقيء. ولا نستطيع أن نفترض مجــرد افتراض أن المعلومات تبرهن على شيء حتى نكتشف كيف حدث ما حدث، بصرف النظر عن المعلومات المتجمعة. إن علاقة الارتباط تجمع بين شيئين ليست تفسيرا سببيا.

ونادرا ما تكون للنبوءة المتحققة بذاتها الجدارة بسبب ما هى عليــه – مجادلة حول السببية. لقد تم سك المصطلح سنة ١٩٩٤ م علــى يــد عــالم الاجتماع روبرت ميرتون، بيد أن الظاهرة قديمة قدم علم الــنفس البــشري. وكان ميرتون أحد عمالقة علم الاجتماع فى زمانه ولكنه اليوم غائب فى عالم النسيان إلى حد كبير. ففى بعض الأحيان لا يعطى التاريخ لأصحاب العقول العظيمة ما يستحقونه من تقدير. لقد طرح مفاهيم منــاهج الــدور ونظريــة الدور، وجماعات البؤرة، وقادة الرأي. ويمكن أن نجد بصماته علــى كــل ممارسات البحث الاجتماعي وعلم النفس الاجتماعى الحديثة.

وفى النبوءة المتحققة بذاتها نعرف ما سوف يحدث، ويحدث بالفعــل، ليس لأن المجادلة السببية التى تربط السابق باللاحق صــحيحة، ولكــن لأن التنبؤ يتدخل لأنه سبب نفسه. فهناك أنواع مختلفة من العلاج عــن طريــق التطعيم، وربما تنفع هذه الطريقة. ومن المفروض أنها تخفــف الأعــراض، ولأننا نثق فى كفاءتها، فإننا نتحسن بالفعل. هذه العملية نفسها تدخل ضــمن إطار " إعطاء الدواء إرضاء للمريض "، حيث يقال للمرضى فــى تجربــة محكومة إنهم يتناولون دواء تجريبيا، وهو فى الحقيقة ليس سوى أقراص من السكر. ويشفى المرضى بسبب النبوءة المتحققة بذاتها، ولــيس لأى ســبب

ظاهر آخر. وربما تنجح التعويذة وغيرها من الشعوذات بالطريقة نفسها. ولأن الضحية يؤمن بفعالية اللعنة [فى التعويذة]، تظهر أعراض القلق والحث الذاتى أو "النفسى – الجسدى "، لتجلب الشرور الموعودة.

وعلم النفس واضح – فنحن نعيش أعلى من توقعات الآخرين أو دونها – ولكن النبوءة المتحققة بذاتها مجادلة تاريخية فقيرة فى حد ذاتها لأن الأثر الذى حدث، قد حدث بسبب التنبؤ به. يقول لك مدرس غاضب: " سوف تكون سيئا مثل أخيك تماما عندما تكبر "، ويحدث هذا. فالتنبؤ الذى يفترض أنه قائم على مقارنة صحيحة، هو فى الواقع سبب الحدث اللاحق. ومع انهيار شعورنا بجدارتنا، نقرر أننا لسنا أفضل من أخينا ونترك الإغواء يتغلب على إحساسنا بالصواب والخطأ. ويمكن للنبوءة المتحققة بذاتها أن تعمل بالطريقة الأخرى. ففى سلسلة من التجارب، أخبر المدرسون بعض التلاميذ من المستوى المتوسط فى أحد الفصول أنه تم اختيارهم لذلك الفصل لأن لديهم موهبة أو قدرة خاصة. وتحسنت درجاتهم بشكل ملحوظ لأنهم ارتقوا إلى مستوى موقعهم المتقدم. ويمكن للنوع نفسه من النبوءة أن يحسن أداء المدرسين. فإذا ما قال لهم المشرفون إن الاختيار قد وقع عليهم لقيادة فصل من التلاميذ ذوى المواهب الخاصة فسوف يستمتع المدرسون بالتدريس لهذا الفصل أكثر من الفصول الأخرى ويرتقون بأدائهم فى الفصل (ويجب أن أضيف أن هناك دراسات أخرى قد شككت فى هذه النتائج).

فى المغالطة المنطقية القائمة على السبب الزائف، نخطئ حين نخلط بين العذر والسبب، أو بين الدافع والسبب. إن عبارة مثل " لقد جعلنى صديقى أذهب إلى السينما بدلا من أن أنجز الواجب المدرسى " يمكن أن تكون عذرا أكثر منها سببا. وعبارة "ليس لدى خيار " غالبا ما تغطى الدافع وتحجب القصد أو الخطة وراء السبب الزائف. فالدافع شكل من أشكال

السببية ولكن لابد من البرهنة عليه. وفى الغالب الأعم يفترض المؤرخـــون ببساطة أن جماعات المصالح التى رأوها تعمل فى أحد الأحداث كانت تعكس أهداف الشخصيات التاريخية الفردية. ويصير الشخص الحقيقى كاركـــاتيرا عقلانيا لكائن بشري، يعمل بفراســـة ومنطـــق ممتـــاز. والحقيقـــة أن فهـــم المؤرخين للأحداث بعد وقوعها هو الذى طرح هذا المنطق، لأننا غالبا مـــا نعرف أكثر كثيرا مما كان الناس يعرفونه فى الماضى.

وقد ينشأ السبب الزائف عن أخطاء فى " اللغة المنظمة للكون ". وربمـــا يضع المؤرخون الدافع للأمم، والجيوش، والثقافات، وغيرهـــا مـــن الأشـــياء العامة، أو الأشياء غير الحية. فللناس دوافعهم: أما الأوطان فـــلا. وكانـــت " اليقظة الكبرى" إحياء دينيا استشرى فى جميع أنحاء المستعمرات الأمريكيـــة، خاصة فى نيو إنجلند، فى القرن الثامن عشر، وكان المبشرون الكثيرون، ومن تنصروا على أيديهم، يتشاركون فى دوافع بعينها تسببت فى أن يتصرفوا على النحو الذى تصرفوا به. ولكن الحديث عن " عقلية نيوإنجلند "التى كانت تعمل، يعنى أن نقدم دافعا واحدا على حين توجد هناك دوافع كثيرة.

وعندما لا نستطيع أن نفهم ما جعل موضوعاتنا تتصرف على النحـــو الذى تصرفت به، فإننا غالبا ما نقدم دافعا من مخزوننا الخاص من الأسباب. ووراء هذا الموضوع المحتمل، وإن لم يبرهن على أن الدافع الإنســـانى لـــم يتغير تغييرا حقيقيا على الإطلاق (وأظن أن هذا لا يمكن البرهنة عليـــه)، لأن الطبيعة البشرية مستمرة ومتسقة، وقد تناول ديفيد هيوم هذا السؤال فـــى كتاب Treatise of Human Nature(1639) بقوله: " يجب علينا... أن نجمـــع تجاربنا فى هذا العلم من الملاحظة الواعية للحياة الإنسانية، ونأخـــذها كمـــا تظهر فى المسار العام للعالم، بسلوك الناس برفقة بعضهم الـــبعض، وفـــى العمل، وفى أوقات متعتهم ". وقد كشف هيوم (وأظن أنها لم تكن مفاجـــأة،

ولا ينبغى أن تكون مفاجأة لنا) أن الطبيعة الإنسانية كانت هى حقا العادات والقيم والمثل وأنها كانت تختلف من زمان إلى زمان آخر، ومن مكان إلى مكان غيره، أما أفكارنا، بما فيها أفكارنا عن أنفسنا، فهى " مستمدة باستمرار من تتابع أشياء قابلة للتغيير، ولا يمكن أبدا أن تكون قد انتقلت إلى العقل بواسطة شيء جامد لا يقبل التغيير ".

الإحصائيات والسببية

يعتمد بعض المؤرخين، وغالبا ما يطلق عليهم أولئك الذين يرفضون أعمالهم اسم " الكوميون "، على الأرقام للبرهنة على صحة مجادلاتهم. والمجادلة الإحصائية إن هى إلا مجرد شكل آخر من البيان السببي. إذ يعرف المؤرخ، أو يجب أن يعرف، أن الأرقام لا تتحدث بنفسها مثلما لا تتحدث الوثيقة عن نفسها، فالداول والرسوم البيانية وغيرها من ملخصات الأرقام، يتم جمعها وترتيبها وعرضها وفقا لاختيار المؤرخ.

والأرقام والتحليل الإحصائى للأرقام مثل الحقائق فى السرد، حيث يتم اختيار الأدلة وتقديمها لإقناعنا. وحسبما كتب عالما الاقتصاد روبرت فوجل وستانلى أنجيرمان فى المجلد الثانى من دراستهما التى تقع فى مجلدين عن الرق الأمريكي: " عندما كانت الأدلة الصلبة غائبة عن موضوعات حيوية لتفسير الرق، فإننا مضطرين إلى التخمين، مثل المؤرخين الذين سبقونا ". ولكن " باستغلال ميزة العمل الكمى الممتد الذى قام به مؤرخو المنهج الكمى صرنا قادرين على التقليل من عدد الموضوعات التى كان التخمين فيها هو الخيار الوحيد المتاح تقريبا ". وقد كسب كتابهما Time on the Gross 1974 جائزة بانكروفت المهيبة حتى مع أن فوجل وانجيرمان كانا قد اكتشفا أن العبيد، عامة، كانوا يأكلون ويسكنون بشكل أفضل من فقراء المدن، وأن

تجارة الرق كانت مربحة وكانت آخذة فى التوسع أيضا، وأن مزارع الجنوب التى كان العبيد يعملون بها كان أكفأ اقتصاديا من مـزارع العـائلات فـى الشمال، وأن معظم الجنوبيين لم يكونوا يستولدون العبيد، ولا كانوا يريـدون التفرقة بين أفراد عائلات العبيد بالبيع أو بالهبة.

وينبغى أن أضيف إلى هذا أن الصيحة التى أطلقها كل من المؤرخين الاقتصاديين والاجتماعيين للرق عن اكتشافاتهم – خاصة باستخدام الأرقام – قد هزت المهنة على مدى عدة سنوات. إذ كان المحتجـون يتقـابلون فـى مجموعات ويتحدثون فى لقاءات مهنية. وقد نشر بول دافيد، وبيتر تيمـين، وريتشارد سوتش، وهربرت جوتمـان مجموعـة مـن المقـالات بعنـوان Reckoning with Slavery للرد على كل زعم جوهري، مع الكثيـر مـن الاستنتاجات الإحصائية، التى كان فوجل وأنجيرمان قد توصلا إليهـا. فقـد استنتج جوتمان وسوتش أن أهم إسهامات فوجل وانجيرمان تتمثل فى البرهنة على " فشل المناهج الكلية فى تقديم الأدلة التاريخية عنـدما تنفـصل عـن المناهج الكمية لدراسة التاريخ ". وفى هذه المجموعة، أثار جوتمـان الـذى درس الأسرة بين العبيد، فى دراسة منفصلة، عددا مـن الأسـئلة النفـسية والأخلاقية على السواء. مثلا، حتى لو كان الجلد بالسياط غير شائع تمامـا؛ ماذا كان تأثير السلطة المطلقة التى يتمتع بها السيد فى استخدام العقاب البدنى على العبد؟.

وأخيرا، كان تفسير الإحصاءات، وليست الإحـصاءات نفـسها، هـو المهم. هل كانت الزيادة الطفيفة فى عدد المواليد بـين العبيـد فـى بعـض المزارع دليلا على الرغبة فى استيلادهم؟ وعدد العائلات التى تفسخت نتيجة لتجارة الرقيق، أو هجرة العبيد من الشرق إلى الغرب، هـل كانـت تكفـى لاستنتاج أن الرق قد مزق أوصال العـائلات؟ وهـل كانـت الاسـتدلالات

مضمونة؟ لقد أجاب فوجل وأنجيرمان، فى تبادل للآراء فى إصدارات ١٩٧٩- ١٩٨٠ م من دورية American Historical Review، أنه بات "واضحا الآن " أن الجنوب قبل الحرب " يكن جامدا من الناحية الاقتصادية " وأن "الزراعة الحرة "كانت أقل ربحا، وأدنى كفاءة من تجارة الرقيق.

وفى كتاب لاحق استمر فوجل فى دفاعه عن المنهج والمادة: " إن اكتشاف أن العبيد كانوا عمالا أكفاء طوروا حياة عائلية أكثر قوة، واكتسبوا المزيد من المهارات المهنية المتنوعة، وثقافة أشد تمايزا وثراء مما كان معترفا به من قبل، قد خلق معضلة معذبة... فهل سلبت الاكتشافات من السود تاريخهم فى مقاومة الرق وألقت بهم فى دور المتعاونين فى اضطهادهم هم أنفسهم، بدلا من ذلك؟ " أسئلة مشحونة كلها، وليس من بينها سؤال يجعلنا نشك فى أنه يستدعى إجابة إحصائية محددة. والمشكلة الحقيقية فى الرق لم تكن فى أنه كان مصدر خسارة أو غير مربح، وإنما تتمثل فى أنه " أتاح لمجموعة من البشر أن تمارس سيادة شخصية مطلقة على مجموعة أخرى من البشر "

وحتى لو استنتج المرء أن مناهج فوجل وأنجيرمان قد صمدت فى مواجهة الهجوم الذى شنه ناقدوهم، فهناك فخاخ وشراك معدة وتتربص بكل من يظن أن الأرقام تتحدث عن نفسها. وهناك مخاطر ثلاثة مماثلة هى: المغالطة المنطقية الخاصة بأتلانتيك سيتى، والمغالطة المنطقية الإحصائية أو المغالطة المنطقية النكوصية، والعينة غير الممثلة.

وهناك مقامر قضى يومه فى اللعب بألعاب الحظ فى أتلانتيك سيتى. وهو يظن أن حظه كان سيئا. إذ كان يخسر بصورة ثابتة. ولكنه استمر فى اللعب وهو مقتنع بأن حظه لابد أن يتغير. وعلى أية حال، لابد أن يتغير - وهذا مؤكد من الناحية الإحصائية أليس كذلك؟

كلام فارغ. خذ عملة واقذفها فى الهواء منقلبة. وتسقط علـــى الوجــه الذى يحمل الصورة عشر مرات فى الدورة. وهو الأمر غير المحتمل مـــن الناحية الإحصائية. فما مدى احتمال سقوطها على ناحية الكتابة فى الـــدورة الحادية عشرة؟ الإجابة أنها مرة من كل مرتين. وما دام أن كل رمية مستقلة عن المرات السابقة عليها، فإن الحظ لا يتغير فى كل رميـــة. والآن ربمـــا يتغير حظ المقامر، ولكن مكاسبه، مثل خسائره، ليس لها نموذج منطقى عدا نموذج الاحتمالية الخالصة، وكلما طال وقت اللعب، أفرزت تلك الاحتمالات خياراتها المفضلة.

إنها تبدو مثل مشكلة بالنسبة للمقامرين المرغمين، ولكن هذا النوع من التفكير حول أحداث الماضى والمستقبل يمكن أن يكون له تأثير مخرب على حياتنا كلها. وغالبا ما تكون الأفعال اليائسة وليدة الإيمان بأن حظ المرء لابد أن يتغير أكثر منها نتيجة انعدام الأمل وشيوع اليأس. فنحن "نرمى الزهـــر " على أمل أن يحالفنا الحظ لأننا لم نكسب بعد. فقد كانت بنية القوات فى فيتنام خلال الفترة من سنة ١٩٦٤ م إلى ١٩٦٦ م مثل رمية الزهر. إذ كانت كـــل إضافة كبيرة من الرجال العسكريين لا ينتج عنها أى تحسن فـــى الموقـــف هناك، ولكن الرئيس جونسون ومستشاريه العسكريين، قد وقعـــوا المغالطـــة المنطقية التى يقع فيها المقامر، إذ كانوا يقامرون بأن زيادة أخرى فى القوات سوف تغير حظنا. إن " الاندفاع " فى نشر القوات بالعراق خـــلال الربيـــع والصيف سنة ٢٠٠٧ م كان مقامرة مماثلة. ومن المؤكد أن الحظ كان مواتيا للقوات الأمريكية هذه المرة.

ومن الإنصاف، أن المدافعين عن حرب فيتنام آنذاك والآن يجـــادلون بأننا كسبنا الحرب، أو كنا سنكسبها، فى ميدان القتال بسبب تركيز القـــوات،

ولكننا خسرناها فى الوطن بسبب الافتقار إلى الإرادة السياسية. ولو كان ذلك صحيحا، فيمكن اعتبار هذه الحالة مغالطة منطقية قائمة على الفهم بعد وقوع الحدث. ولكن إذا كانت المقدمة المنطقية صحيحة - أى إذا لم يكن هناك تحسن حقيقى فى الموقف السياسى بفيتنام - يكون الدفع بمزيد من القوات مثالا على المغالطة المنطقية للمقامر. وعلى رأى المثل، لا يجب على المرء أن ينفق النقود الجيدة على الشيء السيئ. أو، على حد تعبير كينى روجرز: "عليك أن تعرف متى تطويها، ومتى تنصرف، ومتى تجرى". والموضوع كله ينطبق، بطبيعة الحال، على المقامرة أيضا.

ونقيض البيان الزائف زائف بالمثل. أنت على الخط الرابح. وأنت تغوص نحو الأعمق باطراد. ولا يمكن أن تخسر لأن حظك جيد. تلك كانت الطريقة التى تم بها حماية الاقتصاد الأمريكى أواخر تسعينيات القرن العشرين - فالجميع يستثمرون فى السندات الإلكترونية، غير ملتفتين للأصوات التى قالت إن كثيرا من الشركات الإلكترونية البادئة تبيع الأشياء نفسها. ولا يمكن أن تكون كلها مربحة. بيد أنه لم يكن هناك أحد يستمع لأن الجميع كانوا على خط رابح لا يمكن أن ينتهى. وكلما غاص المستثمرون فى السوق أكثر، طبعا، ارتفعت أسعار سندات الشركات منعدمة القيمة أصلا - حتى ينتهى بها الأمر إلى العكس. وعندها تداعت خطط المعاشات واختفت مدخرات العمر فى هوة بلا قرار.

فى بعض الأحيان يكون المؤرخون ضحايا الفخاخ التى ينصبها اللامنطق للمقامرين. وأنا أعرف مؤرخين قضوا حياتهم المهنية يطاردون تلك الوثيقة الواحدة التى تبدو دائما وكأنها اختفت عند الركن التالى، أو أمضوا عمرهم المهنى وهم يوسعون الدراسة التى يقومون بها خارج نطاقها، وهم على يقين من أن أعمالهم الشاقة كلها لابد أن تأتى بنتيجة - كتاب يفوز

بجائزة، أو وظيفة فى واحدة من مدارس القمة، أو الزمالة التى سعوا إليهـا زمنا طويلا – إذا ما ثابروا فقط. والمثابرة عنـد الباحـث فـضيلة، ولكـن المقامرة بعمل العمر مأساة.

والمغالطة المنطقية التى تقوم على النكوص أشد تعقيدا من المغالطـة المنطقية عند المقامر، ولكنها تنبع من نوع الخطأ نفسه. فهى تنطبـق علـى توزيع الخصائص فيما بين الناس أو الأشياء. وتفترض أن ما هو حقيقى فى العادى أو فى الحالة (أكثر نمط شائع) يصدق على كل الناس، أوعلى كـل شىء آخر فى العينة. وفى صدام يعتبر الآن أسطورة بين المؤرخين الـذين لعبوا دورالخبراء الشهود بين طرفين فى قضية قانونية، كان علـى شـركة Roebuck Sears and أن تدافع عن سياستها فى حرمان موظفيها الإناث من الترقى إلى الوظائف ذات الراتب الأعلى، ضد لجنة تكـافؤ الفـرص فـى التوظيف (EEOC). وجاءت إلى ساحة المحكمة الإحـصائيات، والـسببية، والتاريخ، جاءوا جميعا.

وأراد قاضى الناحية أن يعرف ما إذا كانت النـساء تـردن وظـائف بالعمولة. وكان رأيه بمثابة حكم على استخدام الإحصائيات (التى اكتـشف أنها ضعيفة) بقدر ما حكم على قدرة الشركة المتهمة: " ثمة مفهوم يجب أن نحمله فى ذهننا عند تقييم أى تحليل إحصائى مؤداه أن لا تحلـيلا إحـصائيا يمكن أن يبرهن على السببية بحد ذاته ". وكانت شـهادة الخبيـرة لـصالح الشركة، وهى المؤرخة روزاليند روزنبرج، قد بينت أن النساء فـى قـسم العمل بالتجزئة ،عموما، كن يفضلن أن يعملن ساعات أقل بحيث يـستطعن قضاء وقت أطول مع عائلاتهن. ولخص القاضى ما وجدته روزاليند بقوله: " إن الفروق بين الرجال والنساء قد تلاشت فى العقدين المنصرمين، ولكن هذه الفروق ما تزال موجودة وربما تحسب وفقا للنسب المختلفـة مـن الرجـال

والنساء فى مختلف الوظائف... والفروق بين أعداد الرجال والنساء فى وظيفة ما يمكن أن توجد بدون تفرقة بينهما من جانب صاحب العمل " وكانت المؤرخة آليس كيسلر – هاريس قد جادلت دونما نجاح، دفاعا عن لجنة تكافؤ الفرص فى التوظيف بأن التفرقة الكبيرة بين أعداد الرجال والنساء فى عمولات البيع بشركة سيزر " لا يمكن تفسيرها سوى بالتفرقة بين الجنسين من جانب صاحب العمل ". وجاء الحكم لصالح الشركة المتهمة.

والخبراء الشهود الذين يشهدون حول الإحصاءات يوجدون يوميا فى محاكمنا ولكن هذا الاشتباك بين المؤرخين كان مختلفا. ففى حركة مفاجئة ردت روزنبرج على شهادة كيسلر – هاريس باقتباس من كتاب سابق لكيسلر – هاريس نفسها، وزعمها بأنها وجدت أن النساء أردن الانتظام الذى كانت توفره الوظائف التى لا ترتبط بالعمولة وفى مصطلحات قانونية فنية، فندت روزنبرج شهادة كيسلر – هاريس لصالح شركة سيرز بأن أوضحت كيف أنها ناقضت دراستها العلمية السابقة.

وهناك درسان فى هذه الحكاية. أولهما، أن قاضى محكمة الجهة الفيدرالية، عندما أخذ بكلام روزنبرج بدلا من كيسلر– هاريس، كان قد التزم بالمغالطة المنطقية القائمة على النكوص. فحتى لو لم تكن غالبية النساء تردن وظائف عمولات البيع، فإن هذا لم يكن يعنى أن جميع النسوة كن يشعرن هذا الشعور. والسياسة التى تنكر على أى فرد أن يريد ما يحتمل ألا تريده الأغلبية، هى سياسة تفرقة. وإذ أنكرت شركة سيرز على جميع النسوة فرصة الترقى، كان لابد لها أن تخسر القضية.

والدرس الثانى يخص مهنة التاريخ. فقد عرضت كل من روزنبرج وكيسلر – هاريس أعمالهما على قارعة الطريق على غرار مؤلفى

Time on the Cross فقد ظهرت كل منهما منفردة، وظهرتا سويا، فى برامج حوارية بالتليفزيون. وتسببت القضية فى إحداث موجات واضطرابات فى أوساط المهنة أيضا. ووفقا لكيسلر - هاريس، لم تلعب روزنبرج بنزاهة: "لقد كتبت تلك الكلمات بالفعل، وتم اقتباسها بشكل صحيح، ولكنها تصف الإيديولوجية النسوية التى ظهرت فى الولايات المتحدة فى السنوات السابقة على الحرب الأهلية. فلماذا إذن تستخدمها كما لو كانت توضح رؤيتى ومفاهيمى عن النساء فى سبعينيات القرن العشرين؟ " إن اللعب فى ساحة المحكمة لم يكن لعبا نزيها فى المجال الأكاديمي. أم تراه كان كذلك؟

إن الضرر الملازم بالنسبة لروزنبرج جاء فى شكل قذف مكثف من النقد لها ولأساليبها من جانب بعض الباحثات. وتولت أخريات مهمة الدفاع عنها. وحسبما أورد توماس هاسكيل وسانفورد ليفينسون فى مقالة لهما بمجلة Texas Law Review سنة ١٩٨٨ م، أدى الغبار الذى أثارته قضية سيزر إلى " نزاع أكاديمى مرير وغير معتاد قسم مجال تاريخ النساء على مدى ما يقرب من ثلاث سنوات ". وقد أكد هاسكيل وليفينسون على أن " عنف النقد الموجه ضد روزنبرج يثير أسئلة إشكالية عن الحرية الأكاديمية فى ضوء العواقب الناجمة عن الانقسام السياسى داخل مجتمع الباحثين ". وإذا ما نظرنا إلى المسألة بقدرمن الموضوعية، لوجدنا أن الاستنتاجات التى استطاع المرء أن يخرج بها من الإحصائيات أن قضية EEOC كانت قضية إحصائية خالصة. وبدلا من ذلك، صارت المسألة بين المؤرخين على الأقل مسألة إيديولوجيا وولاء جماعات المصالح.

وبدون الانحياز إلى جانب أحد فى هذه المسألة يجب أن يكون واضحا لجميع الفرقاء أن عرض الإحصاءات عمن يكسب وعمن يخسر (ولسوف يسمى خبراء قانون التمييز هذه " دراسة التباين ") لا يحل بحد ذاته محل

الجدل السببى السليم. ذلك أن المناهج، إذا ما تم إعمالها بشكل سليم، تتيح فقط للمؤرخ (أو للقاضى) أن يرى نماذج الأدلة التى قد تتطلب تفسيرات سببية.

وتتطابق المغالطة المنطقية بالنكوص مع مغالطات منطقية سببية أخرى عندما نخطئ بتوزيع حدث ما أو سمة ما على المجموعة كلها بسبب علاقة داخلية بينها. ففى الطب، قد يجد الأطباء أن معظم المرضى الذين يخضعون لنظام علاجي معين يتحسنون. وافتراض أن النظام العلاجى كان مفيدا لكل واحد منهم مثال على المغالطة المنطقية بالنكوص. لأننا سنجد بعض الناس كانوا يتحسنون من تلقاء أنفسهم بدون التدخل العلاجي، وآخرين قد يتحسنون على الرغم من العلاج. ولا يمكن للباحث الطبى أن يستنتج أن الدواء نفسه كان مفيدا، سوى بإيجاد العلاقة السببية بين العلاج والمرض.

أما المغالطة المنطقية للعينة غير الممثلة فهى شبيهة بالمغالطة المنطقية بالنكوص، ولكنها تنطبق على عينة جزئية من الناس. وتصميم العينة عملية مركبة ومعقدة للغاية. ويستخدمها الخبراء لالتقاط محلف من بين هيئة المحلفين ليكون إلى جانب عميلهم فى المحاكمة. كما تستخدمها الشرطة عندما تقوم بعملية عرض للمشتبه بهم. ويقوم " صندوق الخروج "بعد الانتخابات على أساس تصميم العينة. إذ إن عينة خصائص الجمهور التى تم اختبارها يفترض أن تتماشى مع الخصائص نفسها فى جمهور أكبر عددا، ولذلك فإن المكتشفات القائمة على أساس العينة سوف تفسر، أو تتنبأ، بسلوك المجموعة الأكبر.

ويمكن للعينة غير الممثلة أن تؤدى إلى بعض النتائج المضللة تماما. وتقدم تقارير ألفريد كيتسى عن العادات الجنسية للذكور مثالا على ذلك. وعلى الرغم من أنه لم يستخدم تصميم عينة، وقابل فقط عينة صغيرة من الأمريكيين، فإن نتائجه كانت عينة ممثلة لكل منهم، وتوصل منهم إلى بعض

الاستنتاجات المذهلة. فقد وجد كينسى أن واحدا من بين كل عشرة رجال كان مصابا بالشذوذ الجنسي، وأن واحدا من كل اثنين مارس الزنا، وأن واحدا من كل ستة كان ضحية جنسية لأحد أفراد العائلة أو أنه ارتكب هذه الجريمة ضد أحد أفراد العائلة. وقد اكتشف البحث الحديث أن العينة التى اعتمد عليها (من الرجال والنساء الذين سألهم) كانت تضم مسجونين ومرضى بالمستشفيات أعدادهم أكبر كثيرا من نسبتهم فى الجمهور الحقيقي. والحقيقة أنهم كانوا على الأرجح من الشواذ جنسيا، وممن قاموا بخيانات زوجية، ومن كانوا ضحايا إساءة جنسية من جانب أفراد آخرين فى العائلة، بنسبة أعلى من نسبتهم فى الجمهور كله.

وغالبا ما تأتى المغالطة المنطقية التى تسيء استخدام الأرقام فى شكل مجموعات. وفى بعض الأحيان تتطابق المغالطات المنطقية المتعددة إحداها فوق الأخرى، خاصة فى أيدى بعض من يكتبون التاريخ ولديهم جدول أعمال محدد سلفا. وفى مراجعة حديثة قام بها طالب قانون للقرار الذى اتخذ فى قضية روى ضد وادى، هناك عبارتان توضحان كيف يمكن لمغالطة منطقية إحصائية واحدة أن تؤدى إلى مغالطة منطقية واحدة، أو تدعمها. وقد اقترح الكاتب مجادلتين إحصائيتين، وكل منهما مقنعة إذا ما أخذت بقيمتها الظاهرية، فلماذا يجب أن نجعل الإجهاض صعبا. أولا: انقل عن قضية انضمت إليها ألف امرأة لوضع تقرير موجز" صديق للمحكمة " بأن الإجهاض ترك فيهن جروحا نفسية. وبينما كانت تصريحات النساء مؤثرة بشكل عميق فإن المنطق الذى يربطها بمجادلة الكاتب مزج ما بين المغالطة المنطقية الإحصائية والمغاطلة المنطقية القائلة: " بعد هذا، إذن، حدث هذا ".

ومع ما يزيد على مليون حالة إجهاض سنويا فى الولايات المتحدة، هل كانت الألف عينة كبيرة بما يكفى؟ ربما، لو كن تمثلن النساء البالغات أجمع، أو بدلا عن ذلك مجموعة عشوائية تماما من النساء. والحقيقة أنهن كن

مجموعة من النساء اخترن أنفسهن لمعارضة الإجهاض. فهل كانت هذه النسوة، اللاتى انضممن جميعا إلى المذكرة بناء على نصيحة سيئة، أو عانين رعاية متدنية، عينة ممثلة للنساء أم عينة عشوائية؟ تصعب الإجابة.

وقد أضاف الكاتب إلى هذه الغلطة الإحصائية الشنيعة خطأ سببيا. وتمثل هذا الخطأ فى التعليل بأثر رجعى للمجادلة: بأن حق الاختيار فى الإجهاض (السابقة) ينبغى إلغاوه لأن بعض هذه الاختيارات قد انقلبت إلى اختيارات هزيلة (التالية). ومن الممكن أن تتم المجادلة نفسها بشأن اختيار ما انقلب إلى شيء سيئ – مثل المعاشرة الجنسية نفسها. فهل سيجادل أحد لتحريم ممارسة الجنس لأن بعض العلاقات تحولت فيما بعد إلى علاقات كريهة؟

ومرة أخرى امتزجت مجادلة الطالب المؤلف الثانية بأخطاء إحصائية ومنطقية فى السببية. فقد أشار إلى أن الإجهاض القانونى لابد وأن يؤدى إلى زيادة معدلات إساءة الرجال للنساء. وكان الأساس الذى بنى عليه مجادلته هو الحقيقة القائلة إن عدد الرجال الذين يفضلون الإجهاض القانونى أكبر من عدد النساء. ومع أن هذه حقيقة عددية فإنها بحد ذاتها لا تنطوى على أية علاقة منطقية. بل إنها عرضت المغالطة المنطقية القائمة على النكوص (بأثر رجعي). فهل كان كل الرجال الذين يفضلون الإجهاض القانوني، أو معظمهم، يرغبون فى إجبار النساء على الإجهاض؟ إن الأعداد نفسها لا تقدم الإجابة. فهل كان من المحتمل أن بعض الذين حبذوا الإجهاض القانونى من الرجال قد فعلوا هذا بتأثير من النساء اللاتى كن يحبذن الإجهاض المشروع، أو على الرغم من معارضتهم الشخصية للإجهاض؟ وإذا كانت مجادلة المؤلف صحيحة – أن الرجال الذين عارضوا حق الإجهاض لم يكن محتملا أنهم يسيئون معاملة النساء ويجبرونهن على إسقاط حملهن؟ لقد كان الدليل الذى قدم للمحكمة فى مسار قضية كاسى ضد مؤسسة الأبوة المخططة

سنة ١٩٩٢ م قد أوضح الافتراض المعاكس – أى أن النساء اللاتـــى كــن يسعين إلى الإجهاض كن فى بعض الأحيان تحت تهديد الرجال الذين كــانوا يطلبون من النساء أن تحملن الأطفال وتلدهن.

وقد تنتج الأخطاء فى المجادلات السببية عن إهمال بسيط، أو عن قصد إيديولوجي. فثمة تقدير لمواطن القوة ومواطن الضعف فى التفكير الـسببى يساعدنا على أن نخترق حجاب متحدث يزعم أنه محايد. فعنــدما اقتربــت الحرب الأهلية، بات المفكرون الجنوبيون من أمثال حاكم فرجينيــا جــورج فيتز هيو أشد تطرفا فى امتداح الرق، وأكثر تصميما على التصدى لأولئــك الذين يريدون القضاء عليه. وقد زعمت مقالات فيتز المدافعة عن الرق أنها تشرح لماذا كان الرق مسألة جيدة، وهذا التعليل لايصمد أمام الاختبار:

"ينبغى أن نذكر أولئك الذين يستنكرون استعباد الزنــوج ويتعــاطفون معهم، أن هذا الرق هنا يعفى الزنجى من عبودية أقسى كثيرا فى إفريقيا، أو من الوثنية، وأكل لحوم البشر، وكل رذيلة وجريمة وحشية يمكن أن تنال من كرامته الإنسانية؛ إذ إن الرق يدخله المسيحية، ويمدينه، ويحميه ويدعمه، كما أنه يحكمه على نحو أفضل كثيرا من الحكم الذى يحكم العمال الأحرار فــى الشمال... إن زنوجنا ليسوا فقط أفضل كثيرا من حيث الراحة الجسدية مــن العمال الأحرار، وإنما أحوالهم الأخلاقية أفضل أيضا ".

كيف حقق الرق هذا التحول الخير الكريم للأفارقة المتبربرين وجعلهم عمالا ذوى خلق ويتميزون بالطاعة؟ يمكن للمرء أن يجيب بــأن الــسيد – الكريم بصفة عامة، والصارم عند اللزوم، والذى يبدى اهتماما حارا بخدمــه على الدوام – كان هو الحلقة المفقودة فى سلسلة السببية. وهكذا فإن الرجال أنفسهم الذين وصمهم الداعون إلى إلغاء الرق بأنهم قوادون ولصوص، كانوا

فى الحقيقة هم السبب فى الأرباح الناجمة عن الرق. ولكن فيتز هيو طرح جانبا التحليل السببى برمته. ولم يبق سوى المقارنة.

عندما يحذف أحد التقارير السبب، فلا بد أن ينتاب المؤرخ القلق - ويتملكنا جميعا. فإذا كان الرق قاعدة اقتصاد الجنوب، وكان عمل العبيد أساسيا للمحاصيل الرئيسية التى كانت مصدر ربح لكل رجل أبيض من أهل الجنوب، وإذ كان أولئك البيض الجنوبيون أنفسهم قد خشوا عواقب تحرير الملونين الذين يعيشون بينهم، ولم يكن هناك طريق للخروج من المعضلة، فقد كان الشىء الوحيد الذى يمكن عمله آنذاك الدفاع عن الرق باعتباره الشىء المعقول أكثر من غيره بالنسبة لطبقة الأسياد وللعبيد على السواء. فهل كان من المؤكد أن ملاك المصانع من أهل الشمال قد فعلوا الشىء نفسه عندما مجدوا فضائل العمل الحر ودفعوا لقوة العمل المهاجرة علاوة فى الأجر؟ وهل كان من المؤكد أن المضاربين الغربيين فى مجال الأراضى قد فعلوا الشىء نفسه عندما تباهوا بأمجاد التوسع صوب الغرب على حين كانوا يضعون علامات المزارع فى السهول؟ وهكذا، فإن سبب اتساع انتشار الرق فى جميع أنحاء الجنوب وسبب دفاع فيتز هيو عنه، كان الأساس الاقتصادى على الرغم من عدم الإشارة إليه البتة. إن الكتابة التاريخية الجيدة تتطلب تحليلا سببيا. ولكن ليس من السهل دائما تحديد الأسباب. فهناك أيضا حقول ألغام من المغالطات المنطقية، والاختصارات التى تقود إلى سقطات مميتة وفخاخ مكشوفة. وفلسفة التاريخ الصالحة لزماننا يجب أن تكون واعية بذاتها ومدركة للسببية بقوة. ذلك أن الأحداث لا تفسر نفسها بنفسها، ويجب أن نكون حذرين فى التأكيد على السهولة المفرطة والاتساق الفائق للسببية. وأخيرا، فنحن بحاجة إلى الحذر والحيطة فى التعليل بسبب أو بآخر، وأن نعترف بأن الدعائم التى تسند جسرنا الممتد إلى الماضى لم تعد مرئية أكثر من الحلقات السببية التى نكتب عنها فى كتاباتنا التاريخية.

(٥)

أحدنا يكذب

يتجنب كثيرمن المؤرخين أية إشارة إلى الخيال... على حين أن التاريخ يرحب بأية دعوة لأن يكون "خياليا" ومبدعا " و"خلاقا". كان تقاذف الكلمات كثيرا فى كل دوائر المهنة بحيث لا يكاد المرء يلاحظها أو يتأمل مغزاها.

جيرترود هيميلفاب (١٩٩٤م)

التاريخ كذبة نحكيها عن الموتى، حسبما يقول المثل القديم. هذا المثل يحمل بعض الحقيقة، لأن بعض كتب التاريخ عبارة عن دعاية مكشوفة. وإذا أخذنا هذه المخاطر فى اعتبارنا، فإن لنا أن ننزعج من تحذير هيميلفاب بشأن الخيط الرفيع الذى يفصل ما بين إعادة البناء التخيلى والاختراع المجرد. فقد تغيرت المادة التاريخية فى الطبعات العديدة لدائرة المعارف السوفييتية لأن القادة المتعاقبين للحزب الشيوعى كانوا يحتاجون إلى صيغة مخصوصة للتاريخ تدعم سياساتهم. كما أن كتب التاريخ المدرسية فى ألمانيا واليابان بعد الحرب كانت بها فجوات كبيرة فى الذاكرة فيما يتعلق بوصف المذابح التى جرت زمن الحرب. أما كتب التاريخ الأمريكي، فإنها حذفت ذكر الرق وجيم

كرو، أو قللت من شأن شرور العنصرية إلى أن غيرت حركة الحقوق المدنية من الطريقة التى كنا ندرس التاريخ بها فى مدارسنا.

والحقيقة والكذب موجودان فى بعض من أكثر القصص عن جمهوريتنا الباكرة شهرة واقتباسا - مثل الرواية التى رواها المبشر، والمؤلف، وبائع الكتب الجوال، ماسون ويمس، عن الشاب جورج واشنطن وشجرة الكرز. ومن المفترض أن واشنطن قال لأبيه: " إننى لا أستطيع أن أكذب، لقد قطعت شجرة الكرز " والحقيقة أن القصة لم تحدث قط. وقد اخترعها ويمس ليضعها فى السيرة التى كتبها عن واشنطن ليوضح للقارئ جوانب شخصية الشاب (ولكى يبيع المزيد من نسخ كتابه). كان ويمس يعرف أنه يكذب بشأن واشنطن، ولكنه كان يظن أن الاصطناع سوف يعلم الأطفال عدم الكذب - وهو مثال صالح تماما عن موضوع هذا الفصل. وقد يكون الكذب عقلانيا أو غير منطقي، أو كليهما معا، بيد أنه موضوع لا يمكن تجنبه فى أية فلسفة تاريخ لزماننا.

إن التاريخ نفسه محمل بالأكاذيب والكذب. وتتمثل أفضل الأمثلة وأسوئها فيما سمى " الكذبة الكبرى ". و" الكذبة الكبرى " عبارة عن رسالة بسيطة تحمل قدرا من الأهمية المزعومة. وعندما تتكرر مرات ومرات، على الرغم من تكدس الأدلة المضادة، تكون لها قوة لا يمكن للحقيقة أن تفندها ولا تستطيع الأدلة المضادة نفسها أن تدحضها. إذ كان الدكتاتور النازى أدولف هتلر أحد أساتذة الكذبة الكبرى، على الأقل لأنه استخدمها بنفسه عندما اتهم أعداءه بأنهم استخدموها. ففى مذكراته، اتهم اليهود بأنهم تسببوا فى هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى (والواقع أن بعض اليهود الألمان لم يؤيدوا الحرب، ولكن غيرهم أيدوها، كما مات آخرون فى الخنادق). ومن المزاعم أن اليهود قد أقنعوا جماهير الألمان بقبول الهزيمة:

" كان هذا كله إلهاما من المبدأ القائل بأنه فى الكذبة الكبرى توجد دائما قوة مصداقية معينة – وهو مبدأ صحيح تماما بحد ذاته – لأن الطبقات الدنيا فى الجماهير العريضة فى أية أمة تكون أسهل إفسادا بسبب طبيعتها العاطفية، ولا يحدث هذا بشكل واع وإرادي؛ وهكذا تكون عقولهم بما فيها من بساطة بدائية أكثر استعدادا للسقوط ضحايا الكذبة الكبرى منهم للوقوع فى براثن الكذبة الصغرى؛ لأنهم هم أنفسهم غالبا الذين يطلقون الأكاذيب الصغرى فى الأمور الصغيرة، ولكنهم سيخجلون من اللجوء إلى التزييف والكذب على نطاق واسع. ولن يرد على بالهم قط أن يصطنعوا أكاذيب هائلة، ولن يصدقوا بالتالى أن غيرهم سيكون لديه من الصفاقة ما يجعله يشوش الحقيقة على هذا النحو المفضوح ".

كان هذا، حسبما كان هتلر يعرف، وصفا كاملا للأسلوب الذى كان هو ووزير دعايته، جويف جوبلز، من الأساتذة فيه. فقد كانا يقولان الكذبة الكبرى ويصران على أن اليهود كانوا مدانين فى هذه الجريمة بالذات. والكذبة الماكرة، إذا رويت بما يكفى من المرات، تصير تزييفا مكتملا للحقيقة.

وليس شرطا أن تكون الكذبة كبيرة جدا بحيث تحدث فرقا فى التاريخ. إذ يحكى كتاب بيتر ساجال الموسوم (The Book of the Vice 2007) قصة كذبة ربما كانت هى التى حسمت نتيجة انتخابات سنة ٢٠٠٤ م: " فى موسم انتخابات ٢٠٠٤م أمضى جون كيرى وقتا طويلا وهو يهز وجهه الطويل إلى الأمام وإلى الخلف ببطء، وهو يتعجب كيف يمكن أن يكون هناك إنسان يساوره الشك فى حقيقة أنه كان من أبطال حرب فيتنام. فقد كان هناك، لقد حدث ذلك، وكان هناك شهود على ذلك ". ولكن "الناس الذين كذبوا بشأنه كانوا يلبسون ربطات العنق ويبدون هادئين على شاشة التليفزيون. كانت

لديهم نظريات، وهم يتحدثون عن التواريخ والأسماء، وقد أشاروا إلى نقـــاط عدم الاتساق ". كل هذا بينما كان كيرى وشهوده "عاجزين بسبب ســـذاجتهم: كيف يمكن أن يحدث هذا؟ " لقد تمت إدانة كيرى بسبب نشاطه زمن الحرب بمجموعة من الأكاذيب الصغيرة، وآراء عرضت باعتبارها حقائق، وســـوء عرض أخذ مكانه آنذاك فى تاريخ الكذب تحت العنوان الصاخب " ركـــوب الزوارق بسرعة ". ففى بعض الأحيان يمكن لكثرة من الأكاذيب الصغيرة أن تحدث قدرا كبيرا من الضرر يماثل ما تحدثه كذبة كبرى واحدة.

الأكاذيب عن الموتى

على الرغم من الأمثلة المشينة عن الكذب فى كتب التاريخ والكذب فى التاريخ، فإن الكذب جزء من التاريخ. إننى لا أعنى هذا على سبيل السخرية. وبما أن الكذب كان جزءا من السلوك البشري، وربما كان جزءا جوهريا من السلوك البشرى فى واقع الأمر، فإنه موضوع مناسب للدراسة التاريخية. إذ يعلمنا التاريخ أن الأكاذيب والحقائق يتعلق كل منهما بالآخر بطرق معقـــدة مركبة. فلكى تجد سببا للخروج من كذبة محتملة، يجب أن تعرف شيئا عـــن الحقيقة فعلا. وفى الوقت نفسه، لكى تنطلى الكذبة - أى استغفالنا - يجب أن ترتدى قناع الحقيقة. ففى الحياة اليومية، لا تكون الإجابـــات التـــى نتلقاهـــا أو نعطيها ساذجة وإنما معقدة. فالكذب وقول الحقيقة ليسا نقيضين على نحو ما يظهر.

إن قوالب البناء فى روايات المؤرخين هى الحقائق التى نقدمها لقرائنا. فماذا لو كانت هذه الحقائق خاطئة؟ هل يكون ذلك كذبا؟ لقد تعقبت بعض هذه الأسئلة فى كتابى الذى يحمل عنوان Past Imperfect. والمجلة التى يعتد بها المؤرخون العاملون فى هذا المجـــال هـــى Journal of American History.

وتمر كل مقالة بالكثير من الدوائر قبل نشرها. وعملية " التحكيم " بها صارمة، مع وجود ما يصل إلى ستة محكمين من الخبراء فى موضوع المقالة المقدمة إلى المجلة يكتبون تقديرات بعناية عن مدى أصالة المقالة ودقتها. ويختار محرر المجلة المحكمين ويزن أقدارهم، وهو صاحب القرار الأول عن مدى صلاحية المقالة للنشر. وبصفة عامة فإنه يتم نشر مقالة واحدة من بين كل عشر مقالات تقدم للمجلة. ومن ثم يفترض المرء أنه يستطيع أن يثق فى صلاحية أية مقالة منشورة بالمجلة. وتفوز أحسن مقالة سنويا بجائزة. وفى سنة ١٩٩٦ م ذهبت الجائزة إلى ميخائيل بلليليس مكافأة على قطعة مدهشة من أعمال التحقيق قلبت المعلومات التقليدية عن ملكية البنادق فى أمريكا فى عصورها الباكرة رأسا على عقب.

كانت مقالة بلليسليس تخطيطا أوليا لكتاب قادم. وكان مذهلا فى وضوحه فى الجدل: " قبل أن نقبل الحق الفردى فى امتلاك البنادق كما جاء فى التعديل الثانى للدستور، يجب أن نحدد من هم " الناس " الذين كان لهم حق " الاحتفاظ بالأسلحة وحملها ". هل كانوا يمتلكون البنادق حقا؟ ماذا كان الموقف الشعبى إزاء الأسلحة النارية؟ هل تغيرت مثل هذه المفاهيم على مر الزمن؟ سوف نكتشف أن ملكية البنادق كانت مسألة استثنائية فى القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر، حتى فى مناطق الحدود، وأن البنادق لم تصبح متاعا عاما سوى مع عصر التصنيع، وأن ملكية البنادق كانت مركزة فى المناطق الحضرية. لقد نمت ثقافة البنادق مع انتشار صناعة البنادق ". ولتدعيم هذا الاستنتاج قدم بلليسليس الدليل المادى والكيفى على السواء. وجاء الدليل المادى على شكل جدول بملكية البنادق فى تنويعة من الأماكن تم وضعه على أساس البنادق التى تم العثور عليها فى عمليات جرد لمحتويات الضياع. لقد كان الإحصاء المتفق عليه حوالى خمسين بالمائة. ووجد بلليسليس أنه كان أقل من خمسة عشر بالمائة.

ويلتزم كثير من المؤرخين الحذر بشأن الأرقام خوفا من إمكانية التلاعب بالأرقام. وقد زادت من هذه المخاوف المجادلات التى ثارت حول Time on the Cross وقضية سيرس. كان بلليسليس واثقا من الأعداد التى ترويها قصته. وقد استنتج أنه إذا " كانت هناك مشكلات مرتبطة باستخدام الإحصائيات فى التاريخ... ويتفق معظم النقاد المفكرين الذين يعارضون المنهج الكمى على أنه لا يوجد أى بديل حقيقى عن استخدام هذه السجلات، مع التحذيرات المناسبة. وبدون مثل هذه الجهود فى التقدير الكمي، نكون فى مواجهة تكرار التأكيدات غير المحققة التى قال بها المؤرخون الآخرون، أو لعبة بدون نقاط فى المبارزة بالفقرات المقتبسة – لمضاهاة إشارة أدبية بإشارة أدبية أخرى. والأفضل كثيرا أن نضاهى مجموعة كاملة من الوثائق بمجموعة أخرى من المادة المصدرية، مثل سجلات الوصايا والميليشيا. .. وبعبارة أخرى، المسائل الكلية ".

وقد فاز الكتاب الذى أعقب ذلك ؛(Arming America 2000) بجائزة بانكروفت المهيبة ورحب به الباحثون والعلماء البارزون فى مراجعاتهم. وكان على مدى فترة من الزمن المرجع الجديد فى ملكية البنادق فى تاريخ أمريكا الباكر. وكانت الاقتباسات منه على نطاق واسع باعتباره الحجة فى قوانين التحكم فى حيازة البنادق وقراءة محددة لما ورد فى التعديل الثانى عن " الحق فى الاحتفاظ بالسلاح وحمله ".

كانت المشكلة الوحيدة أن بلليسليس إما أنه لم يكتشف ما زعم أنه اكتشفه – والواقع أنه لم ينظر حتى فى المصادر – أو أنه كان قد رأى وزيف ما وجده. ولم يستطع أن يكرره عندما واجه التحدى، أو يكررها حينما وجهت إليه الدعوة من علماء آخرين فى المجال وهيئة خاصة كونتها الجامعة التى يعمل بها لإعادة تقييم بحثه. وقد استقال فى خزى من منصبه، وحذف

ناشره الكتاب من قائمته. كما أن جامعة كولومبيا ألغت جائزة بانكروفت التي كانت قد منحت للكتاب.

قبل أن يشرع بلليسليس فى فحص أوراقه القانونية الصفراء ويبدأ فـــى التأشير عليها بالعلامات، ليقدم، حسبما قال، البنادق التى وردت فى عمليات جرد الضياع، كتب مؤرخ أمريكى آخر ما لابد أن يرفضه معظم المؤرخين اليوم باعتباره منافيا للحقيقة. وكان من أوائل الحاصلين على درجة الدكتوراه من جامعة " جونز هوبكنز" رجلا صارم المحيا عميق الفكر من أهل الجنوب اسمه وودرو ويلسون. وكان عليه أن يواصل حياته العملية باحثا، ومدرســا فى جامعة برنستون، وصار رئيسا لها، ثم حاكما لولاية نيو جيرســى، ثــم أصبح فى النهاية رئيسا للولايات المتحدة فى ١٩١٢م. لقد كان داعية أخلاقيا ومصلحا تقدميا. وقد يتوقع المرء أنه كان يضفى على تفسيراته التاريخية تلك الموضوعية العلمية غير المنحازة التى يتسم بها المؤرخ المحترف.

فى سنة ١٩٠١ م تمت طباعة مجموعة من عشرة مجلدات من الوثائق فى تاريخ أمريكا. وكانت مقدمة هذه المجموعـــة مــسحا لمــسرح التــاريخ الأمريكى الواسع. فعندما جاء الإنجليز إلى أمريكا، كما يقول ويلسون، وجدوا " أن الداخل كان برية شاسعة، تغطيها الغابات المتشابكة ". كان هــذا خطــأ واقعيا. فقد وجد الإنجليز حدائق هندية وبلدات مسورة بالأشجار، كما وجدوا الغابات والأحراش، وكانت تلك هى المواد الأولية المتاحة أمامهم. واســتمر ويلسون يقول إن أمريكا الشمالية كانت برية أربكت بعض الأوروبيين، ولكن ذلك لم يدم طويلا. فقد كان الأنجلو سكسون " جنسا مكــتملا يتــسم بـــروح المغامرة والصلابة. كانوا رجالا " كان عقلهــم المنــضبط " و " حــصافتهم الراسخة فى مجال الأعمال " ممتزجة بـــ " أمل خيالى راق "، وهو ما قادهم صوب البحر أولا، ثم " باتجاه موانئ جديدة وأوطان جديدة فـــى أمريكـــا ".

فعلا، كان أوائل هؤلاء المقاولين الأنجلو- سكسون رجال أعمال مـــرعبين. فقد أفلست مشروعاتهم كلها تقريبا، تاركين الفتات للمستثمرين فى بلادهم.

واستمر ويلسون يقول إن " الوحشية البربرية " لرجال القبائل لم تردع الإنجليز؛ لأن الهنود " خافوا الرجل الأبيض وتملكهم منه رعب هائل ". لقـد وجدت التقارير الإنجليزية الأولى فى الهنود الحمر ما يثير الإعجاب من عدة وجوه ولكن لم توجد أية أدلة على أن الهنود كـــانوا يخـــافون الإنجليـــز - وكشفت هذه التقارير أنهم ربما كانوا يحتقرون الإنجليز، ولكنهم لم يكونـــوا يخافونهم. ويقول ويلسون: " وبخطى ثابتة، ودونما تردد، وبالتقدم الحذق من مستوطنة إلى أخرى ومع عجز الهنود عن الصمود فى مواجهة الزحف، تم دفع الهنود إلى داخل الغابات ". والحقيقة أن الهنود كـــانوا صـــامدين حتـــى هبطت الأمراض الوبائية التى جلبها الأوربيون، التـــى لـــم يكـــن للـــسكان الأصليين من الهنود حصانة ضدها، بأعدادهم بعد أن قضت على نحـــو ٩٠ % منهم. فهل كانت " حقائق " ويلسون أكاذيب فعلا؟ إن الكذبة تستوجب أن يكون وراءها قصد ما؛ فهل كانت مقدمة ويلسون من أجـــل تبريـــر رحيـــل الأهالى الأصليين وانتصار الجنس الحاكم؟ وإذا كان ذلك كذلك، هل كان ذلك القصد كافيا لإساءة قراءة المصادر الأصلية التى استخدمها هو نفسه؟

بالنسبة للمؤرخ الذى يحاول أن يروى قصة أكبر، فى كتاب دراســـى مثلا، يكون اختيار الأدلة وترتيبها أمرا ضروريا وحتميا. فنحن لا نـــستطيع ببساطة أن نضع كل ما لدينا من معلومات فيما نكتبه، ولو فعلنا ذلـــك فلـــن يستطيع أحد أن يفهم ما نقول - إذ إن أوراق الشجر الكثيفة تحول بيننا وبين رؤية الغابة كلها. فليس هناك تأليف مهما كانت المعلومات فيه جيـــدة، وأيـــا كان شكله، إلا ويقدم ما لا يزيد على شذرة صغيرة من القصة كلهـــا. والآن إذا كان الكذب ينطوى على ألا نقول شيئا عن شىء ما، فمتى يرقى القـــرار بحذف الحقائق إلى مستوى الكذب؟

فى زمن الحرب الباردة، كان اختيار الحقائق فى الكتب الدراسية يشير إلى الاتجاه نفسه. وكما شرح آلان نيفين، الأستاذ فى جامعة كولومبيا، وستيل كوماجر الأستاذ بكلية آدامز، فى كتابهما Pocket History of the United States: "كان حتميا منذ البداية أن يكتسح الاستيطان القارة من شرقها إلى غربها؛ وأن يتم التغلب على المتوحشين؛ وأن يمر تقدم المدنية بعدة مراحل معلومة"، وفى تلك الأثناء كان لابد أن يكسب التسامح الديني، وتتراجع سلطة المؤسسات الأوربية مثل كنائس الدولة؛ كما كان لابد أن يوجه " الموروث العام " من اللغة الإنجليزية والأفكار السياسية الأمة فى مسارها الصاعد. وكانت مثل هذه الحقائق مفيدة بصورة مباشرة فى الحرب الباردة بالكلمات. فقد كان التاريخ الأمريكى برهانا على أن المادية الجدلية كانت فلسفة تاريخ رديئة. فلم تكن نهاية التاريخ دكتاتورية الاتحاد السوفييتى التى تحوزها البروليتاريا. فهل كان الحذف الواضح من تاريخ أمريكا - ترحيل الهنود، مثلا، أو الانتهاك الواضح للمعاهدات مع الهنود من جانب المستوطنين وحكومتهم - أكاذيبا؟

بالنسبة للمؤرخ الذى يحاول إضفاء المعنى على قصة ما، تكون المشكلة مشكلة تفسير. فإذا كان الكذب تحريفا لرواية تناقض الأدلة، فإنه يجب على المؤرخين الرد على هذا. وليس هناك مثال على هذا أفضل من الطريقة التى أدت بالمؤرخين الجنوبيين إلى تحويل العبيد والعتقاء إلى كبش فداء لمشكلات الجنوب. وهكذا، سمى كلود باورس، سنة ١٩٢٩ م، عملية إعادة البناء " عصرا مأساويا "، وكان يعتقد أن السود قدموا مشهدا " مدهشا "وكاشفا. فقد كان السود مسئولين عن متاعب الجنوب.

حظى كتاب باورس بشعبية طاغية، ولكنه من حيث الدراسة العلمية يتوارى خجلا بالمقارنة مع كتاب بول بوك Road to Reunion 1865- 1900

الذى نشر سنة ١٩٣٧ م ويتسم بالعاطفية العميقة، وفاز بجائزة بوليتزر. لقد نعى بوك نهاية الحرب الأهلية ومجئ " الحكم الزنجى " الذى مارسه " جنس أدنى " مما جلب على الجنوب " فوضى أشد سوءا من الحرب نفسها، واضطهادا لامثيل له فى التاريخ الأمريكى ". وفى الوقت نفسه، تم التغلب على " نبل تضحيات " محاربى الكونفيدرالية الشجعان بقوة الأعداء وحدها. وكان من رأيه أنه فقط عندما يتم طرد الزنوج والدمى الجمهورية التى تؤازرهم من مكامنهم يمكن أن " يسود السلام والأخوة " بين البيض فى الشمال وفى الجنوب. ومع مرور الزمن، وبموافقة البيض فى الشمال فى النهاية " فإن الجنوب (الذى كان بوك يقصد به الجنوب الأبيض) سوف يتاح له أن يحل " مشكلة الزنوج " بنفسه. ثم سوف يتيح " استقرار العلاقات العنصرية مع الزنوج الفرصة. .. لكى يتخذوا الخطوات الأولى نحو التقدم " من المؤكد أن هذا خطأ، بل إنه خطأ كريه، ولكن هل هذه أكاذيب؟ كلهم كذابون!!

لماذا كتب رجال على هذا القدر من الشرف والتكريم من الذين اقتبست كلامهم على النحو الذى كتبوا به؟ ربما كانوا يؤمنون ببساطة بما كانوا يقولونه. وربما آمنوا أن الكذبة تنقذهم من مواجهة حقيقة غير مستساغة. أو هل يكون من الممكن أنهم اعتبروا التاريخ بلاغة خالصة - أهى ظلال التحذير الذى أطلقه هايدن هوايت؟ قبل أن نبدأ فى بحث انحيازات مؤرخى الماضى، ينبغى أن ننظر عن كثب إلى الكذب والطبيعة البشرية.

يقدم الكاتب المرح والمعلق السياسى أل فرانكلين فى كتابه الذى يحمل عنوان Lies and the Lying Liers ،Who tell them قائمة بأفضل الكذابين فى رأيه، وبينما قد يكون مقنعا أو لا يكون كذلك، فإن القائمة التى أعدها قصيرة للغاية بالتأكيد. فمن هم الكذابون الذين يكذبون؟ كلنا. ففى تحقيقات

الشرطة يكذب حتى الأبرياء بشأن بعض الأمور. وفى علاقاتنـــا اليوميـــة، نكذب لأن الكذب سيجعلنا نبدو بصورة أفضل مما تظهره الحقيقـــة، أو لأن الكذبة ستجعل من يستمع إلينا يشعر بإحساس أفضل. وفى عمل فنان الكرتون " سكوت آدمز " Dibert and the Way of the Weasel تكون "منطقـــة ابـــن عرس " صالحة حيث يكون الكل " على وعــــى بأنـــك متلاعــب، متـــآمر، ومريض اجتماعيا ". يكذب علينا زعماؤنا بصورة منتظمة، وبكثرة بالغـــة، لدرجة أن السياسيين يحتلون مرتبة متدنية للغاية فى استطلاعات الرأى العام لأننا لا نثق فى أنهم يقولون الحقيقة.

هناك أكاذيب تعطى إشارات عن نفسها لحظة وصولها، وهى شـــائعة جدا لدرجة أن الجميع يعرفون ما هى. إذ يقول المدير: " إننا نثق فى المدرب ثقة كبيرة "، وهى علامة أكيدة على أن المدرب سوف يطرد من عمله. كما أن عبارة " لا شيء يهم، فسوف أحبك دائما " تحذير مسبق يـــدل علـــى أن العلاقة الغرامية تسير فى طريق النهايةإذ يكون المتحدث قد نسى لماذا كـــان مغرما أصلا. ومن الكذب عبارة " إن الشيكات فى البريد "، " بمجرد أن أجد دفتر الشيكات، وأضع بعض المال فى حسابي، واشـــترى الطوابـــع، وأرى فاتورتك ". كما أن مراوغات المحامين تبدو شائعة لدرجة أنها صارت نكتة أن تسأل: " هل تعرف متى يكذب المحامون؟ (الإجابـــة: عنـــدما يحركـــون شفاههم).

عندما نلجأ إلى العقلانية، نكذب على أنفسنا وعلى الآخرين. وقد بينت نظرية عالم النفس ألبرت باندورا عن التعليم الاجتماعى أن الأشكال التى لا تعد ولا تحصى من هذا النوع من الكذب تفسر تصرفا نعـــرف أنـــه شـــر. وغالبا ما تنطوى الكذبة على مغالطة منطقية أو معرفية أيضا. فنحن نقـــول إننا تصرفنا بالخير الأعظم – والغاية تبرر الوسيلة. فـــنحن نـــستغل لطـــف

التعبير لإخفاء جسامة سلوكنا السيئ. ونقول إن ذلك كان " تطهيرا عرقيا " بدلا من القول إنه قتل جماعي. فنحن نقارن الضحية بشخص شرير، اعتمادا على الإدانة بالارتباط، والتشبيه الضعيف أو الكلمات المشحونة لكي نجد العذر لسلوكنا. ونحن نحول وجهة اللوم: " إننى كنت أتبع الأوامر فحسب " ونحن نتشارك فى اللوم بقولنا: " الجميع يفعلون ذلك " ونحن ننكر تأثير أفعالنا بالقول :" لا أحد يهتم حقا "، كما ننكر على ضحايانا إنسانيتهم فنقول: " إنهم مجرمون على كل حال " وأخيرا نلوم الضحية: " أنت الذى تسببت فى حدوث هذا ".

وتشرح مقالة الفيلسوف هارى فرانكفورت المعنونة "Clever on Bullshit" أن "فى كل استخدام للغة بلا استثناء بعض خصائص الكذب وليس كلها ". ولا ينبغى لنا أن نخطئ فى حقيقة أن الكذب ببراعة يمكن أن يصنع العجائب. فالكذبة التى نقولها لأنفسنا تجعلنا ننام ملء جفوننا. ويقول لنا علماء النفس أن أحد الطرق التى نتغلب بها على المأساة والغضب تتمثل فى أن نصطنع التصديق. وهم يسمون ذلك الإيهام. وبعبارة أخرى، فإن الكذب ينفع لأننا نريد سماع الكذب. فعلى سبيل المثال، فإن الطبيبة التى تقول لمريض يعانى سكرات الموت من تأثير السرطان لا تنفع معه العمليات الجراحية، إنها لا تريد التدخل الجراحى فى جسده، تكذب مستغلة طاعة المريض الإرادية لها. ويمكن للكذبة التى نقولها للآخرين أن تحقق غايات لا يمكن تحقيقها بوسيلة أخرى. إن أكاذيبنا يمكن أن تنقذنا من عيون المتطفلين.

الاصطناع الماكر

أنا لا أدافع عن الكذب. ولكننى أعتقد بالفعل أن المؤرخين قد يجدوا أن الكذب يخدم الأهداف الفنية. وكلمتا artful، artifice، مثل الكثير جدا من

الكلمات الإنجليزية، تحمل كل منهما معنيين مختلفين تمام الاختلاف. فكلمة artful تعنى متعلم وحكيم كما تعنى ماكر ومراوغ. أما كلمة artifice فمعناها الاصطناع ومعناها أيضا المخادعة.. واليوم، من المؤثرات الخاصة فى أفلام السينما، والخداع فى الأعمال الموسيقية الفائزة بالجوائز، نجد مزيجا من الحقيقة والكذب منصهرة فى الفنون الجميلة وفى الفنون الحية. والخداع فيها يخطف الأبصار ويأسر القلوب. وتعطى نقطة التلاشى فى رسوم المناظر الطبيعية الرومانسية التى رسمها جون كونستابل فى إنجلترا وتوماس كول فى أمريكا إيهاما بالعمق على سطح لوحة مسطحة من الكانفاه. وعندما يكذب ياجو على أوثيللو، تتحول الدراما الراقصة إلى واحدة من أعظم تراجيديات العالم. والعقدة فى أشهر أفلام الأبيض والأسود The Third Man عبارة عن كذبة بشأن الموت على طريقة أضرب واجر بحيث تجعل كل أجزاء اللغز تتناسب سويا. وتدور القصة البوليسية التى جعلت أجاثا كريستى تنتشر فى كل مكان، وما تزال واحدة من أعظم الروايات البوليسية التى خطها قلم، وهى الرواية التى تحمل عنوان (The Murder of Roger Ackroyd 1926)، حول كذبتين ولغز منطقى يبدو فى ظاهره مستعصيا على الحل بحيث يبقى القارئ مشدودا إلى الرواية حتى الصفحة الأخيرة.

ومثل المحقق فى الرواية، ينبغى على المؤرخين أن يتعاملوا مع الكذب فى السجل الوثائقي. بل إن أكثر قرائنا أهمية يكذبون. وحسبما كتب آرثر شليزنجر الابن فى يومياته (متذكرا ما كان قد قيل فى لجنة بالكونجرس فى جلسات الاستماع التى عقدت للرئيس كلينتون) " لقد كذب معظم الناس بشأن حياتهم الجنسية ". كان شليزنجر يقصد أن يكون متمردا ويخرج متطهرا من عاصفة النقد التى أثارتها ملاحظته: " إننى أظن أن الوقاحة غلطة كبيرة ". وربما كان الخطأ فى عدم مناسبة التعليق فى التحقيق حول سلوك الرئيس

الجنسي، ولكن كل مؤرخ يكتب السيرة الشخصية يعرف أن شليزنجر كان على صواب.

ويمكن أن يكون المؤرخون متحفظين حول الكذب من هذا النوع - فلم يذكر شليزنجر شيئا عن مغامرات جون كينيدى أو روبرت كينيدى، الجنسية خارج الزواج فى كتابه الذى ألفه عنهما - أو يمكنهم جعل الكذب السمة المركزية فى أية سيرة، على نحو ما فعل بعض كتاب سيرة كل من بنيامين فرانكلين، وتوماس جيفرسون، وفرانكلين وإليانور روزفلت، والأخوين كينيدى، وليندون جونسون وبيل كلينتون. وكشف الكذبة أو تركها، أمر يرجع إلى المؤرخ. فهل يكذب المؤرخ عندما يقرر عدم الكشف عن الحقيقة؟ وإذا كانت الكذبة تستدعى قصد الخداع، فهل يكون حذف الحقيقة كذبا؟ والسبب الأكثر شيوعا بين المؤرخين للحذف قولهم: " لم يكن مهما، ولذا صرفت النظر عنه "، ولكن إخفاء الكذب شكل آخر من أشكال الكذب.

وربما يكون على القدر نفسه من الأهمية بالنسبة لنا أن نفهم أنه يمكن للمؤرخين أن يتوسلوا بمعادلة الاصطناع الماكر فى عملهم. إنهم يخدعون العين ويضيفون إلى المؤامرة لتحقيق الغايات المشروعة. وثمة مثال ممتاز فى الكتاب الذى ألفه جون ديموس The Undredemded Captive 1994، والذى فاز بعدد من الجوائز. ففيه يستعيد ديموس بصورة تخيلية المحادثات التى لا بد أن تكون قد حدثت بشكل ما، بيد أنها لم تسجل. وفى لب كتابه، تحاول عائلة من نيو إنجلند افتداء طفلة من الهنود الذين أسروها. وفى إحدى الفقرات يتحدث شقيق البنت معها من خلال مترجمين، لأنها كانت قد نسيت لغتها الإنجليزية، فى بيت كندى معبأ بالدخان. " ربما يكون الأمر قد سار بشكل يشبه هذا... وكان الدخان المنبعث من المستوقد يلسع عيونهم والأصوات تمضى تجاههم بلا تمييز من الحوائط البعيدة. أشكال آدمية، نحو

دستة أو يزيد، تلوح فى العتمة: يجلسون القرفصاء، أو يتكئون، يدنون إلى الأمام للقيام بعمل أو آخر. وفى بطء، تحرك أحد الأشكال - لا، بل اثنين - إلى الأمام: إمرأة تتقدم قليلا ووراءها رجل. واقتربت المرأة جدا، وعيناها تتفحصان الوجوه التى أمامها".

ونحن نعرف من السجلات التاريخية أن المقابلة قد تمت بالفعل، ولكنا فقدنا تفاصيلها. وباستخدام أساليب الروائي، ملآ ديموس الفراغات فى القصة. واعترف أنه تصرف فى السجلات بحرية - إذ اخترع الحوارات على سبيل المثال - ولكن المؤكد أن المؤرخ الذى يستعير من الروائى الذى يكتب رواية تاريخية، يمكنه أن يملأ الفراغ الذى ينتج عن الأدلة الناقصة بالتخمينات المدروسة. وقد تعلم من الروايات، حسبما ورد فى مقالة لهنشرت سنة ١٩٩٨ م فى مجلة American Historical Review، " الاستراتيجيات والأساليب الفنية، والحركات " ما ساعده على إعادة خلق ماض تجسد كاملا من الشذرات الباقيات. وهذه تساعد المؤرخ على النظر من فوق الحدود بين البحث العلمى القائم على أساس الحقيقة وبين الخيال، بل على أن يتخطى هذه الحدود. كانت الحيلة أن يمزج ما بين الاهتمام المفرط بتلك التفاصيل التى يمكن التحقق منها والإحساس بالحالة الإنسانية - أى بالروابط التى تربطنا بأناس فى الماضى.

وتكون محاولة ديموس ضرورية عند استخدام الأساليب الروائية لملء الفجوات عندما يريد المؤرخون الكتابة عن الناس العاديين. ذلك أن معظم الناس لا يتركون وراءهم أوراقا، وفى الماضى، عندما لم تكن معرفة القراءة منتشرة وكانت الكتابة تستغرق وقتا، وجهدا، وتتطلب مالا للإنفاق على شراء الورق والحبر والقلم، كان الناس العاديون يخرجون من المشهد ببساطة دون أن يتركوا سجلا موثقا عن حياتهم خارجنطاق الميلاد والزواج والموت. لقد

اكتشف المؤرخون وسيلة مصطنعة، ولكنها فعالة، لإعادة هــؤلاء الرجــال والنساء إلى الحياة مرة أخرى.

والتاريخ الروائى (لكى نسك مصطلحا) لديه الإجابة عــن المعــضلة القائلة إن التاريخ مستحيل. ومن الواضح أن الإجابة مأخوذة عــن أســلوب روائى مجرب، وحقيقي. ويحكى لورنسستيرن فى روايته Tristram Shandy قصة حياة خيالية للشخصية التى تحمل الرواية اسمها، بادئا بالأحداث التـــى تقود إلى مفهومه. وهو يخاطب القارئ من حين لآخر بصورة مباشرة، معلقا على حكايته هو. ويستخدم المؤرخون الروائيون الوسيلة الأدبية نفسها كمــا يوقفون تواريخهم لكى يخبرونا كيف تم بناؤها. ويكشف ثيموتى برين، فـــى حكايته عن التواريخ الكثيرة التى تدور حول إيست هامبتون، ولونج أيلانــد، عن " أننى ألاحظ نفسى أشرع فى عمل تفسير للماضى من منطلق القلق لكى أجعل القارئ يعرف موقفي... فعلى عاتق المؤرخين تقع مسئولية الحــديث بصراحة إلى قرائهم ". لقد كان برين أكثر من مؤرخ فى هذه القصة؛ إذ كان مشاركا فى أنواع من المحاولة لاكتشاف الماضى المفقود، بيــد أن تأملاتــه تنطبق علينا جميعا. ولم يقتبس دانييل ريشتر كلام برين فى عرضه اللافــت للنظر للحياة بين الهنود فى أراضى الغابات فى روايتــه Facing East from Indian Country، ولكنه شرح فى تقديمه لروايته الرد نفسه علـــى اســتحالة التاريخ: " هكذا، تدور الفصول التالية حول كيفية تطويرنا لقصص المواجهة فى الشرق والتى تدور حول سكان أمريكا الأصليين فى الماضى، بقدر مــا نطور القصص التى تدور حول ماضينا نحن ". وقد افتتح كتابه بثلاثة رسوم مزخرفة عن المواجهات بين الهنود الحمر والمستكشفين الأوربيين، وكلهــا تعبر عن وجهة النظر الهندية المفقودة الآن، ولا يمكن استعادتها. ومن ثم، " فإن هذه المشاهد متخيلة ". وكلما أخذ المؤرخون الروائيــون المزيــد مــن

الحرية، عظمت حاجتهم إلى " الحديث بصراحة " مع القارئ. ومن سوء الحظ أن كل من يتوقع أن يجد تعريفا – وردا على استحالة التاريخ – لهذه الانحرافات المنهجية يعترف دائما بأنه لا يمكن أن نعرف ما حدث حقا.

وثمة منهج آخر يسمى "التاريخ التجريبى ". وقد وصفت المؤرخة مارثا هوديس هذا المنهج بأنه" غير تقليدى " وخيالى بدرجة عالية فى الفصل المعنون Experimental History in the Classroom فى العدد الصادر من مجلة الجمعية التاريخية الأمريكية سنة ٢٠٠٧ م. وقالت إن التاريخ التجريبى " قدم للباحثين طرقا جديدة لتطوير الجدل وللربط بين التعقيدات ". لقد وسع الحدود بتقوية المؤرخين وتزويدهم بسلطة رواية القصة من منظورات مختلفة فى الوقت نفسه، على نحو يشبه عمل الروائى إلى درجة كبيرة. فالانتباه إلى التفاصيل الصغيرة لتكوين مشهد يبعث حيا ويشرك القارئ فيه ليس أمرا جديدا، أو حتى تجريبيا، ولكن فكرة أن التاريخ " محادثة " متبادلة بين المؤرخ والقارئ، مستعارة أيضا من الرواية. وعند حافة التاريخ التجريبى يرقد الحوار المخترع، قائما على أساس ما نعرفه بالفعل، وما يمكننا تخمينه. نحن نعرف أن الحوار قد حدث، ونحن نقدم الكلمات اللازمة لهذا الحوار.

وعلى الرغم من أن سائلا شكاكا قد يسأل المؤرخ التجريبي: " كيف تعرف؟ ما دليلك؟ " فالحقيقة أن المؤرخ التجريبى يكون أحيانا نقديا بدرجة أكبرمن المؤرخ التقليدى وأكثر حرصا منه. إذ يمكن للمؤرخ التقليدى أن يكتب القصة التاريخية " من بطاقات الملاحظات "، ويكون ما نقرأه هو ما وجده المؤرخ. وعلى المؤرخ التجريبى أن يمعن فكره كثيرا حول كل من الأدلة والبراهين الباقية، لأنه يجب أن تستخدم كلها، لا أن يعاد تكرارها فحسب، لإعادة خلق الحوار المفقود أو المشهد الضائع.

ومع أنهم لا يسمون أنفسهم مؤرخين تجريبيين، فإن مؤلفى "التـــواريخ المصغرة " يستعيرون أساليب معينة من التاريخ التجريبي. لوريـــل تاتـــشر أولريش المدهش، والفائزة بإحدى الجوائز:

A Midwife's Tale ‹The Life of Martha Ballard Based on Her Diary ‹1785 - 1812 1991

الذى كتبت عنه فى كتابى Sensory Worlds in Early America أنها " حولت يوميات تتسم بالرشاقة والإيجاز لقابلة، وأم، وسيدة أعمال هى: مارتا باللارد من هالويل، فى منطقة مين، إلى مصدر يساعدنا على تخيل المـــدى الكامل لأنشطة النسوة فى الفترة الباكرة من تاريخ نيو إنجلند. فنحن نـــشعر ببرودة ليالى الشتاء وخشونة القماش المنسوج فـــى البيـــوت لأن أولـــريش عايشت القصة. فقد أمضت من الوقت فى بنوبسكوت ما يكفى للدخول فـــى عالم باللارد. وتنقل لغة أولريش تجربتها الشخصية الحميمية. وهى تزعم أن اليوميات تتحدث عن نفسها – " قد يرغب المرء فى المزيد من التفاصـــيل، ليكون التعبير عن الرأى أكثر صراحة، ومن أجل روايات أكثر اكتمالا عـــن العلاقات الطبية أو التعقيدات فى طب الولادة، والمزيد من الصراحة والنزاهة فى وصف الأطباء أو القضاة، وقدرا أقل من الاحتراز فى تسجيل الفضائح، بيد أن يوميات مارتا، مع كل التحفظات عليها، وثيقة لا نظير لها فى التاريخ الأمريكى الباكر. وهى قوية لأنها تستعصى على الاستخدام الكامل من ناحية، ولأنها تتمسك بكل تفاصيل الحياة اليومية من ناحية ثانية. " والحقيقة أننا نرى نيو إنجلند الشمالية عند نهاية القرن الثامن عشر بعيـــون أولـــريش، ولـــيس بعيون باللارد. فعندما تستعير المهارة الفنية من الدهاء، يبعث التاريخ حيا.

وعلى الجانب الآخر من الحدود بـــين الخيـــال / واللاخيـــال تمـــزج الروايات التاريخية ما بين الحقيقة والأكاذيب لكى تبهجنا وتسلينا بالمـــشاهد

التى لم يكن ممكنا أن نشاهدها بطريقة أخرى. إذ إن الروائى يعتمد على المؤرخ فى هذه الحالات، ويصب المادة التاريخية على الروايات لكى يصف المكان والزمان بدقة. وقد تكون الشخصيات فى الرواية شخصيات تاريخية حقيقية أو شخصيات مخترعة أبدعها الروائي، أو مزيجا من الاثنين، ولكن العمل المشترك بين المؤرخ والروائى يبعثها حية. وكما كتب ريش إيزاك فى روايته الفائزة بجائزة بوليتزر :

Transformation ofVirginia 1740-1790 1982

" إن المفاهيم – والمهارة الفنية – لدى كل الذين وجدوا الطريق للدخول بقوة فى عوالم غريبة من التجربة، سواء بوصفهم روائيين أو كتاب دراما، أو رسامين، أو نقادا أدبيين، أو علماء اجتماع، يجب توظيفهم حيثما تكون خدماتهم مطلوبة... لإعادة بناء شيء من عالمهم كما جربوه ".

واستعارة الحصافة والفراسة التاريخية من الرواية طريق ذو اتجاهين. فقد شرح دان براون مؤلف الروايات التاريخية، فى شهادته دفاعا ضد تهمة انتهاك حق الملكية الفكرية، كيف أنه هو وزوجته بلايثى قد استخدما كتاب تاريخ واحدا: " ثمة كتاب مهم لهذا البحث الباكر [رواية شفرة دا فينشى] عنوانه The Hiram Key من تأليف كريستوفر نايت وروبرت لوماس. وهذا الكتاب يبحث فى دور الماسونيين وفرسان الداوية [الهيكل] فى التنقيب عن مخبأ للكتابات المسيحية الأولى التى تم إخفاؤها. كما أنه يتحدث عن عائلة المسيح، وأصول المسيحية، والأناجيل الغنوصية، وكنيسة روسلين فى أدنبرة. وعندما عاودت النظر فى نسختى من الكتاب رأيت أننى وبلايثى قد أبرزنا الفقرات التى تتأمل وتتدبر فى طبيعة ما وجده فرسان الداوية وعواقبه على المسيحية فيما بعد. كذلك أبرزنا أجزاء تتناول قنسطنطين وأهمية Sol Invecta فى تقرير التواريخ والممارسات المسيحية الحديثة ".

وحتى لا يظن القارئ أن الرواية بحد ذاتها تـــاريخ، رد " دكتـــورو " مؤلف رواية Ragtime وهى الرواية الأحسن مبيعا، وغيرها، بـــأن القـــارئ الذى يريد الحقيقة التاريخية لا يجب أن يصدق كل كلمة فى أية رواية. وإذا كانت هناك قيمة للفن الذى يخدع العين بمنظور زائف، والدراما التى تعيـــد تجسيد الواقع على المسرح، فإن تأثير الفن والدراما يأتى من الحيلة قرينـــة الاصطناع.

وغالبا ما يكون للمذكرات التاريخية، الفعل السحرى نفسه، لأنها تعبر الحدود ما بين الحقيقة والخيال جيئة وذهابا. ولو كان جيمس فراى، الكاتـــب الذى لقيت كتبه رواجا كبيرا، قد اعترف بأن كتابه كان خيـــالا أكثـــر منـــه حقيقة، لكان قد تجنب العار الذى لحق به. ففى سنة ٢٠٠٣ م نشر مـــذكرات بعنوان A Million Little Pieces وباع ملايين النسخ، وقد اعتبرت حكايتـــه عن إدمان المخدرات، والسباب الفاحش الذى أعقبته إعادة تأهيلـــه، شـــجاعة مست مشاعر القراء فى جميع أنحاء البلاد. وقد حركت حكايته التى يفترض أنها حقيقة عن المعاناة والعلاج قناة التليفزيون الشهيرة أوبرا وينفرى لدرجة أنها اختارت كتابه فى نادى الكتاب الذى تديره.

وفى سنة ٢٠٠٨ م اكتشف أحد المواقع الأليكترنية أن فراى قد اصطنع أجزاء مهمة من المذكرات. فمثلا، احتج المعالجون فى مركز إعادة التأهيـــل الذى نزل به لأن روايته عن إقامته فى المركز تحمل الكثيـــر مـــن الزيـــف والاختلاق. وفى قصة يفترض أن تكون حقيقية (حقيقية بقدر ما يمكن لكاتب المذكرات أن يتذكر)، بالغ فراي، واختلق، وأساء تقديم الأحداث. ولم يكن قط متأنقا حسبما صور نفسه فى الكتاب أو فى البرنامج التليفزيوني.

وعندما سئل للمرة الأولى عن مذكراته، أصر هو وناشره على أن كل شىء فيها حقيقى وأنه " تمسكت بالحقيقة الجوهرية فى كتابى ". وبعد ملاسنة

محرجة من جانب وينفرى فى برنامجها التليفزيوني، اعترف بأنه كان قد اختلق الكثير فى القصة، ثم أضاف فى ملاحظة وضعت فى الطبعات التالية شارحا " لقد أردت للقصص التى وردت فى الكتاب أن تكون مثل المد والجزر، وأن يكون لها عقد درامية، وأن يكون لها التوتر الذى تتطلبه كل القصص العظيمة " ولذلك " غيرت الأحداث فى جميع أجزاء الكتاب ". إنه عمل خيالى مستلهم من حوادث جرت فى حياته تحول إلى مذكرات، وكانت بقيته تاريخا. ولكن بالنسبة لنا هل يكون الدرس مختلفا؟ لقد كسبت المهارة والاصطناع قلوب القراء وساعدتهم فى حياتهم.

ولم يكن فراى أول كاتب يكذب عامدا فى مذكراته ليجد أن الكذب نقل إلى القراء رسالة لم يكن ممكنا أن تصل بطريقة أخرى. تأمل رواية Roots التى كانت من بين الروايات الأكثر مبيعا والتى ألفها أليكس هايلى (١٩٦٧م)، ويفترض أنها مبنية على أساس البحث فى أمريكا وفى إفريقيا وعلى مذكرات عائلة هايلى نفسها. لقد غير ما كشفته هذه المذكرت عن الرق والعنصرية وعى الأمة. وفاز هايلى بجائزة الكتاب الوطنى وجائزة بوليتزر. كما أن المسلسل التليفزيونى الذى بنى على أساس من هذا الكتاب فاز بعدد جم من الجوائز، وأظهر للأمريكيين جسامة عار الرق فى مصطلحات يمكنهم استيعابها. والحقيقة، أن الجزء المركزى فى الكتاب، بما فيه المادة الخاصة بإفريقيا، كان كله مأخوذا من كتاب مؤلف آخر، على حين كانت بقية كتاب الجذور خيالا. كما أن الخلفيات التى قدمها هايلى فى أحايثه كانت كذبا؛ ولكن من رواية الكتاب وعرض التليفزيون للقصة عرف ملايين الأمريكيين الرعب والأهوال التى كان ينطوى عليها الرق بطريقة لم يستوعبوها قبل حيل هايلى البارعة.

ثم كانت هناك "ريجوبرتا مينشى " التى فازت بجائزة نوبل سنة ١٩٩٢ م بسبب محاولاتها لحماية أخواتها وأخوتها، وهم من الهنود الحمر، فى أثناء الحرب الأهلية فى جواتيمالا. وكانت قد وثقت معاناة أسرتها الخاصة فى وقت مبكر على أيدى الحكومة العنصرية وقواتها فى مذكراتها التى تحمل عنوان (I Regoberta MenchI 1983)، وهو كتاب وضع محنتها ومحنة شعبها فى دائرة الضوء وجذب انتباه عالم القراء. وفى هذا الكتاب أكدت ريجوبرتا على أنها نشأت وترعرعت فى بيت فلاح هندى فقير، ولم تذهب إلى المدرسة قط، وتعرضت للقهر على أيدى ملاك الأرض المغتصبين، كما تعرض واحد من أخوتها وأبوها للتعذيب، ثم قتلا فى نهاية المطاف بيد الزمرة الحاكمة كما رأت أخا ثانيا لها يموت من سوء التغذية.

ثم اكتشف عالم الأنثروبولوجى، دافيد ستول، العامل فى إقليم جواتيمالا الذى أسمته مينشى الوطن، أن الحقائق الرئيسية فى مذكراتها كانت زائفة. فلم يكن أبوها ضحية ملاك الأراضي، ولكنه كان متورطا فى نزاع مع أنسبائه؛ وقد ذهبت هى إلى مدرستين ممتازتين، ولم يمت أى من أخونها على الإطلاق. بل إن روايتها عن أيامها الباكرة وعملها بشرفة على العمل لا يمكن أن تكون صحيحة، لأنها كانت تلميذة بالمدرسة فى تلك الأثناء. لقد جلبت لها الحرفة والاصطناع الصريح الشهرة، ولكنها، وقد يكون هذا الأمر الأكثر أهمية، حولت الانتباه إلى الضحايا الحقيقيين ومحنتهم بطريقة ربما لم تكن لتتحقق عن طريق رواية صادقة.

وموضوع المذكرات الزائفة له تاريخ طويل، وفى أثناء هذا التاريخ كان الاصطناع قد نور القراء وأضفى عليهم البهجة. فمنذ زمن طويل، كان يفترض أن المذكرات نوع من الخيال، فهى رواية عن صاحبها بلسانه. وقد كتب المؤلفون المشهورون فى القرن العشرين من أمثال: ليليان هيلمان، وماري مكارثى، وإرنست هيمنجواى، مذكرات وجد فيها النقاد أغلاطا

متعمدة فى الحقائق. ولكن البيانات المغلوطة وجدت قبولا باعتبارها أدبا، أو باعتبارها خيالا، فى كل الأحوال. فما الذى يتوقعه القارئ غير ذلك من هؤلاء الأدباء العمالقة؟

واستنتجت كاتبة السيرة الشخصية نانسى ملفورد أنه " فى النهاية، ربما تكون المذكرات لا تدور حول استرداد ذكرى الأحداث بقدر ما تكون حيل للذاكرة، إذ إن خداع النفس بالسن والإلحاح الذى يشعر به الكاتب يدفعه إلى القول: " هذه هى الطريقة التى احتاجها للتذكر، وهذا هو ما كنت أتمنى أن يكون تصرفى، هذه ذكرياتى الزائفة على أفضل نحو يمكننى أن أكتب به ". على هذه الدرجة من الصدق، كتبت المحررة وكاتبة المذكرات مارى آرانا عن كتابها America Chica: " إذا كان هناك شيء مثل الحقيقة، تلاعبت بها، فإن هذه لم تكن أكاذيب محسوبة، ولكننى شكلت الحقيقة (كما فهمتها) وفق غاياتى الخاصة، واستخدمتها بوسائلى الخاصة، وقد انتقلت من خلايا المخ التى تتذكر إلى الخلايا التى تتيح لنا أن نحلم ".

فالمتوقع منا أن نعرف الخيال الفنى عندما نراه أو نسمعه، ولا نتوقع أن نراه فى كتاب تاريخ. ويصنف الناشر الكلمات إلى خيال أو لاخيال، وهناك نراه على رفوف مكتبات بارنيس ونوبل (على الرغم من أن مكتبات بارنيس ونوبل تركت كتاب فراى على رفوف أفضل المبيعات غير الروائية). ونحن ندخل المسرح أو دار السينما متقبلين فكرة أن ما سنراه خيال. وحتى عندما تكون المسرحية، أو الفيلم " مأخوذا عن قصة حقيقية "، فنحن نعرف أنه سيكون هناك حوارات ومشاهد إبداعية. والواقع، أنه عندما يتم قول هذا كله وفعله، تنفع الإضافات الخيالية والتغييرات لمجرد أنها شبيهة للغاية بمنطق الحقيقة، وتحتفظ بالشكل المنطقى حتى عندما تكون زائفة تماما.

ويتراقص خيالنا، سواء فى عينى الفنان أو بقلم المؤلف ' رائحا غاديا عبر الحدود اللامحدودة بين الحقيقة والكذب. فهل كان يمكن أن تكون الحقيقة نفسها تعبر هذه الحدود فى كلا الاتجاهين طوال الوقت؟ إن الزعم بغير هـذا يعنى أن ننكر على أنفسنا سلطة تصوير ما لا نستطيع إثباته والحلم بما لـم نره – وهذا ما يجعل التاريخ ممكنا. إن الكذبة المـاهرة رد بـديهى علـى استحالة التاريخ.

الكلمات التى تكذب

ثمة نوع آخر من التزييف يبدو أن كتابة التاريخ تجتذبه هو الخطأ فى معانى الكلمات. والخطأ فى معانى الكلمات لا يعكس غموضا فى اللغة، فهو ينشأ عن حقيقة أن واحدا من بين كل معنيين أو أكثر خـاطئ بالـضرورة. وبالتمادى فى الغموض نتقبل حقيقة أن العبارة، أو جزءا من العبـارة، لـن يكون صحيحا. ومثل هذه الحيل التى تمارس على الأذن، شأنها شأن الـوهم البصري، تجعل قراءة التاريخ أمرا مسليا.

ويعود الخطأ فى معانى الكلمات إلى الأساطير القديمة وإلـى الـشعر الملحمي. فقد كان أوليسيوس فى الملحمة الهومرية (نسبة إلى هـوميروس) متحايلا. فقد ابتكر حصان طروادة – وهو هدية مميتة للطرواديين اعتمـادا على تصديقهم (وسهولة خداعهم) لتدميرهم. وعندما أرسـى علـى جزيـرة للتزود بالطعام والمؤن فى الطريق إلى وطنه بعد الحرب، تـم أسـره مـع مجموعة من رجاله على يد عملاق ذى عين واحدة من أكلة لحـوم البـشر (سايكلوب فى الأساطير الإغريقية) يسمى بوليفيموس. ولكى ينقذ أوليسيوس رجاله روى كذبة ماهرة للعملاق – فقد قال إن اسمه " لا أحد " ثم فقأ عـين العملاق. وعندما استدعى العملاق الجريح قبيلته، سألوه عمن فعل بـه هـذا

الفعل أو سبب له هذا الأذى. وأجاب: " يا أصدقائى، إننى أموت، والذى سدد لى هذه الضربة " لا أحد ". فأجابوه بقولهم " إذا كان " لا أحد " قد آذاك فإنها ضربة من الإله جوفى وعليك أن تتحملها ". وتمكن أوليسيوس من أن يقود رجاله إلى سفنهم وحيث الأمان فى البحر.

وتلاعب أوليسيوس بالكلمات الذى أنقذ حياته مثال على الجناس. فعندما نسمع جناسا، يكون المتوقع منا أن نئن ونشكو. وهذا ما فعله بوليفيموس العملاق. وكل شيء من شعر الهايكو اليابانى حتى شكسبير وإلى أوجدين، حافل بالجناس. ويوجد فى الجناس الجيد لغز منطقى جزء منه غير حقيقي، لأن المعنيين (أو أكثر) اللذين يحملهما الجناس يخلقان عن قصد غموضا منطقيا. وقد شن إيوجين فولوخ، أستاذ القانون فى جامعة أوكلا، حملة دون نجاح ضد الجناس فى عناوين المقالات البحثية. ومع الاحترام الواجب لحملته، فإن بعض هذه المقالات بصراحة نوع من المرح الصاخب. وبدافع من الاحترام للبروفيسور فولوخ، ولحماية هوية كتاب المقالات، لن أكتب قائمة بهم.

ويمكن للجناس أن يكون بؤرة الألغاز المنطقية. " متى لا يكون الباب بابا؟ عندما يكون الباب مواربا ". هذه الأكاذيب المتمثلة فى معانى الكلمات تتخذ أحيانا شكل عبارة بدلا من كلمة واحدة. إنها العبارة التى تصنع الغموض " ما الحيوان الذى يمكن أن يقفز أعلى من المنزل؟ "، والإجابة أن أى حيوان يمكن أن يقفز أعلى من المنزل لأن المنازل لا تستطيع القفز.

وفى لعبة إبدال الحروف بطريقة مضحكة التى تسمى Spoonerism يتم استبدال أول حرفين فى عبارة مشتركة بحيث يكون هناك معنى جديد تماما. فقد كان المبجل وليام أرشيبالد سبونر W. A. Spooner عميد الكلية الجديدة فى أوكسفورد مشهورا بزلات اللسان عندما لا يكون مشغولا فى تنظيم العمل

بالكلية – وبلغت شهرته أن هذه الزلات قد سميت باسم سبونر. وربما لا تكون قد نطقت أبدا عبارة وأنت تقصد أخرى مثل a half- wormed fish وأنت تقصد a half- formed wish. ولكن ربما لا تكون عندئذ راغبا في أن تشتهر بشيء من هذا القبيل.

إذن هناك استعمالات خاطئة لكلمات بدلا من غيرها. فالسيدة مالابروب شخصية كوميدية في الكوميديا الإنجليزية التي كتبها ريتشارد شريدان في القرن الثامن عشر بعنوان The Rivals، وكانت تستخدم كلمات خاطئة في وصف الناس والأشياء (الواقع أن اسم الشخصية بحد ذاته كان نوعا من الجناس قائما على أساس الكلمة الفرنسية mal a propos بمعنى "غير مناسب"). وعلى أية حال كانت الكلمات التي تختارها مختلفة بشكل مروع ومؤذى عن الكلمات التي كان ينبغي أن تستخدمها. فقد وصفت ابنتها، مثلا، بأنها " عنيدة مثل قصة رمزية على ضفاف النيل " ويفترض أنها كانت تقصد التمساح وليس القصة الرمزية الأخلاقية التي كانت تحظى بالشعبية في العصور الوسطى (فقد استخدمت كلمة allegory، ومعناها قصة رمزية أخلاقية كانت نوعا من الدراما الشعبية في العصور الوسطى بدلا من كلمة alligator ومعناها تمساح). يجب أن تحترس من أى شخص يحاول أن يبيع لك أثاثا لشخص " شقى هزيل ".

وفى التناقض اللفظى المعروف باسم oxymoron، وهى كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية التى تعنى " حاد – بليد " توجد كلمة أو عبارة تناقض نفسها. وفى معظم الأحيان يأتى هذا المثال من التلاعب بالكلمات فى صورة تعديل لمعنى الاسم. وتحوز مسرحية روميو وجولييت على قصب السبق فى التناقض اللفظى بسبب الكثير من هذا التناقض الوارد فى سطر واحد من الحوار فى هذه المسرحية :

"O heavy lightness, serious vanity / O anything of nothing first created."

وما إلى ذلك. كان شكسبير أيضا متمكنا من الجناس، وفى المثال السابق كان على وعى تماما بما يفعله، ويحدث بعض التناقض اللفظى فى الاستخدام العام للغة، بشكل طبيعى مثل الزرنيخ، والسيانيد، أو الجمرة الخبيثة فى الطبيعة. ومن بين هذه التناقضات عبارات من قبيل: " أرضية أعلى "، و" طعام صيام "، و" زحام خفيف " و" حب قاس ". وهناك تناقض مقصود بين لفظين أو أكثر قد يكون تعليقا ساخرا، مثل " أخلاقيات العمل ". وقد يقول المرء إن مصطلحا مألوفا، أو عنوانا رسميا يحمل التناقض اللفظى الذى يحقق هذا التأثير مثل " الاسم الإنجليزى لوكالة المخابرات المركزية CIA " التى هى تناقض لفظى.

وما علاقة هذا كله بالكذب فى التاريخ؟ معظم المؤرخين مدرسون أيضا. وفى الفصل، يعتمد التاريخ كله على كذبة. ذلك أن الكلمات التى نقولها فى المحاضرات والكلمات الموجودة فى الصفحات، حتى مع الفرقعات والتغطيات، للكلمات التى تظهر على الشاشات، وحتى مع الصور المتحركة، ليست سوى تقديم ذى بعدين لعالم ذى أبعاد أربعة. إذ إننا نضع خريطة للواقع على مساحات مسطحة. فكيف يمكن لنا أن نجعل ذلك الرسم المسطح لواقع ذى أبعاد أربعة يبدو حيا؟ يجب أن نمرح، ونلوى حكايات التاريخ لكى نلوى ذيول طلابنا. وكما تشى أبواب مكاتبنا، فإننا لسنا بارعين فى الكوميديا، ولكن الجرعات الصغيرة من الجناس والتلاعب بالكلمات يساعد على ابتلاع دواء التاريخ الأكثر جدية.

وقد وضع جون أكستل، وهو باحث متفوق فى التاريخ ومدرس تاريخ مثير للإعجاب بكلية وليام ومارى، الأمر على هذا النحو: " ليست لمدرس

التاريخ وظائف مهمة اجتماعيا وتحمل تحديا مدنيا فحسب، ولكنهـا أيـضا وظائف ممتعة إلى حد كبير. وأود التأكيد على أن المقصود ليس تلك المتـع التى يستمتع بها المدرسين كافة، أيا كان تخصصهم، وإنما تلك المتع الخاصة بمدرسى التاريخ ". ويحتفظ أكستل بحيلة فى كمه لكى يشغل الطلاب فى هذا العمل " أما بالنسبة لأسلوبى التربوى والأدبى فهو مختلط ومركب يختلف من يوم لآخر، مثل أسلوب أى واحد غيرى، بسحب العمل الذى ينبغى القيام به. وهو يميل إلى السخرية الفطنة والمرح، وموالاة الشيطان - لأننـى اسـتمد معظم المتعة من ذلك. وهدفى بوصفى مدرسا أن أجعل نفسى مدرسا لا يمكن الاستغناء عنه ".

وقد أطلقت مجموعتا ريتشارد أرمور البارزتان عن الكلام التـاريخى الفارغ شرارة اهتمامى بالتاريخ الأمريكى بدرجة أكبر من جميـع كلمـات المدرسين الذين علمونى وكل الكتب التى قررها المدرسون فـى المدرسـة العليا. وكان كتاب أمـور المعنـون (It All Started with Columbus (1953 كتابا مضحكا يغص بالحماقة، غير وقور، وحافلا بالمعلومات بشكل غريب. لقد عرف أرمور تاريخه ولكنه رفض أن يأخذه بجدية: " كان البيض يخافون الهنود ذوى البشرة الحمراء واعتبروهم الشر الأول فى الغابات ". وتم إنقـاذ جون سميث عندما دخلت " ابنة الزعيم بوهاتان الشابة التى تفيض حيويـة. ولم نعلم ما الذى دخلت فيه ". وقد أرغم المهاجرون علـى طاعـة ملـوك إنجلترا وكان لابد لهم من أن يتدهوروا إذا لم يغادروا إنجلترا " لقـد صـار الرجال الأوائل الذين وطأت أقدامهم الشاطئ أجدادنا الأولين ".

لم يقصد أرمور التسلية فقط. فقد سرب الرسائل التى وجهها للقـارئ فى سياق الحكايات التى نشرها " كان الشتاء الأول باردا، وهـو مـا شـكل مفاجأة بالنسبة للحجاج [يقصد المهاجرين الأوربيين إلى أمريكا]. والواقـع

أنهم ربما لم يكونوا لينجون لولا الغلال التى أعطاها لهم الهنود الأصـــدقاء. وبمراوغة غريبة من التاريخ، صار إعطاء البيض الغلال أو الشيلم للهنـــود مخالفا للقانون ". ولم تكن مصادفة أن أرمور كتب فى ذروة الفترة المكارثية، عندما كان أى نقد للتاريخ الأمريكى أو القيم الأمريكيـــة يمكـــن أن يـــؤدى بصاحبه إلى أن يوضع فى القائمة السوداء أو ما هو أشد سوءا. لقد وفـــرت الفكاهة الغطاء السكرى للنقد الاجتماعي.

وبطبيعة الحال، ترتد علينا طرقنا فى استخدام الفكاهـــة فـــى الفـــصل لتطاردنا عندما يضيف الطلاب فكاهاتهم العفويـــة إلـــى محاولاتنـــا للمـــرح والمزاح. ففى ثلاثينيات القرن العشرين جمع ألكسندر أبيجدون ونشر ثلاثـــة مجلدات عن فكاهات طلاب التاريخ، ومـــن بينهـــا جنـــاس وزلات لـــسان وتناقضات لفظية، وألفاظ فى غير مكانها، عفوية ومبهجة فقـــد أكـــد أحـــد الطلاب بصورة مذهلة على أن للهند ثلاث ديانات رئيسية هـــى: البوذيـــة، والبراهمينية، وعبادة الأصنام (ولكنه استخدم كلمة idle التى تعنى كـــسول، بدلا من كلمةidol ومعناها صنم) ويميل المزيد من الممتحنين إلـــى الخطـــأ على طريقة مسز مالابروب. فقد كتب أحد الطلاب أن سقراط مات بـــسبب الزواج wedlock بدلا من أن يقول إنه مات بسم الشوكران hemhock. ربما فى إشارة إلى علاقته المريرة مع زوجته إكسانتى. وقام الـــسير فرنـــسيس ديريك بختان circumcised الكرة الأرضية، وهو بديل مؤلم وصعب لمأثرته الأصيلة فى الدوران circumnavigating حول الكـــرة الأرضـــية. ووضـــع الدستور الأمريكى لضمان العداوة الداخليـــة domestic hostility بـــدلا مـــن الهدوء والسكينة الداخلية domestic tranquility.

ولم يسلم تلاميذى شيئا لأسلافهم عندما يتعلق الأمر بالجناس العفـــوى الذى ينطقون به باستمرار. ففى أحد الامتحانات التى جرت من وقت قريب،

أصر أحد الطلبة على أن علامة أكيدة على القوى الشيطانية لأحد المشتبه بهم فى محاكمات السحر بمدينة سالم كانت " قدرته على الحديث بعـدة ألـسنة " (وكان المقصود عدة لغات). وثمة زميل له فـى الفـصل كتـب أن " آن هوتشينسون " المنشقة الدينية فى ولاية ماساشوستس زمـن الاسـتعمار قـد أدينت بتهمة الشائعات hearsay وكان يقصد أنها أدينت بالهرطقـة heresy. ومن الواضح أن رواية الحكايات والشائعات كانت جرما أشد من الهرطقـة عند هذا الطالب. وقد اعتقد طالب ثالث أن هوتشينسون كانت ربحـا profit حقيقيا، وهو يقصد أنها كانت عاهرة profligate حقيقية... وهى زلة قلم كان عالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر سيلقاها بالتقدير (لأنـه كـان يظـن أن المذهب البيوريتانى قد حفز الرأسمالية). والمؤرخون ليسوا فوق مثل هـذا الجناس، حسبما أوضح جون فردريك مارتين فى كتابه :

Profits in the Wilderness: Enterprneurshipand the Founding of New England in the Seventeenth Century 1991

وإنصافا للمؤلف لابد أن أقول إن الكتاب أفضل كثيرا من عنوانه.

والصوت الخافت الثابت الذى زرعه المنهج العلمى فى عقولنا يهمس "انتظر، انتظر، هذا ليس تاريخا. لأن التاريخ لايمكن أن يكـذب. " بيـد أن التاريخ ليس مجرد علم كما كتب المؤرخ الثقافى المتميز ستيوارت هـوفيس سنة ١٩٧٥م: " إن دراسة التاريخ تقدم برهانا حيا على الطبيعة التكاملية للفن والعلم ". والحقيقة أن التاريخ هو المجال الأكاديمى الوحيد الذى يتداخل فيـه الفن والعلم بلا انفصام. ويقول هيوجيس مرة أخرى: " إن الطبيعـة نـصف العلمية ونصف الفنية لممارسات المؤرخين تبرز بمثابة مـصدر للمعـضلة وصعوبة تفسير ما يفعله المؤرخون بالفعل لزملائهم فى المجالات الأخرى ". فلا يمكن للمؤرخ أن يحوز الفن بدون العلم أو العلم بدون الفن.

إن القفزات الفنية الت تتيح لنا أن نرى ما وراء الواجهة المشروخة لما نجا من عوادى الزمن مما كان موجودا منذ زمن طويل، إنهـــا الاصـــطناع الخيالى الذى يعيد ما كان قد ضاع، حيلة المنوم المغناطيسى لإحياء المـــوتى التى تنطلى على الطلاب وتسحبهم إلى داخل مؤامرتنـــا لهزيمـــة اســـتحالة التاريخ، وهذه الأفعال القريبة من الكذب جزء جوهرى من تدريسنا ودراستنا للتاريخ. إنها تساعدنا على تصوير ما قد كان عليه الجانب البعيد من الجسر الذى يوصلنا إلى الماضى. أما الأكاذيب الأخـــرى، والحقـــائق المخترعـــة، والمجادلات الزائفة، فلا ينبغى أن يكون لها مكان فى البحث العلمي، علـــى الرغم من أن المرء لو نظر يمكن أن يجدها فى غالب الأحيان.

(٦)

سياسات التاريخ والتاريخ فى السياسة

فى المغالطة المنطقية لرجل السياسة نخطئ لأننا نأخذ الناس على أنهم حيوانات سياسية لا تحركهم سوى الرغبة فى السلطة . وهذا ينزل بمستوى الحالة النفسية المركبة إلى مجرد أدوارهم السياسية ويقلص جميع حسابات التفاضل والتكامل الاجتماعية إلى مجرد مساواة بسيطة بين السلطة، والطموح، والمصلحة

دافيد هاكيت فيشر(١٩٧٠ م)

إن تحذير فيشر من مغبة النزول بدوافع الأشخاص السياسيين إلى دافع وحيد جدير باهتمامنا حقا، ولكن هذا التحذير يتعارض مع أصول مهنتنا. فعلى حائط أول قاعة استخدمت لتدريس التاريخ فى أمريكا، بجامعة جونز هوبكنز، توجد راية معلقة كتب عليها " التاريخ سياسة الماضى، والسياسة تاريخ الحاضر".

كان مدرس التاريخ " هربرت باكستر آدامز " الذى كان قد عين منذ فترة قريبة فى جامعة جونز هوبكنز، قد استعار هذه العبارة من المؤرخ الإنجليزى " فريمان"، لأنها عبارة كانت تجسد مفهوم آدامز وأبناء جيله عن

القصد من دراسة التاريخ. ذلك أنهم كانوا جميعا قد شهدوا أهوال الحرب الأهلية الأمريكية. فهل كان مؤكدا أن السياسيين فى خمسينيات القرن التاسع عشر قد نسوا دروس الماضى الحيوية؟ وكان لابد لحملة الدكتوراه الذين تخرجوا من الحلقة الدراسية (السيمنار) الذى أشرف عليه آدامز لينضموا إلى هيئة التدريس بالكلية أن يمرروا دروس التاريخ الصحيحة إلى تلاميذهم، قادة الوطن فى المستقبل. كان الأمر بهذه البساطة.

كما أنه كان على هذا القدر من الأهمية. ففى سنة ١٨٨٦ م، قال جورج بانكروفت، الذى ظل أشهر المؤرخين الأمريكيين وأكثرهم احتراما طيلة ما يقرب من نصف قرن، أمام أعضاء الجمعية التاريخية: " إن غاية المهنة التى نمتهنها واحدة من الغايات العظمى التى استرعت انتباه الإنسان. إذ تبدو حركة الدول فى شد تتابعى دائم وكأنها جيوش للغاية، بحضاراتها المختلفة يسيرون تحت راياتها؛ وقد تلاشوا بأنفسهم من المشهد، وبحياتهم، وبإسهاماتهم الباقية التى أضافوها إلى جملة المعرفة البشرية التى قدموها للجنس البشرى على فترات استغرقت قرونا من الزمان، وكلها تدخل فى نطاق مهنتنا ". رجال عظماء، وأفكار عظيمة، ترتبط سويا فى صعود الدول وسقوطها، تلك هى الموضوع المناسب والصحيح للتاريخ.

كان صعود المهنة الجديدة للمؤرخ منظورا متوهجا، واجتذبت إلى برامج الدراسات العليا فى جامعة جونز هوبكنز بعضا من أفضل العقول الشابة فى البلاد. ولكن حتى بينما كان الالتحاق بالدراسات العليا يتزايد، كان بعض الطلاب يجدون تعريف التاريخ والسياسة محصور جدا. ومع بداية القرن الجديد، وبعد أن وطد أوائل الخريجين أوضاعهم فى مهنة التدريس، كانت الدعوة إلى التاريخ الاقتصادي، والتاريخ الاجتماعي، والتاريخ الثقافى عالية بالقدر الذى يشغل بال مؤسسى المهنة.

كان جورج بورتون آدامز، رئيس الجمعية التاريخية الأمريكية، قلقـا. ففى سنة ١٩٠٨ م أخبر أعضاء الجمعية: " بعد ثلاثة أرباع القرن من امتلاك مجال دراستنا بلا منازع، فى أثنائها فازت إنجازات المـؤرخين الـسياسيين باستحسان العالم، ويدورالآن التساؤل عن حقنا، ومناهجنا، فى هذا المجـال، كما تتعرض أفكارنا للعدوان ويتم القذف بنا إلى مواقع الدفاع فى العديد مـن النقاط ". ترى من كان البرابرة الواقفون على الأبواب؟ إنهم جحافـل مـن علماء السياسة، والاقتصاد، والجغرافيا، والاجتماع، وعلم النفس؛ وقد جلبـوا معهم نظريات جديدة، واتجاها صوب التفكير التأملي، وطاقة الـشباب. فمـا الذى ينبغى عمله لصد هذا الغزو؟ حسنا، ربما كانت " كل محاولة لتوحيـد القديم والجديد، لإيجاد أرضية مشتركة لجميع الذين فيما هو عملهم المشترك حقا، ويجب أن يحصلوا على المساندة القلبية من جميع المؤرخين. وسـوف نكتشف من جانبنا أن الرجال الذين يحاولون هذا من الـشباب فـى معظـم الأحيان ".

وصار بعض تلاميذ هربرت باكستر آدامز ممن اتجهوا نحو " التاريخ الجديد ". وقد أصبح أحدهم، وهو فريدريك جاكسون تيرنر، رئيس الجمعيـة التاريخية الأمريكية فى سنة ١٩١٠ م، وقال لأعضاء الجمعية: " إن التحول الذى تمر به الولايات المتحدة فى أيامنا عميق وشامل للغاية، بعيـد المـدى، لدرجة أنه ليس من المبالغة أن نقول إننا نشهد ميلاد أمة جديدة فى أمريكـا. إن الثورة فى البناء الاجتماعى والاقتصادى لهذه البلاد فى أثنـاء العقـدين الأخيرين يمكن مقارنتها بما حدث عند إعلان الاستقلال ووضع الدستور، أو بالتغيرات التى انطلقت منذ نصف قرن مضى، زمن الحرب الأهلية وإعـادة البناء ". ولم تكن القوى الحاسمة سياسية بالمرة، ولكنهـا كانـت اجتماعيـة واقتصادية. وكما كتب هارى بالمر بارنيز فى كتابه الذى يحمل عنوان :

(The New History and the Social Siences 1922) " إن حقيقـة أن أتباع التاريخ التقليدى القديم يشعرون بأنهم مضطرون إلـى التوقـف عـن الاستهزاء بإسهامات المؤرخين الأكثر تقدمية وحداثة... ذات أهمية فائقة ".

لم يعد التاريخ سياسة الماضى ببـساطة - ولكنـه صـار سياسـات المؤرخين، وهو موضوع مختلف تماما. ومثلما أظهر النزاع فيما بين التاريخ القديم والتاريخ الجديد عند نهاية القرن العشرين، لم يكن من الممكن فـصل سياسات عمل المؤرخين عن المؤرخين الذين يكتبون عن السياسة. والأسـوأ من هذا، أن عملنا يمكن أن ينتشر على أيدى السياسيين الشغوفين بأن تكـون سلطة التاريخ رهن إشارتهم.

سياسات المؤرخين

كما هو الحال فى أى تجمع للناس، طور علم التاريخ سياسات خاصة به، وحدثت به التـصدعات بفعـل المنافـسات الشخـصية، والمنازعـات الإيديولوجية وقصص الرعب فى المراجعات الدنيئة للكتـب، وسـيمنارات الدراسات العليا المتشددة، وغيرها من المذابح. وبعض هذه الخلافات الأصلية حول اتجاه المهنة ومحتوى تاريخنا. ذكرت فى Past Imperfect فى ستينيات القرن العشرين الذى صارت السياسة حربـا مفتوحـة، خـرج جيـل مـن المؤرخين الشباب من الدراسات العليا مشحونين بطاقة عاطفية مـن أجـل حقوق متساوية للأقليات والنساء وطالبوا الدوائر الأكاديمية بأن تنفتح أمـام الإصلاح. وقد دعوا إلى تاريخ جديد، وكتبوه هم أنفسهم، شـاملا، مختلفـا، يتسم بالنقد الذاتي. وحسبما كتب وارين سوسمان، أحد هـؤلاء " المـؤرخين الجدد "، سنة ١٩٦٤م " غالبا ما يستخدم التاريخ أساسا للفلسفة السياسية التى

تفسر الماضى على حين تقدم أيضا الطريقة لتغيير المستقبل. وهكذا يعمل التاريخ بشكل إيديولوجي. بيد أن طبيعته الخاصة ونوع المجتمع الذى يطلبه تجعل من غير الممكن أن يكون التفسير التاريخى قيد الاحتكار على نحو فعال لوقت طويل من جانب أية طبقة أو جماعة خاصة ".

ومثلما كانت أمريكا فى ستينيات القرن العشرين مختلفة اختلافا شاملا عن أمريكا فى كل الأزمنة السابقة، كان لابد لكتابة تاريخها أيضا أن تعكس الانفتاح الجديد والتنوع الثقافى فى المجتمع وفى الثقافة. لقد صار " كل إنسان " على حد تعبير بيكر مؤرخا حقا. وكان للتاريخ الجديد كذلك أن يحدد ملامح نزعة تشاجرية، والشك فى الميل لإرضاء رغبة العامة فى البطولة والأبطال، والإقبال على تعقيد منهجى يضع المؤرخين الجدد فى مواجهة بعضهم البعض، ويجعل الحركة ضد المؤرخين والمدارس التاريخية الأشد ارتباطا بالنزعة التقليدية.

وإذ تمرس الأعضاء الأكثر تقليدية فى المهنة داخل أقسام التاريخ وهيئات التحرير فى المجلات التاريخية الكبرى، فإن تصرفات رفاقهم الأصغر سنا الشاذة والهزلية لم ترق لهم. وأحد هؤلاء المتمسكين بالتقاليد، وهو دافيد دونالد الأستاذ فى جامعة جونز هوبكنز، حكم بأن التاريخ الراديكالى لم يكن " يتمتع بالاستمرارية الكافية التى تجعله يستحق الاعتبار المتواصل على صفحات مجلتنا المهنية الكبرى ". ومع هذا، فإنه كان متسامحا بالطريقة التى يتسامح بها الأب مع طفل مشاكس :" هنا، إذن، توجد أصوات اليسار الجديد – ومعظمهم ليسوا يسارا ولا جديدا... إذ إن المهنة التاريخية قد أولت بالفعل لهؤلاء الكتاب اهتماما فاق ما يستحقونه ". ومن ثم، " دعوهم... ينتهون من مرثياتهم الفاجعة لأن " بنية السلطة " فى المهنة التاريخية تتجهلهم ".

ويستمر الصراع داخل المهنة من أجل السيطرة على جدول الأعمال، مع الأولاد المارقين كالحى الوجوه من اليسار الجديد الذين يسيطرون الأن بقوة على هيئات التحرير ولجان البرامج الكبرى للمهنة. وقد زعم المؤرخون العسكريون والسياسيون المحافظون أن المؤرخين الاجتماعيين والثقافيين "المناسبين سياسيا" يستولون على المنظمات المهنية، مما نتج عنه انحراف برامج المؤتمر القومى انحرافا غير عادل. وبعض الؤرخين، من أمثال مارك تراتشنبرج، اتهموا الجمعية التاريخية الأمريكية نفسها بأنها صارت "مسيسة". ووافق على ذلك إيوجين جينوفيسى، وهو مؤرخ يسارى بارز كان قد انتقل إلى أقصى اليمين. وكانت الجمعية التاريخية الأمريكية " متخصصة محترفة، بيروقراطية، وملتزمة سياسيا ". وقد أدى الطلب على مزيد من الدراسات عن العرق، والطبقة، والنوع، إلى استبعاد المجالات الأخرى، " وهو مايشبه المكارثية التى استشرت فى خمسينيات القرن العشرين بشكل غير مريح. إنها مفروضة من قبل شلل تتولى الآن الرئاسة بحيث جعلت الانصياع الإيديولوجى المعيار الأول لتولى المناصب ".

ومن الواضح، أن المؤرخين كانوا يعبرون الخط الفاصل ليدخلوا مجال السياسة Politics بحرف P كبير. كانت هناك الكثير من السوابق. فالمؤرخون الأوربيون فى القرن التاسع عشر، من أمثال جوليس ميشيليه فى فرنسا، وليوبولد فون رانكه فى بروسيا، وجورج بابينجتون فى إنجلترا، كانوا جميعا من المدافعين عن عن الدولة القومية، ولم يكن مستغربا أن يدافعوا عن بلادهم. وقد جادلوا على التوالى بأن التاريخ أدى بصورة مباشرة إلى أمجاد فرنسا (الثورة الفرنسية)، وبروسيا (والشعوب التيوتونية) وإنجلترا (خاصة نظام الحكم البرلمانى) وقد ضم بارنز هؤلاء العمالقة وغيرهم فى كتابه The New History مع غيرهم من المؤرخين فيما أسماه " مدرسة

التاريخ السياسى والقومى ". لقد كان التصنيف دقيقا، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا أن فون رانكه شغل وظيفة المؤرخ الملكى فى بروسيا فى سنة ١٨٤١ م، وأن ماكولى كان عضو البرلمان. وكان المؤرخون فى بواكير القرن العشرين أكثر حرفية وكنهم بدوا كما لو أنهم قد تزوجوا القومية. إذ إن مارك بلوك، مثلا، كما قالت كاتبة سيرته كارول فينك، كان يعتقد أن " التريخ موضوع سياسى ".

وفى الولايات المتحدة، لم يكن أكثر مؤرخى القرن التاسع عشر نفذا وشعبية، جورج بانكروفت، مجرد واحد من المحتفين بصعود الولايات المتحدة ولكنه كان سياسيا ديموقراطيا، وتولى عددا من المناصب السياسية. وكان خليفته فى القرن العشرين باعتباره أبرز المؤرخين الأمريكيين (إذا ما كانت ثلاث جوائز بوليتز وجائزتان قوميتان للكتاب مقياسا للعظمة)، وهو آرثر مبير شليسينجر قد كتب مؤرخة عن رئاسات كل من أندرو جاكسون، وفرانكلين ديلانو روزفيلت، وجون كينيدى، كما خدم فى إدارة كينيدي. لقد كان شليسينجر يعرف كل من كانت لهم أهمية ويبدون فى الوقت الصحيح وفى المكان الصحيح الذى يجعله يرى السياسة وهى تصنع. فعلى سبيل المثال، كان ترومان، وهو يغادر البيت الأبيض، " مبتهجا للغاية، نظيفا، مهندما ". فقد كان شليسينجر يشعر بالمودة دائما تجاه ذلك المحارب العجوز الشرس. وعندما دخل جون كينيدى سباق الرئاسة، كان " موضوعيا فى ملاحظاته، وعلى استعداد دائم للنظر إلى مصالح الآخرين ". واستحوذ الإعجاب بهذا الرجل على شليسينجر وانتابه الأسى بسبب " الهجمات الوضيعة أخلاقيا والمريرة " التى شنها من كتبوا سيرة جون فيتزجيرالد كينيدى.

كانت سياسات التاريخ وسياسات المؤرخين أمرين متصلين لا انفصال بينهما بالنسبة لشليسينجر. وقد رثى شليسينجر فى كتابه The Vital Center كون " الرجل الغربى فى منتصف القرن العشرين متوترا، مزعزع اليقين، يسير مع التيار. إننا ننظر إلى حقبتنا باعتبارها زمن المتاعب، وعصر القلق. إن الأرض التى تقوم عليها حضارتنا، وقناعتنا، تتفسخ تحت أقدامنا. وتتلاشى الأفكار والمؤسسات المألوفة عندما نصل إليها، مثلما تتلاشى الظلال وقت الغسق ". لقد كان واجب المؤرخ باعتباره مواطنا أن يعمل فى سبيل إنقاذ البلاد من أنفسنا " إن هدفنا واضح. إذ يجب علينا أن ندافع عن مجتمعنا ونقويه ". هذا فعل سياسي واضح بقدر وضوح الطرح الأكثر تواضعا لرأيه فى كتاب آخر " لقد بات من واجب المجتمع الحر أن يجيب على هذه الأسئلة... ذلك أن صعود دولة الرفاهية الاجتماعية تعبير عن الإحساس بالواجب "

كانت تلك الدولة والالتزام بسياستها (فى سنة ١٩٤٩ م) تتضمن " التعبير عن سلطات الحكومة ". وكان هذا بالنسبة لشليسينجر يعنى بالتالى أن روزفلت وهارى ترومان كانا نموذجين أفضل لأمريكا من من الجمهوريين المحافظين الذين ينتقدون الخطة الاقتصادية الجديدة. ورد شليسينجر على أولئك الذين انتقدوا آراءه سنة ١٩٩٦ م بقوله: " أنها لوظيفة تقترب من حد الخطر أن تكون مؤرخا. ويبدو أن العامة لديهم القليل من المحرمات بشأن إصدار الأحكام على ما يجرى داخل جماعة المؤرخين ".

فى العقود القليلة الماضية، نشبت مجادلات أخرى حول أدوار المؤرخين فى الأحداث العامة. وفى مناسبة الذكرى الأربعمائة لوصول أسطول كولومبس الصغير إلى المياه الأمريكية؛ عندما اقترح متحف سميثسونيان للطيران والفضاء أن يفتتح عرضا عن Enola Gay ونهاية

الحرب العالمية الثانية فى المحيط الهادى؛ وقد ولول الناقدون احتجاجا على إسهام المؤرخين فى الجدل حول جريمة الرئيس بيل كلينتون. وكتب محرر الوول ستريت جورنال أن " الأكاديميين لم يكونوا قادرين على رؤية التاريخ الأمريكى على أنه شىء آخر غير كتالوج تعس للجرائم والأعمال العدوانية ضد شعوب الأرض التى لا حول لها ولا قوة " وحذرت الواشنطون بوست من أنه يجب عمل شىء ما لمواجهة " مماحكة المؤرخين المكرسين لتحطيم المعنويات الوطنية ".

عندما يستغل السياسيون التاريخ

إذا كان المؤرخون قد فقدوا موضوعيتهم أحيانا (أو أنهم ببساطة رفضوا مفهوم الموضوعية) فى منازعاتهم ضد بعضهم البعض، فإن السياسيين الذين يستغلون التاريخ لديهم سجل لا يحسدون عليه. ويحكى آلان سبيترز قصة أحد المشهورين بوضع الخطط الخائبة. ففى سنة ١٩٨٥ م، وبناء على دعوة المستشار الألمانى هيلموت كول، أعلن الرئيس الأمريكى رونالد ريجان أنه سوف يزور ألمانيا. وكانت المناسبة هى الذكرى الأربعين ليوم النصر فى أوربا، وهو وقت مناسب لتذكير الناس بملايين القتلى من الرجال فى الجيوش، ونهاية " رايخ الألف سنة " الذى أراد هتلر بناءه، واغتيال أعداد لاتحصى من المدنيين الأبرياء فى معسكرات الموت الألمانية.

بيد أن ريجان كان فى حال من التسامح والنسيان. وكان على قائمة الأماكن التى تم التخطيط لزيارتها ضمن البرنامج، وبناء على اقتراح من كول، المقبرة العسكرية فى بيتبرج، التى دفن بها رجال قوات العاصفة الألمانية، مع آخرين. ولم يختر زيارة الأماكن الأخرى التى اقترحها كول، مثل معسك التجميع فى دخاو. وعندما اندلعت عاصفة من الاحتجاجات فى

جميع الأوساط السياسية بالولايات المتحدة ضد الرحلة المعلنة، تحول ريجان إلى التاريخ ليفسر اختياراته. وقال إن السبب هو أن " الشعب الألمانى به عدد قليل جدا من الأحياء الذين يتذكرون الحرب، ومن المؤكد أن لا أحد منهم كانوا بالغين وشاركوا بأية طريقة فى الحرب، ويشعرون بالذنب ". وليس من الضرورى أن نفرض عليهم المزيد من ذلك الذنب.

كان تاريخ ريجان انتقائيا بشكل غريب. إذ كان الناس الذين فى عمره قد خاضوا غمار الحرب. وربما يكونون قد شاركوا أيضا فى " الحل النهائى " للمشكلة اليهودية. وعلى أية حال، استمر ريجان ليقول إن الشعب الألمانى كان ضحية أيضا، فقد تم إقناعهم بالمشاركة فى " الشر الفظيع الذى بدأه رجل واحد. لقد كان جميع العسكريين أبطالا ضحوا بحياتهم دفاعا عن معتقداتهم. وقد آن أوان التصالح والنسيان بصورة واضحة ".

ولم يكن ريجان دقيقا فى تاريخه. إذ كانت أجزاء منه متهافتة، وأجزاء أخرى مصطنعة، وأجزاء غيرها تبسيطا مخلا. وربما كان ريجان فقيرا فى معلوماته، حسبما ألمح ناقدون فيما بعد، أو كان بلا إحساس. ولكن التفسير الأكثر بساطة أن ريجان أراد وجود ألمانيا غربية قوية تكون حليفا لنا فى أوربا، لتكون متراسا ضد السوفييت. . وكان هذا هو العرض نفسه الذى قدمه المتآمرون ضد هتلر إلى الحلفاء سنة ١٩٤٤ م. لقد كان هذا أساس سياسة الولايات المتحدة تجاه إعادة بناء ألمانيا الغربية بعد الحرب. وإذا نظرنا إليه فى سياق التاريخ العسكرى والدبلوماسى للحرب الباردة، فقد كان التريخ الذى ذكره ريجان عن الحرب استرضاء للرأى العام الألمانى المحافظ. كان انتهاكا للحقيقة والتفسير، بيد أنه لم يكن خروجا على المألوف النمطي. كانت بيتبرج حالة مرئية جدا لظاهرة أمريكية قديمة جدا – البناء الخاطئ عمدا للمعانى التاريخية بقصد تحقيق أهداف سياسية.

والتاريخ السياسى الأمريكي، القريب منه والبعيد، متخم بحالات الاستغلال السيئ للتاريخ من جانب حزب أو آخر من أجل غايات وطنية. فعندما كانت أول الأحزاب الوطنية - الفيدراليون أتباع ألكسندر هاميلتون والجمهوريون أتباع جيمس ماديسون - يقاتلون بالفعل فى تسعينيات القرن الثامن عشر، اتجه كل من الرجلين إلى التاريخ القريب لكى ينسجا رسالة كل من حزبيهما. وبالنسبة للإيديولوجية السياسية التى ورثها الثوار عن إنجلترا، كانت الأحزاب السياسية الموجودة فى أفضل أحوالها عبارة عن جماعات تدافع عن مصالحها الخاصة، وفى أسوئها عبارة عن عصابات تآمرية. فكيف كان يمكن تجاوز هذه العقبة؟ إن الأسماء نفسها التى اتخذها كل من هاميلتون كانت توظيفا للتاريخ. ومن المفترض أن الفيدراليين كانوا الأصدقاء الحقيقيين للدستور، لأن الحزب الفيدرالى كان هو حزب التصحيح سنة ١٧٨٧ م وسنة ١٧٨٨ م. وكان كل من عارضهم (مثل ماديسون) عدوا للدستور فى نظرهم. ولم يكن يهم أن آراء هاميلتون قد أغضبت المندوبين المبعوثين إلى المؤتمر الدستورى سنة ١٧٨٧ م لدرجة أنه عاد إلى وطنه بعد أن عبر عنها، أو أن آراء ماديسون ستكون جوهر الوثيقة الجديدة. وقد زعم الجمهوريون أنهم الورثة الحقيقيون الوحيدون للثورة الأمريكية. وهكذا يضعون خصومهم فى موقع أنصار الملكية المتحولين. ولم يكن يهم أن يكن الفيراليون جميعا، وحتى هاميلتون نفسه، يؤمنون بالنظام الجمهورى فى الحكم، وأن كثيرين، مثل هاميلتون، قد خاطروا بحياتهم فى الحرب الثورية.

وعندما قاد " آكلوا النار " فى كارولينا الجنوبية الدولة صوب الانشقاق بعد انتخاب لنكولن فى نوفمبر سنة ١٨٦٠ م، لم يترددوا فى اتهامه بخلط الأجناس طوال حياته. وقد دوت الرسالة فى جميع أرجاء العمق الجنوبى وساعدت الانفصاليين فى مسعاهم لخلق دولة كونفيدرالية. وكانت

لحزب لنكولن الجمهورى رسالته الخاصة؛ نفور من التوسع فى الرق ترجع جذوره إلى تاريخ من من شرور الرق اجتذب جميع أصوات الناخبين فى الشمال لصالح لنكولن. وقد استخدم كل من الجانبين شذرات وقطعا من التاريخ - اقتباسات وخطبا انتزعت خارج سياقها، مثلا - لإضفاء الحجية على المجادلات السياسية بقوة الحقيقة التاريخية. ومع اتباع كلا الجانبين المنطق فى رسالة كل منهما، كان من المستحيل الوصول إلى حل وسط. وبعد فوات الأوان، حاول لنكولن أن يستخدم الفرامل، وأعلن أسفه فيما بعد " لأن الجميع عانوا الهلع من الحرب، وسعى الكل إلى تفاديها " ولكن " الحرب جاءت ". لقد كان هذا تاريخا سياسيا فى كبسولة وأنكر، بالفعل، أخطاء جيل كامل من الساسة.

وربما ينبغى على المرء ألاَ يرثى لسوء استغلال التاريخ على أيدى الساسة. ذلك إن السياسة هى فعل كسب السلطة وممارستها، تبرهن فيه الحكمة القديمة " السلطة مفسدة " نفسها مرات ومرات. ومثلما يقول لورنس ستيرن لقرائه فى كتابه Tristram and Shandy: " مثلما تتسبب اضطرابات سوء الهضم، والمشاعر الكئيبة، فى اضطرابات الدم وتعكير المزاج وغيرها من التأثيرات السيئة، فإننى أرى فى الجسد السياسى - مثل الجسد الطبيعى - أنه لا شيء يمكن أن يتحكم فى تلك المشاعر بالكامل ويخضعها للعقل سوى اعتياد الفضيلة ". إن جرعة كبيرة من التاريخ سوف تبدو أنها العلاج الصحيح لفساد السلطة. ولكن أكثر استعراض إيجازا لكيفية استغلال الساسة للتاريخ يحذرنا من أن فلسفة التاريخ العملية - وهى هدفنا فى هذا الكتاب - يجب أن تحدد الصفة العملية بطريقة مختلفة عن طرق الساسة وكتبة الخطب.

يظهر التاريخ القريب أن الساسة قد باتوا هم أساتذة الـضرر والأذى الناجم عن استخدام الشذرات والقصاصات التاريخية. شـذرة مـن حكايـة تاريخية، وتعميم مفيد فى الموضوع، واقتباس أو اثنين خارج السياق يضفيان على بلاغة السياسى قدرا من الرشاقة والجاذبية. وهم يختارون هذه الـشذرة من الأدلة أو من قصة سوف تقطع مجادلة الخصم على أفضل شكل وتجعله يبدو أحمقا مغفلا. وإذا كان تقطيع المنط التاريخى لا يمضى بعيدا، فهل يمكن لفلسفة تاريخ صالحة أن تقدم معيارا بديلا؟ وإذا استطعنا أن نجد طريقة مـا لكبح جماح هذه الرغبة الملحة لاستغلال التاريخ، فإننا يمكن أنسهم إسـهاما مهما آخر فى فى فلسفتنا للتاريخ.

والحقيقة المحزنة أنه ليس على المرء أن يمعن النظر لكى يجد الأمثلة نفسها عن تقطيع المنطق السياسى الذى يسيء استخدام التاريخ. فكـر فـى السؤال الزائف وتوأمه السؤال الموجه إلى عواطـف المـرء ad hominem وليس عقله، وكذلك المغالطة المنطقية عن خيـال المآتـة. وفـى الـصيغة السياسية من السؤال الزائف، يسأل المرء ببساطة سؤالا عن خصمه، ومـن المفضل أن يلطخه بطريقة لا يمكن محوها أبدا(*). وقليل من التاريخ يجعـل

(*) لا يمكن أن يكون هذا الكلام يمت للفكر التاريخى بأية صلة؛ أنه وصفة شريرة للكذب والافتراء. وبغض النظر عن الناحية الأخلاقية، فإنه من غير الممكن قبوله فى سياق ما يزعمه المؤلف من أنه يبحث عن فلسفة تاريخ " صالحة لزماننا " على حد تعبيره. هذا نوع غريب من الكتابة فى مجال التاريخ أو الفكر التـاريخي. وسـوف يلاحـظ القارئ فى فصول هذا الكتاب أن مؤلفه يتحدث عن كل شيء تقريبا ما عـدا الفكـر التاريخى الحقيقي، أو تاريخ الكتابة التاريخية. وعلى الرغم من عدم رضـائى عـن المستوى الذى يعكسه كلام المؤلف، فقد رأيت من المفيد أن يتعـرف القـارئ علـى نوعية من الكتابة (التى يزعم أصحابها أنهم يكتبون فى التاريخ) لأنها ببساطة تـشى بالسطحية والسمة التجارية التى تتسم بها معظم الكتابات الأمريكية. والحقيقة أن هناك فرقا شاسعا بين الكتابات الأوربية والكتابات الأمريكية فى العلم التاريخي. (المترجم)

التاريخ يجعل التجريح يلتصق بالشخص المقصود "هل توافق خصمي مع العدو؟ سوف نرى فى الحال". ولأن الذى يقوم بعملية التقطيع المنطقى لا يلقى بيانا إعلانيا، ولكنه يصيغ الإهانة والتلطيخ، الذى يكون استهزاء سخيفا فى غالب الأحيان، على شكل سؤال، فلا يمكن لأحد أن يذمه بأى شكل من الأشكال. وعلى كل حال، كان سؤالا، ونكون نحن السامعين أحرار فى تكوين رأينا الخاص.

فبعد أن قتل آرون بيرت قائد الحزب الفيدرالي، ألكسندر هاميلتون، فى مبارزة، شن الفيدراليون حملة سب وقدح ضد بيرت. وقد تتبعت جريدة الحزب الفيدرالى المسماة Gazette of the UnitedStates رحلات بيرت فى الغرب بسؤال زائف بعد الآخر. " كم سيمضى من الوقت قبل أن نسمع عن أن الكولونيل بيرت كان على رأس حزب ثورى فى المياه الغربية؟... متى ستكون القلاع والمخازن وغيرها من المواقع العسكرية فى نيو أورليانز، وعلى ضفاف المسيسيبى فى أيدى الكولونيل بيرت وحزبه الثوري؟ " لاحظ كيف أن الفكرة الأولية صارت حقيقة فى فكرة المحرر النهائية. لقد أدت تخمينات الجريدة إلى بث الشائعة، والنميمة، ثم الاتهام بأن بيرت قد تآمر لحرمان الولايات الغربية من الانضمام إلى الولايات الثلاث عشرة. وعندما حوكم بتهمة الخيانة أمام محكمة فيدرلية، برأته المحكمة، ولكنه لم يتول أى منصب عام بعد ذلك. لقد أدى السؤال الزائف مهمته.

ويمزج السؤال الزائف مابين معادلة السؤال المشحون، والهجوم الموجه صوب المشاعر البشرية، وعبارة ad hominem (ومعناها الحرفى "ضد الإنسان") تتجاهل الحقيقة أو الزيف فى خصمك وتسعى وراءه مباشرة: "من أنت حتى تقول ذلك؟ ليس لك الحق فى أن تأتى إلى هنا وتقوم بهذه المجادلة؟". وقد يتم شن مثل هذه المجادلة على مؤهلات المتحدث ("طبعا

نحن نتوقع منه أن يدافع عن موقفه لأنه...) أو أنه لا علاقة لـــه بالـــسؤال المطروح (هل تعرف أنه...) وفعالية الهجوم ضد الشخص مـــستمدة مـــن إلغاء مصداقية الخصم. وعندما أراد السناتور جون كالهون النائب عن جنوب كارولينا أن يمنع الالتماسات ضد الرق فى الكونجرس سنة ١٨٩٦ م، قـــال لزملائه: " نحن الممثلين لاثنتى عشرة من هذه الولايات ذات السيادة الـــذين شنت ضدهم هذه الحرب المميتة، يتوقعون منا أن نجلس هنا فـــى صـــمت، نسمع أنفسنا وناخبينا يوما بعد يوم توجيه الإدانات... ومع اتساع انتشار هذه الروح المثيرة للفتنة، فإنها لم تصدر عدواها إلـــى المجلـــس بعـــد، أو إلـــى الجمهور الكبير الذين يمثلون الجزء الذكى العامل فى الشمال؛ ولكن ما لم يتم وقفها على وجه السرعة، فإنها سوف تستشرى وتتصاعد حتى تزج بالفريقين الكبيرين فة الاتحاد فى أتون صراع مميت ". وهكذا، لتكون هناك حاجة إلى قراءة قضية دعاة تحرير أو التفكير فيها.

وثمة صيغة كريهة من السؤال الزائف تعتمد على خطأ ســـخيف فـــى جملة طويلة لكى تحذف بقية الجملة، دون دحضها. وأنا أســـميها صـــيغة " الغلطة الصغيرة " من السؤال الزائف، وتمضى على هـــذا النحـــو :" كيـــف يمكننا أن نصدق بقية ما تقوله وقد أخطأت فى تهجى اسم القاعدة فى الفقـــرة الأولى؟ هذا سؤال زائف لأنه لا يتعامل مع بقية الجملة، وهو أقل كثيرا من أن يقدم دليلا أو مجادلة لتفنيد الجملة. كلما زاد الحنق والرفض مـــن جانـــب الذى يقطع المنطق بشأن الغلطة الصغيرة، كان من الأسهل عليه أن يتجاهل بقية الرسالة.

وقد وجد أحد خبراء الإعلام أن الكاتب جيل شيبى قد عثر فى إحـــدى المناسبات على خطأ فى سن الرئيس بيل كلينتون (سنة واحدة) فى ســـيرة

هيلارى كلينتون التى تحمل عنون Hillary's Choice. وقد نفخ هذا الناقد فى الخطأ وزعم أن بقية خارجة عن التصديق، لأن المؤلفة وقعت فى هذا الخطأ، فما الأخطاء الأخرى التى وقعت فيها المؤلفة؟ ولو أن مستشار الرئيس السابق للأمن القومى ريتشارد كلارك أخطأ فى أسباب القبض على أحد الإرهابيين، فهل كان ذلك يقوض مصداقية كتابه Against Enemies؟ ستكون الإجابة، نعم، بانسبة لأى ناقد. إن الحذف بسؤال زائف يقوم على أساس غلطة صغيرة فى الحكاية التاريخية التى يرويها المؤلف.

ولكى أكون صريحا، كنت ضحية لسؤال زائف على أساس من الغلطة الصغيرة. ففى مراجعة لكتاب كتبته عن انتفاضة العبيد سنة ١٧٤١ م بمدينة نيويورك؛ ولاحظ الذى كتب العرض أن هناك خطأ رقميا فى عدد العبيد الذين ذكرت أنهم عاشوا فى المدينة وعملوا بها. فقال إذا كنت قد وقعت فى هذا الخطأ، فكيف يمكن لأحد أن يثق فى بقية الكتاب؟ والحقيقة أن من عرض للكتاب كانت له مشكلة أشد خطورة بشأن تفسيري. فقد ظن أن الرق يمتد بأصوله إلى العنصرية. وكنت وما زلت أظن أن أصول الرق تكمن فى الحاجة إلى عمالة رخيصة ومستعدة. ولكى يقوض مجادلتى دون أن يشتبك معها مباشرة، ركز على الغلطة الصغيرة.

ويمكن لمن يقطع المنطق إذا كان داهية أن يستخدم رجلا وهما لكى يسىء استخدام الأمثلة التاريخية. والرجل الوهمى خيال مآتة، وحشى المنظر من بعد، (بالنسبة للغربان على الأقل) ولكنه عن قرب مجرد ملابس قديمة محشوة بالقش - لا يمثل خطرا على الإطلاق. و يمكن لمن قع المنطق إذا كان مستعدا للعمل قليلا أن يبنى خيال مآتة من تنويعة من الشذرات والنتف التاريخية. ثم يأخذ السياسى خيال المآتة بدلا من متابعة المجادلات التى قام بها خصمه فعلا. بيد أن خيال المآتة لا يشعل صراعا قط لأنه لا يستطيع. إنه مصنوع من القش.

فى المناقشات بين السناتور الديموقراطى ستيفن دوجلاس، نائب اللينوى، ومنافسه الجمهورى إبراهام لنكولن سنة ١٨٥٨ م، قام كل من الاثنين بحشو خيال المآتة وضربه. ولأن دوجلاس الذى لم يكن مناقشا وضيعا شتت بضرباته توجهات لنكولن المفروضة لإلغاء الرق، وجعل القش يتناثر خارجا. وكما أقام دوجلاس وليمة كلامية لمستمعيه فى الجولة الأولى من المناظرة فى ١١ أغسطس سنة ١٨٥٨ م:

" فى سنة ١٨٥٤ م دخل مستر إبراهام لنكولن ومستر ترومبول (السيناتور النائب عن اللينوى) فى ترتيب يجمع أحدهما مع الآخر، ومع كل منهما أصدقاؤه، لحل حزب الهويج القديم بيد، ولحل الحزب الديموقراطى القديم باليد الأخرى، وأن يدمجا الحزبين فى حزب واحد يدعو إلى إلغاء الرق تحت اسم الحزب الجمهورى والتخفى وراءه... وكان على لنكولن أن يجلب من معسكر الهويج القدامى الداعين لإلغاء الرق، وينقلهم إلى جانب، يوشع جيدينج، وسالمون تشيس، وفريدريك دوجلاس، وبارسون لويجى وكلهم من دعاة إلغاء الرق، الذين كانوا على استعداد لاستقبالهم وتعميدهم فى عقيدتهم الجديدة ".

عندما تمت بعثرة محتويات خيال المآتة الأول فى الهواء، وهو حزب جمهورى افتراضى من أنصار الرق على أيدى طاقم من " الجمهوريين السود " (والحقيقة أنه كان حزبا على أرض حرة به بعض دعاة إلغاء الرق)، ضرب دوجلاس منتشيا حشو خيال مآتة آخر، هو إيمان لنكولن المزعوم بالمساواة بين البيض والسود: " أنا لا أتساءل عن إيمان مستر لنكولن الذى يدرك أن الزنجى قد صار ندا له، ومن ثم فهو أخوه [ضحك]، وكننى من جانبي، لا أعتبر الزنجى ندا لى، وأنكر تماما أن يكون أخى، أو أحد أقربائى على الإطلاق ". كان ذلك أسلوبا فعالا فى المناظرة حسبما ذكر الصفيون

الذين شهدوا المشهد، بيد أنه لم يكن صحيحا ولا منصفا لآراء لنكولن من الناحية التاريخية. إذ كان لنكولن يعتقد أن الناس جميعا يستحقون نتيجة عملهم، ولكنه لم يكن يؤمن بالمساواة بين الأجناس ".

وزعم لنكولن بدوره أن دوجلاس كاريد مدَ نطاق الرق فى الشمال. فقد كتب دوجلاس مرسوم كنساس نبراسكا، الذى يشترط على الشعب فى منطقة ما أن يقرروا ما إذا كان يجب أن تكون ولاية حرة أو ولاية للعبيد. وركز لنكولن على نص المرسوم: " إن قصد هذا المرسوم ليس تشريع الرق فى أية أرض أو ولاية "، واستمر لنكولن: " كنت دائما احتار فى معرفة صلة كلمة ولاية بهذا الشأن. إن القاضى دوجلاس يعرف. فهو الذى وضعها هناك. وهو يعلم ما الذى وضعه هناك. لم يكن القانون الذى يمررونه هناك بشأن الولايات، ولم يكن يضع شروطا للولايات. فلماذا وضع هناك؟ ".

إن خيال المآتة هنا، وهو كلمة واحدة، كان قد أقيم آنذاك. وسدد له لنكولن ضربة قاصمة: " بعد روية قرار دريد سكوت، الذى أخبر الناس بأنه لا يمكنهم استبعاد الرق من منطقة ما، وما إذا كان هناك قرار آخر سوف يصدر عن دريد سكوت يمنعهم من استبعاده من إحدى الولايات، وسوف نكتشف أنه إذا كانت الكلمة قد وضعت هناك فى الأصل، فقد كان ذلك بالنظر إلى شيء سوف يجئ فى أوانه، وسوف نرى أنها كانت النصف الآخر لشيء ما. " ولم هذا الشيء ما سوى الرق مفروضا على ولايات الشمال الحرة :" إننى أطلب انتباه الناس المجتمعين هنا وفى كل مكان آخر، إلى المسار الذى يتبعه القاضى دوجلاس يوميا وصلته بمسألة إشاعة الرق فى البلاد كلها. وليست هذه عودة إلى السجلات، ولكن لنأخذ الخطب التى التى يلقيها، والخطب التى ألقاها بالأمس وما قبل الأمس، والتى يلقيها باستمرار فى جميع أنحاء البلاد – إننى أطلب منكم الانتباه إليها ". ولم يكن لدوجلاس مثل هذا

القصد، من ناحية لأنه كان بحاجة إلى الديموقراطيين فى ولايات الشمال لكى يصوتوا له إذا ما كان يريد تحقيق حلمه بأن يصبح رئيسا، ولكن خيال المآتة كان قد تلاشى بالفعل.

ولا يمنح الزعماء الحاليون شيئا لعملاقى أللينوى عندما يتعلق الأمر بضرب خيال المآتة. فقد فاز الرئيس جورج بوش بعدة جولات ضدهما. ففى الحملة الانتخابية سنة ٢٠٠٤ م حذر الرئيس بوش قائلا: " قد يبدو من الكرم وانفتاح العقل أن نقول إن الجميع محقون فى كل مسألة أخلاقية بقدر متساو، ولكن ذلك الموقف يمكن أيضا أن يكون عذرا لتحاشى أهم مسائل الحياة " لقد كانت النسبية الأخلاقية خيال المآتة بالنسبة له. وفى خطاب حالة الاتحاد سنة ٢٠٠٦م، حذر الرئيس من العودة إلى العزلة، مجادلا بأن " التقهقر داخل حدودنا " سوف يترك " عالما يتعرض للهجوم لكى يدافع عن نفسه بنفسه ". فمن كان الانعزالى الذى كانت هذه الدروس موجهة إليه؟ إنه مستر خيال المآتة.

هناك وفرة من الأمثلة التاريخية على أساليب البلاغة التى يستخدمها الساسة -الطلب الخاص. وهى تشير إلى أن هناك حالات بعينها أو إناسا بعينهم يجب إعفاؤهم من القواعد العامة أو حتى من القانون. الطلب الخاص يمكن أن يكون بحسب الموقف - ومعنى هذا أن الدعاوى يمكن أن تعتمد على الزمان والمكان. هذه الصيغة من المعايير المزدوجة تحدث غالبا فى السياسة. فبعد الفشل الذريع الذى عرف إعلاميا باسم (Blackhawk Down) فى مقديشيو بالصومال سنة ١٩٩٣ م تم إجبار ليس آسبين وزير الدفاع على الاستقالة. إذ إن القوات الأمريكية فى الصومال لم تكن قد منحت حق استخدام الأسلحة الآلية لكى يؤدوا مهامهم فى أمان. وعندما سئل وزير الدفاع دونالد رامسفيلد عن تكرار حالات المركبات ذات الدروع الهزيلة التى جعلت

القوات لأمريكية بلا دفاع ضد القنابل المزروعة .على جوانب الطرق في أثناء حرب العراق بعد عشر سنوات، أجاب في شماتة: " عليك أن تخوض حربا بالجيش الذى تملكه، لا بالجيش الذى ترغب فى أن يكون لديك ". ولم ينل أى توبيخ بسبب طلبه الخاص المتعلق بالمشكلات الخطيرة مع المدفعية العسكرية الأمريكية.

وقد ساعد رامسفيلد على توضيح موقفه قدر قليل من التاريخ. إذ كان دفاعه عن تخطيطه وتخطيط الإدارة للحرب .أنه كان يعرف هو وزملاؤه كل مزالق الحرب طويلة المدى. ووفقا لصحفى من الواشنطون بوست، شرح أنه " لم يدخل العراق بدون اهتمام أو استعدادات كافية. فقد توقع رامسفيلد الأمور التى كان يمكن أن تمضى بشكل خاطئ - ولم يتوقعها فقط، ولكنه سجلها كتابة ". وكانت الوثيقة ما زالت محظورة، ولكن كان لا بد لها أن تبرهن - وكان للتاريخ أن يبرهن - أن رامسفيلد لم يكن ليقدم التماسا خاصا. والواقع أنه حسبما شرح تقرير رامسفيلد المكتوب: " ربما كان سينفع لو أن الأمريكيين وقادتهم قد أبدوا قدرا أقل من الغطرسة وأكثر فهما لأنفسهم ومكانهم فى التاريخ. وربما يظهر الأمريكيون، أكثر من أى شعب آخر، أنهم يفقدون الذاكرة عن ماضيهم بشكل مستمر، مثلما ينسون تاريخ أولئك الذين من حولهم ".

وأخيرا، يمكن للمرء أن ينزلق أسفل المحور الزلق وهو يمسك بخيال المآتة فى إحدى يديه. وسيكون القليل من التاريخ المنشور بطريقة صحيحة مفيدا. خذ المجادلة التالية التى جاءت فى قرار حديث للمحكمة العليا فى الولايات المتحدة. فقد استخدمت المحكمة التاريخ طوال الوقت. وكان القضاة يفحصون السوابق، أى القرارات السابقة للمحكمة فى القضايا الماضية الشبيهة بالقضية التى يجب اتخاذ قرار بشأنها فى تلك اللحظة. وكانوا أيضا

يستعرضون الحوادث التى أدت إلى القضية فى رحـــاب الواقـــع التـــاريخى المحيط بالقضية. ولما كانت القضية المنظورة أمامهم تثير مسائل دستورية، فإنهم كانوا يطرحون المزيد من الأسئلة التاريخية. ترى ماذا كان قصد مـــن وضعوا الدستور وتعديلاته عندما كتبوا تلك الكلمات؟ وما الذى كانت تعنيـــه تلك الكلمات بالنسبة للناس اتلذين عاشوا آنذاك؟ هل تغيرت تلـــك المعـــانى بمرور الزمن؟

ماذا لو تقبلت المحكمة مفهوم الحق فى الحياة، كمـــا حـــدث بالفعـــل، وقررت أن الجنين شخص تحت حماية القانون؟ وهو ما يعنى أن الـــشخص الذى ما زال فى الرحم له الحقوق والامتيازات كافة، والحصانة التى يتمتـــع بها أى مواطن من حيث المفهوم. (ليس من الواضح كيف سيتناسب هذا مع قانون المواطنة الساري؛ لأننا نصبح مواطنين عندما نولد هنا وليس عنـــدما يتم حملنا هناك). إذن فإن المرأة الحامل لم تعد مجرد أم مستقبلية وإنما هى الحافظ لكائن بشرى حى بالفعل. إننا نطلب من آبـــاء الأطفـــال الأحيـــاء أن يقدموا لهؤلاء الأطفال، الطعام، والمأوى، وبعض العطف الأبوي. فهل يمكننا أن أن نطلب هذا من المرأة الحامل؟ وإذا كان الكـــافيين وتـــدخين الـــسجائر وتعاطى الكحوليات يؤذى الأجنة، فهل يمكننا منع النساء من استعمال هـــذه الأشياء قانونا؟ وهل يمكننا أيبضا أن نطلب منهن زيـــارة الطبيـــب بـــصفة منتظمة للفحص، وأن يبقين فى صحة جيدة، وأن تأكلن وتمارسن الرياضـــة بشكل صحيح؟ عل يمكننا أن نحد من تحركاتهن، بل وضعهن بالمستشفى إذا ما قاومن هذه القيود على حرياتهن الشخصية؟ وكم قدر الإشراف الذى يجب على الدولة أن تفرضه من أجل حماية الجنين من أمه المستقبلية؟ إننا يمكـــن أن نفعل هذا كله إذا ما تبعنا المنزلق المنحدر لفكرة أن النسوة الحوامل لسن مجرد أفراد قد يحملن، أو لا يحملن، أطفالا؛ ولكنهن حاويات لكائنات حية.

فى قضية كارهات ضد جونزاليس (٢٠٠٧) خرجت القاضـية روث بادر جينسبورج عن رأى الأغلبية وقالت إن الحظر الفيـدرالى للإجهـاض دستوري. وكتبت: " إن قرار اليوم يدعو لتوخى الحذر. إنه يـرفض الأخـذ بالقرارات السابقة حول حقوق الإجهاض مأخذ الجـد. إنـه يتسامح، بـل يستحسن فى الواقع، التدخل الفيدرالى ليمنع فى أرجاء الوطن كلـه إجـراء الإجهاض الذى وجد أنه ضرورى ومناسب فى حالات بعينها، حددتها الكلية الأمريكية للولادة وأمراض النساء، وهو يشوش الخط الذى تم رسمه بصورة ثابتة فى قضايا سابقة خاصة بالإجهاض قبل اكتمال مقومـات الحيـاة فـى الجنين وبعدها. وللمرة الأولى (منذ تم الفصل فى قضية روى ضد وادى) تبارك المحكمة منع الإجهاض بدون استثناء لحماية صحة المرأة ". ولا شك فى أن القاضية كانت تعرف أن هناك محكمة فى كارولينا الجنوبية كانت قد سارت بالفعل وفق هذا المنطق، إن كل خطوة ترتبط بخطوة أخرى سـابقة نزولا على المنحدر.

مثل هذه المنحدرات الزلقة لها شكلان. ويتطلب كل منهمـا مجـادلات تاريخية. وأحد هذين الشكلين مؤقت. إذ إن A، فى حال السماح له، سـوف يؤدى إلى B، وسوف تؤدى B إلى C... وهكذا دواليك، حتى نصل أخيـرا إلى X، وهى نتيجة غير مرغوبة. وسوف يحدث هذا بشكل أو بـآخر مـن التيسير. وهكذا لا يجب علينا أن يكون لدينا A منذ البداية. فإذا تركنا، مثلا، المدارس تدرس التحكم فى المواليد لمنع حمل المراهقات، فإن التلاميذ سوف يصيرون على ألفة بالجنس، وعندها سوف يحدث المزيد من ممارسة الجنس بين المراهقين. وهنا تكون الغلطة فى افتراض وجود العلاقة السببية – وهى غلطة شائعة فى مجال البحث التاريخى للغاية.

أما النوع الثانى من المنحدر الزلق فهو سردى – أى يكون التقدم من A إلى B يكون من خلال سلسلة من الخطوات الصغيرة للغاية. ولو أن الرب

وجد فى سدوم رجالا طيبين، لما كان قد دمرها بأسرها. ويتكون المنحدر من عدد كاف من الرجال؛ ألف، مائة، عشرة رجال؟ إن الفرق بين الأرقام ليس محددا حقا، ولا الرابطة المنطقية بين الرقم النهائى وإنقاذ سدوم. ذلك أن الرقم ينحدر بنفسه إلى أسفل المنحدر (فليست هناك حاجة لوجود سبب).

وغالبا ما يقذف الساسة بالمجادلات على هذا المنحدر الزلق. ففى سنة ١٩٥٦ م، اتحد الساسة الجنوبيون معارضين لقرار إنهاء الفصل العنصرى فى قضية براون ضد هيئة التعليم (١٩٥٤ م) وقد وقعوا منشورا ونشروه فى Congressional Record، وكانت أحد المزاعم الرئيسية فيه منحدرا زلقا يغطيه التاريخ بالشحم. أولا: " نحن نعتبر القرارات التى أصدرتها المحكمة العليا فى قضايا المدارس نوعا من استخدام السلطة القضائية. إنه يمثل ذروة اتجاه فى القضاء الفيدرالى يأخذ على عاتقه التشريع، ويحط من سلطة الكونجرس، ويعتدى على الحقوق المصونة للولايات والشعب ". وبالفعل، فإن ممارسة المحكمة لنوع من العملية المادية (أى تطبيق التعديل الرابع عشر لفحص مدى دستورية ترتيبات الولايات وقوانينها البرلمانية) إنما تعود بتاريخها إلى قضية لوشنر ضد نيويورك (١٩٠٥ م)، وهو قرار يضرب ترتبات الولاية بشأن الصحة والعمل والرفاهية على مدى خمسين سنة قبل براون. وكانت قوانين جيم كرو للولايات الجنوبية من بين تلك الترتيبات التى كانت سارية زمن لوشنر.

فى هذا المنشور انزلق تعليم التاريخ أيضا إلى أسفل المنحدر " دون النظر إلى موافقة المحكومين، يهدد الوسطاء الخارجيين التغيرات المباشرة والثورية التى جرت فى نظم مدارسنا العامة. فإذا عمل بها بالفعل، فمن المؤكد أن هذا سيدمر نظام التعليم العام فى بعض الولايات " هذا النظام الذى يقوم على الفصل العنصرى فى التعليم يحدد أصغر وحدة فى العملة

الأمريكية للإنفاق على المدارس السوداء مقابل كل دولار ينفق على المدارس البيضاء. وماذا بعد؟ هل ستقوم المحاكم بقلب قوانين الولايات الجنوبية ضد الزواج المختلط رأسا على عقب؟ (وقد فعلتها المحكمة العليا فى قضية لافينج ضد فرجينيا سنة ١٩٦٧ م) إلى أين سيؤدى هذا؟ وقد حذر جاكسون والمسيسيبي، والديلى نيوز بالإجماع بعد أن أعلن براون أن " الدم البشرى قد يلطخ التراب الجنوبى فى كثير من الأماكن بسبب هذا القرار... فسوف يؤدى وجود الأطفال البيض والسود فى المدرسة نفسها إلى التزاوج بين اللونين... وتهجين الجنس البشرى ".

الكلمات الضائعة فى كل المناسبات

إذا كان تقطيع المنطق أمرا متعبا للغاية، فهناك طرق أخرى لاستخدام النتف التاريخية، والخداع بالاقتباس خارج السياق. ويمكن أن يكون الاقتباس خارج السياق فعالا للغاية. ويتعلم المؤرخون فى أثناء أولى حلقاتهم الدراسية أنه يجب لفهم معنى وثيقة ما أن يضع المرء فى حسبانه من الذى كتبها، ومتى، وتحت أى ظروف، وهلم جرا. ولايجب على المرء بصفة خاصة، أن يقتبس من الوثيقة قطعة تناقض معناها الأوسع أو غرضها الأكبر.

ويمكن لأى كاتب له كلام منشور أن يتوقع أن يتم الاقتباس من كلامه خارج السياق. وغالبا ما يحدث هذا لكلمات المؤرخين حين يقتبس الصحفيون كلامنا. وليس من الممكن حتى تجنب بعض هذا. فقد تمتد المكالمة التليفونية مع الصحفى ساعة من الزمان، ولكن سطرين فقط يظهران عند الطباعة. بل إن منشوراتنا وأحاديثنا الخاصة ربما تمزق قطعا ثم يعاد تجميعها بطريقة خاطئة إذا ما كانت الكلمات المحيطة بها تشير إلى اتجاه مختلف.

فى سياق جلسة استماع استمرت ساعات حول اتهام الرئيس بيل كلينتون، استمعت لجنة فرعية من النواب إلى شهادات العشرات من كبار الباحثين، وكان لديها قبل هذا مئات الصفحات من بحوث هؤلاء الخبراء وآرائهم. وانقسم الباحثون كما كان متوقعا حول ما إذا كانت أفعال كلينتون تمثل انتهاكات يمكن أن تتحول إلى اتهامات، ولكن الصحفيين الذين كانوا يغطون هذه الجلسات التقطوا تعليقا واحدا قاله سين ويلينتز، أستاذ التاريخ فى جامعة برنستون، وعندما تم اقتباسه خارج السياق اكتسى أهمية لم تكن له فى حينها. فقد أجاب بصوت حاد على أحد أعضاء الكونجرس المعادين؛ لقد قال ويلينتز إن التاريخ سوف " يطارد ويدين " أعضاء السناتو الذين صوتوا مع الاتهامات لأسباب حزبية بحتة. واحتفى الصحفيون بتعليق ويلينتز الذى لم يخطط له، وأخذوه على أنه تحد مباشر لأعضاء السناتو الجمهوريين بدلا من ربطه بموضوعه الأكبر، وهو أن تهما حزبية ومتسرعة قد وجهت ولم يمحها مرور الزمن.

والاقتباس خارج السياق يمكن أيضا أن يبدل ما يبدو حقائق تاريخية. فعلى سبيل المثال، حدث فى خضم حملة الانتخابات الرئاسية سنة ٢٠٠٤ م أن جهز مسئولو الدعاية والإعلام فى الحزب الجمهورى إعلانا اقتبس من مقالة لمحرر " صحيفة تصدر فى مسقط رأس كيرى ". وكان الاقتباس من الصحيفة دقيقا، ولكن الإعلان تغافل عن حقيقة أن الصحيفة، وهى بوسطون هيرالد، كانت قد صادقت على ترشيح بوش للرئاسة وأيدته سنة ٢٠٠٠ م، ولم تعبأ كثيرا بموقف كيرى فى المسألة التى ورد ذكرها فى كلمة المحرر. إذ إن قصاصات الصحفالمنتقاة للمرشحين السياسيين وإعادة طباعة النتف المأخوذة من افتتاحيات الصحف الموالية، تتم عملية إعادة عرض رأى المحرر بحيث تبدو كما لو كانت حقيقية، وهذا شكل آخر من أشكال الاقتباس

خارج السياق. ولا يعلم القارئ أن كلمات الصحيفة جزء من افتتاحية (على اعتبار أنها معارضة لكتابة الأخبار أو التحقيق الصحفى).

وتغيير الكلمات فى الاقتباس، أو تحسين الاقتباس ونسبته بالخطأ لشخص ما، أشكال من الكذب الذى تنتمى إليه أكثر من انتمائها إلى الاقتباس خارج السياق، على الرغم من أن كليهما يشوبه الإفلاس الأخلاقي، وهو أمر شائع فى المواقع السياسية على شبكة الإنترنت. ويمكن أن يؤدى إغفال كلمات أو انتزاع كلمات من السياق إلى حدوث الكثير من الدمار بالحقيقة شأنه شأن الكذب بخصوص ما يقوله أحد الناس. والساسى الديموقراطى " هوارد دين " ليس حريصا فى كلامه دائما، ولكن معارضيه يجعلون كلماته أكثر عرضة للمذمة عندما يأخذونها خارج سياقها. وفى سنة ٢٠٠٥ م قاتل فى حوار صحفي: " إن فكرة أننا فى سبيلنا لكسب هذه الحرب فكرة خاطئة تماما لسوء الحظ ". واهتاج الجمهوريون لأن رئيس الحزب الديموقراطى يوفر لأعدائنا ما يريحهم، وظن الديموقراطيون أن دين يظهرهم فى صورة غير الوطنيين. والحقيقة أن التعليقات كانت تاريخية، وكانت جزءا من المقارنة بين حرب العراق وحرب فيتنام، وهى حرب كان لابد لأكثر المراقبين وطنية (فيما عدا الجنرال ويستمورلاند) أن يسلم بأننا لم نكسبها.

ولا يكون وضع كلمات قالها أحد السياسيين فى الماضى مساندة لسياسة جارية أمرا صائبا ودقيقا سوى عندما يكون السياقان متماثلين. ففى خطاب فى وست بوينت فى شهر مايو ٢٠٠٦ م، ألقاه الرئيس جورج دبليو بوش، وهو يشبه التهديد الذى يشكله الإرهاب المعاصر بما كانت تمثله الشيوعية من تهديد فى أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، مقارنا نفسه بالرئيس هارى ترومان ضمنا (من حسن الحظ أنه كان لدينا رئيس اسمه هارى ترومان) ثم عقد مشابهة بين سياسة هارى ترومان فى دعم الحكومات

المعادية للشيوعية فى أوربا وآسيا، وسياساته هو فى غزو العراق وأفغانستان. وعندما يقرأ المرء كلها بما فيها " مذهب ترومان " فى الكونجرس يوم ١٤ مارس سنة ١٩٤٧ م، تبدو أهمية السياق واضحة جلية :

" إن خطورة الموقف الذى يواجه العالم اليوم تستدعى ظهورى أمام جلسة مشتركة للكونجرس. وهذا ما تقتضيه السياسة الخارجية والأمن القومى لهذه البلاد. وأحد وجوه الموقف الحالي، الذى أود طرحه عليكم فى هذا الوقت لكى تفكروا فيه وتتخذوا القرار المناسب، يتعلق باليونان وتركيا. فقد تلقت الولايات المتحدة من الحكومة اليونانية طلبا عاجلا بالمساعدة المالية والاقتصادية. وتتماشى التقارير المبدئية من البعثة الاقتصادية الموجودة فى اليونان الآن، وتقاريرالسفير فى اليونان، مع تصريح الحكومة اليونانية بأن المساعدة لازمة تماما لبقاء اليونان أمة حرة ".

كان ترومان يطلب " مساعدة أجنبية " وكانت تلك بداية سياسة المساعدات الاقتصادية والفنية لمساعدة البلاد الأجنبية " إن اليونان اليوم بلا ميزانية لتمويل استيراد البضائع اللازمة لبقائها. وفى ظل هذه الظروف لا يمكن لشعب اليونان أن يحرز التقدم فى حل مشكلات اليونان وإعادة البناء. إن اليونان بحاجة إلى المساعدة الاقتصادية والمالية لتعينها على استئناف مشترياتها من الطعام، والكساء، والوقود، والبذور. وهذه أشياء لا غنى عنها لحياة شعبها ولا يمكن الحصول سوى من خارج البلاد. ولابد أن تحصل اليونان على المساعدة لاستيراد البضائع اللازمة لاستعادة الأمن الداخلى والنظام وهو أمر ضرورى جدا للتعافى السياسى والاقتصادي. " ولا ريب أنه كانت هناك إشارة إلى " الإرهاب " فى ملاحظات ترومان، وهى إشارة ضرورية لتأكيد إلحاح الأحداث فى عقول أعضاء الكونجرس الذين كانوا قد اعتادوا حالات الضرورة فى الحرب العالمية الثانية وتعبوا من جرائها. " إن

وجود اليونان نفسه مهدد اليوم بسبب الأنشطة الإرهابية التى يقوم بها الآلاف من الرجال المسلحين، يقودهم الشيوعيون الذين يتحـــدون ســلطة الحكومـــة اليونانية فى عدد من المواقع؛ لايما على امتداد الحدود الشمالية ".

المساعدة، المساندة والدعم، ولكن ليس غزو بلد أجنبي، كانت جـــوهر مبدأ ترومان. قارن هذا بما قاله الرئيس جورج بوش للطلاب العسكريين فى وست بوينت وهو ينقل عن ترومان وعن التاريخ دفاعا عن المجهود الحربى فى العراق :" لقد عملتم بجدية فى فصولكم الدراسية، وعلى أرض التـــدريب استعدادا لعنف القتال... إن ميدان المعركة هو المكان الذى ســـوف تأخـــذكم درجتكم ومهمتكم إليه... لقد أحاطت بكم حقيقة الحرب منذ اللحظات الأولـــى لكم فى هذه الأكاديمية. إن أكثر من خمسين من زملائكم الطلاب العسكريين، هنا فى وست بوينت، قد شهدوا بالفعل القتال فى العراق وأفغانستان ". كـــان الحل العسكرى لمشكلة الأمن القومى، يتم تنفيذه فى " ميدان المعركة " يختلف تمام الاختلاف عن اقتراح ترومان. لقد غير بوش مذهب ترومان من بـــديل للحرب إلى الحرب، ليخوض "هذه الحرب الجديدة "، علـــى حـــد تعبيـــره، بالخروج عن السياق.

إن الشعارات البراقة التى تستخدم إشارات مشفرة إلى التاريخ لمواجهة السرد الأكثر تفصيلا للأحداث التاريخية. إنها تتجاهل السياق تمامـــا. مـــثلا عبارة " اقطع واجر " التى يمكن تطبيقها على الخصوم فى حـــرب العـــراق تذكرنا بالنقد الذى أثاره خروجنا من فيتنام. ومثل هذه الكلمـــات التاريخيـــة المشحونة تملأ البلاغة والخطابة السياسية. ففى حلقة أذيعت أوائل سنة ٢٠٠٦ م من البرنامج الكوميدى المحبوب عن الأحداث الجاريـــة The Daily Show، أوضح جون ستيوارت، مقدم البرنامج، عدد المرات التى استخدم فيها الرئيس جورج دبليو بوش مصطلح " النصر " فى خطبه عن حرب العراق. ولم يكن

احتلال الولايات المتحدة للعراق يمضى بطريقة جيدة وقر رأى الفريق الاستشارى للرئيس، بعد سلسلة من استطلاعات الرأى، أن الأمريكيين سيدعمون تورطنا المستمر فى العراق إذا ما استخدم الرئيس كلمة " النصر " مستعينا إلى الذاكرة صورا من الحرب العالمية الثانية، بدلا من الكلمات المهمة الأخرى مثل الديموقراطية، والسلام والحرية، التى كانت من سمات خطاباته.

ويمكن لتجاهل السياق أن يؤدى بسهولة إلى أحادية الملاحظة أو الانحياز إلى جانب واحد. وهناك الكثير من الأمثلة عن هذا النوع نفسه من الانحيازات لجانب واحد بدافع من الرغبة فى عمل قضية لذلك الجانب، فى تاريخ السياسة. فقد كان الساسة المؤيدون لإلغاء الرق قبل الحرب الأهلية أساتذة هذا الأسلوب. ففى سنة ١٨٥٨ م، قال السناتور ويليام هنرى ستيوارد النائب عن نيويورك وأحد دعاة إلغاء الرق لمستمعيه فى روشستر بنيويورك: " إما أن تؤدى الحال فى النهاية إلى زراعة حقول القطن والأرز فى جنوب كارولينا وزراعات قصب السكر فى لويزيانا، بأيدى العمال الأحرار، كما أن شارلستون ونيو أورليانز سوف تصيران مركزين تجاريين للتجارة للتجارة المشروعة فقط، أو أن يجب تسليم حقول الشلجم والقمح فى ماساشوستس ونيويورك من جديد إلى ثقافة العبيد وإنتاج العبيد، وتصير بوسطون ونيويورك مرة أخرى أسواقا للمتاجرة فى أجساد البشر وأرواحهم ". إنها لغة قوية، غير واقعية، بالنسبة لنيويورك وبوسطون (الميناءين الرئيسيين لدخول العبيد الهاربين وخروجهم) ولا تبالى فى إدانتها للجنوب. فقد كانت معظم عائلات مزارع القطن تعمل وحدها، أو بمساعدة المزارعين المأجورين (إذ لم يكن فى مقدورهم تحمل فقات العبيد)، مثلما كانت معظم العائلات التى تملك مزارع فى نيو إنجلند تعتمد على الأطفال والعمال المأجورين فى مواسم الزراعة والحصاد.

وثمة شكل من أشكال الانحياز إلى جانب واحد يتمثل فـي المجادلـة انطلاقا من النتيجة. فالسياسيون، مثل بقية الناس، لا ينظرون فقط للأمام من أجل النتائج الجيدة ولكنهم يميلون إلى المجادلة من توقعهم لـذلك. إذ يمكـن نهب التاريخ بحثا عن " دروس" بلا أبعاد وإنما هى فعلا مجادلات تنطلق من النتائج. والقول بأنه ينبغى علينا أن نتقبل حقيقة وضع معين لأنه (لو كـان حقيقيا) سوف يؤدى إلى غاية مرغوبة، ليس دليلا على أن المقدمة المنطقية نفسها حقيقية أو أن الغاية المرغوبة نفسها سوف تتحقق "يجب علينا أن نجلب الديموقراطية والسلام إلى الشرق الأوسط. وإذا لم نفعـل سـتكون بلايـين الدولارات وآلاف الأرواح التى خسرناها فى العـراق قـد ضـاعت هبـاء منثورا". تلك هى المغالطة المنطقية فى معانى الكلمات عند الجدل انطلاقا من النتائج. كما أن رفض مقدمة منطقية لمجرد أن نتيجتها ستكون غير مرغوبة، قصر نظر أيضا. مثلا، " إنني لا أعتقد فى التحذير الكوني. فلو أنه حقيقـي، فسوف تتأثر سواحلنا، وإمداداتنا من الوقود، بل والمناخ الـذى نعـيش فيـه بصورة كارثية. ولهذا لابد أن يكون هناك تفسير آخر للتغيرات التى تطـرأ على المناخ ودرجة حرارة المحيط ".

وأكثر الأمثلة سخافة (عن قصد بلا ريب) على هذا النمط من التعليل بناء على نتيجة سلبية يتجلى فى السخرية السياسية فى فيلم لإخوان مـاركس Duck Soup إذ إن روفوس ت. فاير فلاى (جروتشو) هو رئيس فريـدونيا الضئيلة، التى تواجه التهديد من جانب جارتهـا سـيلفانيا. وينتهـى لقـاء دبلوماسى بين البلدين بالفشل قبل أن تبدأ وقائعه عندما يقول فايرفلاى منطلقا من التعليل من النتائج السلبية المتوقعة - " ماذا لو مددت يد الـصداقة إلـى رئيس سيلفانيا ورفضها؟ - ويصبح أسيرا لهذا المنظور إلى الدرجـة التـى تجعله يصفع الرئيس السيلفانى عندما يدخل. ثم تقعب هذا حرب قصيرة. أما

الحروب الحقيقية التى يجلبها مثل هذا التفكير الذى يخلط بين المنطق واللامنطق؛ فإنها نادرا ما تكون بلا دماء.

قبل أن يتأمل المرء المجادلة انطلاقا من النتائج مثل ذلك الشكل من الاختلال العقلى الذى ينفرد به الأخوان ماركس، فليعد إلى سنة ١٨٩٦ م والخطبة التى ألقاها كاليون فى مجلس الشيوخ ضد دعاوى المطالبة بإلغاء الرق: " مهما كان صحيحا موقف الولايات الداعية إلى إلغاء الرق فى الوقت الحاضر، فإنه فى غضون سنوات قليلة سوف يخلفهم أولئك الذين سوف يتعلمون أن يكرهوا الناس والمؤسسات فى ما يقرب من نصف هذا الاتحاد، كراهية مميتة تفوق أية كراهية أضمرتها أية أمة ضد أمة غيرها. من السهل أن نرى النهاية. وبالمسار الحتمى للأحداث، إذا ما تركت لحالها، لابد أن نصير فى النهاية شعبين ". ومن ثم لا يجب قراءة الدعاوى.

والتفكير فى العواقب لا يجلب اللوم دائما. إذ يجادل قاضى المحمة العليا فى الولايات المتحدة ستيفن براير، بأنه ينبغى على القضاة أن يزنوا العواقب المحتملة للتخلى عن القانون أو الضرب به عرض الحائط. ويتساءل: ما الذى سوف يحدث لو انعكست القواعد فى القضاء الذى اعتمدت عليه أجيال عديدة من الأمريكيين فجأة؟ ماذا ستكون عليه العواقب فى العالم الحقيقى إذا توصلت المحكمة إلى قرارات غير شعبية أو يصعب فرضها؟ ولم يكن هو القاضى الأول الذى تملكه القلق بهذا الشأن؛ فقد كان القاضى فيللكس فرانكفورتر يدرس أن للمحكمة مخزون صغير فقط من رأس المال السياسى ويجب أن تستثمره بحكمة. وهذا هو السبب فى أنه كان يخشى، هو وغيره، من أن يكون القرار الكاسح فى قضية براون ضد هيئة التعليم (١٩٥٤ م)، الذى يلغى جميع أشكال الفصل العنصرى الذى تشرف عليه الولايات المتحدة فى المدارس العامة، خطأ. فقد رأى العواقب التى يمكن أن تتدرج من العصيان المدنى إلى

العنف الصريح فى أعماق الجنوب. وقد كتب القاضى دافيد سوتر رأيـــه عـــن حقوق الإجهاض فى قضية كلاسى ضد هيئة الأبوة المخططـــة (١٩٩٢ م) أن سببا واحدا لا يجب أن يقلب قضية روى ضد وادى هو أن الكثير جـــدا مـــن النسوة كن قد انتهين إلى الاعتماد على هذه القضية وهن تخططـــن لحيـــاتهن الإنجابية. فهل كانت هذه الأمثلة كلها أمثلة عن المغالطة المنطقية المتمثلة فـــى المجادلة انطلاقا من النتائج؟ والإجابة بالنفي. إذ إنه لا توجد قضية يجادل فيها القاضى بأن المقمة المنطقية صحيحة لأن نتائجها مرغوبة. ولكنهم يجـــادلون بأن المقدمة المنطقية – القانون أو الرأى القـــانونى – مرغوبـــة لأن تأثيرهـــا المستمر مرغوب. وبعبارة أخرى، فإنهم يربطون ما يمكن التنبـــؤ بـــه إلـــى الحاضر، وهو أمر منطقى تماما.

فى كلمة المحرر فى صحيفة نيويورك تايمز يـــوم ١٨ يوليـــو ســـنة ٢٠٠٧ م عبرت مورين دوود عن إحباطها بسبب استغلال الساسة للتـــاريخ. كانت تقصد الرئيس جورج دبليو بوش: " ذكر الرئيس فى خطابه يوم الثلاثاء أنه يقرأ التاريخ، وأنه كان يستدعى المؤرخين واللاهوتيين إلى البيت الأبيض لمناقشة مصير العراق وطبيعة الخير والشر. وظن بوش أن التاريخ سيكون ذريعة له. فعندما يخفق الرؤساء ويريدون تعزية أنفسهم، يظنون أن التاريخ سيمنحهم فرصة ثانية. إنه المعادل التاريخى للعفو الرئاسي. ولكـــن هنـــاك أشياء أخرى – الأخلاق والاستراتيجية والأمن – تضغط أكثر من التاريخ.

إن غريزة دوود الصحفية لإضفاء ميزة على الحاضر خـــصما مـــن حساب الماضى هى التى أضلتها. إذ إن الأخلاق، والاستراتيجية، والأمـــن، كلمات فارغة عما يمكن للسياسة أن تفعله فى أية مجادلة تاريخيـــة. وهـــى تذكرة بأن كل مجادلة تحمل بعض السياسة، وتصر فلسفة التاريخ المناســـبة لزماننا على أن نكون واعين بانحيازاتنا السياسية. ويمكن أن تتـــسلل تلـــك

الانحيازات بسهولة – بسهولة شديدة – فى مجادلاتنا مع المؤرخين الآخرين. وتساعدنا معرفة كيف أسيء استخدام الجدل فى التاريخ السياسي (بما فى ذلك أخبار الأمس القريب) على رؤية مواقفنا، وتجعلنا نتأكد من أنه حتى الباحث المنعزل فى دار الوثائق له آراء سياسية. مثل هذه الآراء تجد طريقها بالضرورة إلى البحث العلمي. وحتى الإصرار على أنه غير سياسى أمر محل شك. لك أن اختيار الموضوع، والقراءة، واختيار الأدلة، وترتيب الجدل – كلها مستمدة من وجهة نظر الباحث.

وسوف تقودنا شئوننا السياسية إلى الاختلاف. وكما كتب هاسكيل وليفنسون فى ردهما النهائى على آليس كيسلر – هاريس: "إن التبرير الرئيسى لوجود جماعات الباحثين يكمن فى قدرتهم على توليد حوارات نقدية أكثر كثافة من تلك التى تحدث بطريقة عفوية فى المجتمع كله حيث يمكن تجنب المنازعات حول الأساسيات فى الغالب أمرا ذا قيمة عالية. ولكن ليس معنى هذا القول، عندما يتعلق الأمر بالنقد، أن كل شيء يمضى على ما يرام، أو أن صيحة "أحمق" يمكن أن تكون رادعا لنا. إن نقد المنطق والأدلة من موقع المخالفة يوسع من دائرة الجدل، وينبغى أن يكون ملتزما بصورة كلية بتقاليد البحث العلمي، أما محاولة إغراق المخالف فى الصمت فهى شيء مختلف تمام الاختلاف، كما أنه ضار تماما بمبدأ الحرية الأكاديمية".

وسواء اعتبرنا البحث التاريخى وتدريس التاريخ " منبرا " للترويج لآرائنا، أو لعقد أذرعتنا على صدورنا ووضع أصابعنا على شفاهنا لمنع لآرائنا من الخروج إلى النور، فإن فلسفة التاريخ التى تليق بالأوقات المثيرة للجدل اليوم تتطلب الاتفاق على المسائل السياسية. ولأننا نرى السهولة التى يمكن بها أن ينزلق الالتزام السياسى فى جدل لامنطقي، ينبغى علينا أن نكون على حذر من ترك التزاماتنا السياسية تتسبب لنا فى تغيير اكتشافاتنا، أو أن

نبقى صامتين عندما يكون من الواجب أن نتكلم، أو ندين الآخـرين لأنهـم يعبرون عن أفكارهم.

مثل هذه الروابط السياسية بين بين المؤرخين ليست غير سائغة فقـط ولكنها غير علمية أيضا. إذ يجب على المؤرخين أن يشاركوا فـى قـانون للسلوك السياسى الجيد. حسبما يذكرنا جميعا " بيان المعايير " الذى أصدرته الجمعية التاريخية الأمريكية:

"يناضل المؤرخون باستمرار لتحسين فهمنا الجماعى للماضـى مـن خلال عملية حوار نقدى مركبة – مع أحدنا الآخر، ومع الجمهور الأوسـع، ومع السجل التاريخى – نستكشف فيها حياة من سبقونا والعوالم السابقة بحثا عن إجابات للأسئلة الأشد إلحاحا فى زماننا ومكاننا".

ولا يمكن للمؤرخين أن يؤدوا هذه المهمة بنجاح بدون الثقة والاحترام المتبادل. وممارسة المهنة باعتزاز تكسب المؤرخين شهرة بالجدارة التى هى رأسمالهم المهنى الوحيد والأثمن. إن الثقة والاحترام من أقران المرء ومـن الجمهور على السواء، تعتبر من أعظم الإنجازات التى يمكن لأى مؤرخ أن يحققها، ومن أكثرها صعوبة. ومن الحماقة فعلا المخاطرة بهما.

وعلى الرغم من أنهم يختلفون مع أحدهم الآخر حول أمور كثيرة، فإنهم يعلمون بالفعل ما الذى يثقون فيه ويحترمونه فى أعمال كل مـنهم. ويـؤمن جميع المؤرخين بتكريم الاعتزاز بالسجل التاريخي. فهم لا يصطنعون الدليل. ذلك أن التزييف ينتهك الأصول الأساسية التى التى يبنى عليهـا المؤرخـون تفسيراتهم للماضي. وأى تزييف غير محقق لا يقوض المجـادلات التاريخيـة للمزيف فقط، وإنما يقوض كل البحوث التالية التى التى تعتمد على عمل الذى قام بالتزييف. وأولئك الذين يخترعون، ويبدلون، أو يدمرون الأدلة يجعلون من الصعب على أى باحث أن يثق فى أعمالهم مرة أخرى ".

إن الأمور السياسية الداخلية فى مهنة التاريخ تقوض مـــشروع بنـــاء فلسفة تاريخ لزماننا برمته، بيد أن الثقة التى يشير إليها "بيان المعايير" يشير إلى أن الكلمة السياسية قد لاتكون الكلمة الأخيرة. ومهمـــا كانـــت الأمـــور السياسية للمؤرخين الأفراد، فإن الاحترام المهذب لمهنتنا المشتركة توصـــينا بأن نمنح الجانب الآخر الوقت والمساحة لعرض قضيته على أفضل وجـــه. وعندها، عندها فقط، يصبح بناء الجسر إلى الماضى سعيا مشتركا.

(٧)

المؤرخون فى السوق

إن أفضل استجابة هى عــدد النــاس الــذين يــشترونه [كتاب Undamned Courage] وحقوق التأليف التى تأتى فى شيكات. وأفضل استجابة بعدها تتمثل فــى النــاس الذين يكتبون ويقولون: "إننى أقرأ كتابك وآخذ الأســرة لنخرج بحثًا عنه". وهذا يعنى الكثير.

ستيفن أمبروز (٢٠٠٢م)

كان ستيفن آندروز واحدًا من أحب مؤرخى أمريكا وأكثرهم انتــشارًا. كان يعرف أن التاريخ مجال عمل كبير فى أمريكــا، كمــا أن المــؤرخين وأعمالهم بضائع فى السوق. ومعظم مدرسى التاريخ يعتمدون على رواتبهم لدفع فواتير معيشتهم، ولكن الأعمال الأفضل مبيعًا فى التاريخ عادة ما تكون مبيعاتها بالملايين، وقد تجلب مليون دولار مقدمة حقوق التــأليف للمــؤلفين ذوى الشعبية من أمثال أمبروز. ووفقًا لروبرت تاونسند ومجلــة الجمعيــة التاريخية الأمريكية Perspectives فى سنة ٢٠٠٣م، خرجت إلــى الــسوق عشرة آلاف وأربعمائة وتسعة وثلاثون كتابًا فى التاريخ. وفى سنة ٢٠٠٤م وصلت تسعة آلاف وستمائة واثنين وستين عنوانًا جديدًا. وقد زاد عدد الكتب

التاريخية بنسبة خمسين بالمائة منذ سنة ١٩٩٣م، وهى أول سنة يتم فيها جمع إجمالى عدد كتب التاريخ. وفى سنة ٢٠٠٤م كان هناك ١٨١١٩٩ كتابًا منشورًا فى جميع المجالات. وبحسابى أنا فإن هذا يعنى أن كتب التاريخ كانت نسبتها حوالى خمسة ونصف بالمائة من جميع الكتب التى تنشر سنويًا.

وهناك تقريبا حوالى عشرة آلاف عضو فى منظمة المؤرخين الأمريكيين ونصفهم أعضاء فى الجمعية التاريخية الأمريكية، ولكن المؤرخين المؤهلين مهنيا ليسوا هم الملاك الوحيدين للتاريخ. فهناك ما يزيد على مائة ألف رجل وامرأة يعلمون التاريخ فى المدارس الثانوية العامة والخاصة. وكما قالت لوريل تاتشر أولريش الأستاذة فى هارفارد فى إحدى المقابلات الصحفية «نحن بحاجة إلى قليل من التواضع بحيث نعترف بأن الناس يمكنهم أن يفعلوا ما يشاءون بالماضى. إن المؤرخين لا يملكون التاريخ».

إن التاريخ تسلية شعبية. ذلك أن قنوات التاريخ، ومتنزهات موضوع التاريخ وجلسات استعادة التاريخ، والمتاحف، والمتاحف الحية فى المواقع التاريخية تجلب ملايين الدولارات وملايين الزوار سنويا. وعلى حد قول النيوزويك فى ٣٠ أبريل سنة ٢٠٠٧م، الذى جاء تذكرة بمناسبة الذكرى الأربعمائة لإعلان قيام مستوطنة جيمس تاون، أنه بالقرب من الحفرة التى كان الأثريون يستخرجون منها قطع الفخار: «سوف ترون مجتمعا أمريكيا تاريخيًا يعود ثانية إلى الحياة». وبالنسبة للأمريكى الذى يحب قراءة التاريخ، أو زيارة المواقع التاريخية والمتنزهات التاريخية، فإن التاريخ ليس مستحيلاً على الإطلاق.

ومعرفة حقيقة أن التاريخ والمؤرخين بضائع فى السوق تثير أسئلة عملية بشأن فلسفة التاريخ الخاصة بنا- وهى أسئلة تجاهلتها فلسفات التاريخ

التقليدية. فما التزاماتنا المهنية والأخلاقية باعتبارنا موردين للبضائع في السوق؟

إن المعيار القانوني للبائعين محدد في القانون المعروف اختصارًا باسم Ucc The Uniform Commercial Code الذي أعده المعهد الأمريكي للقانون، والمؤتمر القومي لمفوضي القوانين الموحدة للدولة في أربعينيات القرن العشرين، وأخذت به جميع الولايات، فيما عدا ولاية واحدة، بصورة جزئية على الأقل. وجوهر هذا القانون أننا يجب « أن نعلن عن منتجاتنا ونبيعها بشكل منصف. وهو التزام نابع من الإيمان الصحيح» (Ucc, sec. 1-304). ومن حق المستهلك أن يعرف بالضبط ما الذي يشتريه. بإيجاز، ينبغي أن يكون تلاميذنا وقراؤنا قادرين على الثقة فينا وفي أعمالنا.

ولكن شكلا أكثر حداثة لتحليل التعاملات التجارية قائما على نظرية «القانون والاقتصاد» ينبئنا أننا يمكن أن نزن المخاطرة في مقابل الربح في تقرير كيف نضع أنفسنا ومنتجاتنا في حزمة واحدة. وتقول لنا النظرية أن نزن مخاطرة اكتشف التوجه الخاطئ والخسارة وما يرتبط به من خسارة السمعة واحتمالات المستقبل في مقابل المكسب الذي قد يجلبه أي اختيار لتوجه بعينه. وبعبارة أخرى، فإننا بحاجة إلى حساب الاحتمال بأن الاختزال أو الاصطناع أو أي سلوك آخر مستهجن عامة، يمكن اكتشافه. فهل تستحق تلك المخاطرة أن بها من أجل المكافآت التي قد يجلبها السلوك السيئ؟ إذا كنا على استعداد لدفع ثمن الاكتشاف، فإن المكاسب التي تنتج عن السلوك السيئ تستحق المخاطرة اللازمة.

وفي مصطلحات مألوفة أكثر للمؤرخين، هل ينبغي لنا أن نتبنى صيغة ما من «المبدأ الأول» الذي يقول به هربرت سبنسر للسعادة والحرية؟ وكما كتب سبنسر في «Social Statics» أو The Conditions Essential to Human

(Happiness Specified 1851) فإن «المبدأ الأول» للسعادة الإنسانية هـو أن كل رجل يجب أن يكون حرًا فى أن يفعل ما يشاء، فيما عدا الافتئات على حرية غيره. و« إذا كانت لكل واحد الحرية فى أن يفعل ما يشاء، بشرط ألا ينتهك الحرية المساوية لغيره، فإن الواضح أن له الحق فى حياته: لأنه بدون هذه الحرية لا يمكنه أن يفعل شيئًا كان يريده ؛ ولحريته الشخصية؛ لأن الانسحاب منها جزئيًا، وإن لم يكن كليًا، يحول بينه وبين تحقيق إرادته». فهل ينبغى لنا أن نتبنى موقف «البقاء للأفضل» تجاه المنافسة مع المؤرخين الآخرين من أجل الوظائف، وعقود النشر، والمكافآت الأخرى التى يمكن للسوق أن يقدمها؟

عمل يتسم بالمخاطرة

تحمل الحوادث القريبة بعض الإجابات الشيقة على هذه الأسئلة عن سلوك السوق. فهناك سوق ضخم لكتب التاريخ الدراسية للطلاب. وولاية تكساس وحدها تنفق ما يزيد على أربعة ملايين دولار سنويا على كتب التاريخ المدرسية بها. وتنفق ولاية كاليفورنيا أكثر من ذلك. والمؤرخون وناشروهم الذين ينجحون فى كتابة الكتب المدرسية لتلك السوق يمكنهم أن يجنوا مكافآت مالية كبيرة. والكتابة لهذا السوق تعنى تلبية رغبات هيئات المدارس فى ولايات مثل تكساس وهيئات الكدارس المحلية فى كل مكان آخر. وذلك يعنى، بدوره، تشكيل الكتب المدرسية بحيث تحذف حكايات بعينها وتتجنب مصطلحات معينة يمكن أن تسئ إلى من يحتمل أن يتبنوا النص وتعزيز حكايات أخرى يمكن أن تحوز رضاهم.

وفى سنة ٢٠٠١م، فإن المحافظين، وفقًا للتقرير U.S. and World Report تملكهم الذعر عندما تبنت تكساس على اتساع الولاية نصًا يدرس فى

المدارس العليا أشاد بشجاعة بحار أمريكى أسود ولم يذكر بطولة إيثان آلن في بيرل هاربور وربما كان ذلك البحار دورى ميللر، الذى أدى دوره في فيلم بيرل هاربور الممثل كوبا جودنج جنيور، كان أقل إثارة للجدل من إيثان ألين. وقد مات ميللر فيما بعد في الحرب عندما ضربت سفينته بطوربيد. وقد أمضى ألين جزءا من فترة الحرب في السجن وقدم خدماته لكلا الجانبين في بعض الأوقات). ولكن تكساس لم تخضع. وحسبما كتب ألكسندر ستيللى في :

«Textbook Publishers Learn: Avoid messing with Texas»

وهى مقالة فى عدد ٢٩ يونيو ٢٠٠٢م فى صحيفة نيويورك تايمز: «إن كتاب Out of Many كتاب لأربعة من المؤرخين المحترمين، من أكثر الكتب مبيعًا بين الكتب الدراسية التى تدرس بالجامعات بالولايات المتحدة، ولكنه ليس من المحتمل أن يكون متاحًا للمدارس العليا في تكساس التى تدرس دراسة تاريخية متقدمة. فقد اعترضت المجموعات المحافظة في تكساس على فقرتين فى الكتاب الذى تقترب صفحاته من ألف صفحة، تشرحان أن الدعارة كانت منتشرة قبل أن يستوطن الغرب تمامًا في مدن الماشية فى أواخر القرن التاسع عشر «ويبدو صحيحا أن كل امرأة غرب المسيسيبى كانت عاهرة»، كما قالت جريس شور، رئيسة هيئة التعليم في تكساس» يقول الكتاب إنه كان هناك خمسون ألف عاهرة غرب نهر المسيسيبى، وهو ما أشك فيه، ولكن حتى لو كان هذا الرقم حقيقيًا، فهل ذلك شيء يجب التأكيد عليه؟ هل تلك حقيقة تاريخية مهمة؟».

هل يجب على مؤلفى الكتب الدراسية الذين يسعون إلى تبنى كتبهم فى سوق كبيرة أن يوافقوا على إجراء التغييرات التى تريدها هيئة التعليم في الولاية؟ لقد قالوا لا. لقد تخلوا عن خيار الانصياع لما يفضله زبائنهم. ولم يختاروا الخروج من السوق، ولكنهم اختاروا ألا يشاركوا فى هذا التحول:

«لقد قام الناشر، بيرسون برنتيس هول، فى هدوء بسحب الكتاب من تقييم الهيئة. وقال وندى سبيجيل، نائب الرئيس للاتصالات فى الشركة، إن لديها كتابًا آخر يناسب المقرر الذى وضعته الولاية على نحو أفضل ... وقالت بيجى فينابل، مديرة مجلس تكساس، إن التنفيذيين فى بيرسون برنتيس هول قد سحبوا كتاب Out of Many لأنهم «بحكمة لم يريدوا أن يجازفوا بأكثر كتبهم، مبيعا فى الولاية بأن يجعلوا ذلك الكتاب مثل طفلهم فى الإعلان» ويلاحظ المرء أن سلوك الناشر يناسب بدرجة أكبر نموذج سبنسر أكثر من سلوك المؤرخين- المؤلفين.

هل ينبغى على المؤرخين الساعين إلى تسويق برنامج عام للدراسات التاريخية لطلاب المدارس العليا أن يوفقوا آراءهم لتتسق مع المجريات السياسية؟ فى ثمانينيات القرن العشرين صدرت سلسلة من الكتب الدراسية القائمة على نمط الأسئلة المتعددة فى التاريخ الأمريكى أعطيت لطلاب المدارس العليا وكشفت عن أنهم كانوا جاهلين بشكل مروع بمعظم المعلومات الأساسية عن ماضينا. وقد برهن هذا للمعلم ديان رافيتش وآخرين على أن المدارس بحاجة إلى كتب التاريخ الأكثر توسعًا. وقد كسبت جامعة كاليفورنيا فى لوس أنجليس منحة من:

the National Endowment for the Hunanities التى ترأسها لينى تشينى التى تقوم بالاختيار، وانطلقت فى تجميع الخبراء لكى يكتبوا المعايير. وكان لدى رئيس «مركز التاريخ القومى»، جارى ناش، قدر جيد من الخبرة وسجل قوى فى كتابة كتب التاريخ الدراسية للمدارس العليا. وقد تضمنت مقاربته الكثير من الناس العاديين- مهاجرين، وأقليات عرقية، ونساء، وعمال- الذين كانت الكتب الدراسية الأقدم قد حذفتهم. وبينما قد تكون مقاربة

الحقائق الأساسية قد عالجت الدرجات المنخفضة التى كان الطلاب يحصلون عليها، كان ناش يريد أن يضع نهاية « للانقسام الزائف بين الحقائق وتحليل المفهوم». فقد كانت الأفكار الديمقراطية حقيقية ونابعة من رؤية على السواء. ولم يكن التاريخ مجرد سرد ولكنه كان «تفسيرا للسرد» و«عمقا» و«طارئا وتركيبا». وكان المفهوم التبسيطى «للتقدم» عبارة عن « فخ ما تزال الكثير من كتب التاريخ الدراسية تنصبه للطلاب»، مثلما كان التركيز القديم على «المنتصرين». إن برنامجا « للتعليم النشيط والاستفسار النقدى» يستخدم المصادر الأولية سوف يعين الطلاب على أن «يكتبوا ويتكلموا عما يدور بأذهانهم» بدلاً من الاستيعاب السلبى لما كانت تقوله الكتب الدراسية والمدرسون.

كانت لتشينى أفكار أخرى. بعد سنوات، حكمت بأن المعايير الوطنية التى نشرها ناش «عكست الرجعية الموجهة سياسيًا والعابسة» التى كانت قد باتت «مألوفة تمامًا فى رحاب الكليات». وبالإضافة إلى ذلك، كان الأبطال جميعا قد اختفوا وحل محلهم أشخاص صغار. كما أن القيم الثابتة كانت قد اختفت هى الأخرى، ولم يبق سوى الاضطهاد. وفى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٩٤م، كان مقالها الذى يحمل عنوان The End of History على الصفحة الأخيرة من وول ستريت جورنال. وفيه حطّت من شأن المعايير الموضوعة لرفع أهمية Sierra Club , The National Organization of Woman و Harriet Tubman فوق الدستور، والكونجرس، و U.S. Grant (على الرغم من أنه فى الحقيقة كانت هذه موضوعات لمقالات الطلاب من «نماذج من إنجازات الطلاب» ولم تكن هى المعايير نفسها). وحكمت بأن النتيجة كانت حكاية كئيبة وعابسة عن أمريكا كان يمكن أن تمنح الراحة فقط لمن هم يسيرون على «الخط السياسى الصحيح».

ورفض ناش أن يقدم ما يرضى أذواق الساسة. وبوصفه مشروعًا لسوق ضخم كانت «معايير التاريخ الوطنى» كارثة وحتى بعد مراجعة شاملة لم تستخدم على نطاق واسع. وفى وزارة التعليم، كانت الحلقات النقاشية «لتعليم التاريخ الأمريكى» لمدرسى المدارس المتوسطة والعليا فى التاريخ. قد اكتشفت أن المدرسين لم يسمعوا عنها قط، ولم يروا المعايير ولم يسحب ناش نفسه من السوق، ولكنه رفض أن يترك قسمًا صوتيًا من السوق يملى ما يجب عليه هو رفاقه أن يكتبوه .

بيد أن فتنة السوق وسحره يمكن أن يقود المؤرخين إلى الضلال. تأمل هذا الفرض التالى. أنت مؤرخ مشهور. وكتبك السابقة باعت جيدًا. يمكن أن تطلب «مقدمًا» كبيرا تحت حساب حقوق التأليف المتوقعة لكتابك التالى من ناشر تجارى. وهذه المقدمات تدفع على دفعات، ولكن فى الحالات القانونية الحديثة حكمت المحاكم بأنك يمكن أن تحتفظ بالجزء الذى دفع مقدمًا بالفعل إذا كنت قد بذلت جهدًا طيبا لإنتاج الكتاب. والآن لديك عدة اختيارات- إنها اختيارات السوق.

لمن تقدم الكتاب (أنت أو وكيلك)؟ إن مطابع جامعات القمة لديها قدرة حرفية وسوف تعمل على أن تضع كتابك فى المكتبات كما ستبيعه إلى الباحثين وتضعه فى الفصول الدراسية، ولكن نادرًا ما تحقق كتبهم الدخول فى قوائم الأحسن مبيعًا. وأنت تقرر أن تتعامل مع ناشر تجارى. وهناك ميزة أخرى فى هذا الاختيار. ذلك أن الناشرين التجاريين يتخذون القرار بطباعة كتابك. وبعبارة أخرى، يقرأ المحررون الكتاب ويتخذون قرار نشره بأنفسهم. أما المطابع الأكاديمية فترسل مخطوطك لاثنين أو ثلاثة قراء لتقييمه. وحتى لو كان هؤلاء مع النشر، فإن المخطوط سوف يتطلب بعض المراجعات. ثم يجب أن يستجيب مخطوطك لموافقة هيئة تحرير المطابع الأكاديمية،

وهم مجموعة متميزة من علماء الإنسانيات والعلماء الذين ربما لا يعرفون إلا القليل عن موضوعك. ودار النشر الجارية يمكن أن تضع كتابك فى المكتبات فى غضون أربعة شهور إلى ستة شهور. أما المتوسط فى المطابع الأكاديمية فيتجاوز السنة منذ قبول المخطوط مرورا بتحرير النسخة وإجراء البروفات لكى تنهى الكتاب.

ما الموضوع الذى ينبغى عليك اختياره للكتاب الذى ستنشره فى مطبعة تجارية؟ إن أكثر الموضوعات شعبية- السيرة، والتاريخ العسكرى، والحرب الأهلية، وزمن الحرب العالمية الثانية- حسب المؤشرات، لأنها سيكون لها سوق دائمًا، ولكنك تعرف أن لديك القليل جدا من الجديد الذى تقوله عن هذه الموضوعات. فهل ينبغى لك أن تمضى السنوات فى البحث عن وثائق جديدة وتقدم تقارير متقدمة فى المؤتمرات (بينما قد يستمع الآخرون إلى ما اكتشفته «ويجرفون» ما تقوله؟» أم أنك سوف تمضى الشطر الأكبر من وقتك تجمع وتنكب على ما كتبه أسلافك، وتنسخ على بطاقات الاقتباسات من صفحات المصادر الأولية، مع بعض من أحسن الفقرات التى كتبوها؟

أنت تقرر أن تكتب سيرة لأبراهام لنكولن أو كتابًا عن غزو اليوم المحدد. وأنت تعرف أنه بمجرد أن تنهى هذا الكتاب يمكنك أن توقع عقدًا لكتاب آخر. والحقيقة. إن دخلك يعتمد على المقدمات أكثر من حقوق التأليف نفسها، لأنه حتى المقدمات المتواضعة (ربما خمسة أرقام) ربما سوف تتجاوز عشرة أو خمسة عشر بالمائة من صافى المبيعات التى سوف تحصل عليها من حقوق على مدى عمر الكتاب. وذلك سبب آخر لاختيار الناشر التجارى، فى الحقيقة، ومعظم كتب التاريخ الأكاديمية لا تبيع من النسخ ما

يكفى (فالمتوسط حوالى ١٢٠٠ نسخة لأى واحد- سواء ناشر مطبعة جامعية أو أستاذ مؤلف) - لأن يصبح غنيًا من ورائها.

ومعظم الكتب الصادرة عن المطابع الأكاديمية، كما نحكم من الاعترافات ومن غير ذلك من الأدلة، تستغرق ما يقرب من السنة فى البحث والكتابة، وأنت لا تملك مثل هذه الرفاهية. وعليك أن تتحرك بسرعة معقولة، أما تلك الكتب الأخرى، بما فيها من اقتباسات مشوقة من الوثائق أو المقابلات وملخصاتها النثرية الرائقة، فتبدو أكثر جاذبية، واقتباسك منها يبدأ فى التراكم فوق مكتبك. والاعتماد على ما قرأته فى صفحات الكتب الأخرى يزداد جاذبية يوما بعد يوم.

وباعتبار كتابك إسهامًا فى البحث العلمى، فإنه يجب أن يقول شيئًا، بل الكثير من الأشياء فى الحقيقة، تكون جديدة أو يجب أن تكشف عن الأدلة التى لم يرها أسلافك أو يستخدموها. بيد أن جميع اختيارات السوق التى جاءت بك إلى هذه النقطة فى عملك- اختيار الموضوع والناشر، وحجم المبلغ المدفوع مقدما - تضغط عليك لتأخذ طريقًا مختصرًا. فهل يجب أن تفعل ذلك؟ فى ٥ أبريل سنة ٢٠٠٢م، قابل كولمان وارنر من Times Picayune فى نيو أورليانز، دافيد روزنتال الناشر بسيمون وشوستر، ليناقشه حول مؤلفه ستيفن أمبروز. وقد أخبر روزنتال وارنر أن «التاريخ الشعبى والأكاديمى حيوانان مختلفان، وأن كتابا لأمبروز يحصل على قدر أقل من تمحيص دقة الحقائق مما يجب أن تخضع له دراسة غامضة تقدم لمجلة متخصصة فى التاريخ. فنحن نثق فى أن المؤلف يتحرى الدقة». وقال روزنتال: «إن غرضنا هنا ليس أن نخلق كتابًا تم فحصه أكاديميًا. وإنما أن نخلق كتابا يمكن قراءته، دقيقا، ومعقولا، ويناسب الموضوع جيدًا».

كان ستيفن أمبروز قاصًا متفوقًا يقدم إلى الجمهور ما يريده على الرغم من أنه كان أستاذا للتاريخ فى جامعة نيو أورليانز. وكان إنتاجه ضخمًا. وبمساعدة من عائلته كان ينهى كتابًا كل سنتين. وكانت موضوعاته تتناول سير الرؤساء، والمغامرة والحرب. وعندما كان يبين تمامًا أو بشكل عادل درجة الاستعارة - فإن محررته فى دار سيمون وشوسر، أليس ماى هيو، أخبرته حسبما قال، أن يواصل الكتابة. ووافق روزنتال. وقال « فى سيمون وشوسر، يبدو الانتحال بلا تأثير على مبيعات كتب روزنتال إننا نتلهف شوقًا لكتاب روزنتال التالى». لديهم جميعًا المخاطرة التجارية نفسها فى استمرار إنتاجه. لقد اختاروا خيارًا سوقيا بأن أساليبه المثيرة للريبة لن تخفض من مبيعاته. وكانوا على حق بشأن المبيعات، كما كان نقاده على حق فى أنه كان منتحلا محنكا، ولكن هل كانت حساباتهم تستحق أن تستحسنها فلسفة التاريخ الخاصة بنا؟

صدق أو لا تصدق، حتى فى هذا اليوم الذى يتسم بالحذر الصارم ضد الانتحال، من الممكن تأليف دفاع عن الاستعارة بدون الإشارة إلى المرجع. وأجزاء ذلك الدفاع تكاد تكون قديمة قدم الكتب المطبوعة. وعندما أشار رجل لم يذكر اسمه إلى جيمس كيركباتريك قد سرق اللغة، والشكل، والموضوع لكتابه الذى يحفل بالشعر على امتداد صفحاته (١٧٥٠) Sea- Piece، من نصوص كلاسيكية، انتفض قائلا: «هنا يبدو صعبا على العقل الذى يحمل أقل قدر من الكرم ألا يعبر عن احتقاره للآلام المثيرة للأحقاد» عند أولئك الذين يعتبرون « ما صار معتادًا للغاية فى عالم الكتابات التافهة» جريمة «انتحال». والحقيقة أن التشابه الكثير لن يمكن تجنبه، لأن كلا المتشابهين سيوظفان نفسيهما فى الموضوع والربط بينهما». وباختصار الكل فعلوا هذا، وحتى لو لم يكن النسخ «معتادًا» فإن تشابه العبارات والاستخدامات المتشابهة للمصادر الأولية نفسها كانت حتمية.

ولئلا يجيب أحد هؤلاء القراء غير المحسنين الذين ذمهم كيركباتريك بقوله: «حسنا كان ذلك فى ذلك الحين، ولكنه ليس الآن» تأمل الحالتين التاليتين الأكثر حداثة. ذلك أن كاتب السيرة وأستاذ التاريخ ستيفن أواتيس يحكى القصة الأولى. فقد «بدأت فى سنة ١٩٩٠-١٩٩١م، عندما قام ناقد أدبى، أستاذ فى الكلاسيكيات، وأستاذ مشارك فى علم الإجرام واثنان من المؤرخين بتوجيه الاتهام علنا لى بأننى انتحلت فى كتابى With Malice towards None السيرة التى كتبتها عن لنكولن. وقد حددوا دليلا على تشابه العبارات وشذرات قصيرة من الحقائق فى روايتى عن السنوات الباكرة فى حياة لنكولن وتلك الموجودة فى السيرة التى كتبها بنيامين توماس سنة ١٩٥٢م بعنوان Abraham Lincoln, A Biography.

ولم يلبث الاتهام أن صار معلومًا للجميع، وشن أواتيس دفاعًا عنيفا ضد التهمة. ذلك أن زملاءه فى دراسات الحرب الأهلية ولنكولن حصلوا على خطابات تدافع عنه، كانت قائمة فى الأساس على تقدير كاتبى الخطابات لشخصية أواتيس المهنية والشخصية. وقد طعن فى التحقيق الذى قام به القسم المهنى فى الجمعية التاريخية الأمريكية فى الموضوع (لم يكن عضوا فى الجمعية التاريخية الأمريكية ولذلك رفض التحقيق) وفى الصحافة. وبعد عشر سنوات كان ما زال يتقدم مجادلاً بأن «فى الحقيقة، لا توجد خطوط إرشادية إلى ماهية الاعتراف بالمصادر فى السير والتواريخ العامة. وقد كانت آلاف من مثل هذه الكتب ومنها الكثير جدا عن لنكولن قد نشرت بدون أية إشارات مرجعية أو قوائم المصادر والمراجع على الإطلاق». فقد كان توماس قد كتب خمسة كتب عن لنكولن، وكان قد ذكر الحد الأدنى من المراجع فقط. فقد كان أواتيس قد استخدم فقط المصادر نفسها التى استخدمها توماس، ومن ثم كان حتميًا أن يصوغ الصور نفسها.

وقد رد ميخائيل بورلينجيم، أحد الذين اتهموا أواتيس فى سلسلة من الاقتباسات المزدوجة من أواتيس وتوماس، منها مثلا :

ستيفن ب. أواتيس «إنهم يواصلون جر مكانسهم الرشيقة بقوة لتجنب النتوءات والحواجز الرملية...»

بنيامين ب. توماس «وبالجر الشديد للمكانس الرشيقة لتجنب النتوءات والحواجز الرملية...»

ستيفن ب. أواتيس «تاد ... أكل الفراولة كلها قاصدًا أن تكون عشاء فحنق الساقى على الصبى وشد شعره...»

بنيامين ب. توماس «أكل تاد الفراولة كلها قاصدًا أن تكون عشاء فحنق الساقى ومزق شعر الصبى...»

ستيفن ب. أواتيس «كانت الفترة التى عمل فيها حاصدًا لدى عائلة ماكورميك أكثر تجربة ساحقة فى حياته»

بنيامين ب. توماس «لقد تذكر الجفاء الذى لقيه فى سينسناتى عندما كان حاصدا لدى عائلة ماكورميك باعتبارها أكثر تجربة ساحقة فى حياته...»

وأيا كان قرار القارئ بشأن هذه العبارات المتقاربة وغيرها فى الكتابين، فإن قصدنا هو أن أواتيس وناشره، هابر، روو، Harper and Row الذى كان ناشرا تجاريا كبيرًا بمدينة نيويورك فى ذلك الحين، كانوا يعرفون أن مشروع لنكولن مشروع ناجح. أما أواتيس الذى كان آنذاك فى منتصف حياته العملية فقط، فكان يبرهن على أنه كاتب سيرة ناجحًا تجاريًا. وكان بالفعل قد كتب سيرة جون براون، وكتابين عن حدود تكساس، وقبلها بسنتين

كتب With Malice Toward None، وهى سيرة للعبد المتمرد نات تيرنـــر. وأمضى أواتيس عامين لتأليف كتاب لنكولن فى ٤٩٢ صفحة مـــن الحجـــم الكبير. ثم أعقب ذلك، فى مدى عشر سنوات، كتاب قـــصير عـــن الحـــرب الأهلية وسيرة تقع فى ٥٦٠ صفحة عن مارتين لوثر كينج (١٩٨٢)، وكتاب آخر عن لنكولن، وسيرة معدلة فى ٤٣٤ صفحة عن جون براون وكتاب عن كيفية كتابة السيرة. ويمضى كتاب السير والتراجم عشرات السنين عادة فـــى الكتب الكبيرة مثل الذى كتبه أواتيس عن جون براون ولنكولن ومارتين لوثر كينج. وعلى النقيض كانت إنتاجية أواتيس تجارى إنتاجية أمبـــروز. ومـــن المؤكد أن المؤلف والناشر يمكن التماس العذر لهما إذا ما سألا: لماذا نمضى سنة إضافية أو اثنتين أو ثلاثا بحثا عن طرق لقول بكلمات مختلفة على حين كان توماس قد قاله بهذه الجودة؟ .

وفى المقالة الأخيرة بالمجموعة التى حررها بعنـــوان Biography as High Adventure كتب أواتيس: «بالنسبة لى، لم تكن كتابة السيرة فقط أدبًـــا ساميا ومغامرة تاريخية، وإنما هى تجربة شخصية عميقة أيضا. لقد عـــشت خلال حياة أربعة من البشر إلى جانب حياتى الخاصة، وهو شـــىء أثـــرى حياتى للغاية باعتبارى كاتبًا ورجلا». وربما كان اختيـــار أواتـــيس لفعـــل «أثرى» غير موات فى ضوء الاتهامات .الأخيرة، لأنه بينما لم تكن هنـــاك حاجة بحثية لكتابة سيرة أخرى للنكولن، توجد طرق أخرى ناجحة للغاية من الناحية التجارية فى إثراء مؤلفيها .

وثمة حالة ثانية: تأمل ما كان على القاضى ريتشارد بوسنر أن يقولـــه عن الانتحال، وهو يحمل فى ذهنه أن القاضى واحد من الذين يتجسد فـــيهم القانون والنظرية الاقتصادية، والتى تكون فيها القيمة الأخلاقية لأى ســـلوك موزونة بما لها من تأثير على السوق «إن فكرة أن النقل عن أفكار شـــخص

آخر أو تعبيره (أى شكل الكلمات التى صيغت بها الفكرة) دونما ترخيص من الشخص وبدون اعتراف واضح بالنقل، أمر مذموم، وعموما، فهو زيف واضح» لماذا؟ لأنه «هذه خاصية عامة فى الوثائق الحكومية، والخطب فى الكونجرس، والكتب التى يؤلفها المشاهير». وربما كان للقاضى بوسنر أن يضيف رؤساء الجامعات والقساوسة، وغيرهم ممن يشغلون مناصب عليا. وواصل بوسنر كلامه بقوله «إن كتاب چون كينيدى الذى كان من أعضاء السناتو آنذاك، مثلاً، Profile in Courage، الذى فاز بجائزة بوليتزر، كان «كتابًا ناجحًا». وهناك كثير من الآراء القضائية تحمل هذا الطابع. ويبدو محتملاً أن كثيرا من الموضوعات التى تشغل عدة مجلدات والتى يكتبها عادة أساتذة القانون «كتب ناجحة» فيها تكون معظم الكتابة الفعلية من عمل مساعدى البحث من الطلاب... على الرغم من أننى أخمن وليس لدى دليل فعلى».

لقد كان الانتحال بالنسبة لبوسنر «بطاقة ترتبط بحالات من النقل غير المرخص لا يوافق عليه المجتمع، أو مجموعة مؤثرة فيه» وإذا كان التزوير أو انتهاك حقوق الملكية الفكرية أو أى شكل آخر من خسران حقوق الملكية متضمنًا، فمن المؤكد أن الانتحال يستحق الذم، وإذا كان الطالب أو المؤلف يكسب من التزوير، يكون هذا عدوانًا. « إن المؤرخ المحترف الذى «ألف» كتابًا جماعيا بدون الإفصاح عن الحقيقة سوف يكون مدانًا بالتزوير لأن رفاقه من المؤرخين سيظنون أنه ألفه بنفسه». إن سوء التقديم لأى منتج هو الخطيئة، وليس السلوك الخاطئ فى الكتابة.

ومن الممكن ألا يكون الانتحال من النوع الذى مارسه أمبروز مستساغًا حتى بالنسبة لأكثر المدافعين عن سلوك سبنسر استخفافًا، أو القانون والنظرية الاقتصادية لتلك المسألة، ولكن نوعًا آخر من الاختصار الذى يعتمد

على السوق نادرًا ما يتعرض للإدانة، حتى من جانب أكثر المؤرخين تدقيقًا. وفى الاعتراف بالشكر لقاء فوزها بجائزة بليتزر لكتابها عن فرانكلين وليانور روزفيلت زمن الحرب العالمية الثانية No Ordinary Time، كشفت دوريس كيرنس جودوين عن أنه «لم يكن هذا الكتاب ممكنًا بدون المساعدة البحثية من جانب ليندا فاندرجريفت ... إن مثابرتها فى التنقيب بدور الوثائق، وحبها للتفاصيل، وعطفها قد صاحبنى فى كل خطوة على الطريق». ولقد اجتمعت المرأتان ثانية من أجل كتاب جودوين Team of Rivals: The Political Genius of A.L (2005. ومرة أخرى اعترفت جودوين: «إننى أدين بدين باهظ مرة أخرى لصديقتى العظيمة ومساعدتى الدءوب ليندا فاندرجريفت». وفى الشكر لكتابها الذى كان من أحسن الكتب مبيعًا Founding Mothers: The Women who raised Our Nation: (New York: Marrow, 2004) ذكرت كوكى روبرتس: لم أكن لأستطيع إنجازه بدون المساعدة من صديقتى القديمة آن شارنلى». فقد قامت آن شارنلى بالبحث، وساعدتها أبيجيل ابنة أخت روبرتس، وكتبت الهوامش آنى ويتورث.

وعادة ما يفكر المرء فى الكتاب التاريخى باعتباره البحث وكتابة التاريخ. وإذا كان الزمن له هذه الأهمية الجوهرية ومرشد السوق، فمن المعقول أن نجمع فريقا من الباحثين، ومن يقومون بتمحيص الحقائق، وغير ذلك من المساعدين. وعندها يصبح المؤلف شيئا مثل الجامع الذى يضع القطع سويا فى نموذج سار بعد أن وجدها الآخرون. فهل هذا النوع من العمل الجماعى يمكن مناقشته فى فلسفة التاريخ؟ وثمة إجابة مفيدة للغاية تأتى من السوق نفسه، أو من أداة أكاديمية تستخدم غالبًا لصنع قرارات السوق.

هل ندع المشترى يحترس؟

ربما يجيب المرء على الخطر الذى يواجه تاريخنا فـــى كـــل مكـــان السوق: «دع المشترى يحترس» Caveat emptor. ألا يوجد فى الداخل نسق من الأفكار أكثر حذلقة وحداثة عن قرارات السوق تصنع أسسًا أخرى مـــن أجل السيطرة على سلوك المؤرخين؟ إننى أقترح نظرية لتلك اللعبة، وبصفة خاصة ذلك العنصر الذى يسمى «معضلة السجين»، التى تقدم حلاً مستحسنًا للمعضلات الأكاديمية وإلاّ سوف يتم حلها على نحو غير أخلاقى.

وقد تم صك مصطلح «معضلة السجين» على يد ألبرت توكير، عـــالم الرياضيات فى جامعة برنستون، للمساعدة فى شرح نظرية اللعبة لتلاميـــذه. وقبل الحرب العالمية الثانية، قام عدد من علمـــاء الرياضـــيات اللامعـــين، وخاصة جوناثان فون نيومان (واحد من العمالقة من معدى برامج الكمبيوتر الأوائل) بإبراز أن صنع القرار يمكن تخفيضه إلى نوع من اللعبة الحسابية. وبعد الحرب، والعالم يترنح من جراء خطر السقوط فى هوة حرب نوويـــة عالمية، كانت الحاجة إلى إيجاد استراتيجيات تحد من المخاطر إلـــى الحـــد الأدنى فى الحرب الباردة بين القوى الغربية والكتلة الشيوعية قد قادت بعض علماء الرياضيات إلى الاتجاه صوب نظرية اللعبـــة. وفـــى «مـــستودعات التفكير» مثل مؤسسة راند RAND فى كاليفورنيـــا التـــى تمولهـــا حكومـــة الولايات المتحدة فى (اختصار لاسم Research and Development) ســـعى علماء الرياضيات وراء نماذج تنبؤية يعتمد عليها للخروج بتخمينـــات مـــن سلوك الأمم. وقد أقنعت نظرية اللعبة مخططى الـــسياسة الأمريكيـــة بـــأن الضربة الأولى ضد العدو لابد وأن تؤدى إلى الرد.

وفى مؤسسة راند سنة ١٩٤٩م فكر ميريل فلود، وملفين درشر فـــى معضلة السجين وطبقاها علـــى مجـــال واســـع مـــن المواقـــف العـــسكرية والاقتصادية والسياسية لوزن المخاطر والفرض أمام سلام عـــالمى وتقـــدم

اقتصادي. وقد نشر الناس في راند التي كانت سنة ١٩٤٩م مشروعًا خاصًا لا يسعى إلى الربح، كلمة عن إنجازاتهم. وقد علم توكر بالمعضلة، فقد شد الاسم الذي وضعه لها الانتباه، وبدوره جعل نظرية اللعبة نظرية شائعة. وقيض لجون ناش، وهو أحد تلاميذ توكر في جامعة برنستون، أن يحمل النظرية إلى ارتفاعات جديدة من التعقيد في سنة ١٩٥٠م في الرسالة التي تقدم بها وفاز بجائزة نوبل في الاقتصاديات سنة ١٩٩٤م. وقد رويت قصته في الكتاب والفيلم A Beautiful Mind .

وفي لعبة غير تعاونية، يتخذ لاعبون مختلفون قرارات لتعظيم مكاسبهم. هل هناك مردودات مربحة وعقلانية متبادلة في مثل هذه الألعاب، أم أن مردوداتهم لا يمكن التنبؤ بها بصورة فطرية ولا يمكن استردادها؟ ووجد ناش أن هناك عائدًا عقلانيًا لكل لعبة مثل هذه، وهو ما وضع له منظرو اللعبة اللاحقون مصطلح توازن ناش. ومثل هذا التوازن ليس شيئًا ولكنها مجموعة من التوقعات والتنبؤات عن كيف سوف يتخذ اللاعبون قراراتهم. واقترح ناش أنه إذا كان لدى اللاعبين جميعا المعلومات نفسها- أي نفس كتاب اللعب- وكانوا كلهم عقلانيين، فإن اللعبة إذن يمكن أن تأتي إلى نقطة حيث لا يمكن لأي لاعب أن يزيد من أرباحه في مقابل ما ربحه اللاعبون الآخرون. فهنا كثير من الافتراضات، وفي نصف القرن الذي أعقب اقتراح ناش نظريته حدثت تعديلات وتغييرات كثيرة عليها.

ولكن الأساسيات واضحة ويمكن أن تنطبق على المؤرخين. تخيل، على سبيل المثال، أنك تقوم بمراجعة فصول كتاب ما في فلسفة التاريخ لزماننا. وبينما أنت تراجع كل فصل، تبدو الفصول الأخرى كلها رثة بالمقارنة معه. وهكذا تراجع فصلاً آخر. وكل الفصول الأخرى (بما فيها الفصل الذي أنهيته للتو) تبدو فقيرة بالمقارنة معه. وعندما تراجع فصلا، أي

فصل، لا يتحسن بعد ذلك بالنسبة للفصول الأخرى- تكون قد وصلت إلى توازن ناش. ومقولة ناش هى أنه يمكن الوصول إلى مثل هذا التوازن فى كل لعبة تلعب بعقلانية- أو، بالنسبة لمثالنا، كل عملية مراجعة لفصول الكتاب. إنها لا تخبر اللاعبين متى سيكون التوازن موجودًا، تمامًا مثلما لا تقول للمؤلف متى يتوقف عن التعديل فى النص وتسليم المخطوط لأحد الناشرين، ولكن ذلك يؤكد لنا بالفعل أنه سيكون هناك وقت لإرسال المخطوط.

وتتضمن معادلة ناش بعدًا أخلاقيًا ومعنويًا ونفسيا لصنع القرار. إذ يجب على اللاعبين أن يكونوا متسقين فى رؤاهم لأهدافهم وآرائهم طوال اللعبة فى أهداف اللاعبين الآخرين. ويتطلب هذا درجة من الوعى الذاتى وثقافة مشتركة فيما بين اللاعبين. والمؤرخون لديهم هذه السجايا. وبوصفنا أفرادًا نحن على وعى بأهدافنا ونعمل على تحقيق تلك الأهداف بطريقة عقلانية. فنحن نشترك فى ثقافة عامة عن الأمانة والكرامة متجسدة فى بيان المستويات الصادر عن الجمعية التاريخية الأمريكية. ولكن سلوك المؤرخين فى السوق ليس عقلانيًا دائمًا. وليس كل فرد يشترك مع الآخرين فى القيم نفسها. وليس كل واحد لديه المعلومات نفسها. وليس كل قرار قد اتخذ بطريقة عقلانية. إن اليد تقفز، والعقل يترنح، وترتعش العقلانية. ويمكن للمرء أن يصيغ الاحتمالية من هذا النوع من الانحراف عن توازن ناش بتطبيق «معضلة السجين» على اختيارات المؤرخين فى السوق.

نحن نواجه شكلاً أو آخر من «معضلة السجين» يوميًا، والصيغة المعروفة أحسن من غيرها هى صيغة العرض التليفزيونى عن إجراءات البوليس، والحقيقة أنها الصيغة التى استخدمها توكر لتقديم اللعبة إلى تلاميذه. فقد ألقى البوليس القبض على اثنين أو أكثر من المشبوهين وجاء بهم إلى قسم

الشرطة للتهمة نفسها. ووضعوا كلاً منهما فى غرفة تحقيق منفصلة وقال لكل واحد «أمامك عرض واحد ومن يقبله منكما أولاً سوف يحصل على ضمان بحكم مخفف. عليك أن توافق على أن تشهد ضد المسجون الآخر. فإذا ما قبله هو أولا، فسوف تنال عقوبة أطول فى السجن» فإذا لم يتكلم أى منهما، لن تكون الشرطة قادرة على إدانة أى واحد بأى شيء. ولكن كل مشتبه به لا يمكن أن يعرف ما الذى سيفعله الآخر. وإذا ما بقى مشتبه صامتًا على حين يوافق آخر على الصفقة، يكون هو الخاسر الأكبر. ويبدو التعاون مع الشرطة هو الذى يقدم أحسن نتيجة، ويسمى الاختيار السائد، ويبدو أنه الاختيار العقلانى. ولكن النتيجة الأفضل لكل من المشتبه بهما ألاّ يقولا شيئًا، أو ينكران كل شيء. عندها سيخرجان من قسم الشرطة. والحيلة هى أن القرار العقلانى لأحد اللاعبين هو اللاعقلانى لكليهما.

والآن قد تفكر قائلا لنفسك ما الخطأ فى اختيار الخيار الأفضل لى؟ وأحد الأقوال المنسوبة إلى الربى التلمودى الحكيم هيلليل قوله: «إذا لم أكن من أجل نفسى، فمن إذن يجب أن يكون من أجلى». وعلى سبيل المثال، إذا كنت أنا على ثقة كافية فى أعمالى لكى أسلمها للنشر وإمكانية النقد أو حتى الرفض، فمن إذن سوف يدافع عن قدراتى بوصفى باحثًا؟ لا يجب أن ننسى النصف الثانى من القول: «إذا كنت لنفسى فقط، فما نوع الشخص الذى أكون؟».

كم مرة يوميًا نرغى ونزيد فى وجه الشخص الذى يأخذ اختيارات أنانية فى النسخة اليومية من «معضلة السجين»؟ إن الشخص الذى يصرُّ على الالتفاف يسارًا عند الضوء ويخرج عن مسار حركة المرور، ويخلق اختناقا: والشخص الذى يعطل الصف كله عند صندوق الحساب فى محاولة لافراغ جيبه من العملات الصغيرة (الفكة)؛ والشخص الذى يأخذ كل دجاج

تكا فى البوفيه الهندى بدلاً من أن يأخذ قطعة واحدة، ليترك كل الآخرين فى المطعم انتظارًا لصينية أخرى تصل من المطبخ، كلهم أمثلة على تفكير أنـا أولا الذى، لو صار القاعدة، لابد أن يخلق اختناقا اجتماعيًا حقيقيًا(*).

إن التاريخ حافل بالأمثلة عن الأنانية الفردية التـى تهـدد المجتمعـات بأسرها. فعندما قدم التجار الإنجليز للهنود فى الجنوب الشرقى بضائع التجارة الأوربية فى مقابل جلود الغزال، كان السكان المحليون زبائن متلهفين. وعلـى الرغم من أن عاداتهم التقليدية كانت تنطوى على صيد الغزلان فى مجموعة ثم يتقاسمون حصيلة الصيد جميعا، فإن فرصة الحصول على بـضائع التجـارة تسببت فى أن يقوم الأفراد بالصيد لحسابهم. وكانت النتيجـة الـصيد الجـائر للغزلان وإهمال المسئوليات الاجتماعية. وقد تضور الهنود جوعا لأن أعـداد الحيوانات تناقصت إلى مستويات منخفضة حرجة. إن القرار بتحسين مصالح المرء الخاصة كان خطرًا على بقاء القرية.

وعندما لا يلعب اللعبة اللاعبون الأفراد، وإنما تلعبها شعوب أو أمـم بأسرها، تصير أكثر تعقيدًا، تشبه الأحداث التاريخية الفعلية إلى حد كبيـر. ومع هذا، فإن أحسن عائد مشترك (أعظم خير لأعظم عدد) قد لايتصل بمـا يبدو أنه الاختيار العقلانى لشعب ما أو لوطن ما. وعلى سبيل المثال، إذا كان لدى أمتين اختيار بين السلم أو الحرب ضد إحداهما الأخرى، يكون الـسلام هو أحسن نتيجة لكليهما، ولكن إذا شنت إحداهما الحرب على الأخرى، فقـد تحصل على الأرض المرغوبة والموارد غير المتاحة من خـلال العلاقـات السلمية. وهكذا يبدو القرار العقلانى هو الذهاب إلى الحرب، ولكن إذا أخذت

(*) هذا كلام جميل يصلح فى مجال التوعية الاجتماعية؛ ولكن ما علاقته بفلسفة التاريخ التى يزعم المؤلف أنه يسعى وراءها. وفى ظنى أن فكرة التـاريخ عنـد المؤلـف متواضعة وسطحية للغاية. (المترجم)

كلتا الأمتين هذه الطريقة وشنت كل منهما الحرب على الأخرى، فلن تكون لأى منهما ميزة على الأخرى، وتكون النتيجة دمارا لكل منهما.

وهكذا تكون نتيجة ما يبدو أنه قرار عقلانى بالنسبة لإحدى الأمتين فى الواقع قرارًا لا عقلانيًا لكليهما.

وبسبب كل التجريد والتعقيد الممكن فى "معضلة السجين"، فإنها ليست مجرد معادلة مجردة أو لعبة. إنها التاريخ على شكل لعبة. وفى مصطلحات أهداف الأمم المنفردة فى مواجهة الصالح العالمى، تتكرر "معضلة السجين" فى كل مغامرة إمبريالية، وكل قرار لاستغلال الموارد الطبيعية فى البلاد النامية، وفى انتشار للتقدم التكنولوچى. وعندما يضع القادة السياسيون والمتعاونون الأفضليات قصيرة المدى والمصالح الاقتصادية (مثلا الوظائف فى الصناعات الملوثة للبيئة) قبل المصالح بعيدة المدى (مثل الحفاظ على البيئة) فإنهم يلعبون لعبة "معضلة السجين".

أساليب لعب المؤرخين

يواجه المؤرخون صيغتهم الخاصة من هذه المعضلات. فهل يجب عليهم أن ينسخوا عن كتاب غير منشور لمؤلف آخر أو ورقة مقدمة لحلقة نقاشية أو محاضرة عامة ويضربون المؤلف الآخر فى الطباعة؟ يكررون القصص القديمة بدون إضافة أى جديد لمجرد النشر؟ تشاركهم ما توصلوا إليه من خلال بحوثهم؟ ويعملون تجاه تاريخ أفضل فى مشروعات مشتركة أو يمضون وحدهم؟ إن الحاجة الملحة لتحقيق السبق على زملاء المرء قد زادت بفعل نظام النشر والتوظيف الذى يمنح المكافأة للمجهود الفردى، ولكن إخفاء الاكتشافات عن الآخرين الذين يعملون فى المجال نفسه، على مدى عدة سنوات أحيانا، على حين يجهز المؤرخ كتابه، يمثل نكسة للعلم بأسره.

والتوظيف فى أقسام التاريخ يخضع لمنافسة شديدة. ففى سبيل الحصول على وظيفة فى تاريخ أمريكا فى القرن العشرين تلقى القسم الذى أعمل به ما يزيد على مائتى طلب. ومن هؤلاء كان لخمسين من هؤلاء المتقدمين تقريبا من الأوراق، والخبرة، والمنشورات وخاصية التدريس، ما يعادل أو أحسن مما كان لدى عندما تم توظيفى منذ ثلاثين سنة مضت. ويمكن أن نعقد مقابلة لدستة فقط من هؤلاء الناس الذين يحملون مؤهلات مدهشة، ونجىء بثلاثة أو أربعة منهم فقط إلى رحاب الجامعة، ويتم توظيف واحد منهم فقط.

ماذا لو قرر واحد من المتقدمين أن يغش؟ ولو أن كل متقدم للوظيفة أمين فى طلب التقدم بشكل منضبط، لما كان هناك أحد يتمتع بميزة غير عادلة. ولكن إذا كان هناك أحد ما يكذب بشأن الإنجازات التعليمية أو منشوراته، فإنه حينئذ يكتسب ميزة على جميع المرشحين الآخرين. وضد مجرى التصرف هذا يجب على المرء أن يخاطر بأن الكذبة سوف تكتشف، ولكن المكسب المحتمل قد يفوق فى وزنه المخاطرة فى عقل المتقدم للوظيفة، ومن ثم لا تكون هناك ميزة لأحد. فما الذى ينبغى على المتقدم للوظيفة أن يفعله؟

ويقترح توازن ناش إجابة. أين سيجد جميع المتقدمين التوازن؟ وأين لا يكن لأحد من اللاعبين يمكنه أن يكسب أية ميزة ضد الآخرين إذا ما مارس أحدهم الغش؟ إذا كان أحدهم يغش، فإن الآخرين يجب أن يغشوا إذا ما كان لهم أن يربحوا فى مواجهة أولئك الذين ما يزالون يلعبون بحسب القواعد. وليس هناك توازن ما دام الجميع يبدأون الغش ويستمرون فيه. فهل هذه نتيجة مرغوبة لأى واحد من الغشاشين؟ لا. لأنهم لم يكسبوا شيئا من غشهم، باستثناء زيادة مخاطر الانكشاف. وعلى أية حال، إذا كان الكل يلعبون بحسب القواعد، فلا أحد يكسب المزيد فى مواجهة اللاعبين الآخرين. وهكذا يكون الغش عملاً غير عقلانى للجميع.

والمعلومات عن القواعد، حسب متطلبات توازن ناش، متاحة أمام كل اللاعبين. وكل من يحضر مقابلة من أجل وظيفة، وكل من يتم توظيفه فـــى عمل، لديه كتاب اللعبة نفسه. "وبيان المعـــايير" الـــذى وضـــعته الجمعيـــة التاريخية الأمريكية يقول: "إن المؤرخين ملزمون بأن يقدموا أوراق اعتمادهم بدقة وأمانة فى كل المناسبات، ويجب عليهم أن يحرصوا على أن لايـــسيئوا تقديم مؤهلاتهم فى الخلاصات، وطلبات الوظائف، أو السجل العام. وعلـــيهم أن يطبقوا القوة والكرامة نفسها فى وصف منجزاتهم مثلما تطبقهـــا مهنـــتهم على السجل التاريخى نفسه". وباختـــصار، تتطلـــب أخلاقيـــات المهنـــة أن يكون طالبو الوظائف صادقين، كما أن الكذب يقـــوض أســـاس التوظيـــف الأكاديمى برمته.

فما الذى يحدث عندما تبحث أقسام التاريخ عمن يشغل وظيفة- مثلاً، فى تاريخ الولايات المتحدة فى القرن العشرين- ولكن لديها جدول أعمال لا يكشفون عنه فى الإعلان؟ فعلى سبيل المثال، قد يرغبون فى زيادة وجـــود أقليتهم أو عدد النساء فى القسم. مثل هذه المعلومات يمكن أن تكون متاحـــة لبعض المرشحين ولكنها ليست متاحة للبعض الآخر، أو يمكن اســـتخراجها من طبيعة توصيف الوظيفة ولكن لم يتم الإفصاح عنهـــا. وبحـــسب "بيـــان المعايير" فإن "قرارات التعيين تنطوى دائما على أحكام. ولكن فيما عدا تلـــك الأحوال التى يسمح فيها القانون الفيدرالى بتفضيل خاص، فإن المعاهد يجب أن تجعل قرارات التوظيف وكذلك القـــرارات المتعلقـــة بإعـــادة التعيـــين، والترقيات، ومدة الوظيفة، والتملذة، وعمل المساعدين العلميين من الخريجين، والجوائز، ومنح الزمالة قائمة فقط على أساس المؤهلات المهنية دون اعتبار للجنس، أو العرق، أو اللون، أو الأصـــل القـــومى، أو الاتجـــاه الجنـــسى، أو الدين، أو الالتزام السياسى أو الخبرة المهنية، أو السن، أو بعض الإعاقات الجسدية، أو الحالة الاجتماعية".

هل يمكن أن تساعد نظرية اللعبة فى تفسير كيف يجب أن يتصرف القسم فى هذه الحال؟ إن القرار العقلانى فى المدى القصير، تمامًا مثل قبول الصفقة التى تقدمها الشرطة، أو قرار دخول الحرب، سوف تكون اختيارات من بين عدد المتقدمين للوظيفة، بحيث ينزل بها إلى مجرد أولئك الأفراد الذين يناسبون توصيف الوظيفة الخفى. ولكن التفكير فى ضوء توازن ناش، ماذا لو أن كل بحث مضى فى هذا الطريق- مثلا، التفرقة ضد النساء لأن القسم لم يكن يريد المزيد من النساء، أو لا يعتبر الأفراد بسبب انتمائهم الدينى (أو يتطلب من كل المتقدمين للوظيفة أن يخضعوا لاختبار إيمانى قبل السماح لترشيحاتهم بالمضى قدمًا)؟ فماذا ستكون نتيجة مثل هذا القرار؟ لابد أن النتيجة ستكون أن التوظيف لم يعد قائمًا على الجدارة وإنما على مناسبة الأفراد للقسم لأسباب غير مهنية تمامًا أو إلى حد كبير. وقد تتدهور الأقسام المنفردة فى مكانتها وهى تعيد ملء صفوفها بأنواع معينة من المجموعات العرقية أو الدينية فقط. ولابد أن تتدهور مكانة المهنة كذلك، عندما يدرك الأفراد ذوو الجدارة الذين ينوون العمل فى مجال التاريخ يدركون أن احتمالات وظيفتهم لا تعتمد على الجدارة وإنما على الخصائص الشخصية. وقد حدث شىء من هذا القبيل حقًا فى المهنة التاريخية. هذا هو السبب فى أن التوظيف الآن لا يتم بحسب توازن ناش.

وتأمل اللعبة الآن من منظور المرشح للوظيفة. إذ يتم تقييمه من جانب أكثر من قسم. فعندما يتنافس أحد أقسام التاريخ من أجل فرد لديه "عروض خارجية"، فإن الفرد يمكنه أن يصل بمكسبه بالتلاعب بالقسمين ضد أحدهما الآخر. ويخبر الفرد القسم الذى قدم له العرض بأنه يريد الكثير، ثم يخبر القسم الذى يعمل به أنه يرغب جدا فى البقاء. لقد زاد المتقدم للوظيفة من قيمته إلى الحد الأقصى بأن "ربط" العصى سويًا. والمؤرخون الناجحون فى

هذه اللعبة سوف يخبرون زملاءهم الساخطين أن علـيهم أن "يـذهبوا إلـى السوق" من أجل كسب مميزات مماثلة فى الراتب وفى العبء التدريسى.

ماذا يحدث لو أن الجميع تبنوا هذا القرار؟ يصبح كل واحد فى القسم بضاعة قابلة للتسويق (أو غير قابلة للتسويق). فهل يؤدى هذا إلى التـوازن، عندما يصل الجميع إلى المرحلة التى لا يكون أى قرار جديد يجلب المكافأة؟ لا. وبدلاً من ذلك، سوف تقود الكل إلى أن يكرر العملية للبحث فى الخارج عن العروض فى كل سنة، وهو عكس التوازن تمامًا لأن نهاية اللعبـة، أى توازن ناش، لم تعد فى الإمكان. والبديل أنه سيكون هناك أدوار بلا نهايـة للبحث عن عروض خارجية.

وبمكافأة مثل هذا السلوك، فى الواقع قياس جدارة الفرد فى القسم بناء على الكيفية التى يكون بها الفرد جذابًا للأقسام الأخـرى، وللقـسم المحلـى والأقسام التى تحاول إغراء المرشح للوظيفة تجد نفسها أيضا فى حال عـدم التوازن. ذلك أنهم لا يمكن أن يتنبأوا بمن الذى سيبقى ومن الـذى سـيرحل ويواجهون مشكلة الحفاظ على هيئة التدريس من الرحيل- أو توظيف أعضاء جدد - فى كل سنة.

هل يمكن لتوازن ناش أن يساعدنا مع مشكلة الغش فى المنـشورات؟ نعم. فعلى سبيل المثال، أنا أعرف أن هناك سوقًا لسيرة أخرى لجرانت U.S، ولكن هناك القليل مما يقال جديدا. وأجد سيرة قديمة، توفى مؤلفها، وأستعير منه بحرية لكتابى. والاستعارة تقلل من الوقت الـذى يـستلزمه اسـتكمال مشروعى. وكتابى ناجح تجاريًا. وقد فزت فى "معضلة السجين" لقد كـسب الغشاش ميزة فى السوق، ولكن إذا كان ذلك القرار عقلانيا، فإن كل الآخرين فى الموقف نفسه، بعقلانية، يجب أن يقصوا ويلصقوا الكتب من كتب أخرى. دعك من انتهاك حقوق التأليف، فإن النتيجة ليست توازن ناش وإنما عمليـة

متصاعدة إلى الأبد من الأعمال غير الأصلية التى تتخفى فى قناع الجدة. وربما يرضى جمهور القراء، ولكنهم أيضا سوف يكونون قد تعرضوا للغش. فالمشترون يدفعون لشراء كتب جديدة هى فى حقيقتها تجديد جزئى. وليس هناك توقف عن التزييف.

هذا التطبيقات لنظرية اللعبة على سلوك المؤرخين فى السوق توحى بسلسلة من الإضافات لفلسفة التاريخ الخاصة بنا. وإذا عرف المؤرخون أننا فى السوق ولسنا منه، وأننا لا يجب أن نسخر أو نشجع أسوأ ملامح مفهوم القرن التاسع عشر عن الأسواق الحرة، فإننا يمكن أن نحمى أنفسنا وعملنا من القرارات غير العقلانية. حقًا، إن بعض هذه الاختيارات السلوكية الجماعية التى تتعارض مع العادات باتت راسخة والبعض يتطلب فقط أن نعترف باعتمادنا المتبادل على بعضنا البعض.

خذ مسألة التعاون بين المؤرخين. وكما ذكرت، فى معظم الأحيان، يعمل المؤرخون منفردين. إنهم يعملون وحدهم، كما أنهم يخضعون نتاجهم النهائى وحدهم للحكم. ومع هذا فإنهم يصبحون عند هذه النقطة جزءًا من عملية تعاونية أو جماعية كبيرة. فإنهم يقرأون أجزاء من أعمالهم أوراقا فى المؤتمرات، كما أن الزملاء فى حلقات النقاش أو "المعلقين" يقدمون استجابات بناءة. وعندما يقدم المؤرخ مقالة إلى مجلة متخصصة، يرسلها المحرر إلى قراء خبراء طلبًا لمشورتهم. هل ينبغى نشرها؟ كيف يمكن تحسينها؟ وتطلب المجلات البارزة عادة خمسة أو ستة من القراء الخارجيين لكى يفحصوا المقالة. والمؤرخ الذى يرسل مخطوطة إلى ناشر أكاديمى يمكنه أن يتوقع على الأقل اثنين وأحيانا أكثر من القراء الخارجيين لتقديم مشورتهم إلى المطبعة، وإلى المؤلف عن قيمة المخطوط.

وطوال هذه العملية كلها، فإن المساعدين- من القراء الخارجين، والمحكمين، وحتى الزملاء الذين ينحون جانبا عملهم الخاص لمساعدتنا في عملنا- لا ينالون أية مكافأة مباشرة. ذلك أن من يحكم مقالة مقدمة إلى مجلة علمية، مثلا، لا ينال المقابل. إنه يستغرق وقتًا ومجهودًا خضمًا من عمل المرء الخاص. ولكننا نفعل ذلك على توقع أننا عندما نقدم أعمالنا، فإن أحدا سوف يأخذ من وقته لكي يقرأ عملنا ويعلق عليه. هذا الجهد التعاونى الجماعى ليس ببساطة التبادل أو المقايضة بالخدمات. فالمؤرخون الذين لا يكتبون ولا يقدمون مقالات للمجلات العلمية مستعدون مع ذلك لتحكيم المقالات. والمؤرخون الذين لا يخططون لتقديم مخطوط كتاب فى المستقبل القريب سوف ينحون أعمالهم جانبا مع هذا ويوفرون الوقت لمساعدة ناشر أو آخر ومؤلف أو آخر لتحسين عمل المؤلف.

فى مثل هذه الجهود التعاونية، يكون المجموع أعظم من أجزائه، وهو هدف من أهداف نظرية اللعبة كذلك. إن فلسفة تاريخ لزماننا لابد أن تفسح مكانًا لهذا النوع من العمل وتحبذ المشاركة، ولا تحرك التاريخ بعيدًا عن اعتماده التقليدى على الباحث المنفرد فى دور الوثائق كثيرا بقدر الاعتراف بأنه حتى الباحث المنفرد يعتمد على باحثين آخرين، ومحررين، وناشرين كثيرين لكى نصل بأى قطعة من العمل إلى حد الكمال.

وبالمثل، تذكرنا نظرية اللعبة بأن معاملة الذين يحتمل أن يتولوا الوظائف على أساس جدارتهم، بدلاً من المفاهيم المسبقة عن التوافق، أو حصة كل مجموعة، يجعل ساحة اللعب مناسبة للجميع. وقد يكون الفعل الإيجابى فى التوظيف ما يزال ضروريا لأن أحد الأقسام له تاريخ طويل فى التفرقة ضد مجموعات بعينها ويتطلب علاجا، لأن الطلاب سوف يستفيدون من تنوع أساليب التدريس واهتمامات البحث التى يفتقر إليها قسم محدود،

أو لأن وكالة حكومية قد تكفلت بأنواع محددة من التوظيف. وعوضا عن ذلك، فإن جداول الأعمال المخفية، والاتفاقيات السرية، والمصالح الخاصة تمنع ببساطة تحقيق معادلة ناش- ستكون هناك دائما طريقة أمام الفرد لتحسين موقفه بالنسبة للآخرين".

وأخيرا، تكشف نظرية اللعبة عن أن المكاسب المباشرة من الغش في جميع الأشكال لا تلبث أن تنجلى عن الخساره للفرد ولسمعة المؤرخين جميعا. ولن ينسى أحد تماما أن ستيفن أمبروز قد انتحل عمل غيره، وأن رجلاً لطيفا ومؤرخًا قادرًا سوف يحمل وصمة هذا على الدوام. وإذا كنا نغش، فالجميع فى النهاية يخسرون لأنه لا أحد سوف يثق فيما يقوله المؤرخون. إننا نفقد سلطتنا بوصفنا أبناء نظام علمى مع احترامنا بوصفنا أفرادًا. إن الغش، كما تخبرنا مضلة السجين، سوف يكون حصادها سيئا على الدوام. إن جسرا إلى الماضى يبنى على مثل هذه الأساسات غير السليمة لا يمكن أن يستمر فى البقاء .

(٨)

اللايقينيات

لم تعد هناك أية يقينيات سواء فى الحياة أو فى الفكر.
هناك ارتباك فى كل مكان. هناك أسئلة فى كل مكان.
أين نحن؟ من أين جئنا؟ إلى أين نحن ذاهبون من هنا؟
علام كل هذا؟

كارل بيكر (١٩٢٦م)

كتب بيكر هذه الكلمات فى خطاب إلى محرر جريدة الطلاب فى جامعة كورنيل عندما شكا الطلاب من الافتقار إلى اليقينيات فى دراستهم. وإذ انساق الطلاب مع التحرر الأخلاقى فى عشرينيات القرن العشرين، فإنهم نظروا إلى التاريخ ولم يجدوا سوى النسبية مثل تلك التى دعا إليها بيكر. كان متعاطفا ولكنه أجاب بأن التاريخ لا يقدم لهم، أو له، أى قدر من الراحة.

ويواجه المؤرخون اليوم، مرة أخرى، أزمة عدم اليقين. وكما كتبت فى كتاب Past Imperfect، كانت ثمانينيات القرن العشرين قد بدأت بواحد من العمالقة بين أساتذتنا، وهو برنارد بابلين، يقود الجمعية التاريخية الأمريكية، ويدعو إلى "إعادة حكاية قصصنا" أو إعادة توحيد كل المكتشفات ذات التقنية العالية التى اكتشفها الجيل الأصغر من المؤرخين الجدد. وكان

واثقًا أن هذا التجميع يمكن تحقيقه، وكرَّس خطابه في المؤتمر السنوى لملخص موجز للمجالات ذات التخصص العالى التى نحتاج إلى إدخالها في القصة.

وقد انتهت تسعينيات القرن العشرين بخطاب مختلف تمامًا من الرئيس جويس أبللبى إلى الجمعية التاريخية الأمريكية: "اليوم، نحن نواجه تحديًا ... إن الجمود فى حوارنا مع العامة لا يأتى من وجهة نظر إيجابية فى التاريخ غير مناسبة وإنما من ضدها- الارتباك بشأن طبيعة المعرفة التاريخية وكم المصداقية التى تستحقها. مثل هذا الارتباك يمكن كذلك أن يدفع إلى اللامبالاة بل حتى إلى الخصومة".

وهذا ما حدث. ففى وجه عاصفة من النقد للتاريخ الأكاديمى والمؤرخين الأكاديميين كان أبللبى يريد بشدة من العامة أن يفهموا كيف غير المؤرخون، فى السنوات التى جاءت بعد ١٩٨٠م، الأساس نفسه الذى كان يتم عليه تحصيل المعرفة التاريخية. "يمكنكم أن تتعلموا ما الذى على التاريخ أن ينقله من الأخبار بدأتم بفكرة زائفة عما يكون التاريخ وكيف يحوز المؤرخون- سواء من الهواة أو من المحترفين- المعرفة عن الماضى. والأسوأ من ذلك، أنكم بدون هذا الفهم، سوف تصبحون أسرى الشك فى شائعات الحرب الثقافية والمؤامرات الأكاديمية. إن الشكوك بشأن صدق المعرفة التاريخية قد تم تسجيلها، ولابد من التعامل معها".

والدعوة إلى «منهج تاريخى عام» يقترب من «المنهج العلمى» التى شاعت فى أواخر القرن التاسع عشر، لم تقنع أحدًا بحيث إننا استطعنا أن نتملص من شعبتى مشكلة عدم اليقين. والشعبة الأولى تختص باستخدامنا للكلمات. فهل الكلمات التى يستخدمها المؤرخون لوصف الماضى تتصل فعلا

بالأشياء التى تتحدث عنها؟ وهل يمكن لنا أن نثق فى لغتنا لتعكس الحقيقة على حين لم تعد هذه الحقيقة التى نتصورها موجودة فى مكانها؟

والمشكلة الثانية أكثر إثارة للضيق. وحتى لو استطعنا أن نكون مستريحين بشكل معقول إلى الكلمات التى نستخدمها، فهل هناك أى نماذج فى الماضى يمكننا أن نكتشفها؟ وبدون مثل هذه البناءات الكبرى والتنظيمية لا يمكننا أن نعبر الجسر إلى الماضى لأن الجانب الآخر سيكون بلا نظام تماما وبلا معنى بالنسبة لنا. ومن المؤكد أن كل «المراجعات» للتاريخ من جانب كل جيل من الباحثين دليل على أن البحث التاريخى لا يكون نهائيًا قط. بيد أنه يمكن للمرء أن يكون على يقين من ذلك، ثم ربما نستطيع القول بأن المعرفة التاريخية قد لا تكون أكيدة ولكنها تقترب من اليقين بالطريقة التى يتم بها مقاربة دمج النقاط فى منحنى للحساب الدقيق للمنحنى نفسه.

هل هى واقعية ساذجة؟

لا يمكن للمؤرخين أن يعملوا بدون الكلمات. نحن نضع عناوين اعتباطية لفترات زمنية مثل القرون العقود بأسماء خاصة- مثل القرن الأمريكى، وعقد ريجان- ونعطى أسماء للفترات والعهود والعصور. ونرفع الأحداث المبعثرة إلى مستوى الحركات ونجعل من تجمعات الأفراد أحزابًا، وطوائف، وجماعات. ومع ازدهار كتابتنا يمكننا أن نحول حربًا أهلية إلى ثورة والغوغاء إلى تجمع للديمقراطيين. وبمثل هذه الحركات الواثقة نفترض أن كلماتنا أشياء وأن الأشياء موجودة فى الكلمات بالقدر نفسه.

وربما بسذاجة، يفترض معظم المؤرخين أن الكلمات أشياء وأن الأشياء مربوطة سويًا بطريقة لا فكاك منها وأن كلماتنا تتعلق بالتالى على

نحو ما بالواقع. فى نظرية؛ الواقعية الساذجة» قد يقول المرء إن ما نــراه، ونسمعه، أو نحسه بشكل آخر «موجود هناك» كما نراه بالضبط. ويجب على المؤرخين أن يقلقوا من وضع خريطة على طريقة «واحد مقابل واحد»، أى وضع كلمة لتسبغ معنى على الأشياء لأننا عرفنا أن الكلمات أدوات ثقافيــة وأن الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة قد لا يــصفون الــشيء نفــسه بطريقة مختلفة تمامًا .

وثمة مثال مــن كتــابى (Sensory Words in Early America (2003) سوف يوضح قصدى. إذ إن Micmac of Nova Scotia قد نقلوا أسطورة عن كيف أنهم قابلوا البحار الفرنسى جاك كارتيير بأسطوله الصغير قبالة الساحل فى سنة ١٥٣٤م (طبعا التواريخ وهوية القادمين الجدد لم تكن جــزءًا مــن القصة الهندية) وذات صباح، تجمع شعب الميك ماك علــى الــضفة ورأوا جزيرة صغيرة غريبة، وعليها أشجار، تطفو بالقرب من الشاطئ ثم توقفت. وفى الأشجار كانت هناك دببة. ولكن عندما جرى الميك ماك إلى حافة الماء بقسيهم وسهامهم لكى يطلقوها على الدببة تحولت بطريقة سحرية إلى رجال ذوى هيئة غريبة ويركبون زوارق غريبة المنظر ليجدفوا صوب الــشاطئ. ولم يحدث سوى عندما أخذ الفرنسيون عددًا من الهنود على سطح السفينة أن أدركوا أنها كانت من صنع الإنسان.

وقد سجل الفرنسيون المواجهة كذلك، وما رأوه كان مختلفًا عمــا رآه الميك ماك، تماما مثلما كانت ثقافتهم مختلفة عن ثقافة الميــك مــاك. فقــد افترض الفرنسيون أن «الأسطولين المكونين من قوارب المتوحشين» اللذين اقتربا منهم يوم ٦ يوليو ١٥٣٤م، كان غرضهما حربيًا، وعلى حــد تعبيــر كارتييه على الرغم من أن الأهالى:

«جاءوا جميعا وراء قاربنا الطويل، وهم يصيحون ويظهرون العديد من الدلائل على الفرح، ورغبتهم فى أن نكون أصدقاء ... لم نشعر بالثقة فى إشاراتهم ولوحنا لهم بالعودة ... ولما رأينا أنه لا يهم كم لوحنا لهم، وأنهم لم يعودوا أدراجهم، أطلقنا فوق رءوسهم طلقتى مدفع صغير. وعند وصلوا إلى جانب قاربنا وأطلقنا حربتين ناريتين تبعثرتا بينهم وأخافتهم كثيرا لدرجة أنهم بدأوا يجدفون بسرعة شديدة وهم يبتعدون».

لقد تصرف صيادو الميك ماك والمستكشفون الفرنسيون فى رد فعل تجاه ما شاهدوه، ثم تذكروه فيما بعد، بطريقتين مختلفتين تمام الاختلاف وكان ذلك بالضبط لأن تجاربهم السابقة والتكنولوچيا التى يملكونها كانت مختلفة للغاية.

إن التاريخ يعلمنا أن الرؤية مرتبطة بالثقافة: فنحن نرى ما تعلمنا أن نراه، وليس ما هو «موجود هناك» لكى يراه الجميع بالطريقة نفسها. والمفكرون العظام أمعنوا التفكير فى سؤال مماثل طوال التاريخ الغربى. هل ما يحسه أى منا، الآن أو فى وقت آخر، حقيقى، أم أنه الانعكاس الغامض لشىء مثالى لا يمكن لنا أن نراه أبدًا؟ فالمثاليون كالفيلسوف الإنجليزى-الأيرلندى الذى عاش فى القرن الثامن عشر والكاهن الأنجليكانى چورچ بيركلى كان يظن أن الكلمات تعكس الأفكار التى فى أذهاننا. فليست هناك أفكار مجردة خارج عقولنا. وحسبما كتب فى كتابه (Treatise Concerning the Principals of Human Knowledge 1734) «هناك فى الواقع رأى يسود على نحو غريب بين الرجال، أن المنازل، والجبال، والأنهار، وجميع الأشياء المحسوسة لها وجود طبيعى أو حقيقى، متمايز عن أنها تُدرك عن طريق الفهم، ولكن بأى قدر من التأكيد والموافقة مهما كبر يمكن أن يؤخذ بهذا المبدأ فى العالم: ومع هذا فإن من يجد فى قلبه

ما يستدعى طرح السؤال، وربما، إذا ما كنت مخطئاً، يفهمه على أنه يتضمن تناقضًا واضحًا. لأنه ماذا تكون الأشياء التى سبق ذكرها سوى أشياء تدرك بالحواس، وما الذى نستوعبه إلى جانب أفكارنا أو حواسنا الخاصة: كما أنه ليس من الواضح أنه من المكروه أن أيا من هذه أو أى مزيج منها يمكن أن يوجد وهو غير مدرك؟».

إن الكلمات لم تكن أشياء، لأن الشعوب المختلفة لديها كلمات مختلفة تدل على الشيء نفسه. «من الواضح لأى واحد يقوم بعمل مسح أشياء المعرفة الإنسانية، أنها إما أفكار مطبوعة فعلا على الحواس، أو غير ذلك كما ندركها حاضرة فى العواطف وفى عمليات العقل، أو أخيرا أفكار تشكلت بمساعدة الذاكرة والخيال، سواء كانت جامعة أو تقسيمية أو هى فقط تلك الأشياء المدركة أصلاً بالطرق السابق ذكرها ... وطالما أحدد تفكيرى فى نطاق أفكارى المنزوعة من الكلمات، فإننى لا أرى كيف يمكن أن أكون مخطئا بسهولة». ولم نستطع قط أن نبرهن على أنه كان هناك عالم هناك فى الخارج، مستقلاً عن أفكارنا (فيما عدا أن الرب لا يمكن أن يخدعنا، وكان هذا جيدًا تماما بالنسبة لبيركلى) «بالنسبة لى، أقول إنه من الواضح أن كينونة روح حكيمة، وخيرة وقوية بلا حدود يكفى تماما لتفسير كل تجليات الطبيعة».

وإذا كان ما نراه ونسمعه فى هذه اللحظة ليس هو ما يوجد «هناك فى الخارج» ولكنه يوجد فقط فى أذهاننا، فما التاريخ، إذن؟ بدون «الآن» التى نشترك فيها، كيف يمكن أن يكون هناك «حينئذ» يمكن أن نتقاسمه؟ يريد أن نصدق أننا نشارك أحدنا الآخر فى عالم، وأن روايته عن ذلك العالم إن لم تكن حقيقية بالتأكيد، فيجب على الأقل أن تكون صادقة. ولا يمكن أن يكون هناك بناء متدرج للمعرفة التاريخية لأن مثل هذا البناء سوف يوجد، إذا أمكن

أن يوجد، فى العقل الفردى فقط، وفكرة كل واحد عنه سوف تكون خاصة بهذا الفرد وحده. وكما كتب بيركلى «عندما أحاول أن أضع إطارا لفكرة بسيطة عن الزمن، مجرد من تتابع الأفكار فى عقلى، والتى تفيض بشكل متسق، ويشارك فيها كل الكائنات، أضيع وأتعثر فى صعوبات لا فكاك منها».

لقد صارت رؤية بيركلى للأفكار والزمان شيئًا مثيرًا للفضول، ولكن فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية، عندما كان الكثير جدا من الفروض التقليدية عن العقلانية فى الفلسفة الغربية تتلاشى، فثمة مدرسة جديدة من المفكرين الشكاكين (يطلق عليهم أحيانا اسم التفكيكيين) رفضوا مفهوم الحقيقة خارج اللغة. وغالبًا ما تعرضوا للشتائم، وفى أغلب الأحيان أسىء فهمهم باعتبارهم مفضوحين ولاعبين فحسب، بدون برنامج إيجابى، والحقيقة أنهم كانوا مفكرين جادين وكثير منهم كانوا قد رأوا الكثير جدًا من التاريخ: لأن التاريخ آنذاك كان ذاكرة الرعب الذى سببه الهولوكوست. فقد كانوا يشكون فى مزاعم الأمم والأحزاب بأن الحقيقة بسيطة، مؤداها أنه يمكن أن يتم تصنيفها، وأن كل امرئ يتوافق فى صندوق أو آخر تحدده الدولة.

بالنسبة لچاك دريدا كان الزمن «يُدرك فى مصطلحات الحاضر، ولا يمكن أن يعنى أى شىء آخر». والمعانى فى النصوص يمكن أن تسافر عبر الزمان، من نص إلى نص آخر، ولكن النص هو كل ما هناك. ولم يكن التاريخ قابلاً لتحديد مداه، وانهار الزمان عندما صار كاتب النص وقارئ النص واحدًا. إذ لم يكن هناك معنى ثابت للمصطلحات التاريخية، أو على الأقل معنى ثابت فى سياق خارج اللغة. وإذا كان هذا يبدو مبهما فقد كان لابد لدريدا أن يكون أول من سلّم بهذا، كما فعل فى سنواته الأخيرة، بأنه كان

دائما وأبدا «أسأل نفسى أسئلة لا جواب لها». وكما كتب ريتشارد إيفانز فى كتابه (In Defense of History 1999) إن مكمن الراحة النهائى لمثل هذه النظريات أنه؛ لم يعد ممكنا اعتبار المؤلفين متحكمون فى معانى ما يكتبون... ففى التاريخ لا يمكن إيجاد معنى فى الماضى؛ إنه يوضع هناك فحسب، بطريقة مختلفة فى كل مرة، وبقدر متساو من الصلاحية، على أيدى مؤرخين مختلفين». وليحذر القارئ، أو، دعْ القارئ يبتهج- لأن النص ينتمى إلى القارئ. ففى النهاية بقينا مع نسخة أقل تفاؤلا وثقة بالنفس من الشك المثالى لدى بيشوب بيركلى، وفيها لم يكن ثمة آلهة رحيمة لكى تضمن لنا أن قراءتنا لضمائرنا كانت صحيحة.

كان هناك حسبما قد يشك المرء بعد قراءة الفصل السادس، جانب سياسى فى هذا، لأن معظم التفكيكيين كانوا شكاكين للغاية فى الحكومة. كانت قوة الدولة تعبر عن نفسها فى أرشيفاتها، أو فى جيوشها، وتمتد إلى قوة اصطناع التاريخ. وكان دريدا، على سبيل المثال، قد نما وترعرع حتى وصل سن الرجولة بالجزائر فى أثناء الحرب العالمية الثانية، وعانى الاضطهاد لكونه يهوديًا، وتعلم فى فرنسا التى كانت ما زالت تتعافى من عواقب التعاون والاحتلال. باختصار، يمكن للمرء، بشىء أقل من الإحسان، أن يلمح إلى أن نظرة التفكيكية لاستخدام اللغة وسوء استخدامها كانت ناتجة لا عن خصائص اللغة الكامنة ولكن عن التجارب الرهيبة للحرب، والاحتلال، والخزى الوطنى. وكما استنتج دافيد روبرتس بشأن الحركة التفكيكية فى أيامها الأخيرة «يزداد النقاد عدوانية، ويصورون التفكيك على أنه بلا قيمة، ويصورون موضته الرائجة فى البداية على أنها إحراج، ويمكن تفسيرها فى مصطلحات الشذوذ الأسلوبى فى الحياة الفكرية الفرنسية وأقسام الأدب الأمريكى».

وتقديم هذا السياق من أجل «المغالاة المقصودة» فى أفكار التفكيكيين يسلب من النقد قوته. ولكن تفكيك الماضى التاريخى قد يفتح الباب أمام مزاعم وطنية تماما (وليس مصادفة، أنها تخدم نفسها) عن الماضى. وإذا كان الأمر حسبما يحذر چون توش «التطلع إلى إعادة خلق الماضى فى الروايات التى يكتبها العلم، إنما هو وهم» إذن فمن الذى سيقول إن أى سرد خاص أو تقييم يكون أسوأ، أو أفضل، من أى سرد آخر؟ وستكون هناك صيحة قتال مشتركة لكل من الشكاكين، والمؤمنين على السواء. ويرفض الشكاكون التاريخ كله باعتباره «تخريف» على حين يعرف المؤمن الحقيقى ما حدث حقًا على الرغم من كل البحوث التى تقول العكس.

أخطاء التصنيف والصلابة الزائفة

هل يمكن لفلسفة التاريخ الخاصة بنا أن تنقذ نفسها من مثل هذا التحدى الأساسى لكل المعرفة التاريخية؟ أدخل جلبرت رايل، وهو فيلسوف بارز من أوكسفورد، ومؤلف كتاب لافت سنة ١٩٤٩ م عنوانه The Concept of Mind. فقد طاف بأحد الزوار فى أرجاء أوكسفورد ما أسماه خطأ التصنيف فى قصة. فقد اطلع زائرا على أوكسفورد، مشيرًا إلى الطلاب، والكليات، والمكتبة وكل الأشياء الأخرى الحقيقية. ثم سأله الزائر فى حيرة حقيقية، أين هى «الجامعة؟» وشرح رايل أن هذه كانت غلطة تصنيف، افتراض أن الجامعة يجب أن تكون شيئًا غير مجموع الأجزاء المكونة لها .

كانت الغلطة نفسها التى نرتكبها عندما نقول إن «العقل» مختلف عن كل الوظائف الواعية للمخ. فقد وضعنا «عفريتًا» فى الماكينة. خذ مثلا واحدًا من النجوم الساطعة بين المؤرخين الغربيين، فكرة التقدم. فإذا كان التقدم

صعودا ثابتا فى مستوى المعيشة، فإن السيطرة المادية والتكنولوچيـة على الطبيعة، وراحات المخلوق، سوف توزن إذن فى مقابل انتشار الحروب المرعبة وأسلحتها الحديثة. ويمكن أن يكوم المؤرخ الأدلة على أى من الجانبين. وإذا كان التقدم عبارة عن مفهوم، على أى، عفريت فى الماكينة، فيه يمضى التاريخ غير المرئى تجاه أيام أفضل، فإنه لن يكون هناك من الأدلة ما يكفى للبرهنة على ذلك أو إنكاره. وسيكون التقدم فى عقل المؤرخ بلا معنى.

وقد تنطبق غلطة التصنيف هذه على كثير مما كتبه المؤرخون عن الحركات العظيمة فى الماضى. وعلى سبيل المثال، فإن تسمية البناء التحتى المتنامى فى إنجلترا القرن التاسع عشر «ثورة صناعية» يمكن أن يكون إضافة كلمة إلى كلمات كثيرة يمكن أن نعددها. ويمكن أن نظهر لقارئنا المصانع، والعمال، واستثمار رأس المال، بل ويمكننا حتى أن نشير إلى العقلية المتغيرة لكل المهتمين، ولكن أين هى الثورة؟ ويمكن إظهار التغير فى التكنولوچيا ولكن عند أية نقطة يصبح التغير شاملاً بحيث يرقى إلى صورة؟ ونحن نخرج بمثل هذه المصطلحات العامة لأننا جميعا نستخدمها ويجامل كل منا الآخر المجاملة المهنية فى هذه الكلمات المستحدثة. إننى أخشى من أننا لو قمنا باختبارات دقيقة لغلطة التصنيف على مؤلفاتنا التجميعية فى التاريخ فإننا سنجد الكثير من الأشباح فى ماكينتنا.

وثمة تحد ثان للتصنيف التاريخى السببى يتمثل فى المغالطة المنطقية عن الصلابة الزائفة. وقد سبقت ما قال به رايل. ذلك أن عالم الرياضيات الإنجليزى ألفريد نورث هواتسهيد قال فى بداية القرن العشرين- وببساطة، إن القول بأن شيئا ما موجود لا يجعله هكذا. ويجب أن تكون هذه فراسة مزعجة للمؤرخين، لأننا فى أوقات كثيرة لا يكون بحوزتنا دليل باق عن

الدافع، والسببية وأجزاء أخرى من روايتنا، إن التسمية لا تخلق الأحداث، أو الأفعال، أو الوعى المشترك. وعندما نسمى ثمانينيات القرن التاسع عشر «عصر الرفاهية»، أو تسمى فترة الثمانينيات من القرن العشرين «جيل أنا أولا»، إنما نفصح عن آرائنا، فنحن نصدر أحكامًا، لكننا لا يمكن أن نخلق شيئا بمجرد تسميته. وربما كان مارك توين قد غضب عن حق من العرض المبهرج لمحدث النعمة، الذى تحيط به مظاهر الفقر المدقع، فى مدن ثمانينيات القرن التاسع عشر، وربما يكون المجددون قد وجدوا فى كلماتهم المستحدثة راحة أخلاقية مماثلة. بيد أن الكلمات ليست أشياء.

وبالنسبة للمؤرخ، فإن الصلابة الزائفة حقل ألغام نخوض فيه يوميا. ومنذ زمن طويل مضى كانت المعجزات التى نستهزئ بها اليوم تؤخذ ليس على أنها حقيقية فقط ولكن باعتبارها كشفا مباشرًا لغرض قوة أسمى. وكان المؤرخ فى العصور الوسطى يكتب عن الملائكة والمعجزات والقوى المقدسة التى وراءها. كما ألف علماء العصور الوسطى مقالات لشرح السبب فى أن الإعجازى كان لابد أن يكون حقيقيًا. وبينما تكون النزعة العلمانية عند الغالبية العظمى من الباحثين المحدثين نوع من الدروع ضد هذه الأمثلة القديمة جدا من العجائب، فإننا استبدلناها بعجائب من لدنا. ونحن نخطئ فى الهوية السياسية للدولة ونخلط بينها وبين عجيبة ثقافية نسميها الوطن. ونخطئ حين نخلط بين الحكومة العاملة والسياسة الراسخة. ونحن نكتب تاريخ الحرية، وتاريخ الملكية الخاصة، وتاريخ الحقوق كما لو كانت هذه أشياء بحد ذاتها، على حين أنها فى الحقيقة أبنيتنا العقلية.

وثمة هجوم أكثر تعقيدًا على الغلطات التصنيفية والصلابة الزائفة تنتمى إلى مجموعة من الفلاسفة الأوربيين يسمون الفلاسفة الوضعيين. وكان

هؤلاء الرجال مهتمين بما يمكن للعلم أن يتحقق منه فى لغتنا. وإذا كان هناك شىء لم يمكن التحقق منه، فإن تسميته كانت مجرد إحداث ضجة لا غير. فى هذه الطبقة وضعوا كل شىء لم يكن ممكنا اختباره فى العالم الحقيقى فى الميتافيزيقا وفى الدين. فهل كان التاريخ ينتمى لهذا أيضًا؟

وفى كتابه الكلاسيكى (Language, Truth and Logic 1946) شرح الفيلسوف الإنجليزى ألفرد جوليس آيير ما الذى تتطلبه الوضعية المنطقية. وتم تعريف الاعتقاد العقلانى على أنه «اعتقاد يمكن الوصول إليه عن طريق المناهج التى تعتبر الآن مناهج يعتمد عليها». ولم يكن هناك مستوى مطلق للعقلانية والجدارة، ولكن «نحن نثق فى مناهج العلم لأنها كانت ناجحة فى الممارسة» وحينئذ صارت الجدارة «درجة من الثقة» يحوزها المرء فى أى اقتراح حول العالم الحقيقى، وهذه الثقة مستمدة من «الملاحظة». ولكن يمكن تطبيق هذا على الأحداث التاريخية، التى لم يكن من الممكن ملاحظتها بصورة مباشرة؟

كانت الإجابة جاهزة عند آيير «إن الاقتراحات التى تشير إلى الماضى لها نفس السمة الافتراضية مثل تلك التى تشير إلى الحاضر». وإذا شئنا الدقة « فإن معرفتنا عن الماضى» لها السمة الافتراضية نفسها «مثل معرفتنا عن الحاضر، التى يمكن اكتسابها بطريقة برجماتية. وبالضبط مثلما كان أى اقتراح عن الحاضر فرضا يمكن ألا نوافق عليه، فكذلك لم يكن هناك ماض «موجودا بصفة موضوعية». ولم يكن التاريخ شيئا أكثر ولا أقل من مجموعة من الاقتراحات الخاضعة للبرهنة بواسطة براهين مماثلة للبراهين العلمية.

ولكن كيف يمكن للمرء أن يبرهن باختبار تحقيقى على ما لا يمكن للمرء أن يخضعه للاختيارات التحقيقية؟ إذا كانت كل عبارة أو بيان عن الماضى عبارة عن اقتراح، والثقة التى لدى المرء فى أى اقتراح تعتمد على النجاح فى الممارسة، وكان النجاح فى الممارسة يقاس بالملاحظة، فإن البيانات التاريخية لا يمكن التحقق منها على الإطلاق. كان آيير قد ترك المعرفة التاريخية داخل دائرة مكتملة، قطار فى مسار يدور ويدور، ولا يتوقف أبدًا عند محطة الحقيقة. وفقط إشارته إلى البراجماتية تلمح إلى طريق للنزول من هذا القطار إلى لا مكان.

تاريخ براجماتى

إن بداية أية إجابة على هذه التحديات التى تواجه كلمات المؤرخين تأتى من جهة غير متوقعة. على الرغم من أن أمريكا ليست معروفة بفلاسفتها الأكاديميين، ففى تطور مواز للوضعية الأوربية، والواقع أنه كان هناك تنبؤ بها على نحو ما، فإن الفيلسوف الأمريكى الذى عاش أواخر القرن التاسع عشر تشارلس ساندرز بيرس، كانت له نظرة صعبة «للحقائق» لدينا. فقد أطلق على فلسفته اسم «البراجماتية»، وهى تشك بشكل خاص فى الاستخدام الفضفاض للكلمات الفارغة.

وفى مقالة صدرت سنة ١٩٠٥م بعنوان «What Pragmatism Is» قدم بيرس للقراء نسخته الوداعية للطريقة البراجماتية للمعرفة: «إن النظرية هى أن مفهوما، أى، الفحوى العقلانى لكلمة ما أو تعبير آخر يكمن حصريًا فى توجهها لوضع مفهوم للسلوك فى الحياة... وإذا كان المرء يستطيع أن يحدد بدقة الظواهر التجريبية التى يمكن فهمها والتى يمكن أن ينطوى عليها تأكيد المفهوم أو إنكاره، فإن المرء حينها سوف يكون لديه تحديد أو تعريف للمفهوم، وليس هناك إطلاقًا شيئا فيه أكثر من ذلك».

والتعريف، وهو موجز ونهائى بحد ذاته، يضع مشكلة ذات شقين أمام المؤرخين. وإذا كان الأمر، كما قال صديق بيرس ورفيقه على درب البراجماتية وليم جيمس لجمهور من السامعين فى معهد لويل فى بوسطن، فى سنة ١٩٠٧م، وأن الحقيقة ليست معطاة ولكن: ما تزال فى طور الصنع، وتنتظر جزءًا من استكمالها فى المستقبل» كيف يكون التاريخ ممكنا؟ إن الماضى يتغير حتى عندما يحاول المؤرخون أن يتوغلوا فى أسراره. ولا يستطيع المؤرخ أن يحدد الشروط التجريبية لاختبار أية رواية بعينها عن ذلك الماضى، وليس السبب ضياع سياقها الأصلى وكمالها بدرجة كبيرة، ولكن ما يتبقى منها يتغير باستمرار. وكل ما لدينا شذرات لا يمكن إعادة إنتاجها فى حالة سيولة مستمرة.

والأسوأ من هذا، أن من يدرس التاريخ يدرس أشياء ثلاثية الأبعاد وهو يعتمد بدرجة كبيرة على وثائق ثنائية الأبعاد. وفى هذه الوثائق لايجد المرء الناس ولا الأشياء، ولكنه يجد كلمات، هى مجرد كلمات. والمعضلة التى تواجه المؤرخين الأمريكيين أشد إيلامًا من هذا، لأن كلماتنا الأكثر ثراء مثل الديموقراطية، والمساواة والحقوق، تبدو بلا واقع راسخ على الإطلاق. وبينما هناك تأثير فى العالم الحقيقى لانبعاث هذه الكلمات، فإن المفاهيم نفسها لا يمكن أن تخضع للتجارب البراجماتية. إذ لا يمكن التحقق منها. فهل يجب إلقاؤها بعيدًا مع ما فيها من غموض وسرية؟

وواحد من أوائل البراجماتيين الأواخر، الفيلسوف جون ديوى من جامعة كولومبيا، الذى تعثر فى هذه المعضلة. كان يؤمن بعمق فى الديموقراطية والمساواة – ولكن هل يمكن لفيلسوف براجماتى أن يدافع عن هذه القيم الأساسية؟ وبالنسبة له تكمن الإجابة فى الطريقة التى ينبغى بها تعليم هذه القيم. وفى سنة ١٩٠٦م اقترح ديوى فى كتابه Democracy and Education أن:

«إن المجتمع الذى لايتغير فحسب ولكنه يمتلك نموذجًا لمثل هذا التغير ويحسنه كذلك، ستكون له معايير ومناهج مختلفة فى التعليم عن ذلك المجتمع الذى يهدف ببساطة إلى استمرار عاداته الخاصة. ولجعل الأفكار العامة قابلة للتطبيق على ممارستنا التعليمية الخاصة، فإن من الضرورى أن نقترب من طبيعة الحياة الاجتماعية الحاضرة... ولا يمكن لنا أن نقيم، خارج رءوسنا، شيئًا نعتبره بمثابة مجتمع نموذجى. ونحن يجب أن نضع مفهومنا على أساس مجتمعات موجودة حقًا، لكى يكون لدينا أى تأكيد بأن مثالنا مثال عملى. ولكن، كما رأينا للتو، لا يمكن للمثال أن يكرر ببساطة الخصائص المرغوبة والموجودة بالفعل. والمشكلة هى فى استخراج الخصائص المرغوبة من أشكال الحياة الاجتماعية الموجودة فعلاً، وتوظيفها فى انتقاد الملامح غير المرغوبة وتقترح تحسينها». وباختصار، كانت الإجابة استفسارًا من نوع مختلف تمامًا، فى القيم نفسها.

ما الذى كان هذا يعنيه بالنسبة للتأكيد التاريخى؟ كتب ديوى أن «التاريخ كله كتب بالضرورة من منطلق الحاضر». وليس من الصعب أن نرى أساس ذلك التعميم- أى مؤرخ يكتب عن الماضى يكون فى زمنه الحاضر وهو يكتب. وبالنسبة لديوى، كان هذا يعنى أن الحاضر موجود دائمًا فى التواريخ التى نكتبها. إن الكتابة «بذهنية الحاضر» عن الماضى بمشكلات الحاضر وقيمه فى عقولنا، هو أحد المقدمات المنطقية الزائفة التى يدينها دافيد هاكيت فيشر. والإجابة بأننا لا نعيش فى الماضى، وأن الأدلة التى نستخدمها موجودة فى الحاضر وأن أفعالنا (تذكر أن البرجماتية ربطت المعنى بالأشياء التى يمكن التحقق منها) تكون فى الحاضر، لا يقنع نقاد الوجودية. ويمكن طبعا، أن ننكر الوجودية، وأن نستبعدها ونقصيها إلى آخر دوائر الجحيم بصوت عال، بيد أن هذا لا يعنى أن الأمر قد سار على ما

يرام- فلو كان ديوى محقًا فلن يكفى أى قدر من الإنكار من جانب المؤرخين ذوى العقلية الوجودية. لقد ثبتنا فى مكاننا. ذلك أن اختيارنا للمادة. وتأكيدنا عليها، واستخدامنا للكلمات، ووجهة نظرنا، كلها نابعة من حالتنا الذهنية الحاضرة.

كيف لمثل هذه الحالة الوجودية أن تساعد فلسفة التاريخ فى زماننا؟ إن المحك فى سؤال كهذا أننا نعطى قيمة كبيرة لذلك فى تاريخنا وفى قوانيننا. وربما لم يكن هناك دليل فلسفى على أن «الناس جميعا خلقوا متساوين، وأن خالقهم قد أسبغ عليهم حقوقا معينة لا يمكن المماحكة فيها». وعلاوة على ذلك، يكشف تاريخنا عن التناقضات واللايقينيات فى مثل هذه التصريحات. فالرجل الذى كتب هذه الكلمات الافتتاحية الرنانة فى إعلان الاستقلال كان يمتلك العبيد ولم يحرر الأغلبية العظمى منهم. وعلى النقيض من ذلك أخذت مجموعات من العبيد فى نيو إنجلند تلك الكلمات وكرروها فى طلبات التحرير التى قدموها، ووافق ملاك العبيد فى نيو إنجلند على أن الرق لا يمكن أن يبقى فى جمهورية ثورية مع أن ذلك يناقض مصالحهم الاقتصادية.

وتناسب البراجماتية الأمريكية فلسفة التاريخ لزماننا لا لأننا يمكن أن نتبع قواعد بيرس، أو لأننا نشترى وجودية ديوى كلها، ولكن لأن البراجماتية تتيح لنا أن نكتشف كيف تعمل أفكارنا التأسيسية فى الممارسة. ومن ثم، فإنه بالنسبة البراجماتية التاريخية، لا تكون المساواة هدفًا بعيد المنال وإنما حقيقة يمكن التأكد منها. وعندما تحرم مجموعات من المساواة فى المكانة أمام القانون فى الساحة العامة، حتى فى الوصول إلى الراديو والتليفزيون، فإن العلاج فى العالم الحقيقى، من خلال ساحات المحاكم والتشريعات، يقدم لهم هذه المساواة. فالحرية مرئية يوميا، أو إذا لم يكن ذلك كذلك، فإننا نطلب أن نعرف لماذا. وتتيح لنا قوانيننا ليس فقط أن نتكلم بصوت عال (علانية) وإنما

تتيح لنا أيضا (نسبيا) أن نكون آمنين من اضطهاد الحكومة. وعندما تدوس الوكالات السياسية المغالية على ذلك الخط، وهى خطوة فى اتجاه الطغيان، فإن لدينا وسائل الاحتجاج. فالحرية، ومتابعة الأهداف الفردية فى السعادة والفرصة الاقتصادية يمكن أيضا قياسها بصورة براجماتية ويتم اختبارها فى العالم الحقيقى. وإذا لم تكن تلك الأهداف ميسورة دائما، فإنها على الأقل مرئية. ومع بعض الاستثناءات، فإن نظام القواعد لدينا، وحرياتنا، وحقوقنا، لا تظهر صلابة زائفة وأخطاء التصنيف.

وينبغى لهذا كله أن يؤكد للمؤرخين الباحثين عن فلسفة تاريخ تصلح اليوم. ونحن بحاجة إلى أن نكون على ثقة من أننا لا نلعب لعبة بالكلمات، نفكر فى الكلمات بدلاً من الأشياء. وقد تذكرنا البرجماتية بأن مصطلحاتنا يجب أن تكون قائمة على أرضية من التجربة الحقيقية، ويجب أن تنتسب إلى علم نشترك فيه جميعًا. والتاريخ الذى يكون على هذا النحو واقعًا فى غرام رطانته الخاصة، مهتمًا للغاية بأن يكون غامضًا، لدرجة أن القراء العاديين لا يستطيعون متابعته، إنما هو بناء لأخطاء التصنيف والصلابة الزائفة. والتاريخ الأكاديمى فى أغلب الأحيان يقع فى هذا الخطأ، عندما يكتب الأساتذة لحفنة من الأساتذة الآخرين... وتتطلب فلسفة التاريخ الخاصة بنا الشفافية واحترام القارئ المتعلم غير المتخصص. وعندما نحقق هذا الوضوح الأدبى، فإننا أيضا نخطوه خطوة أخرى بعيدًا عن الاستحالة ونتقدم خطوة أقرب إلى ذلك الجانب الآخر- أى الماضى. ذلك أن تاريخًا يتحدث إلى الملايين يكون تاريخ تلك الملايين. ومثل هؤلاء المؤرخين يمكنهم عبور الجسر إلى الماضى علو نحو مريح كثيرا من المؤرخين الذين ارتبطوا بنظريات غامضة ومصطلحات ملغزة.

ولكن ماذا لو كانت الفوضى تحكم الشاطئ البعيد؟

تخيل أن عالم آثار عظيمًا أخذته حفائره الأسطورية إلى جميع أنحاء العالم بحثًا عن كنوز مخبوءة. وفى إحدى هذه البعثات كان يسعى بحثا عن صندوق فيه سر المعرفة كلها. ووجد الصندوق وفتحه. وبداخله كانت توجد قطعة وحيدة من ورق البردى الأصفر عليها كلمات تقول: «الصندوق فارغ». ونظر العالم المغامر حوله بعد أن أغلق صندوقه فى عنف ليرى ما إذا كان هناك أحد قد سخر منه بشأن محتويات الصندوق. ولم يكن هناك أحد. لقد كانت الورقة هى السر فى حد ذاتها. فلو كانت حقيقية، والصندوق فارغ، فلن يكون هناك ورقة. لقد أمضى سنوات كثيرة للغاية فى البحث الميدانى وكان يتصور نهاية بحثه. ولكن ها هى النهاية. وإذا كانت زائفة، وكان هناك شيء فى الصندوق، إذن فهى قطعة الورق، والتى قالت إن الصندوق فارغ. وباع بطلنا المحبط الصندوق فى السوق المحلى وانطلق بحثًا عن صندوق خشبى قالت الشائعات إن له قوة غامضة.

دعنا نضف طبقة من التعقيد إلى محتويات الصندوق الغامض. إنه يسمى «التناقض الإغريقى» لأن قدماء الإغريق سخروا من الكريتيين منافسيهم فى التجارة وزعموا أنهم «كذابون دائما»، وكان مصدر هذا واحدًا بعينه من الكريتيين. وتقول قطعة الورق فى الصندوق إن «هذه العبارة زائفة». والآن لا تشير الكتابة إلى الصندوق وإنما إلى نفسها. فلو أن ما تقوله حقيقة، فإن العبارة تكون زائفة. فإذا كانت العبارة زائفة، فإن العكس يجب أن يكون كذلك- العبارة صحيحة. ووفقًا لأرسطو لا يمكن أن تكون العبارة زائفة وحقيقية، إذن فما هى؟ إن الإجابة هى أنك لا نستطيع أن تقرر من العبارة نفسها ما إذا كانت حقيقية أو زائفة.

وبالنسبة للمناطقة يفتح هذا اللغز الطريق لاستكشاف حدود الاستنباط. فكر في العبارة المكتوبة على الورقة باعتبارها نظاما حسابيًا (أى نمط من الرياضيات قبل الهندسة، أو الجبر، أو ما أشبه ذلك) يغص بعبارات أصغر. وسوف نود أن نعرف ما إذا كانت تلك العبارات يمكن البرهنة على أنها حقيقية أو زائفة بإشارة كل منها إلى الأخرى- وبعبارة أخرى، بالبقاء داخل النظام نفسه. تلك هى طبيعة البرهنة عن طريق الاستنباط وهو السؤال الذى كان عالم الرياضيات ابن فيينا كورت جوديل قد هاجمه فى عشرينيات القرن العشرين.

لقد كان جوديل نفسه نوعًا من اللغز، وكان مصابًا بموجات غامضة من الانهيار العصبى وكان يستسلم لعبارات تنبؤية لم يكن حتى أقرانه يستوعبونها تمامًا. وكان قد ولد وتعلم فى فيينا فى بواكير القرن العشرين. ولأنه كان أعجوبة فى الرياضيات، فقد صار أستاذًا بعد وقت قصير من حصوله على الدكتوراه سنة ١٩٣٣م. وقد برهن على أنه فى جميع النظم الرياضية الكبيرة القائمة على أساس المسلمات البديهية لا يمكن البرهنة على بعض الفروض أو دحضها داخل مسلمات العلم (لم تكن الهندسة والحساب كبيرة بالقدر الذى يجعلها تتأثر- إذ إن منطقها الداخلى محكم) هذا الاستنتاج، الذى سمى «تناقض جوديل»، أطاح بمحاولات على مدى مئات السنين للبرهنة على أنه كانت هناك طرق لوضع جميع الرياضيات فى نظم منطقية تامة كاملة. وكان قد برهن، بمنطق لا يمكن مهاجمته أن منطق الرياضيات ناقص.

وقد جعلت البرهنة جوديل مشهورًا ولكنه لم يكن سعيدًا. إذ لم تكن حالته الذهنية غير المستقرة قد شفيت عندما وصل النازيون إلى النمسا. فقد استمروا يخلطون بينه وبين رجل يهودى ويضايقونه، وهكذا جاء إلى

الولايات المتحدة ووجد منزلاً في معهد الدراسات المتقدمة في برنستون، بنيوچيرسي. وهناك، ووفقا لكتاب ريبيكا جولد شتاين Incompleteness: The Proof and Paradox of Kurt Godel كان يربك كل من يتجاسر ويسأله عن عمله، وهو تأثير أضاف على غير العادة إلى الهالة التى أحاطت به. وحقيقة أن لا أحد قد فهم إجاباته أضفت عليها نوعا من الحجية تتجاوز جوانب القصور فيها. وعلى الرغم من المزيد من الانهيارات، استمر ينتج الرياضيات المتفوقة حتى وفاته سنة ١٩٧١م. وبعد موته بوقت طويل كان الناس الذين قابلوه ما يزالون يحكون الحكايات عنه. وما تزال أعماله صامدة، «وعدم اكتماله» يبرهن على نموذج من قوة العقل فى عالم القرن العشرين الذى شابته الحروب والاضطهادات، والذى كان قد مسَّه الجنون بأى معيار آخر.

وإذا كانت أكثر إنجازاتنا الفكرية رقيًا- وهى الرياضيات- غير كاملة وغير حاسمة، فما الذى نستطيع قوله عن العالم الحقيقى المرتبك الذى نسكن فى رحابه؟ ولنعد برهة إلى التناقض الإغريقى، أى قطعة الورق بالعبارة التى تحملها بأنها زائفة، وطبقها على القانون والأمور السياسية. كم مرة يحدث أن نسمع خبيرًا إعلاميًا يخبرنا أنه لا يمكن الوثوق بأن وسائل الإعلام تقول الحقيقة؟ وبعبارة أكثر جدية: نحن نعيش فى مجتمع متسامح، ولكنه مجتمع له حدود. فهل يمكن لنا أن نتسامح مع أولئك الذين ينكرون الأسس التى يقوم عليها تسامحنا؟ وعندما طلب النازيون الجدد الحق فى حشد جماهيرهم فى ضاحية سكوكى التى تسكنها أغلبية يهودية فى شيكاغو دافع الاتحاد الأمريكى للحريات المدنية عن ذلك الحق كما أن المحاكم ساندتهم على الرغم من أنه لو جاء النازيون إلى الحكم لكان من المؤكد أنهم سينكرون على خصومهم حق حرية الكلام وحق الاجتماع بداية بمحامى ACLU (الاتحاد الأمريكى للحريات المدنية). وفى أثناء الفترة المكارثية،

ووجه كثير من المفكرين الليبراليين بمعـضلة مماثلـة. كمـا أن الاتحـاد السوفييتي تحت حكم ستالين كان يعاقب المنشقين بالنفى الداخلى، والسجن والموت. فهل يجب السماح للمدافعين عن الحياة السوفيتية. بالتـدريس فـى الولايات المتحدة؟

وتعاود العضلة الظهور فى عدم الحسم الذى تتسم به فكرة حرية الكلام نفسها. فهل يمكن للمجتمع الملتزم بحرية الكلام أن يسمح بالكلام الذى يؤدى إلى سقوط ذلك المجتمع، إذا لم يتم ضبطه؟ لا يرى العالم المحافظ والمؤلف دافيد هورويتز أى لغز هنا ويعلن عن هجومه على المعارضين للحرب على العراق، فيقول فى كتابه Unholy Alliance، بأن يقلب التناقض رأسا علـى عقب: «ليس كل انشقاق مساويًا لغيره، والأمريكيون الذين تحسب أعمـالهم على أنها تمنح المساعدة والراحة للجزارين الذين اغتالوا ثلاثـة آلاف مـن الناس الأبرياء فى ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م ليسوا وطنيين بالمرة... إنهـم، فى الحقيقة، عكس ذلك تمامًا – وهو نوع من المغالطات المنطقيـة القائمـة على أساس كل شيء أو لا شيء والذنب بالارتباط، ولكن من المؤكـد أنـه تناقض لا يمكن تجاهله.

الفوضى

إن الذى كان تناقض جوديل بالنسبة للرياضيات، القانون الثانى فى علم الديناميكا الحرارية، المعروف أكثر باسم entropy، ونظرية الفوضى، تنطبق على الظواهر الطبيعية. ونظرية الفوضى نظرية، وليست حقيقـة، ولكنهـا نظرية راسخة تمامًا منذ اكتشفت أولا فى القرن التاسع عشر. وبحسب الرجل الذى طرح الفكرة، وهو عالم الفيزياء الألمانى رودولف كلاوسـيوس، فـإن الميكانيكا الحرارية طاقة غير متاحة للاستخدام. وعلى الرغم من أنها معتمدة

فى معادلتها الرياضية، فمن الممكن مقارنة هذه النظرية بتجربتنا العامة بأنه ليست هناك أبدا ما يكفى من الوقت فى اليوم لعمل كل الأشياء التى خططنا للقيام بها. ومهما كانت جديتنا فى عمل كل شىء، وكفائتنا ونحن نحاول أن يكون، فإن هناك جزءا معينا من جهدنا يضيع هباء .

مثل هذه الخسارة فى الطاقة، وفقا لكلام بعض العلماء، دليل على فوضى الكون. وبما أن القانون الذى تم حسمه منطقيا يبرهن على أن القوانين المنطقية تزول سريعًا وكما أن الطاقة مهدرة، فإن المزيد والمزيد من الاختلافات تظهر على كل بنية وعلى كل شكل. فعلى سبيل المثال، سخن الثلج وسوف يتحول إلى ماء. وبتسخين المادة الصلبة تستهلك طاقة. والذرات فى الماء هى نفسها مثل تلك التى فى الثلج، ولكن ذرات السائل يمكن ترتيبها بأكثر من طريقة حين تكون على شكل ثلج صلب، وطاقة الحرارة تستهلك فى خلق الفوضى. وهذه الفوضى تزيد مع الوقت. لقد كان الكون مستديرًا لفترة طويلة، وهكذا كانت نظرية الفوضى فاعلة طوال تلك الفترة، تصنع لخبطة الاصطفافات الذرية وما دون الذرية وتسبب لنا خسارة واحد من كل زوج نملكه. وقد تنبأ بعض علماء الفيزياء بأن نهاية الزمن سوف تحين عندما تكون نظرية الفوضى قد أنهت عملها ولم تعد هناك طاقة باقية، أو عندما نتوقف عن السعى وراء أمورنا التافهة.

ويضع ريتشارد دوكينز المتخصص فى علم الوراثة الأدلة نفسها على فوضوية الكون على درجة أدنى من التعميم. «فى كون من الإلكترونيات، والجينات الأنانية، فإن القوى الطبيعية العمياء والاستنساخ الوراثى، سوف تنال بعض الناس بلا أذى، وسيكون بعض الناس محظوظين، ولن تجد أى مبرر أو سبب فى هذا، ولا أية عدالة. إن الكون الذى نلاحظه له بالضبط الخصائص التى يجب أن نتوقعها إذا ما لم يكن هناك عند القاع أى تصميم، ولا غرض، ولا شر ولا خير، لا شىء غير اللامبالاة بلا شفقة».

وتقترح نظرية الفوضى عدم الحسم حتى فى الأحداث الفعلية التى تم التخطيط لها ببساطة مثل الطقس. والحقيقة أن نظرية الفوضى بدأت بالمشكلة القديمة عن كيفية التنبؤ بالطقس. وتحولت أنه إذا حدثت تغييرات صغيرة جدا فى الأحوال الأولية فى أى أى نظام طقس متطور، فإن الناتج يمكن أن يتغير بشكل هائل. كانت هذه نتيجة «بديهية»، وبعبارة أخرى، كثير من الإدراك العام إذا ما أوليت أى اهتمام للتنبؤ بالأرصاد فى التليفزيون أو الراديو. لقد كان التنبؤ صحيحًا بعضًا من الوقت، ولكن كلما كانت الفترة الزمنية بين التنبؤ والحدث أكبر، كلما زاد احتمال الخطأ. لقد انتشرت النظرية باعتبارها «تأثير الفراشة»: أى الريح التى تخلقها قوة رفرفة جناحى الفراشة فى البرازيل، من خلال سلسلة مركبة من الأحداث، لتنتهى بحدوث عاصفة (تورنادو) فى تكساس. وقد عبر فيلم The Butfly Effec عن هذه الظاهرة بشكل درامى - إنك ببساطة لا تستطيع أن تتنبأ كيف تتطور الأحداث عندما ينتج أصغر تحول عند بداية التتابع مثل هذا الأثر على النتيجة النهائية .

وثمة عالم رياضيات اسمه بينوا ماندلبرو دفع بالنظرية قدما. وكان مهتمًا بالتذبذب فى أسعار السلع، وجادل بأنه لا يهم مدى دراسة المعلومات بتمعن، فإن المتغيرات الصغيرة فيها كانت مفقودة. وكان الشىء نفسه يصدق على أية محاولة لرسم الشكل الدقيق للخط الساحلى. ولا يهم مدى دقة الرسم، فإن المتغيرات الصغيرة فى الخط الساحلى كانت ضائعة. وثمة سلسلة لا نهائية من التخطيطات الأدق فالأكثر دقة وقربًا من الحقيقة، ولكن السلسة اللامتناهية من التعديلات (اللامتناهية) ليست لها نهاية. وتفلت منا الدقة المطلقة فى العالم الحقيقى، تماما مثلما لا يمكن للكمال المطلق أن يتحقق فى أكبر نظم الميكانيكا. والمنطق لا يقود إلى تأكيد للعقلانية ولكن يقود إلى اللاعقلانية المبرهنة.

وقصة نظرية الفوضى كان لها التواء آخر فى مخططها. فقد كان اللاحسم الذى اقترحته النظرية بحد ذاته مرتبطا بقاعدة: أى أنه كانت هناك قواعد لعدم الحسم. وعلى الرغم من أن هذا يبدو تناقضا ذاتيًا، فإنه ليس كذلك. وبدلاً من ذلك، فإنها خاصية لجميع الألغاز المنطقية الكبرى. وقد لا تبدو أن لديها الإجابات المرضية فى البداية، ولكن تناولها يجبرنا على أن ننغمس فى سببية عميقة.

وقد أنتجت نظرية الفوضى «النظرية التجزيئية» أو «التشابه الذاتى». إن هذه الأسماء المانعة تصف شيئًا بسيطًا للغاية. ذلك أن الأشياء الكبيرة مكونة من صيغ مختلفة منها هى نفسها. انظر إلى فروع الشجرة. ثم انظر إلى عروق ورقة من الشجرة. إنها متشابهة. افحص القنوات الشعبية فى رئتنا. ثم استخدم ميكروسكوب لكى تنظر إلى الشعيرات الدموية التى تمد القنوات الشعبية. إنها تعيد إنتاج شكل القصبة الهوائية. بل الأكثر مدعاة للدهشة، معدل النسخ الصغيرة إلى الأشياء الأكبر فى بعض الحالات هو ٤ إلى واحد. ففى كل مرة تنظر فيها إلى جزء أصغر من الكل، تعود النسبة إلى الظهور. ولا يصدق هذا على كل الأشياء، ولكنه حقيقى بما يكفى لأن يعطى اسمًا لتلك الأشياء التى تظهر تلك الخاصية اللافتة للنظر - طواقم ماندلبرو.

والنظرية التجزيئية نفسها مضبوطة تمامًا، حتى وإن كانت متواضعة فى مزاعمها، ولكن يمكن للمرء أن يتجاوزها قليلا لكى يشير إلى ارتباط قوى بين عالم المنمات والمجرات الكونية. فعلى سبيل المثال، فى القرن التاسع عشر كان بعض العلماء يؤمنون أن «التطور الفردى»، أى تطور الجنين فى الرحم، كان تلخيصًا لتاريخ التطور والنشوء. وبعبارة أخرى، فإن كل فرد يمر بالمراحل التطورية نفسها التى مرّ بها الجنس البشرى نفسه. ونحن نعرف أكثر عن الأجنة الآن ولم نعد نعتبر المقارنة بين تطور الجنين

فى الرحم والفرد الفرد البالغ مقارنة صحيحة، من الناحية البيولوچية، ولكن باعتبارها نوعًا من المجاز فإنها تخبرنا أن كل طفل يحمل بداخله الإنجاز الثورى الذى تحقق فى النوع البشرى بأسره.

لا يقينيات التاريخ

عند نهاية القرن العشرين فتح الفيلسوف الأمريكى چورچ سانتيانا كتابه المكون من خمسة مجلدات The Life of Reason 1906 بقوله: « سوف يعترف الجنس البشرى فى أى مغامرة من مغامراته، وهو يعيد النظر فى تجربته كلها، بالتقدم والمكسب؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة، حسبما قد يجيب عليها أحد الأفراد على نحو من التأمل والإيجابية، هدف الكتاب التالى». فبالنسبة له، كان العقل البشرى عملية من الفكر الفردى وانعكاسًا لتقدم العقل الغربى. وإذ تعلمنا على يدى جلبرت رايل وألفريد نورث هوايت هيد، فإنه يجب علينا أن نكون شكاكين فى مثل هذه المصطلحات العامة مثل العقل والذهن، ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر جاذبية المشابهة التى عقدها سانتيانا بين تساؤل كل فرد عن المعنى والتاريخ الأوسع للفلسفة الغربية. وكما قال سانتيانا نفسه: «لا يستطيع الفيلسوف أن يمتلك طموحًا أكثر من أن يصنع من نفسه لسان حال جنسه».

الجزئيات، والتطور الجنينى، وحتى برهان جوديل، كلها تقدم نموذجًا أو تصميما وهذا بالضبط ما يفعله المؤرخ - فهو يقدم النموذج أو التصميم. وليست المحتويات ثابتة تمامًا، لأنه فى داخل التصميم قد لا تكون العناصر المضبوطة سهلة التعريف. والنموذج، التصميم لا يأتى أصلا من الطبيعة نفسها وإنما ينبع أيضا من التفاعل بين العالم الحقيقى وعقل المؤرخ. والتفكير فيه على هذا النحو لا يجعله هكذا، ولكن التفكير فى النماذج والتصميمات

يتيح نوعًا من النظام داخل اللايقينية. وربما لا تبرهن رغبتنا في التنبؤ بالطقس، والتذبذب في المؤشرات الرئيسية للسوق، وغيرها من الظواهر الطبيعية على أن هناك قوانين طبيعية راسخة تحكم مثل هذه الأحداث، وأي مزيد من بحث فلاسفة العصور الوسطى عن الرب كان برهانًا على أن الرب موجود، ولكن كما كتب جوديل نفسه، قرب نهاية حياته، «إن العقل نفسه لا يخطئ». والخطأ بالنسبة لفلسفة تاريخ لزماننا سيكون معناه الشك في أن المؤرخين يمكن أن يجلبوا نوعًا من النظام إلى عالم الماضي.

وهكذا يجب على فلسفتنا للتاريخ، أن ترضى نفسها بقدر من عدم اليقين. ويمكن قبول النماذج ولكن ليس الكمال، أو أية فلسفة تصرُّ على كل حدث وحركة تناسب بشكل مضبوط مع الكوة المخصصة لها. ولأننا على ثقة من أن كلماتنا تعكس بالفعل حقيقة ما، كما أكدت أننا يمكن أن نجد نماذج في الماضي، لقد كدنا أن ننتهي من جهود بناء جسرنا .

(٩)

المؤرخون يواجهون مشكلة الشر

إن أخلاقياتنا... وآراءنا... غير متسقة مع استفسار تطبيقى جاد ومنظم عمًا حدث بالفعل. إنهم سوف يجعلون منه خادمة لفلسفة أخلاقية.

دافيد هاكرت فيشر (١٩٧٠م)

يعرف المؤرخون كل شىء عن الشر. ذلك أن موضوعنا مفجر له. إن الشر الذى يمارسه الأفراد، والمجموعات، والأمم ضد إحداها الأخرى، وضد أنفسهم، والشر الوقتى المتمثل فى الإهمال، والشر الوحشى الناجم عن التفرقة، وشر الإبادة الجماعية الذى لا يكاد يصدق، هو مادة التاريخ. وقد حذر فيشر من أن كتابة آرائنا الأخلاقية فى تواريخنا تخلط الماضى بالحاضر على نحو لا يمكن السماح به. إن مثل هذه الأحداث تفرض متغير مشكلة الشر القديمة. فإذا كانت الأسباب كلها مشيئة الرب، وإذا كانت عنايته توجه مسار الأحداث، فكيف يمكن للرب الخير الذى تشملنا رعايته أن يترك الشر يحدث للأبرياء؟

ولندع جانبا للحظة من الزمان المجادلات من أجل تاريخ العناية الربانية وضدها، فإن خيارات الشر اللا أخلاقى إن هى إلا أفعال أناس

حقيقيين فى زمن حقيقى. ومهما كانت المعتقدات الدينية للمؤرخ، فإن الشر ليس مجرد مشكلة للمؤرخ المتدين. وينبغى التعامل معه فى أية فلسفة تاريخ حديثة، لأن هناك الكثير جدًا على المحك اليوم فى الطريقة التى يتم بها استخدام التاريخ لصنع السياسات بعيدة المدى والدفاع عنها بحيث لا يمكن لأى منها تجاهل مشكلة الشر.

ألا ترى هناك شرًا؟

غالبًا ما نختار جوانب عندما نكتب التاريخ، بحثًا عن أصدقائنا فى الماضى. ونحن نلقى بسردنا فى الأضواء والظلال، لنكشف عن حساسيتنا الأخلاقية ونحن ندين الشر. ويصير التاريخ منصتنا التى تمتدح من فوقها المستحق وندين من لا يستحق فى أماكنهم فى دوائر الجحيم. وبالنسبة لجورج فيشر، رئيس الجمعية التاريخية الأمريكية فى سنة ١٨٩٨م، لا ضرورة لتكرار القول بأن «إن إحدى وظائف المؤرخ أن يزن بموازين العدالة مدى جدارة الشخصيات التاريخية. وإليه يعود قياس سجايا الرجال والنساء الذين يؤدون أدوارهم على المسرح العام». كان چون إيمريسن لورد أكتون، أستاذ التاريخ الحديث فى كامبردچ فى سنة ١٨٩٥م، يحث تلاميذه على أن «لاتبخسوا أبدا القيمة الأخلاقية أو تخفضوا من معيار الطهارة الأخلاقية، ولكن حاكموا الآخرين بالمبادئ الأخلاقية التى تحكم حياتكم أنتم، واعملوا على ألا يهرب رجل أو سبب من الجزاء الذى لا يموت والذى يملك التاريخ قوة توقيعه على الخطأ». باختصار، على المؤرخ أن يكون قاضى الأخلاقيات فى الماضى. ولم يكن فيشر أو آكتون يعتقدان أن المبادئ الأخلاقية اختلفت باختلاف الزمان والمكان. وبدلاً من ذلك، كان الخير الأسمى هو حماية الحياة البشرية وترقية السعادة الإنسانية، وهو نظام قيم (حسبما اعتقدا) تجاوز الخصائص التاريخية.

وآراء فيشر وآكتون حية وحيدة. ففى أعقاب حرب فيتنام، عاد المؤرخون إلى موضوع الحكم الأخلاقى فى التاريخ. وكان خطاب جوردون رايت بمناسبة رئاسته للجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٧٥م صريحًا عن هذا الموضوع: «إن فكرة إعادة الطرح الواعى للبعد الأخلاقى فى التاريخ تسير فى عكس اتجاه تعليم معظم المؤرخين، وربما على عكس غريزتهم المهنية كذلك. ذلك أنه لدى كل منا بعض الآراء القوية عن موضوع الأخلاق عامة؛ ويعرف كل منا المخاطر التى ينطوى عليها إطلاق الأحكام الأخلاقية فى عملنا، أو حتى الإشارة إلى الحاجة إليها». بيد أن التوقيت كانت خطأ بالنسبة لمثل هذا الخجل «فلا جماهيرنا أو حال العالم الذى نعيش فيه يسمح بعد ذلك لنا برفاهية الهروب إلى برج عاجى بروستى محاط بالفلين خال من التراب، والميكروبات، والقيم ... ولا شك فى أن الذين يحترفون منا التاريخ المعاصر قد وجدوا المعضلة الأشد حدة، فإن الذى يجب أن يتعامل مع الجوانب الأكثر وحشية فى فترة هتلر أو ستالين، أو التأثير الكلى المدمر للحرب الشاملة الممكنة، سوف يجد من الصعب عليه أن يكبح بعض التعبير عن ذلك السخط العادل».

ولا نستطيع أن نتنبأ إلى أين سيذهب ذلك السخط التاريخى، على أية حال، ومن الذى سوف يشعر به. وحسبما سلم رايت، فإن ليبراليته ربما جعلت الأحكام الأخلاقية أكثر صعوبة، ولكن «زملاءنا المحافظين - على الأقل أولئك الذين يعون أنهم محافظون - قد جعلوا الأمر أكثر سهولة؛ وكثير منهم كانوا دائما ملتزمين صراحة بنظام من القيم المطلقة، قائمة على قاعدة دينية أو أخلاقية يمكن بواسطتها الحكم على أحداث الماضى بثقة دونما أدنى حرج»، وفى خطاب افتتاحى، فى أول يونيو ٢٠٠٢م، فى ويست بوينت، عاد الرئيس جورج بوش إلى الأمثلة التاريخية ليشرح كيف كان الحكم الأخلاقى ينتمى إلى أية رواية عن الماضى:

« يقلق البعض من أنه من غير الدبلوماسية أو من غير الأدب إلى حد ما أن نتحدث لغة الصواب والخطأ. وأنا لا أوافق - إن الظروف المختلفة تتطلب مناهج مختلفة ولكن ليس أخلاقيات مختلفة. إن الحقيقة الأخلاقية هى نفسها فى كل حضارة، فى كل وقت، وفى كل مكان... لا يمكن أن يكون هناك حياد بين العدالة والقسوة، بين البرىء والمذنب. نحن فى صراع بين الخير والشر، وسوف تسمى أمريكا الشر باسمه. وبمواجهة الشر والنظم اللاقانونية، لا نخلق مشكلة، وإنما نكشف عن مشكلة. وسوف نقود العالم فى مواجهتها».

وقد يعترض أحد بأن قصة الكتابة التاريخية تكشف عن حركة بعيدًا عن مثل هذا التفكير الأخلاقى فى مجال دراسة علمية وغير منحازة للماضى. وقد اعترض مارك بلوش، الذى كان يعرف كتاب آكتون، بقوله: «والآن على مدى زمن طويل، تحول المؤرخون إلى نوع من القضاة فى هاديس(*)، متهمين بتوزيع المديح أو اللوم على الأبطال الموتى». وبينما يجب أن يرضى مثل هذا الوضع الأوليمبى «غريزة عميقة الجذور... ومثل هذه اللافتات تصبح إحراجًا. فهل نحن على هذه الدرجة من اليقين من أنفسنا ومن عصرنا بحيث نقسم أسلافنا فى الماضى إلى الطيب والملعون؟ يا له من عبث ... الارتقاء بالمعايير النسبية تمامًا لفرد واحد، أو حزب واحد، أو جيل واحد إلى المطلق». بيد أن الأوقات أو الأحداث تغير عقول الرجال، وكتب بلوش فى ٨ يوليو سنة ١٩٤٠م إلى شريكه فى العمل ورفيقه الوطنى لوسيان فيبفر: من غير المفيد أن نعلق على الأحداث. إنها تتفوق فى الرعب وفى الإهانة على كل ما نحلم به فى أسوأ كوابيسنا».

(*) هاديس، عالم فى الأساطير الإغريقية القديمة. (المترجم)

وهنا، بلا جدال، مؤرخون قد عقدوا العزم على ألا يروا شرًا، أو على الأقل، أى شر نراه. وحسبما فكر بلوش، فإن ما قد يبدو شرًا لنا لم يكن يبدو بالضرورة على أنه شر لأسلافنا. وفى سنة ١٨٩٩م، عندما اكتسح الأمريكيون من أصل أوربى الغرب، قام المتحدث باسم الحزب الديموقراطى جون أو سولليفان بتجربة مذهب «المصير الواضح». وقد شرح M.D ودافع عن تجريد السكان الأصليين من أملاكهم مع عدم ذكرهم. كان الدرس أخلاقيا، وكان التاريخ هو المفجِّر: « ما الذى يمكن لصديق للحرية الإنسانية، والحضارة والدماثة أن يلقى نظره على التاريخ الماضى للملكيات والأرستقراطية فى العالم القديم، ولا يستهجن أنها كانت موجودة ... وكان قدر أمريكا أن تحظى بأعمال أفضل. إنه مجدنا الذى لا يضاهى أنه ليس لدينا ما يذكرنا بميادين المعارك، سوى الدفاع عن الإنسانية، وعن المقهورين فى الأمم جميعا، وعن حقوق الضمير، وحقوق التحرر الشخصى ... لقد كان لنا أبطال وطنيون يدافعون عن منازلنا، وحرياتنا، ولكن لم يكن لدينا من يتطلعون إلى العروش والتيجان، ولم يعان الشعب الأمريكى أبدًا من الاستسلام لطموح شرير يقودهم إلى تفريغ الأرض من سكانها، أو نشر الخراب فى كل مكان، لكى يجلس كائن بشرى فى مقعد التفوق».

لقد علم درس التاريخ الذى ألقاه سوليفان الأمريكان فى توجهاتهم المستقبلية: «نعم، نحن أمة التقدم، أمة الحرية الفردية، أمة التحرر العالمى ... ويجب أن نمضى قدما لإنجاز مهمتنا – للتطوير الكلى للمبدأ الذى تقوم عليه منظمتنا – حرية الضمير، حرية الشخص، حرية ممارسة التجارة والعمل، عالمية الحرية والمساواة». كانت السياسة التى تبناها أو سوليفان والحزب الديموقراطى خاصة هى ضم جمهورية تكساس المستقلة حديثا. وكان حكامها السابقون، وجمهورية المكسيك، ومن كانوا يسكنونها آنذاك، أى

السكان الأصليون، كانوا ببساطة يقفون فى وجه تلك المهمة. وهكذا لم يكن لهم مكان فى درس التاريخ الذى ألقاه أو سولليفان، بل أنهم اعتبروا شرًا.

وفى ثمانينيات القرن التاسع عشر، مع حلول الفلاحين، والمزارعين وعمال المناجم الأوربيين محل الهنود بشكل شبه كامل، كتب الشاب تيودور روزفيلت فى كتابه The Winning of the West أن « انتشار الشعوب الناطقة بالإنجليزية فى أنحاء المناطق الخالية فى العالم (أى أن الأماكن التى كان يعيش فيها الهنود والآسيويون والإفريقيون كانت خرابًا) لم يكن وحده الملمح المذهل فى تاريخ العالم، ولكن أيضًا الحدث الأكثر تأثيرا فى مداه وأهميته ... بيد أن هناك الكثير يبقى لكى نعمله قبل أن يصل الغرب إلى حدوده الطبيعية وسوف يمتلئ من الحدود إلى الحدود بجماعات الناس من مواطنيه». ولم يستطع الهنود أن يكونوا مواطنين، ولم يكن بإمكانهم أن يكونوا جزءا من التجمعات. لقد كان حتميًا، والواقع كان أمرًا طيبا، أن الجنس الحاكم من الأوربيين الشماليين هم الذين سيجلبون الديموقراطية والمذهب البروتستانتى، والمشروع الحر، إلى الغرب ...» ومن ثم لم يكن هناك شر فى الحلول محل البدائيين.

كان فيليبس فى السنوات الباكرة من القرن العشرين حجة بارزًا فى تاريخ الرق. وعلى الرغم من أنه ولد فى جورجيا وتربى فيها، فإن فيليبس حصل على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا فى مدينة نيويورك ومارس التدريس من سنة ١٩٠٢م إلى سنة ١٩٠٨م فى جامعة ويسكنسون ثم فى جامعة تولان. وكان كتابه Amercian Negro Slavery (1918) محل احترام واسع من جانب المؤرخين الآخرين عندما ظهر. وفى صفحاته، كان العبيد يشكلون «طبقة منحطة» تسببت «طاعتهم الطبيعية» فى استعبادهم. كان اعتدال سادتهم وعدالتهم العامة تقابل بالولاء من جانب العبيد بل وحب

مالكيهم. وكانت هناك استثناءات - حالات تمرد وجرائم- بيد أن القليل من هذه نتجت «بصورة مباشرة من ضغط الظروف التى عاش العبيد فى ظلها». وعلى العموم، كان العبيد سعداء، مصونين بشكل جيد، آمنين فى الرق بالولايات الجنوبية منهم فى مواطنهم فى إفريقيا- وعلى «ممتلكات سيدهم، حيث كانت الساحة الخلفية تعج بالنسوة اللاتى تغنين بصوت خافت والأطفال متعددى الألوان»، كانت تكشف عن مشهد منزلى بهيج، وكان السيد نفسه ميالاً إلى روح الأبوة (وكيف كان يمكن بغير ذلك أن يكون هناك الكثير من الأطفال متعددى الألوان؟). كانت مصادر فيلبيس هى مصادر أستاذ الفصل، وسجلات المحاكم الجنائية، ويوميات المزرعة، والصحف، ولكنه كان واثقًا من أن العبيد كانوا يوافقون على أن الرق كان يمثل شرا صغيرا، أو لم يكن شرًا على الإطلاق.

وبينما لن ينازع معظم المؤرخين فى الرعب الذى أنزله رعب «الحل النهائى» الذى فرض على اليهود فى أوربا على أيدى هتلر وأتباعه، ينشب جدال ساخن حول المسئولية عن الهولوكست(*). فهل كان هتلر ببساطة عبقريًا مجنونًا فرض إرادته السيئة على الشعب الألمانى المنوم مغناطيسيًا (تذكر خطبة الرئيس ريجان فى بيتبورج)، أم أن الغالبية الكاسحة من الشعب الألمانى متورطون عن علم وعن إرادة؟ من المؤكد أن اللاسامية كانت موضوعًا بارزًا فى الثقافة الألمانية قبل وصول هتلر إلى السلطة وأسهمت فى نجاحه. ولكن هل كانت الآراء العنصرية هى التى قادت الألمان إلى

(*) تبدو مسألة حشر اليهود بلا داع فى أى موضوع من شوائب الكتابة الغربية عامة وفى الولايات المتحدة بشكل خاص ؛ ويتم حشر مسألة الهولوكوست المزعوم فى أية كتابة تاريخية حديثة فى فجاجة مستفزة ؛ وكأن دنيا النشر فى الغرب مصابة بفيروس الدعاية الصهيونية صاحبة النفوذ المالى فى أوربا وأمريكا (المترجم)

أفعال التطهير العرقى؟ هل يمكن لأمة بأسرها أن توصم بسبب أفعال ارتكبها أفراد منها؟

من المؤكد بالنسبة لأولئك الذين أيدوا «التطهير» النازى فى أوربا فى السنوات السابقة على الحرب العالمية الثانية، بما فيهم عدد من المؤرخين العنصريين، لم يكن القضاء على اليهود عملاً طيبا فحسب وإنما كان جزءا من خطة أكبر للتاريخ الأوربى. فعل سبيل المثال، جادل آدولف بارتلز، وهو مؤرخ أدبى وأستاذ فى التاريخ، بأن النفوذ اليهودى فى الأدب والفن قد زعزع الآرية الخاصة وكان لابد من استئصاله. فبالنسبة له، لم يكن هناك شر مثل الوجود اليهودى فى وسط الجنس الحاكم.

مثل هذه النسبية حول مشكلة الشر يمكن أن تستميل شكلا من أشكال فقدان الذاكرة التاريخى، أو ما هو أسوأ، أى الخداع. ومن ينكرون الهولوكوست، مثل البريطانى ديفيد إيرفنج، وهو مؤرخ، حذف شر الهولوكوست من تاريخ العالم بضربات قليلة من قلمه، أو حاول أن يفعل هذا، وعندما تحدته ديبورا ليبستاد من جامعة إيمورى فى كتابها:

Denying the Holocoast: the Growing Assault on Truth and Memory 1994.

قاضاها بتهمة الإساءة إلى سمعته فى إنجلترا. وكان إيرفينج قد كتب، حسب رواية ليبستاد أن "اليهود ليسوا ضحايا ولكنهم هم الذين أوقعوا الضحايا" وأنهم "سرقوا" الملايين على سبيل التعويضات، ودمروا اسم ألمانيا الطيب بنشرهم "أسطورة" الهولوكوست، وكسبوا التعاطف العالمى بما زعموا أنه حاق بهم". كان هذا هو الزاد القياسى لقوات الذين ينكرون الهولوكوست. وقد اعتبرت ليبستاد أن إيرفنج وكتبه الكثيرة من الخطورة، أنه بدا، لبعض

قرائه على الأقل، مؤرخا ذا شرعية. ومن المؤكد أنه قدم مادة وثائقية ومصادر أولية لكى يدعم مزاعمه. وعندما يتم فحصها عن قرب، تتحول إلى زيف.

كانت قضية إيرفنج ضد ليبستاد، التى نشر كتابها فى إنجلترا فى بنجوين، قد نظرت فى المحكمة فى يناير سنة ٢٠٠٠م. وبعد ما يزيد على سنة من الاستعدادات والمحاكمة، كسبت ليبستاد، بعد أن أوشكت على الإفلاس بسبب المحاكمة وبعد الإجهاد العاطفى. فقد قام زمرة من المؤرخين الأوربيين البارزين فى القرن العشرين بتفنيد استخدام إيرفينج للأدلة، وأوضحوا أن ما كتبه لم يكن تاريخا ومن ثم لم تكن ليبتساد تشهر به عندما قالت إنه كاتب تبريرى لهتلر. وأصدر القاضى تشارلز جراى قرارا قوى الكلمات. كان إيرفنج على مدى ثلاثين سنة «ناشطا فى إنكار الهولوكوست، معاديًا للسامية، وعنصريا ومرتبطا بالمتطرفين اليمنيين الذين طوروا النازية الجديدة» كما أن إيرفنج «تلاعب عمدا وبشكل مثابر بالأدلة التاريخية» لكى يصور هتلر وحركته فى ضوء موات ولإنكار الرعب الذى عرفته معسكرات التجميع. ليبستاد.

كان ما قالته ليبتساد عن إيرفنج صحيحا، دفاعًا عن القضية التى رفعها إيرفنج بالسب العلنى. وفى بريطانيا يقع عبء إثبات حقيقة المنشور على عاتق المؤلف. وليس هناك متطلبات للامبالاة المستهترة إزاء الحقيقة ولا استثناء للشخصيات العامة كما هو الحال فى الولايان المتحدة. ولكن فى بريطانيا، بخلاف الولايات المتحدة أيضا، يجب على الخاسر، وهو فى هذه الحالة إيرفنج، يجب أن يدفع الرسوم القضائية لمن كسب القضية. واستأنف إيرفنج الحكم دونما نجاح، وواجه ما يزيد على مليون ونصف مليون جنيه إسترلينى فى الرسوم القضائية.

كانت ليبستاد مبتهجة، مرهقة، وقد برئت ساحتها، ولكن انتصارها لم يكن نصرًا لها وحدها. لقد كان إيرفنج هو الذى بدأها- ورفع قضية أنكرت كلاً من عدم أخلاقية التاريخ ولا أخلاقيات بعض المؤرخين. فلماذا كذب بشأن الهولوكوست ولماذا أقام القضية؟ كلها أسئلة للمؤرخين النفسيين. ودوافع ليبستاد أيضا تكمن وراء مجرد الدفاع عن كتابتها. إنها تكمن فى الدفاع عن القوة الأخلاقية للتاريخ. كما كتبت فى أعقاب المحاكمة « على مدى فترة طويلة بعد معركة المحكمة، شعرت بالألم عندما فكرت فى الناس الكثيرين الذين كانوا يشاهدون إيرفنج ينتهك ذكرياتهم... لم أشعر بالألم فحسب، ولكنى شعرت أيضا بشعور معين من الامتياز. فقد ذكرت بحقيقة أن القيم العليا فى التراث اليهودى تعمل من الرقة المحبة... إن الاهتمام بالموتى يسمى «الرحمة والحقيقة»، وهو الفعل الأكثر أصولية فى الرقة المحبة». إنه فعل يقوم به جميع الناس حين يتذكرون الوالدين، والأطفال، والأحباب، والمدرسين والزعماء الذين عرفوهم فى حياتهم.

بيد أنه لا يمكن للفوز بقضية واحدة فى ساحة القضاء أن تغيّر من المكاسب التى يفوز بها بعض الناس من انعدام الشر. فقد محت كتب التاريخ الدراسية الحديثة فى اليابان كل ما يتعلق بسوء معاملة اليابانيين لأسرى الحرب واستخدام النساء من الأهالى فى البلاد المحتلة عاهرات لخدمة القوات اليابانية، ونهب المراكز المدنية مثلما حدث فى نانجينج. كما انمحت بالمثل التجارب التى قام بها اليابانيون فى حرب الجراثيم والحرب الكيماوية فى أثناء الحرب من «الطبعة النموذجية لإصلاح كتاب التاريخ المدرسى» وأحد الموضوعات الرئيسية فى كتب التاريخ اليابانية الحديثة هو توجيه اللوم إلى الصين بسبب الغزو اليابانى للصين. فليست هناك ضرورة للاعتذار لأولئك الذين لم يرتكب ضدهم أى شر. ولكى تبرهن على أن تغير الوجهة ليس لعبًا

نزيهًا ولا هو تاريخ جيد، فإن كتب التاريخ الدراسية الصينية الجديدة قد سمحت كل أهوال الثورة الثقافة، ومعها كل شيء باستثناء ذكر موجز لاسم « ماو زيدونج» (ما وتسي تونج)، في محاولة لتلميع شهرة الصين الشيوعية في العالم. ذلك أن اسمه، مع الثورة الشيوعية، وحروب التوسع الإمبراطوري، وغيرها من الحوادث المزعجة قبل سنة ١٩٧٩م، كانت قد استبعدت، وحل محلها إشادات متوهجة بالعولمة والتجارة العالمية.

وثمة نسخة مخادعة أخرى لعدم رؤية الشر في العثور على بطانة من الفضة. فقد فتحت مجازر الحروب الصليبية سبيل التجارة في عالم البحر المتوسط، مما جلب معه ارتفاع مستويات المعيشة، وطرح الأفكار الحديثة عن التجارة والمشاركة في المعرفة العلمية والرياضية بين المسلمين والمسيحيين. وقد تبعت أهوال الوباء فترة من النمو والرخاء النسبي. وإبادة الأهالي الأصليين في أمريكا على أيدي الأوربيين (والأمراض الأوربية) ساعدت الحضارة الغربية على أن تزدهر في العالم الجديد. إن إعادة النظر إلى الأحداث بهذه الطريقة، والقفز بالأطر الزمنية، وتجاهل التكاليف البشرية التي تتخلل ذلك، وتحاشي «ما قد يكون قد حدث» يجعل من الأسهل أن نبتلع القرص المر في لا إنسانيتنا واحدًا بعد الآخر.

معالجة الشر

إن المفكر التاريخي الذي يعتنق عقيدة دينية أو يعتقد في شكل ما من الشرارة المقدسة في الجنس البشري يجد مشكلة الشر مشكلة تثير الغضب على نحو خاص. فعلى مدار التاريخ ربط المفكرون الدينيون بين التاريخ واللاهوت لكي يعالجوا المشكلة. والتراث اليهودي المسيحي تراث تاريخي بقدر كونه تراثًا لاهوتيًا، وفيه يمضي تاريخ طولي ممتد من الخليقة إلى يوم الدينونة

الأخير. وفى داخل هذه الرواية التاريخية، لا يؤمن اليهود والمسيحيون، ومعهم آخرون، بأن الشر طبيعى ولا يمكن تجنبه لأن الآلهة أو القوى الطبيعية محايدة أخلاقيًا. ويعتقد اليهود والمسيحيون أن الرب هو مصدر القانون الأخلاقى كله، والرب قادر على كل شيء (وله القوة كلها) والرب يحبنا وقد خلقنا على صورته، ومن ثم فإن الرب لابد أنه منع فى الوقت نفسه فعل الشر وله القدرة على إقصاء الشر. ذلك هو التناقض المنطقى الذى يجعل مشكلة الشر الموضوع الافتتاحى فى التاريخ الدينى الغربى.

وعدد متناقص من المؤرخين المتدينين أصلاً كان عليهم أن يتصارعوا مع الصياغة التقليدية لهذه المشكلة: بما أن الرب خلق العالم، فلابد أنه خلق الشر. وإذا كان الرب عليما بكل شيء، فلابد أنه يعرف أن أمورًا شريرة سوف تقع، وأننا سوف نرتكب الشر تجاه كل منا الآخر، بل ويعرف أن مشكلة الشر سوف تصيبنا بالحيرة. ولكن إذا كان الرب يحبنا، ويريدنا أن نفعل الخير، فلماذا إذن يوجد مثل هذا القدر الكبير من الشر فى العالم؟

استخدم اللاهوتيون التاريخ لكى يتناولوا بالدراسة معضلة تاريخية، ولأن علماء اللاهوت بشر حقيقيون، ويتصرفون ويفكرون فى رحاب زمن تاريخي،.فقد صارت إجاباتهم جزءا من تاريخ الدين. وبهذا المعنى، فإن مشكلة الشر تترك المؤرخين ليبحثوا عن فلسفة تاريخ وهم أشبه بمن يطارد ذيله. لأن التاريخ الفكرى للمحاولات الدؤوب للإجابة على المشكلة تؤدى إلى الإيمان بمشيئة الرب، أو العناية الإلهية، ولا تؤدى إلى حل بالمصطلحات البشرية. وباختصار، رفض تام للغز المنطقى وإعادة تأكيد الإيمان. فالرب هو الأقوى، وهو العليم، وهو الخير. فهو يعلم ما يجرى، ويجب على المرء أن يثق به. وما يبدو أنه شر قد لا يكون شرا إطلاقًا ولكنه على أية حال

جزء من خطة الرب. وقد يخدم الشر مقاصده. فإذا اخترنا الشر، نكون قد خالفنا إرادة الرب، ولكنه يترك لنا الحرية فى فعل هذا(*).

هذه المجادلة راقت بشكل خاص لسان أوغسطين أسقف هيبو (فى تونس الحالية) فى القرن الخامس الميلادى. وقد كان قبل اعتناقه المسيحية قد تنقل بين العديد من الديانات والنظم الفلسفية، باحثا على الدوام عن حل لمشكلة الشر. ولأنه كان قارئًا نهمًا، فقد درس تاريخ الإشارات. وكان كتابه City of God (سنة ٤١٠م) عن كل من روما وعن المدينة السماوية أيضا. «ولكن المدينة الأرضية، التى لن تدوم إلى الأبد... لها خيرها فى هذا العالم، والأفراح فيها مفرحة مثلما يمكن لهذه الأشياء أن توفره. ولكن بما أن هذا ليس هو الخير الذى يمكن أن يعفى المخلصين لها من كل الأحزاب، فإن هذه المدينة غالبًا ما تكون منقسمة على نفسها بالتقاضى، والحروب، والمنازعات والانتصارات من ذلك النوع الذى يدمر الحياة أو يعمر فترة قليلة». لقد وجد العزاد فى المسيحية من ناحية لأن المزج بين إله قوى قدير والحرية الإنسانية كان أمرًا معقولاً بالنسبة له. إذ إن الإنسان مخطئ، ضال، وسقط بسبب عدم طاعة آدم لأوامر الرب. كما أن الأدلة من التاريخ برهنت على هذا الافتراض. والخير يأتى من خلال حب الرب لأبنائه المخطئين. والشر يأتى من البشر.

(*) هذه مناقشة من وجهة نظر التراث الدينى الغربى بتراثه الذى يضرب بجذوره فى العهد القديم الذى يضم التوراة وتعاليم الدين اليهودى، والعهد الجديد الذى يمثل المسيحية فى أناجيلها الأربعة ورسائل الرسل ؛ فضلاً عن الموروث الثقافى الدينى الذى تمثله اجتهادات اللاهوتيين من مختلف المذاهب المسيحية فى أوربا. ومن ناحية أخرى، فإن تراث المسيحية الشرقية، بمذاهبها المختلفة. ترى مشكلة الشر من منظور مختلف. أما فى الإسلام فالمسألة مختلفة تمامًا، وقد أثار الفقهاء والفلاسفة والمتكلمون المشكلة من منظور «الجبر والاختيار» (المترجم).

لقد تصارع أوغسطين مع المشكلة ولكنه لم يحلها. ذلك أن الخطيئة الأصلية لا تقدم إجابة سهلة لمشكلة الشر. ونحن قد نستحق أى شيء وكل شيء سيئ قد حدث لنا. ومع هذا، فإننا إذا كنا فاسدين فى قلوبنا، ولا ينقذنا من اللعنة الأبدية سوى نعمة الرب وتدخل المسيح، إذن فهناك شيء فينا يستحق الإنقاذ، وتعاود مشكلة الشر الظهور. وعلى أية حال، فاليوم، هناك الكثير جدا من علماء اللاهوت المتحررين، وكثير من الجماعات الدينية يرفضون فكرة أننا خطائين بطبيعتنا.

وفى حركة الإصلاح الدينى، وهى فترة تاريخية كانت تحاسب الأرواح والأجساد باسم الإيمان الحقيقى، عالج المسيحيون مرة أخرى مشكلة الشر. وقد وجد الكالفينيون، وهم من البروتستانت الإصلاحيين المتشددين كانوا يؤمنون بالقدرية (فكرة أن الرب اختار قبل الخلق من الذى سينال الخلاص ومن الذى لن يناله)، أن مشكلة الشر لم تكن مشكلة على الإطلاق. فكل شيء بمشيئة الرب. وعلى أية حال، فإن المشكلة قد تحولت حينئذ من مشكلة خلاص (هل نلت الخلاص؟) إلى مشكلة نفسية- حلقات لا نهائية من تجريم الذات وانعدام اليقين بأنه ما إذا كان هذا أو ذلك الشخص بين الذين نعموا بالخلاص، وما الإشارات، وما «التأكيد» أو الضمان الذى يمكن للمرء أن يثق به، ومتى وكيف يمكن للمرء أن يحصل على نعمته؟

على سبيل المثال، عندما حدث فى أوائل ثلاثينيات القرن الرابع السابع عشر، أن قام جزء من الجماعة المسيحية فى بوسطون، تحت قيادة قسيسهم، جون كوتون، وأعضاء بارزين من الكنيسة مثل حاكم خليج ماساشوستس هنرى فين وعائلة هوتشينسون برفض فكرة أن ضمان يمكن أن يكون آمنا بدون تجربة النعمة، وأضرموا النيران فى مستوطنة خليج ماساشوستس. وقد أصرّ قساوسة آخرون على أن الاستعداد عبر الدراسة والفعل يعطى

موشرات على مشيئة الرب. وقد أجاب حزب «النعمة المجانية» فى بوسطون بأن هؤلاء المسيحيين فاترى الهمة ربما يعيشون فى «عهد للأعمال» قريب جدا من الأشكال الطقسية الكاثوليكية الرومانية. وقد انتهت سلسلة من المحاكمات والطرد بانسحاب جون كوتون وتخليه عن آرائه المتطرفة، وعاد فين إلى إنجلترا، وعائلة هو تشينسون تتجه صوب مناطق مناخها أكثر برودة.

وتقدم مجادلة القدرية على الأقل إجابة جزئية على معضلة الشرور الطبيعية وكذلك الشرور الأخلاقية- لماذا يموت الطفل البرىء من جراء مرض رهيب ولماذا قد يهلك آلاف من الناس الأخيار فى زلزال، أو فيضان، أو ثورة بركان. وفقا للإجابة القائمة على القدرية، فإن للرب أسبابه فى السماح بالكوارث الطبيعية ولا يمكننا ببساطة أن نعرف ما يخفيه. والمحاولات لاستخدام الكتاب المقدس للتفكير فى هذا - مثلاً، لإظهار أن هذه الحياة ما هى استعداد للحياة الآخرة (كما فى الرسالتين إلى أهل كورنثه وسفر أيوب) - قد تريح المفجوعين، لكنها لا تحل المشكلة.

ولكن المزيد والمزيد من التاريخ الدينى- قصة محاولات الأجيال الماضية لحل مشكلة الشر- كتبه باحثون ليسوا باحثين دينيين بالتخصص. وحسبما قدم إدوارد هويتنبج فوكس سنة ١٩٥٥م مقالة هاريس هاربيسون عن الإصلاح الدينى لسلسلة جديدة عن الفكر الغربى: «لقد وصف هاربيسون فى الحال أزمة الإيمان والضمير التى أغرقت أوربا الغربية فى بداية عصرنا الحديث ووصفها فى ثبات فى سياق النضال السياسى والاجتماعى الذى يشكل تاريخ القرن السادس عشر... وهى حالة اختبار فى التاريخ الاجتماعى الحديث فى جهوده لإيضاح أن المثل العليا والمبادئ المرشدة ليست مفهومة

تمامًا بغض النظر عن الرجال الذين تمسكوا بها ولا الرجال الـذين يمكـن استيعابهم كليًا باعتبارهم أفرادًا منفصلين عن المجتمع الذى عاشـوا فيـه». وكان هاربيسون نفسه مثالاً راسخًا لمثل هذا «التاريخ الاجتماعى الحـديث» عندما كتب «أحد أصعب الواجبات على المؤرخ أن يكتشف كيـف ولمـاذا يستولى مجموعة مركبة من الأفكار مثل أفكار لوثر على عقول الرجـال». ولم يكن فوكس ولا هاربيسون - والواقع أنه لم يكن أيهما مهتمًا- يعتبـران رواية قصة الإصلاح الدينى من الداخل نصرا لمـشيئة الـرب ولا هزيمـة للحقيقة المسيحية المتجلية. إذا إن ذلك لن يكون من قبيل البحث التاريخى.

ويقدم كتاب أرنولد توينبى الفـذ Study of History بعـض الرؤيـة الداخلية عن تراجع المؤرخين عن أى شيء يشبه التفسير الدينى للشر. فقـد كتب توينبى وهو يتحدث عن عدم التسامح والعنف الدينى «هـذه الوصـمة الكبيرة على حضارتنا الغربية فى بواكير العصر الحديث تمثل ... تناقـضًا غير عادى مع التقدم السريع وإن كان راسخ القدم للمجتمع نفسه فى اتجاهات أخرى؛ وحقيقة أن عدم التسامح الدينى، فى هذا الوقت وهذا المكان، لم يكن مجرد شر مطلق فى حد ذاته، ولكنه كان أيضًا مفارقة زمنية متوهجة تعد بلا شك للتجاوزات غير المسبوقة التى جرى المجتمع إليها فـى آخـر فـصول تاريخها فى الغرب». وكان لتوينبى تفسيره الخاص لبنية الشر- كانت الديانة المنظمة نفسها مصدر الشر الأخلاقى. لقد عاد چيبون.

إننى أدّرس التاريخ الباكر للمذهب البيوريتانى الإنجليزى ولى بعـض المعرفة العابرة بالأدبيات فى هذا المجال. ولا يمكننى التفكير بعيدًا عـن أى من المجلدات الفاخرة عن البيوريتان فى إنجلترا أو تاريخ أمريكا الباكر الذى يتبنى آراءهم عن مهمتهم. لقد كانت تلك المهمة بالتأكيد تاريخيـة؛ والواقـع أنها حددت التاريخ المسيحى. كما كتب إدوارد جونسون فى كتابه المعاصـر (١٦٥٤م):

إن المـسيح » Wonder - Working Providence of Sions Saviour قصد أن يبين مكانه الملكى تجاه كنائسه فى صورة أكثر اكتمالا عن ذى قبل إلا أن أبناء الإنسان رأوا ... يبدأ بأمتنا الإنجليزية... ومن ثم فى سنة ١٦٠٨م يوجه خدمه باعتبارهم رسل المسلك لنشر إعلانه طلبا للمتطوعين». لقد كانت هجرة البيوريتان مهمة مقدسة حددها المسيح لإنقاذ العقيدة. وبعـدها بنـصف قرن من الزمان، قدم كوتون ماثار كتابه: Magnalia Christi Amercana وهو بالإنجليزية The Eclessiastical History of New England » إننى أكتب عن عجائب الديانة المسيحية، هربًا من حرمان أوربا إلى الـشاطئ الأمريكـى، بمساعدة رب هذه الديانة. إننى أفعل، بكل الوعى بالحقيقـة... أكتـب عـن التجليات العجيبة لقوته اللامتناهية، وحكمته، وخيره، وإخلاصه، حيث تفيض أنوار رعايته المقدسة على البرية الهندية».

وليست هناك مؤرخة واحدة حديثة عن التجربة الدينيـة البيوريتانيـة اللافتة، ولا المؤرخون البارزون أنفسهم، وهـم جميعـا منغمـسين بعمـق ومتعاطفين فى الأدبيات البيوريتانية، من بيرى ميللر فى النصف الأول مـن القرن العشرين، مرورا بستيفن فوستر، ودافيد هول، وميشيل وينشيب عنـد نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين، يشارك فى تلك الرؤية الألفية أو ذلك الإيمان (والخوف) فى قصد الرب الخاص بالبيوريتان. ومـن بين كل هؤلاء الباحثين، يأخذ وينشيب المحادثة اللاهوتية للقساوسة البيوريتان بأكبر قر من الجدية، بحسب كلماتها حقًا، بل إنه حتى (أو خاصة) ليس لديه اتصال بشىء يشبه وجهة نظر دينية تجاه الأحداث أو مشكلة الشر. كانت آن هوتشينسون متهمة مثل مضطهديها الكنسيين بـأنهم رجـال لا يرعـوون، واتهموها بدورهم بأنها ليست فقط خاطئة فى لاهوتها وإنما ملعونـة بـسبب أكاذيبها. وبالنظر إلى هذا فإن استنتاج وينشيب يطفو فوق الهجاء، بقعة نائية

ليست من الملائكة فى الأعالى ولكن صندوق قاض من الباحثين العلمانيين غير المنحازين: «لقد كان النزاع حول التدخل مع الكشف عن أعماق أكبر فى الإنجيل ونبوة الرب المرفوعة من أجل قصد عظيم، أو أنها كانت بشأن مضايقة الإخوة والأخوات الذين كانوا ببعض النقاط السخيفة... لقد كان بشأن الحاجة إلى معارضة المذهب البابوى... لقد كان الأمر بشأن القساوسة الذين كبلوا المسيحيين بسلاسل تربطهم بالقانون على حين كان ينبغى لهم أن يجربوا الحرية التى يوفرها لهم الإنجيل». ومن المؤكد أن وينشيب لم يكن يشاطر أيا من الجانبين رأيه فى النزاع أو الزعم برؤية داخلية من لدنه عن غرض الرب من اختبار شعبه المختار بهذه الاختبارات.

حتى المؤرخين ذوى القناعات الدينية ينأون بأنفسهم عن الرأى الدينى عن الشر التاريخى. فإذا حشوا رواياتهم برسائل أخلاقية، فإنها تأتى من أفواه رعاياهم وليس من الرب. لقد كان جورج مارسون، الفائز بجائزة بوليتزر- وكاتب سيرة المقدس البيورتيانى العظيم جوناثان إدواردز، أشد تعاطفا من وينشيب وغيره من الطلاب البيوريتان فى مشروع «المنحة الدراسية المسيحية» الذى كتب فى :

The Outrageous Idea of Christian Scholarship 1997

«إن قلب الخطيئة الإنسانية يكمن فى إنجازاتنا، وفى الوهم الذى يقول إننا يمكن أن نكون نحن آلهتنا، وأن نكون قانونا ينطبق علينا، نخلق حقيقتنا ونتحكم فيها. مثل هذه المفاهيم كان يجب أن تحول الباحثين الملتزمين دينيا إلى منشقين عن أى نظريات مُسلم بها فى الأوساط الأكاديمية الحالية؛ إنها يجب أن تجعل منهم ناقدين لوجهات النظر، وأقوياء بصفة خاصة فى الفنون والآداب، يؤكدون على الحرية الإنسانية والإبداع باعتبارها القيم الأسمى. وعلى الرغم من الجدارة الهائلة. فإن هذه المواهب الإنسانية سوف تصل

ذروتها فى التعبير عندما تمارس داخل شعور بحدود الفرد فى علاقته بالجماعة، أى النظام المخلوق، وأخيرا فى الرب».

ولكنه عندما يأتى إلى تلخيص إسهامه فى الأدب الهائل الذى كتب عن إدوارد، يوفق مارسون كلماته ويوائمها مع القانون العلمانى بدلاً من القانون اللاهوتى: «إن أحد آمالى أن هذا الكتاب قد يساعد على تجسير الفجوة بين طلاب الثقافة الأمريكية وطلاب اللاهوت... وباعتبارى كاتب سيرة يحاول أن يفهم إدواردز أولاً على أنه شخصية من القرن الثامن عشر، فقد كنت أعمل بصورة مباشرة بوصفى مؤرخا ثقافيًا. بيد أننى كنت أفعل هذا دائمنا بعين على السؤال اللاهوتى، آخذًا فكره بجدية على أنه جزء من التراث المسيحى الأكبر» إلا أن هذا التراث عن الإيمان والطاعة يجد نفسها فقط فى هوامش صفحاته «عقيدتى هى أن إحدى فوائد أن تكون مؤرخًا، خاصة إذا كان المرء جزءًا من جماعة إيمان، هى أن تساعد الأشخاص فى مثل هذه الجماعات لكى يفهموا على نحو أفضل ما الذى يمكن لهم ولجماعتهم أن «يأخذوه من المجربين العظام فى الماضى... وكل شىء، بطبيعة الحال، مرتبط بحدود الزمن». باختصار صل كل شىء يعتمد على الرب؛ واكتب التاريخ كما لو كان كل شىء يعتمد على فعل البشر.

وبالنسبة لسيدنى أهلستروم، أشهر مؤرخ للديانة الأمريكية فى زماننا، كان الأمل أقوى من اليأس. ولما كان يكتب فى الأيام الأخيرة من تورط أمريكا فى حرب فيتنام، وهى فترة تسببت فى أن الكثير من الناس الذين كانوا يفكرون على نحو سليم أخذوا يتساءلون عما إذا كان تاريخنا قد مضى فى طريق الخطأ. وقد وجد أهلستروم فى تاريخنا الدينى موعظة عن الأمل. وكانت فقراته الأخيرة تحث «القارئ» على أن يتبنى «أسلوب حياة وموقفًا أخلاقيًا» تحمل أفضل ما فى التراث الدينى الأمريكى، كانت تعول على

العناصر المتعمقة فى تراثهم، وإيجاد مصادر جديدة للقوة والثقة، وبهذا تبرهن على المثالية التى كانت أمرًا طيبًا. لقد تمكنت من رفع الروح المعنوية وتقوية الشعور الأخلاقى. ولكن أى تاريخ مشروع للمسيحية الأمريكية كان يتطلب «اهتمامًا مستمرًا بالرجال، والحركات، والأفكار ذات الجذور العميقة جدا فى الزمان والمكان». وحتى التاريخ الدينى الذى كان يمتدح الإيمان كان لابد أن يكون قصة الناس وقصة أفكارهم، وليست قصة العناية الإلهية.

وعلى الرغم من أن إجابة علماء اللاهوت على مشكلة الشر لم تكن فى متناولهم، فإن الباحثين مثل مارسدن وأهلستروم يلمحون إلى أن دراسة التاريخ توفر الراحة. إن المؤرخين يواجهون الشر فى أوضح صوره. ولكن أخذ العناية الإلهية خارج قصة ماضينا ينزل بالشر إلى أبعاد يمكن التعرف عليها على نحو أفضل. إنه نحن. إن التاريخ، متحررًا من حضن الحضور الطاغى للشر الأعلى الذى يمارسه البشر، يظهر أن الشر من فعلنا نحن. ويوضح التاريخ أيضا أننا قادرون على السيطرة والتحكم فى حوافز العدوان والإيذاء لدينا. والوقوف عرايا على هذا النحو مثل هذا، بدون الملابس التى تتمثل فى الأصل المقدس ووعد الحياة الآخرة السماوية، يكون التاريخ البشرى موضوعًا أكبر- وتاريخًا يبعث على الخوف بدرجة أكبر بالنسبة لكثيرين. والعودة إلى الراحة التى يوفرها الدين قد تخفف الصدمة التى تنتج عن مثل هذا الإدراك. وقد كتب بعض المؤرخين ذوو الشعبية فى ذلك المسار. وقد اكتشفوا فى الآباء المؤسسين، فى لنكولن وغيره من الزعماء الوطنيين، وفى الحرب الأهلية وجنود الحرب العالمية الثانية، إيمانا بالرب المحسن والراعى، والذى يصبح حينذاك برهانًا على أن مشكلة الشر لا توجد سوى فى أذهاننا فقط.

إذا لم يكن ممكنا بعد الآن الاعتماد على العناية الربانية بوصفها التفسير النهائى للشر، فما الذى يحل محلها؟ إننى اقترح أن نتقبل فى تواضع الدور الذى تلعبه السخرية فى التاريخ. وفى المشهد قبل الأخير فى فيلم مونتى بيثون «The Meaning of Life»، يقطع حفل عشاء زائر مفاجئ، ويصبح واضحا أنه جزء من تاريخنا كله.

جريم ريبر: أنا جريم ريبر (الحاصد الرهيب - ملك الموت)

جيوفرى: ماذا؟

جريم ريبر: جريم ريبر

جيوفرى: نعم، أرى ذلك

جريم ريبر: أنا الموت...

أجيلا: من هذا يا عزيزى؟

جيوفرى: إنه «السيد الموت» أو شىء ما. لقد جاء بشأن الحصاد؟ إننى لا أظن أحدا فى هذه اللحظة.

أنجيلا: هاللو، حسناً، لا تدعه يتسكع فى الخارج، يا عزيزى، ادعه إلى الدخول ...

ديبى: حسنا، أليس ذلك غير عادى؟ لقد كنا لتونا نتحدث عن الموت منذ خمس دقائق فقط.

جريم ريبر: اهدأوا ... لقد جئت من أجلكم.

أنجيلا: أنت تعنى ... لكى

جريم ريبر: آخذك بعيدا. هذ غرضى. أنا الموت.

جودفرى: حسنا هذا يلقى بالكآبة على الأمسية، أليس كذلك؟

....

جيوفرى: والآن انظر هنا. أنت اقتحمت علينا مكاننا، ولم يدعك أحد، تكسر الأكواب ثم تعلن، وبشكل عارض تمامًا، أننا جميعا موتى. حسنا؟ إننى لابد أن أذكرك بأنك ضيف فى هذا المنزل، و -

جريم ريبر: إهدأوا

ديلبى: هل يمكننى أن أسألك سؤالاً؟

جريم ريبر: ماذا؟

ديبى: كيف متنا جميعا فى الوقت نفسه؟

جريم ريبر: حلوى السلمون

جيودفرى: يا عزيزى، أنت لا تستخدم السلمون المعلب، هل استخدمته؟

أنجيلا: إننى محرج بطريقة غاية فى الرعب

جريم ريبر: لقد حان الوقت. اتبعونى. اتبعونى...

ديبى: إيه، إننى لم آكل الحلوى حتى.

وكما اكتشفت ديبى، هناك عنصر صدفة فى كل الأحداث البشرية، لا يمكن التنبؤ بها، ومن المؤكد أنه غير أخلاقى، ليس لـه علاقة بالجدارة الأخلاقية، أو نقائص الأفراد أو المجموعات. إنها فى صحبة جيدة. فهل خسر الهنود أمام الأوربيين لأن الأوربيين كانوا شعب الله المختار ولأن الهنود هم

الشياطين الحمر؟ هذا خطأ. لقد خسر الهنود لأن الأوربيين جلبوا معهم صدر رجل ميت ملىء بالجراثيم- الحصبة، والغدة النكافية، والجديرى، والجدرى- التى لم يكن للهنود حصانة طبيعية ضدها. أما الأوربيون فكانت عندهم حصانة- التى توارثوها بفضل مئات الأجيال التى كانت تعيش مع الخنازير، والأغنام وغيرها من الحيوانات الأليفة التى كانت تحمل هذه الجراثيم. والأسوأ من هذا أنه عندما وصل الأوربيون ومعهم أغنامهم، وماشيتهم، وخيولهم، والفئران، والصراصير والبكتريا والفيروسات الغريبة عن العالم الجديد، استوطنت هذه الأنواع الأرض بأسرع من المهاجرين.

فهل اكتسب ملايين الإفريقيين أو استحقوا القسوة من الرق المنقول فى الأمريكتين؟ لم يحدث. لم يكونوا مناسبين بصفة خاصة بواسطة الطبيعة أو رب الطبيعة لأن يكدحوا من أجل أن يكسب الآخرون. بل على العكس، كانت زراعات قصب السكر البرتغالية والإسبانية الوفيرة بحاجة ماسة إلى الأيدى العاملة، وكانت تجارة الرقيق الإفريقية الموجودة لديها الوسائل لتلبية هذه الحاجة. ولو لم يكن هناك قصب السكر لما كان هناك عبيد فى العالم الجديد. وعندما يتعرف المؤرخون على ذلك العنصر من عناصر غير المتوقع، يكونون قادرين على رؤية كيف يصبح الحكم الأخلاقى إدراكًا بعد فوات الأوان، ويمكن للمأساة أن تقود إلى الخطب الدينية.

إن الحاصد الرهيب (ملك الموت) يأخذهم جميعًا، حتى ديبى التى لم تأكل حلوى موس السالمون. والدرس واضح- ليس كل شىء سيكون مشروحًا ومفسرًا. إنه فى تلك الفجوة الكامنة بين معرفتنا الجزئية، ولا يهم كيف نتابع أبحاثنا بدأب، والتفصيل الشاسع للماضى التاريخى، الفجوة التى يقع فيها موت ديبى، بحيث نجد مشكلة الشر. وإذا كنا نعرف المزيد، فربما سنفهم السبب الذى يقدم أناسًا بعينهم ومجموعات بعينها ليقرروا فعل الشر.

مثل هذه المعرفة، لن تداوى الأذى الماضى وربما حتى لا تخفف من وطأته، ولكنها سوف تفسر. وسيكون ذلك كافيًا بالنسبة لنا.

مثل هذه المعرفة العالمية والتفصيلية تتعدى قدرة المؤرخ. وربما تكون فى حكم الرب، ولكنها لن تكون أبدًا فى عقولنا نحن. ويجب أن نقتنع بالاعتراف بأننا قد اخترنا مجالاً للدراسة سوف يجعلنا أحيانا غاية فى الحزن، وأحيانا أخرى نرتعش بالغضب. إن الاعتراف بسخرية التاريخ سوف تذكرنا بجوانب القصور فينا وسوف تجعلنا متواضعين. سوف نحتفل بالعدالة عندما نراها فى أبحاثنا ونرحب بأعمال الإحسان عندما نستطيع أن ندونها فى مؤرخاتنا.

خاتمة

جسر إلى الماضى

«الماضى بلد أجنبى... غير مرئى ويستعصى على الغزو... والتجربة التاريخية ليست هى الاقتناع المتغطرس ببهجة الوهم بأننا قد جربنا الماضى مثلما عاشه الناس فى الماضى... وإنما هى تجربة صدع، أو شق بين ما نحن فيه الآن وما كان عليه الآخرون آنذاك»

آلان ميجيل (٢٠٠٧م)

التاريخ مستحيل. ولا شيء كتبته أو يمكن أن أكتبه يغير من هذه الحقيقة القاسية. فنحن لا يمكن أن نعود القهقرى فى رحاب الزمن. ولكن كتابة التاريخ، ودراسة الماضى، ليست مستحيلة. وإذا استكملنا الجسر ما بين الحاضر والماضى، فيجب علينا مواجهة ذلك التحدى النهائى الذى يضعه ميجيل. هناك مشهد مذهل قرب نهاية فيلم :

Indiana Jones and the Last Crusade الذى يجب فيه أن يعبر إنديانا جونز هاوية سحيقة للوصول إلى الكهف الذى يضم الكأس المقدسة. فلابد أن يكون مؤمنا بما يسعى إليه، ويتطلب ذلك الإيمان منه أن يتخذ خطوة فيما يبدو أنه فضاء فارغ وهو يفعل هذا، ويجد أرضًا صلبة- جسرًا إلى الجانب

الآخر. وما نحتاج إليه لكى نستكمل فلسفتنا خطوة إيمانيــة علــى الجســر الذى شيدناه.

أين يظهر مثل هذا الإيمان؟ من المؤكد بعد كل ما قلناه هنــا، أنـــه لا يظهر فى رطانة المناهج الأكاديمية غير المفهومة. فعندما كرس إراســموس كتابه In Praise of Folly لمضيفه الإنجليزى توماس مور، كان كلا الرجلين يعرفان أن الغرض الحقيقى من المقالة هو جعل قرائها يفكرون بشأن الحماقة بأن معرفة الفلسفة أو البلاغة يمكن أن تنقذ رجلاً حينما لا يمكن للإيمان أن ينقذه. يقول إراسموس: «الفلسفة المسيحية كلها تبدو وكأن لديها نوعــا مــن التحالف مع الحماقة وعدم الاهتمام بأن يكون لها تحالف مع الحكمة. وإذا ما توقعت أدلة عليها، فلتفكر أولاً فى أن الأولاد، والرجال المسنين، والنســاء، والحمقى أكثر ابتهاجًا بالأشياء الدينية والمقدسة من غيرهم، وأنهم دائمًا عند مذابح الكنائس لهذا الغرض ؛ وأنهم يفعلون هذا بدافع من الطبيعة أكثر مــن أى شيء آخر. وثانيا، يمكنك أن ترى أن أولئك المؤسسين الأوائــل كــانوا أشخاصًا بسطاء واضحين ومن أشد أعداء التعليم مرارة».

ولن يقوم أى مؤرخ بإرساء فلسفة صالحة على الإيمان الخالص وحده، ومن المؤكد أنه ليس إيمان الحمقى المقدسين، بيد أنه لا يجب لتلك الفلسفة أن تستقر فى الغطرسة القائلة بأن التاريخ قرين الحمقى الخالص. فــى أكتــوبر سنة ٢٠٠٦م، قالت لجنة من أصحاب الوشاح الأزرق من أساتذة هارفــارد الذين يدرسون برامج ما قبل التخرج بالدعوة إلى متطلب دراسى على اتساع الكلية بعنوان «العقل والإيمان». ثم تراجعوا فى ديسمبر. إذ إن زميلهم ستيفن بينكر، كان قد وضع إصبعه على النقطة الموجعة فى اقتراحهم «إن تجــاور الكلمتين يجعل الأمر يبدو وكأن «الإيمان» و«العقل» طريقتــان متوازيتــان

متساويتان للمعرفة، وعلينا أن نساعد الطلاب على الإبحار فيما بينهما. ولكن الجامعات تبحث وراء العقل، خالصًا وبسيطًا، أما الإيمان- أى الاعتقاد فى شيء ما دونما أسباب جيدة لفعل ذلك- ليس له مكان فى أى شيء سوى المؤسسات الدينية. ولا يعانى مجتمعنا قصورًا أو نقصا فى هذه المؤسسات».

هذه مخاكمة قوية، وإن كانت فضفاضة إلى حد ما. ذلك أن هارفارد نفسها تقود طلابها إلى مناطق الخيال حيث يكون العقل محدود الدور. فنحن نصدق الكثير من الأشياء الطيبة «دونما أسباب جيدة لفعل هذا»: كأن نتوقع من شخص آخر أن يحبنا على مدى الحياة؛ أو أن نقضى هذه الحياة نكتب الشعر؛ أو نندفع داخل المبانى المحترقة لإنقاذ أناس غرباء تمامًا ؛ أو أن نعتقد بأن السلام ممكن. والمجادلة بأن المعرفة «تتعلق بالعقل، بسيطًا وخالصًا» يعنى أن ننسى أن التاريخ بعيد قليلاً عن هذه الحقيقة «الخالصة والبسيطة». وكما يذكرنا عالم الطبيعة المتمايز لورنس كراوس «لا شك فى أن هناك حاجة عميقة فى طبيعتنا الفيزيائية إلى أن نصدق وجود مناطق جديدة يمكن لآمالنا وأحلامنا أن تتحقق فيها، وندفن فيها أسوأ كوابيسنا». التاريخ هو إحدى هذه المناطق، ملىء بآمال البشر وأحلامهم، وكوابيسهم أيضا.

هل إيماننا بإمكانية التاريخ مجرد حلم إذن؟ هل عدنا إلى وادى أوسكار هاندلين، الذى تحيط به قمم لا يمكن الوصول إليها؟ كان ستيفن جولد واحدًا من أكثر كاتبى السيرة شعبية لدى الجماهير وأكثرهم انتشارًا فى النصف الثانى من القرن العشرين. لقد قدم لنا مفهوم تطور الأنواع بوصفه سلسلة من التوازنات المرقمة، وطفرات مفاجئة فى الاختلاف الجينى يحدث غالبا فى خلفيات الطبيعة، بديلا عن فكرة تشارلز داروين عن التطور بوصفه عملية

طويلة المدى تحدد فقط الظهور التدريجى ونجاح الخصائص الجديدة. وقد اعتقد جولد أيضا أن أقوى دفاع علمى عن التطور لم يحكم عن إيمان بأننا يمكن أن نتوغل وراء اليقين العلمى لنعرف أكثر مما تقابله العين. وفى عمل قضية الدين الذى يكشف عنه الوحى فى مقالة بعنوان:

«Nonoverlapping Magisteria» فى سنة ١٩٩٧م تعليقا على إيمان البابا بول الثانى بأن الكاثوليكية والتطور لم تستبعد كل منهما الأخرى، كتب جولد «إن لدى بعض الزملاء العلميين، بما فيهم عدد قليل من البارزين الذين لهم تأثير من خلال كتاباتهم، الذين ينظرون إلى هذا التقارب بين المجالين المنفصلين فى فزع».

وإذا ما كان لى أقوم بمجادلة مماثلة عن عقيدة التاريخ، أظن أننى سوف أجد نقدا متصاعدا مماثلاً. ولكن تأمل أن الإيمان نفسه لا يحتاج إلى أن يكون موضوعًا قانونيا. فنحن يمكن أن يكون لدينا إيمان بقدرتنا على أن نعرف عالمًا يختلف عن عالمنا بدون أن نحضره فى ألوهية جوهرية. وإذا لم تكن الديانة المنظمة طريقا لأن «تعرف» أى شىء عن التاريخ والعقل والعلم بدون قيم إنسانية أساسية فيمكن أن تؤدى بالقدر نفسه من السهولة إلى أفعال من القسوة وعدم التسامح يمكن للتعصب غير المعقول أن يؤدى إليه أيضًا. إن مثل هذه القيم فى التحليل الأخير تقوم على أساس ما هو أكثر قليلاً من الإيمان فى طيبتنا المشتركة، مع الإيمان بأنفسنا. إن مثل هذا الإيمان يمكن أن يقودنا إلى الحب، والأمل والتضحية.

إن بنية الجسر بين الحاضر والماضى، بما فى ذلك المقاطع التى تغطى المسافة والتى توفرها المجادلة العقلانية، وشبه المغالطة المنطقية، واستخدام الأسئلة الافتراضية وغيرها من الأسئلة المحشوة، والحيلة الأدبية،

وإحساس بالسياق السياسى والرغبة فى التعاون، وقبول نفعى للفئات المفيدة والتشكيلات لمواءمة اللايقين، تكاد تكتمل بالاعتراف بأن عمل التاريخ يقدم لنا التناقض المنطقى فى شوقنا إلى اليقينيات فى عالم غير أكيد. هناك شر. وهناك خير. وحصاد الصراع بينهما- وهو صراع يمكن للمؤرخ أن يسجله ولكن لا يمكن أن يحكمه - محكوم بالصدفة والظروف. ومشكلة الشر هى فقط آخر نتائج هذ التناقض. إنه تناقض يمكننا أن نتغلب عليه بالثقة الواجبة فى قدراتنا الخاصة والاعتراف بجوانب القصور فينا. إذن فإن الجسر إلى الماضى الذى نقترب منه بالعقل، والذى يتشح بالمهارة الأدبية، مع الوعى بالأمور السياسية فى رصيفيه اللذين يقوم عليهما الأساس، تغطى مسافته فئات تضرب بجذورها فى الحياة الحقيقية، يرفعه الوعى الأخلاقى، وقد مهدته العقيدة والإيمان- الإيمان بأننا يمكن أن نعرف ما فيه الكفاية؛ والإيمان بأن ما نعرفه كاف؛ والإيمان بأن الجهود جديرة بنا وبأولئك الذين يقرأون ما نكتبه .

ما فلسفة التاريخ لزماننا؟ إنها فكرة أنه من الأسلم أن نعود إلى دور الوثائق والسجلات، من الأسلم أن نعود إلى فصل الدراسة وقاعة المحاضرات، من الأسلم أن نجلس لنكتب أو نرفع القلم، من الأسلم أن نذهب إلى المكتبة ونأخذ كتاب تاريخ أو نشتري واحدًا من موقع أمازون (على الإنترنت). إنه من الأسلم أن نعلم ونكتب ونقرأ وننصت إلى التاريخ. لقد حدث شيء ما هناك، منذ زمن طويل، ولدينا القدرة، إذا ما كان لدينا الإيمان، على أن نعرف ماهية هذا الشيء.

إن ديبورا جيرشينوفيتز، محررة كتابى، وهى نفسها من طلاب التاريخ، سألت فى مرحلة مبكرة من مراحل إنتاج هذا الكتاب «ما فلسفتك

الشخصية للتاريخ»؟ سؤال محق، ولكنه سؤال أجده، حتى بعد كل ما كتبته، لا تسهل الإجابة عليه.

إن كلمات القصة الشعرية الغنائية الجميلة «كيف تتعامل مع امرأة» من Camelot طرأت على بالى. إن الطريقة التى تتعامل بها مع التـاريخ هـى ببساطة، أن تحبه. وهذا ليس صعبا. ولكى نتمثل عبارة هنرى دافيد ثـورو، التاريخ هو النهر الذى نذهب إليه جميعا لصيد السمك. نحن نتـاج التـاريخ ونحن نصنع التاريخ. وعلى الرغم من أن معظمنا يشغلون فقط جزءا صغيرا للغاية فيه، ونترك وراءنا سجلاً ضئيلاً من السجل الوثائقى عـن تطلعاتنـا وإنجازاتنا، (وإخفاقاتنا أيضا) فإننا مادة التاريخ. إنها تلك الحقيقـة المفـردة الضرورية التى تساعدنا على معرفة الماضـى وتتطلـب أن نبحـث فيـه عن الحقائق.

وإذا كان هذا الكتاب يقدم بعض المساعدة فى فهم هذا الـدرس، فإنـه يكون قد حقق غرضه، وأكون أنا قد حققت قصدى، على الرغم من أنه فـى خطاب بداية رئاسية ألقى سنة ١٨٣٧م فإن «الباحث الأمريكى» راعى ثورو ورفيقه رالف والدو إيمرسون، حذرنا من الاعتماد على الثقات- لاسيما أولئك الذين طلبوا منا قراءة كتبهم وكل شيء سيكون على ما يرام!! « لقـد كـان الكاتب روحًا عادله وحكيمة: ومن الآن فصاعدًا تم الإقرار بـذلك، الكتـاب كامل؛ وكما يفسد حب البطل الأمر بحيث يصل إلى عبادة تمثاله. وفى الحال يصير الكتاب مؤذيا وضارًا: إن المرشد طاغية». لأن هذا الكتاب ليس سوى نقطة بداية. والباقى يرجع لك أيها القارئ.

مسرد المصطلحات الصعبة

ملاحظة للقارئ: تشير التعريفات التالية إلـــى اســـتخدام المـــصطلحات الواردة فى الكتاب، وكثير من الكلمات لها تعريفات مختلفة، ولكنها حذفت هنا:

AD Hominen:

معناها الحرفى «ضد الإنسان»، هجوم شخصى .

Affirming the Consequence, Fallacy of:

التعليل بأن المقدمة المنطقية صحيحة لأن النتيجة كذلك

All- or - nothing (black-and - white, either - or) , Fallacy:

مجادلة بدون أرضية وسطى.

Analogy:

مقارنة لها شكل « إذا كانت A مثل B، إذن فإن A لها خاصية معينة فى B

Appeal to authority:

دعنا نفض هذا النزاع بأن نسأل من يعرف .

A rgument:

فى المنطق، بيان أو سلسلة من البيانات يفهم منها أنها كذلك. ليست منافـــسًا صارخًا .

Argument from authority:

إنها حقيقية لأن شخصا ذا مرجعية يقول هذا

Atlantic city (gamblés hope) Fallacy:

إننى أخسر، ولهذا تقول الأرجحية إننى سوف أربح فى رميتى الثانية. سوف أستمر فى المراهنة.

Axiom:

قاعدة فى نظام منطقى مغلق: مثلاً، فى الهندسة «الكل أكبر من الجزء».

Begging the question:

افتراض حقيقة ما يفترض أنك تبرهن عليها؛ التعليل الدائرى.

Big Lie:

كذبة وقحة، تروى بقصد خداع الكثير من الناس.

Category mistake:

خطأ افتراض أن اسم مجموعة من الأشياء هو الشيء نفسه.

Chaos theory (Butterfly effect):

اكتشاف أن التغيرات الدقيقة فى الأحوال الأولية قد تؤدى بالحوادث المشابهة إلى الانتهاء بنتائج مختلفة تمامًا .

Circular reasoning:

بيان يطارد ذيله، يبرهن على حقيقته بإعادة التأكيد على مقدمته المنطقية.

Clustering illusion:

المغالطة المنطقية بالتفكير فى أن عقودًا من الأحداث يجب أن تكـــون لهـــا علاقة ببعضها البعض، حوادث متجاورة.

Concomitance. fallacy of:

الخلط بين القرب فى الزمان أو فى المكان وبين السبب.

Contrapositive:

فى المنطق الصورى، «إذا كانت p ثم q، وإذا لم يكن q فلا تكون p»

Converse:

فى المنطق الصورى: «إذا p ثم q، إذن إذا q ثم p»

Deconstructionists:

مجموعة من نقاد الأدب والفلاسفة الذين يتجاهلون سياق النصوص تحبيـــذًا لتجريد النصوص من موقعها الزمنى.

Deduction:

فى المنطق، التعليل من تعريف أو من قاعدة لا تخطئ لحالة خاصة

Denying the antecedent , fallacy of:

فى المنطق «إذا p ثم q، وليس p، فمن ثم ليس q»

Dogma, Dogmatism:

الزعم بأن سلطة ما على صواب دائمًا ويجب قبولها كذلك. وتساعد على أن تكون معصومة من الخطأ فى الموضوع.

Double Standard:

أفعل كما أقول، وليس كما أفعل.

Empiricist:

شخص يعلل من الاستدلال، عكس ممن يأخذ بما وراء الطبيعة

Entropy:

القانون الثانى من ثلاثة قوانين كلاسيكية عن الحركة الحرارية (الثيرموديناميكس). الطاقة فى الكون ليست محفوظة، بل إنها فى عملية مستمرة للتشتيت. وبعبارة أخرى، لا تضيع طاقتك، فلن تكون بحوزتك غدًا.

Experiment:

اختبار فرض من خلال استخدام التحكم والتكرار.

Evil, Problem of:

لماذا، إذا كان الرب يحبنا وهو خير، يكون هناك شر؛ لماذا يعانى ?hgBfndhV

Fallacy:

خطأ فى المنطق، أو فى استخدام الكلمة، أو فى التعليل.

False cause:

الخلط بين الدوافع أو الأعذار والأسباب.

False Concreteness, fallacy of:

التمنى لا يمكن أن يجعله كذلك، كما أن صك مصطلح لا يفعل ذلك.

False identification falacy:

مجادلة قائمة على أساس الربط المضلل بين A و B.

False qustion fallacy of:

افتراض تحقيرى على شكل سؤال.

Formal logical fallacy:

غلطة فى المنطق الصورى؛ كل من البيان ينتهك قواعد التعليل الافتراضى.

Formal (proposiational) logic:

حساب صلاحية الجملة على أساس مجموعة من القواعد.

Fractal theory:

نظرية تصف كيف أن بناءات مادية معينة فى الطبيعة تكرر نفسها فى أشكال صغيرة.

Game theory:

سلسلة من الاستراتيجيات لاتخاذ قرارات تحسبًا لقرارات اللاعبين الآخرين كذلك.

Godel,s Paradox:

هناك بعض النظم الرياضية البديهية لا يمكن جسم حقائقها البديهية داخل النظام نفسه؛ نظر عن عدم الحسم الداخلى.

Greatest good for the greatest number:

موجز فلسفة النفعية لجون ستيورات ميل فى القرن التاسع عشر.

Guilt by association:

الاتهام الذى يكيله خصم المرء مع الحشد الخاطئ.

Hasty generalization:

بيان عن فرد ما أو جماعة مبنى على معلومات غير كافية، غالبًا ما يكشف عن التنميط.

Hindsght , fallacy of:

تفسير الأحداث قائم على نتائجها:

Hypothetical:

معلوم ببيان عكس الحقيقة، غالبًا ما يستخدم باعتباره وسيلة تعليمية. لا يجب الخلط مع hypothesis، الذى يحتمل الصدق الذى يختبره أحد الباحثين.

If - then argument:

إذا p فليس q .

الوصول إلى استنتاج قائم على جمع الأدلة، والاختبارات المعملية، أو أى وسيلة تطبيقية أخرى.

Informal logical fallacy:

خطأ فى التعليل قائم على أساس شىء غير قواعد المنطق الصورى.

Inverse:

فى المنطق الصورى «إذا لم تكن p فلا تكون q».

Johnny - one- notel (One- Sidedness):

العزف بقسوة على جانب واحد من موضوع معقد؛ أحادية الذهن.

Law of Contradiction:

فى المنطق الأرسطى، « A لا يمكن أن تكون ليست A».

Law of Idntity:

فى المنطق الأرسطى «A هى A، وأى شيء زيادة سيكون كذلك».

Loaded question:

السؤال الذى يقول إنك لا يمكن أن تكسب مهما كان سؤالك

Logic:

ليس من السهل تعريفه. وأميل إلى القول إننا نعرفه عندما نقرأه أو نسمعه، بسبب نغمته المتعقلة، حركته الحذرة من المقدمة المنطقية إلى النتيجة، واهتمامها بالعلاقات الواضحة والمقنعة بين أجزاء المجادلة.

Logic chopping:

استخدام حيل منطقية لهزيمة الخصم

Logical positivists:

أعضاء مدرسة من فلسفة القرن العشرين تستخدم تحليل اللغة لتحدى الميتافيزيقا.

Magic:

السيطرة على الطبيعة بواسطة السحر، والتعاويذ وغيرها من الوسائل اللامرئية: شكل من الممارسة الشعبية يستخدم آليات مخبأة وخفة اليد.

:Near Fallacy

مجادلة أو منهج مجادلة يقترب من المغالطة المنطقية، ويمكـن اسـتخدامها بسهولة للمجادلة بطريقة خاطئة، ولكنها أيضا قد تكون صحيحة.

Non sequitur:

التأكيد على أن A تتبع B على حين تكون B فى الحقيقة ليس لهـا علاقـة حقيقية ب A .

Objective (Objectivity)

حكم قائم، نظريًا، على أساس الاستنباط من مبادئ مقبولـة عمومـا؛ وفـى القانون معيار «الرجل العقلانى». وفى التاريخ، الذهنية التاريخية المثاليـة، أو رؤية العالم من خلال عين موضوعنا.

Paradox:

بشكله الظاهرى، أو معضلة، أو تناقض.

Philosophy of history:

مصطلح خلافى إلى حد كبير، لا يجب الخلط بينه وبين المنهج التـاريخى. وفلسفة التاريخ، استكشاف لكيفية معرفتنا عن الماضى. والمصطلح الجمعـى يشير إلى دراسة النظريات الموجودة بدلاً من تقديم نظرية المرء الخاصة.

Plagiarism:

ممارسة الزعم بأن كلمات شخص آخر هى من إبداعه هو أو تعبير أصلى.

Piosoning the well:

التأسيس، قبل أن يكون الجدل قد بدأ، أن مجادلة معارضة أو مجادلاً غير مناسب.

Pragmatism:

فلسفة أمريكية تؤكد أن المعنى يمكن أن يقوم فقط على التحقيـق الإمبريقـي وفى بعض الأحيان يتم الخلط بينه وبين الفكر العملى.

Precedent:

أى ما حدث من قبل ؛ فى نظامنا القانونى، القاعدة أو المعيار الذى تم إرساؤه من قبل بقرارات محكمة يمكن أن تطبق فى قضايا لاحقة.

Predeterminism:

النظرية السببية القائلة بأن كل شيء يحدث يغطيه قانون عام أو أكثر.

Prenise:

بيان بالحقيقة أو الرأى يمكن أن يكون أو لا يكون حقيقيًا.

Presentism (Present- mindedness), fallacy of:

رؤية الماضى فى ضوء قيم الحاضر أو حاجاته، مع المبالغة فى التأكيد على ما بقى من الماضى فى الحاضر.

Prisoner`s dilemma:

الاسم الشائع لأحد تنويعات نظرية اللعبة.

Proposition:

فى المنطق الصورى، بيان.

quoting out of context:

تجريد شطر من نص ما من الكل بطريقة تجعل المجادلة فى النص الأصلى تكون مغلوطة.

Rationality:

التصرف بأسلوب معقول، وملاءمة سلوك المرء وتفكيره مع أفضل مصالح المرء أو الآخرين

Rationalization:

فى علم النفس، آلية دفاعية لإخفاء الأساس الفعلى لتصرفات المـــرء. أيـــضا شكل من الكذب.

Reductionist:

توظيف استراتيجية للتفسير تناسب جميع الحالات فى فئة واحدة وتقدم لكـــل الأحداث خطا واحدا للقصة.

Regression (statistical) fallacy:

افتراض أن أى حالة سوف تتشابه مع معظم الحالات.

Relativist:

فى الدراسة التاريخية، المجادلة بأن كل منظور فى الدراسات التاريخية وكل انحياز ينشأ من الزمان والمكان الذى كتبت فيه ؛ وفى الأخلاق، الجدل بـــأن الأحكام الأخلاقية تتحدد أيضا بالزمان والمكان.

Rhetorical question:

سؤال يعرف المرء إجابته بالفعل، أو إجابته واضحة من السؤال.

Rule of thumb (Reasoning by default):

وضع التصرف أو الاعتقاد على أساس تعميم أو تجربة سابقة.

Sample:

قضية مفردة أو مختارات من مجموعة أكبر من القضايا.

Sampling fallacy:

التوصل إلى استنتاج عن جمهرة السكان كلها أو الأشياء كلها علـــى أســاس شطر غير نمطى من الكل.

Sientific method:

أن يفعله العلماء لاختبار نظرياتهم، مستخدمين الفروض والتجارب له الآن مكانة تنافس المذهب الدينى.

Self- fulfilling prophecey:

بعد سماع حديث النبوءة، تجعل تصرفات ذلك التنبؤ يحدث.

Semantic error:

خطأ أو غموض فى استخدام اللغة – مثلا، التورية.

Skeptics fallacy:

فى المنطق: "إذا لم تكن p صحيحة، فإن q لا يمكن أن تكون صحيحة».

Slipper Slope:

مجادلة تتحرك إلى خاتمتها من خلال سلسلة من الفروض المرتبطة ببعضها.

Special Pleading:

المجادلة من أجل الاستثناء من قاعدة عامة.

Statutes:

تصرفات الهيئات القضائية، غالبا ما تكتب خطأ لأسباب غامضة.

Stereotyping , stereotypical thinking:

تعميم متسرع يخل بالمعنى ويؤدى إلى التضليل حول مجموعة ما أو خصائصها.

Straw man:

موقف زائف خلق لغرض وحيد هو إزالته .

Subjective (Subjectivity):

قاعدة للحكم قائمة على أساس التفصيلات أو القيم الفردية.

Sweeping generlization (Dicto simpliciter):

الإفراط فى التعميم، للوصول إلى قاعدة عامة من عدد قليل جدا من الحالات.

Syllogism:

فى المنطق الصورى «إذا كانت A هى B و B هى C، إذن A هى C».

Turth:

حقيقة أو خاتمة يمكن البرهنة عليها فى العالم الحقيقى أو تأكيدها دونما دليل.

Unrepresentative:

انظر Sampling fallacy

Valid (validity):

علاقة منطقية

Verification test:

النسخة الفلسفية للشعر سيئ الـسمعة « إذا لـم تكـن مناسـبة، فعليـك أن تتبرأ منها». ولكى يكون هناك معنى لكلمة ما، يجب اختيـار معناهـا فـى العالم الحقيقى.

What if:

سؤال يضع مقدمة منطقية معاكسة للحقيقة، تسمح لنا أن نستكشف التنويعات للتفسيرات لما حدث بالفعل.

Zealots, Zealotry:

منتهى المذهب أو حده الأقصى وضع فى تصرف. ليس هناك ما يضطرك أبدا للقول بأنك آسف، اقطع واجر، أو اعترف بالخطأ وأنت تـذبح عـدوك، أو هو يذبحك.

مقالة ببليوجرافية مختصرة جدا

Even novelists are including bibliographies in their work these days, so while this book is meant for general readers and does not have those troublesome and odd-looking little numbers in the text or the crabbed and overstuffed pages of endnotes, a very brief bibliography is certainly in order. It is part tribute to the works that have inspired the essay above and part guide to the materials I have used. Some of the material comes from thirty-odd years of teaching notes, the time I have been in harness teaching history to college students. I have included passages from other books of mine, including *Past Imperfect: Facts, Fictions, and Fraud in American History* (New York: PublicAffairs, 2004), *Sensory Worlds in Early America* (Baltimore: Johns Hopkins University, 2003), and *Seven Fires: The Urban Infernos That Reshaped America* (New York: PublicAffairs, 2006). Other bits and pieces came from conversations with friends and colleagues.

I have given references in the text to sources quoted but have omitted page numbers when the text is available on the Web. The bibliography indicates the version or translation of the text I used. Readers of Erasmus's *In Praise of Folly* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1958), quotations on pp. 4 and 143, and Edward Hallett Carr's *What Is History?* (New York: Knopf, 1962) will see my debt to their erudition. When I went to graduate school, Carr was the standard short work on historical method. I found it fascinating and still do. Quotations from it come from pp. 33, 35, and 133. Jacques Barzun and Henry F. Graff's *The Modern Researcher* (New York: Harcourt Brace, 1957) was a little dry, but it has gone through multiple editions, so someone out there must be assigning it to classes. Like Barzun and Graff, most of the books students are assigned these days focus solely on methods—how to research a topic, how to prepare a paper, and the like. These come in little sealed packages, "shrink wrapped" with huge and expensive textbooks in history. I've even coauthored one myself, *Reading and Writing American History*, 3rd ed., 2 vols. (2003). A nice, earnest, but not entirely convincing attempt to go beyond deconstruction

is Joyce Appleby, Lynn Hunt, and Margaret Jacob's *Telling the Truth about History* (New York: Norton, 1994). I have in the past asked my graduate students to read portions of Peter Novick's spicy yet morally profound *That Noble Dream: The "Objectivity Question" and the American Historical Profession* (New York: Cambridge University Press, 1988). The quotation came from p. 17.

Finally, those of us who remember Richard Armour's *It All Started with Columbus* and *It Would Have Startled Columbus* (New York: McGraw Hill, 1953) (quotations from pp. 6, 7, 8, and 9 of the former) and Dave Barry's *Dave Barry Slept Here: A Sort of History of the United States* (New York: Random House, 1989) will recognize the tone of respectful irreverence in the pages above.

Legal references are courtesy of Lexis.com, combined federal and state cases. The *New York Times* articles can be found online at www.nytimes.com. The AHA presidential addresses all are online at www.historians.org, the AHA Web site.

The chapter epigraphs come from Carl Becker, *Detachment and the Writing of History*, ed. Phil L. Snyder (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1958), pp. 65, 44, and 157; David Hackett Fischer, *Historians' Fallacies: Toward a Logic of Historical Thought* (New York: Harper, 1970), pp. 200, 78 (and on Nevins, pp. 46–47); Allan Nevins, *The Gateway to History*, rev. ed. (New York: D. C. Heath, 1962), p. 238; Frederick Jackson Turner, *The Frontier in American History* (New York: Holt, 1935), p. 3; Bernard Bailyn, *the Intellectual Origins of the American Revolution* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1967), pp. 9, 20–21; Gertrude Himmelfarb, "Postmodernist History" [1994], reprinted in *Reconstructing History: The Emergence of a New Historical Society*, ed. Elizabeth Fox Genovese and Elisabeth Lasch Quinn (New York: Routledge, 1999), p. 80; Stephen Ambrose quoted in Susan Larson, "Undaunted Courage," New Orleans *Times-Picayune*, October 6, 2002, Living section, p. 1.

Wilhelm Dilthey, *Pattern and Meaning in History*, ed. H. P. Rickman and translated by B. G. Teubner (1911; repr., New York: Harper, 1962), p. 140, opens the preface, and rightly so, for Dilthey was one of the most profound premodern thinkers about historical method. I am grateful to Monty Python Ltd. for allowing their material to become public and fair use exception in our copyright laws for allowing me to quote snippets.

For Handlin's revealing personal reminiscence in the Introduction, see Oscar Handlin, *Truth in History* (Cambridge: Harvard University Press,

1979), pp. 38–39. Allan Megill's collection of earlier critical pieces, *Historical Knowledge, Historical Error: A Contemporary Guide to Practice* (Chicago: University of Chicago, 2007), quotations on pp. x, 13, and 213, came to hand as I was near the end of this essay, but I have read it with awe and some dread. I am not sure that I qualify as one of Megill's "true historians" (something like Molester Mole's secret list in Walt Kelly's *Pogo* strip, to be feared but not revealed), but I hope so. At any rate, I think I fit the description he gives of the "dinosaurs" who learned method before the "cultural turn" revealed that Foucault and his comrades were models to be copied. Hayden White, *The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1990), pp. 1, 49, buries its pessimism about knowing the past under layers of philosophical debris—hard going, but the message comes clear: history is just a form of rhetoric.

Daniel Little, "Philosophy of History," Stanford Encyclopedia of Philosophy, http://plato.stanford.edu/entries/history/, posted February 18, 2007, is the source of the introduction's quotation on the philosophy of history. Bury, Fustel de Coulanges, and von Ranke appeared in my dog-eared copy of Fritz Stern, ed., *The Varieties of History* (New York: Meridian, 1956), on pp. 208, 178, and 55. G. R. Elton, *The Practice of History* (New York: Crowell, 1967), tells us not to worry about historical truth. The quotations are from pp. 17 and 46.

Marc Bloch, *The Historian's Craft*, trans. Peter Putnam (New York: Vintage, 1953), pp. 22 and 47 and, on moral judgments (discussed in Chapter 9), 139 and 140, is a book of luminous wisdom and is still inspiring after all these years. Carole Fink's *Marc Bloch: A Life in History* (Cambridge: Cambridge University Press, 1989) is excellent and admiring. In Chapter 9, the quotation on Bloch's view of history as politics appears on p. 249, and Bloch's letter to Febvre on evil is reproduced in part on p. 205.

Jacques Barzun's lament in the Introduction appeared in *Clio and the Doctors: Psycho-History and Quanto-History* (Chicago: University of Chicago Press, 1974), p. 3. John Tosh's *The Pursuit of History*, rev. 3rd ed. (New York: Longman, 2002), finds the comparison between history and the sciences "perhaps somewhat contrived" (p. 178). Quite right. The philosopher Morris R. Cohen had the last word, though he published sixty years ago and is rarely read today. He concluded that history was simply a distinctive way of "organizing human knowledge." Cohen, *The Meaning of Human History* (LaSalle, IL: Open Court, 1947), p. 41.

Barbara J. Shapiro's *A Culture of Fact: England, 1550–1720* (Ithaca: Cornell University Press, 2003), mentioned in chapter 1, discusses the rise of the profession of history and its "facts" on pp. 34–62, with quotation on p. 34. George Creel recalls his motives in *World War, 1914–1918* (New York: Harper, 1920), p. 5.

Socrates extols reason in Plato, *The Republic*, trans. Benjamin Jowett (Oxford: Clarendon Press, 1888), p. 327. The standard scholarly edition of the three volumes of Aristotle's *Organon* is Harvard University Press's (1938–52). For Aquinas, see Anton Charles Pegis, ed., *Basic Writing of Saint Thomas Aquinas* (New York: Random House, 1945), p. 23. Thomas Paine's *Age of Reason* [1795] is in *The Complete Writings of Thomas Paine* (New York: Citadel, 1945); the quotation is from p. 596. *The Philosophical Writings of Descartes*, trans. Anthony Kenny (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), vol. 1, p. 120, supplies Descartes's method, and p. 200 connects our powers of knowing to a good God. John Locke, in *Essay Concerning Human Understanding*, ed. Kenneth P. Winkler (Indianapolis: Hackett, 1995), p. 313, supplies another way of knowing.

Edward Gibbon's *Decline and Fall of the Roman Empire* (Whitefish, MT: Kessinger, 2004), vol. 3, p. 548, summarizes the case for religion as a (malevolent) cause. John Marshall, *The Life of George Washington* (Philadelphia: Crissy, 1836), vol. 1, p. 108, is the source of the quote from Washington. Peter Oliver, *Origin and Progress of the American Rebellion*, ed. Douglas Adair and John A. Schutz (1781; repr., Stanford University Press, 1961), 148–49, offers the loyalist counterargument. Hegel can be found in *Hegel's Science of Logic*, trans. A. V. Miller (London: Routledge, 2002), p. 82. Francis Fukuyama, *The End of History and the Last Man* (New York: Harper, 1992), p. 215, notes the contradiction in national history based on universal principles.

On atrocities (there were more than we once thought) in the English Civil Wars, see Barbara Donagan, "Atrocity, War Crimes and Treason in the English Civil War," *American Historical Review* 99 (October 1994): 1137–66. Thomas Hobbes reveals the secrets of *Leviathan, or, The Matter, Form, and Power of a Common-wealth Ecclesiastical and Civil* (London: Routledge, 1885), on p. 85. John Aubrey told the story about Hobbes. See *Brief Lives*, ed. Anthony Powell (New York: Scribners, 1949), p. 150.

Like Cohen, Karl Popper was not a historian, but *The Poverty of Historicism* (1957; repr., London: Routledge, 2002) is a classic statement of the humane limitations of historical inquiry. The quotations are from pp. 46 and 81. John Hobson, *Imperialism: A Study* (London: Nisbet, 1902), 241,

explains why imperialism was a necessary good. I used Laurence Sterne, *The Life and Opinions of Tristram Shandy, Gentleman* (Ware: Wordsworth, 1996); quotations in Chapters 1 and 6 are on pp. 8 and 236 respectively.

The reference to "institutes" in Chapter 1 can be explored more fully in Robin Wilson, "New Centers Bring Tradition to a Study of U.S. History," *Chronicle of Higher Education*, March 16, 2007, p. A10. The quotation from Festinger appears in Leon Festinger, *A Theory of Cognitive Dissonance* (Evanston, IL: Row, Peterson, 1957), p. 18.

Most textbooks and treatises on formal logic are above my head. For the basics provided in Chapter 1, I have relied on Thomas Gilovich, *How We Know It Isn't So: The Fallibility of Reason in Everyday Life* (New York: Free Press, 1993); Robert Todd Carroll, *The Skeptic's Dictionary* (New York: Wiley, 2003); and Howard T. Kahane and Nancy Cavender, *Logic and Contemporary Rhetoric*, 10th ed. (Belmont, CA: Wadsworth, 2006).

I read Fischer's *Historians' Fallacies*, discussed in Chapter 2, when I was just starting my teaching career, and its lessons remain with me. Three years later, I came upon Ernest R. May's *"Lessons" of the Past: The Use and Misuse of History in American Foreign Policy* (New York: Oxford University Press, 1973), a reminder that readers of history can mistake its teachings.

Daniel Boorstin's *The Americans: The National Experience* (New York: Random House, 1965), pp. 55, 183, 191, makes hasty generalizations about slaves. David M. Kennedy's *Freedom from Fear* (New York: Oxford University Press, 1999), p. 380, makes a hasty generalization about FDR, but it is a reasonable one. Justice Hugo Black's words are repeated in Peter Irons, *Justice at War: The Story of the Japanese American Internment Cases* (Berkeley: University of California Press, 1983), p. 357.

Francis Parkman generalized about northeastern Indians partly on the basis of his experiences with the Plains Indians he met as a Harvard undergraduate years before he began writing his magisterial *France and England in America*. He was also, as a Boston Brahmin, a tried and true Anglophile. The quotation can be found in *Parkman*, a collection of portions of his books from the Library of America (New York: Library of America, 1983), p. 369. Henry Cabot Lodge published his speech, with its view of race, in *Speeches and Addresses of Henry Cabot Lodge, 1884–1909* (Boston: Houghton Mifflin, 1909), p. 262. David Landes's far more sophisticated stereotyping appears in his *The Wealth and Poverty of Nations: Why Some Are So Rich and Some So Poor* (New York: Norton, 1998), pp. 512–13.

The story of the National History Standards presented in Chapter 2 comes from my *Past Imperfect*, pp. 98–114, but students of this episode

should consult Gary B. Nash, Charlotte Crabtree, and Ross E. Dunn, *History on Trial: Culture Wars and the Teaching of the Past* (New York: Vintage, 2000). Newt Gingrich speaks to us in "Why Pearl Harbor Is Still Relevant—Now More Than Ever," May 14, 2007, www.humanevents.com/article.php?id=20715.

On abortion proponents, I used David Garrow, *Liberty and Sexuality: The Right to Privacy and the Making of Roe v. Wade* (New York: Macmillan, 1994); James Risen and Judy L. Thomas, *Wrath of Angels: The American Abortion War* (New York: Basic Books, 1998); and my own *Roe v. Wade: The Abortion Rights Controversy in American History*, coauthored with N. E. H. Hull (Lawrence: University Press of Kansas, 2001).

The highly charged exchange about book reviews and reviewers mentioned in Chapter 2 comes from the "Communications" pages of the *American Historical Review* 105 (2000): 1871–72. The dueling professors X and Y are, respectively, Alan M. Dershowitz (www.alandershowitz.com) and Norman Finkelstein (www.normanfinkelstein.com). Though their Web sites are not recommended for the faint-hearted, the reader may search them, as I did, for the comments quoted above and many more like them. The tenure battle story appears in Jennifer Howard, "DePaul U. Turns Norman Finkelstein Down for Tenure," *Chronicle of Higher Education*, June 11, 2007, p. A5.

My source for Chapter 2's story behind the brief in *Webster* was a conversation with James C. Mohr, the lead author. For the Robert Caro quotations, see *The Power Broker: Robert Moses and the Fall of New York* (New York: Knopf, 1974), pp. 1161–62. Paul Johnson, *Modern Times: The World from the Twenties to the Eighties* (New York: Harper and Row, 1983), p. 659, describes war and economics; David Halberstam, *The Fifties* (New York: Fawcett, 1993), p. 144, is the source of the quotation on suburbia. Bernard Bailyn's call for the narrative synthesis came at the 1981 AHA meeting and was published as "The Challenge of Modern Historiography," *American Historical Review* 87 (1982): 1–24. The quotation is from p. 12.

In 1963, at the University of Rochester, Willson H. Coates told the students in his historical methods course about his rule of thumb. I was impressed then and remain so now. Coates was a historian's historian—kindly, precise, and above all wise. James McPherson, ed., *The Atlas of the Civil War* (Philadelphia: Running Press, 2005), p. 142, reports the figure of seven thousand. Gordon Rhea, *Cold Harbor: Grant and Lee, May 26–June 3, 1864* (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 2002), p. 386, estimates three thousand casualties. For Westmoreland, see Patricia Sullivan, "General

Commanded Troops in Vietnam," *Washington Post,* July 19, 2005, p. A1. Renata Adler's *Reckless Disregard* (New York: Knopf, 1988) is a classic.

Paul Cameron is the subject (and author) in many blog sites. For the quotation in Chapter 2, see www.splcenter.org/intel/intelreport/article.jsp?aid=587. R. R. Palmer speaks of comparisons and changes in word usage in *The Age of Democratic Revolution: The Challenge* (Princeton: Princeton University Press, 1959). The quotations are from pp. 13 and 21.

The Gary Becker/Richard Posner blog, January 23, 2005, featured Judge Richard Posner's comments on profiling Hispanics. See www.becker-posner-blog.com/archives/2005/01/comment_on_prof.html.

For Chapter 3's quote on the blundering generation, see James G. Randall, "The Blundering Generation," *Mississippi Valley Historical Review* 27 (1940): 7, 8. Not by accident, the piece appeared as the United States teetered on the brink of entering World War II. Randall concluded that "in the present troubled age" policy makers ought to pay more attention to the horrible realities of war than its heroic romances (pp. 27–28). The presidential debate in which Michael Dukakis expressed his opposition to the death penalty can be found at www.debates.org/pages/trans88a.htm.

Malkin and Coulter quotes in Chapter 3 appear in Web sites plugging their books as well as Ann Coulter's *Slander: Liberal Lies about the American Right* (New York: Crown, 2002), p. 6, and Michelle Malkin at www.jewishworldreview.com/michelle/malkin100401.asp. Philip Roth bares his soul in *Operation Shylock: A Confession* (New York: Simon and Schuster, 1993). The quotation is from p. 397. David Horowitz quotations come from his Web site, frontpagemag.com. See David Horowitz on Marable at www.frontpagemag.com/Articles/Read.aspx?GUID'66E73ED7-4575-49E4-AE9B-17F7B5A57F51. The original blurb for the book by Horowitz on his frontpagemagazine.com has disappeared from the Web, confusing observers who are trying to figure out what the critics of the book are saying. The disappearance of the original blurb is also an object lesson in the dangers of using Web sites as sources!

Boethius consoles us in *The Consolation of Philosophy,* trans. Joel Relihan (Indianapolis: Hackett, 2000), pp. 7–8. *The Apologia and Other Works of Socrates* is the reprint of the superb Benjamin Jowett translation (repr., Whitefish, MT: Kessinger, 2004); the quotation is from p. 14.

Jefferson included Logan's oration in his *Notes on the State of Virginia,* ed. William Peden (1785; repr., Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1955), p. 229. The reply to Governor John Henry of Maryland, dated December 31, 1797, appears as Appendix III in the J. W. Randolph edition

(Richmond, 1853), p. 243. Jefferson's concern for "past revolutionary history" was somewhat self-serving. After all, it was his life story. The quotation comes from a letter from Jefferson to Joel Barlow, April 16, 1811, reprinted in Albert E. Bergh and Andrew Lipscomb, eds., *The Writings of Thomas Jefferson* (Washington, DC: U.S. Government Printing Office, 1903), vol. 13, p. 44. For more on the framers' views of history, see my *Revolution and Regeneration: Life Cycle and the Historical Vision of the Generation of 1776* (Athens: University of Georgia Press, 1983).

Richard Dawkins shared his views on religion, in response to 9/11, in *A Devil's Chaplain* (New York: Houghton Mifflin, 2003), p. 157.

On population increases in early modern cities (discussed in Chapter 3), see Allan Sharlin, "Natural Decrease in Early Modern Cities: A Reconsideration," *Past and Present* 79 (1978): 127, 128. Robert Cowley, *What Ifs? of American History: Eminent Historians Imagine What Might Have Been* (New York: Putnam, 2003), p. xiii.

On "Murphy's Law," see Arthur Bloch, *Murphy's Law*, 26th ed. (New York: Penguin, 2003); on "the Peter Principle," see Laurence J. Peter and Raymond Hull, *The Peter Principle* (New York: Morrow, 1969); on "Parkinson's Law," see C. Northcote Parkinson, *Parkinson's Law* (Boston: Houghton, 1957)—all classics. On Cleo's snout, see Daniel Boorstin, *Cleopatra's Nose: Essays on the Unexpected in History* (New York: Random House, 1994), p. ix. Edward Ayer's *In the Presence of Mine Enemies: War in the Heart of America* (New York: Norton, 2003), p. 148, explores but one of the many ironies in the coming of the Civil War.

Chapter 4's discussion of the collapse of the Twin Towers draws on *The 9/11 Commission Report: Authorized Edition* (New York: Norton, 2004), p. 339. The paraphrase from my *Seven Fires: The Urban Infernos That Reshaped America* (New York: PublicAffairs, 2006), pp. 366–68, is still chilling reading to me. On Hume's idea of causation, see *Treatise of Human Understanding*, bk. 1, p. 171. Steven Pinker, *The Stuff of Thought: Language as a Window into Human Nature* (New York: Viking, 2007), pp. 189, 190, is the source of the quotations on time, cause, and space.

Karl Marx's *Poverty of Philosophy* [1847] quotation in Chapter 4 comes from Howard Selsam and Harry Martel, eds., *Reader in Marxist Philosophy* (New York: International, 1963), p. 188. For Hitler's views on history, even more chilling than the design failures of the Twin Towers, see Adolph Hitler, *Mein Kampf*, trans. Ralph Manheim (New York: Reynal, 1939), p. 390. Fukuyama's riff on his own work appears at www.marxists.org/reference/subject/philosophy/works/us/fukuyama.htm. See Niall Ferguson,

"Empires with Expiration Dates," *Foreign Policy*, September 1, 2006, p. 47, for the quote in the text.

Paul Boyer and Stephen Nissenbaum, *Salem Possessed: The Social Origins of Witchcraft* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1974), pp. 212, 150, 139. An informal survey of American history survey textbooks shows that the Putnam-Porter quarrel, with reference to *Salem Possessed*, is the gold standard for explanations of the Salem witchcraft crisis. Malcolm Gladwell's introduction to *The Tipping Point: How Little Things Can Make a Big Difference* (Boston: Little, Brown, 2000), is one of the most quoted modern discussions of historical causation. Gladwell's own Web page (www.gladwell.com/tippingpoint/index.html) repeats the key themes of the book and is the source of the quotations in the text. Thomas Kuhn, *The Structure of Scientific Revolutions* (Chicago: University of Chicago Press, 1962), pp. 182–91, explains paradigm shifting. I heard Thomas Kuhn talk about Copernicus and scientific revolutions when I was an undergraduate at the University of Rochester in 1962. The theory, now much criticized, remains a classic in many more fields than history of science.

Robert K. Merton, *Social Theory and Social Structure* (New York: Free Press, 1949), included the new term *self-fulfilling prophecy*. Merton was one of the most fruitful and frequently quoted thinkers of the mid-twentieth century, and his many contributions to our language—for example, *role expectation*, *insider*, and *focus group*—are still in use. See David Hume's *Treatise of Human Nature* (London: Noon, 1739), p. xiii, for his most commonly quoted explanation of the early application of scientific method.

For the quotations in Chapter 4 on the controversy over *Time on the Cross*, see Robert William Fogel and Stanley L. Engerman, *Time on the Cross: Evidence and Methods, A Supplement* (Boston: Little, Brown, 1974), p. 4; Herbert G. Gutman and Richard Sutch, "The Slave Family: Protected Agent of Capitalist Masters or Victim of the Slave Trade?" ch. 3 of *Reckoning with Slavery*, by Paul A. David et al. (New York: Oxford University Press, 1976), p. 96; Herbert G. Gutman, *Slavery and the Numbers Game*, rev. ed. (Urbana: University of Illinois Press, 2003), p. 38; Robert William Fogel and Stanley L. Engerman, "Explaining the Relative Efficiency of Slave Agriculture in the Antebellum South," *American Economic Review* 70 (1980): 672; and Robert William Fogel, *Without Consent or Contract: The Rise and Fall of American Slavery* (New York: Norton, 1989), p. 9.

The Rosenberg-Kessler Harris battle discussed in Chapter 4 played out in *EEOC v. Sears Roebuck Company*, U.S. District Court for the Northern

District of Illinois 628 F. Supp. 1264 (1986). Quotations are from the opinion of the court and from Thomas Haskell and Sanford Levinson's "Symposium on Academic Freedom: Academic Freedom and Expert Witnessing: Historians and the Sears Case" *Texas Law Review* 66 (1988): 1630, 1650. Kessler-Harris's reply appeared as "Academic Freedom and Expert Witnessing: A Response to Haskell and Levinson," *Texas Law Review* 67 (1988): 432. Haskell and Levinson's rejoinder is "On Academic Freedom and Hypothetical Pools: A Reply to Alice Kessler-Harris," *Texas Law Review* 67 (1989): 1594.

The standard work on Kinsey is James H. Jones, *Alfred Kinsey: A Public/Private Life* (New York: Norton, 1998). George Fitzhugh's comments, from *Cannibals All!*, were excerpted in Eric L. McKitrick, ed. *Slavery Defended* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1963), p. 44.

Hitler's *Mein Kampf*, p. 212, introduced the "big lie," which I discuss in Chapter 5. Peter Sagal's delightful romp through "very naughty things and how to do them," *The Book of Vice* (New York: HarperCollins, 2007), p. 113, discusses the swiftboat episode. I discussed Michael Bellesiles's *Journal of American History* article in *Past Imperfect*, with quotations on pp. 145–51. For Woodrow Wilson's misrepresentations, see *A History of the American People, Documentary Edition* (New York: Harper, 1901) vol. 1, pp. 13, 28, 64, and vol. 10, pp. 17–18; Claude G. Bowers, *The Tragic Era, The Revolution after Lincoln* (New York: Literary Guild, 1929), p. 216; Allan Nevins and Henry Steele Commager, *A Pocket History of the United States* (New York: Harper, 1942), pp. 4, 5, 24, 53, 94, 248, and 249; Paul H. Buck, *The Road to Reunion, 1865–1900* (New York: Knopf, 1937), pp. 25–26, 33, 35, 294, 295, 309. E. Merton Coulter, *The South during Reconstruction, 1865–1877* (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1947), used Buck.

Full disclosure: I met both Buck and Coulter, the first at Harvard, in the 1960s, the second when I went to teach at Georgia, in 1978. Both small gentlemen, bowed with age, they were courteous and showed no awareness that what they had written could be seen as racist or biased in any way.

Scott Adams describes the weasel-zone in *Dilbert and the Way of the Weasel* (New York: Harper Business, 2002), p. 5. Albert Bandura, *Social Learning Theory* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1977), explains how criminals learn to rationalize their conduct. "Bullshit" may involve lying, as Harry G. Frankfurt tells us in *On Bullshit* (Princeton: Princeton University Press, 2005), p. 9.

Arthur M. Schlesinger Jr., in *Journals, 1952–2000*, ed. Andrew Schlesinger and Stephen Schlesinger (New York: Penguin, 2007), pp. 838, 840,

tells us about lying. The comments on Truman and Kennedy quoted in Chapter 6 appear on pp. 22, 57, and 334.

The quotation in Chapter 5 from John Demos, *The Unredeemed Captive: A Family Story from Early America* (New York: Knopf, 1994), is from pp. 189–90; Demos, "In Search of Reasons for Historians to Read Novels," *American Historical Review* 103 (December 1998): 1527, poses the novelistic alternative. T. H. Breen, *Imagining the Past: East Hampton Histories* (Athens: University of Georgia Press, 1996), pp. 14, 15, and Daniel K. Richter, *Facing East from Indian Country: A Native History of Early America* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2001), pp. 9, 13, explore the possibilities that a more open conversation between reader and author can dispel the anxiety about the uncertainties of history.

Regarding the discussion of experimental history in Chapter 5, see Laurel Thatcher Ulrich, *A Midwife's Tale, The Life of Martha Ballard, Based on her Diary, 1785–1812* (New York: Knopf, 1991), p. 33, and Martha Hodes, "Experimental History in the Classroom," AHA *Perspectives* 45 (May 2007): 38. Neither Ulrich nor Hodes would agree that they were advocating "lying," but calling invention "experimental" or doing what Ulrich does to fill in the gaps is artifice, surely. Rhys Isaac's "Discourse on Method" at the end of his *The Transformation of Virginia, 1740–1790* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1982), is a model of its kind. The quotation in the text is from p. 325.

Dan Brown's revelations were reported in Dan Brown, "Witness Statement," *London Times*, Law News, March 14, 2006. For Frey, see thesmokinggun.com/archive/0104061jamesfrey1.html. Haley's *Roots* was outed in Philip Nobile's "Uncovering Roots," *Village Voice*, February 23, 1993. The true story of Rigoberta Menchú appears in Ron Robin's *Scandals and Scoundrels: Seven Cases That Shook the Academy* (Berkeley: University of California Press, 2004), pp. 166–92. See also Nancy Milford, "The False Memoir: All the Shouting about *A Million Little Pieces* Is Part of a Long Debate That Dates to the Origins of Writing," *Washington Post*, February 5, 2006, p. BW10, and Marie Arana, "The Way I Saw It: Chronicling a Life Requires the Imagination of a Storyteller," *Washington Post*, February 5, 2006, p. B03.

On puns in law reviews, see Thomas E. Baker's bibliography of law school humor in the *Drake Law Review* 51 (2002): 105–49, entitled "A Compendium of Clever and Amusing Law Review Writings," which includes a section on the punning titles. James Axtell's talk about teaching history is "The Pleasures of Teaching History," *History Teacher* 34 (2001), www.historycooperative.org/journals/ht/34.4/axtell.html.

H. Stuart Hughes was either a demigod or a demon, depending on one's politics, when I was a graduate student at Harvard. A superb slightly left-of-center European intellectual historian, he wore red ties to department meetings to infuriate his more conservative colleagues (so I was told). His comment on history, art, and science appears in H. Stuart Hughes, *History as Art and as Science: Twin Vistas on the Past* (Chicago: University of Chicago Press, 1975), p. 3.

Most of the quotations in Chapter 6 that do not have citations in the text come from my *Past Imperfect*, pp. 60–72, 115–21. The quotes from Harry Elmer Barnes's *The New History and the Social Sciences* (New York: Century, 1922), are on p. 13 (concessions to the first of many new histories) and p. 6 (on history and politics). David Donald, "Review Note," *American Historical Review* 74 (December 1968): 532, 533, fits into the long history of historical writing and criticism, inelegantly termed "historiography." Arthur Schlesinger, *The Vital Center* (Boston: Houghton Mifflin, 1949), pp. 1, 10, 249, 251, stirred great controversy at the time. His 1996 comment appears in *Past Imperfect*, p. 114. Dated but still the best survey of American historical writing and thought up to the 1960s is John Higham, *History: Professional Scholarship in America*, rev. ed. (Baltimore: Johns Hopkins, 1989).

Alan B. Spitzer, *Historical Truth and Lies about the Past* (Chapel Hill: University of North Carolina, 1989), pp. 97–115, deconstructs the Bitburg episode brilliantly. Quotations from Reagan appear on pp. 98 and 99. The newspaper smear of Burr first appeared in the *Gazette of the United States* on August 2, 1805, and the "Queries" were widely reprinted. John C. Calhoun's March 16, 1836, speech was reprinted in *The Works of John C. Calhoun* (New York: Appleton, 1851), vol. 2, pp. 626, 627. On Sheehy's mistake, see www.dailyhowler.com/h091598_2.shtml. Clarke's goof is lambasted in www.danieldrezner.com/archives/001188.html. For the (only, I'm happy to report) negative review of my *Great New York Conspiracy of 1741*, see Winthrop Jordan, "Review," *Law and History Review* 23 (2005): 212–13. "While this study gives a separate, helpful 'chronology' of events, the index is so incomplete as to be dangerous, especially for student use." Full disclosure: Winthrop Jordan was a superb historian of slavery, but we disagreed about the economic (me) versus the racial and sexual (him) origins and deployment of the institution. The full text of the Lincoln-Douglas debates of 1858 is at lincoln.lib.niu.edu/debates.html. The two speeches by President George W. Bush, in 2004 and 2006, are available at

transcripts.cnn.com/TRANSCRIPTS/0405/21/se.01.html, and www.whitehouse.gov/news/releases/2006/01/2006013110.html.

The Donald Rumsfeld interview discussed in Chapter 6 is reported in David von Drehle, "Wrestling with History," *Washington Post* November 13, 2005, p. W12. The South Carolina abortion case is *The State, Respondent v. Regina D. McKnight*, 352 S.C. 635 (2003). Supreme Court opinions in the other cases can be found at lexis.com. The "Southern Manifesto" appears in *Congressional Record*, 84th Cong., 2nd sess., vol. 102, pt. 4 (March 12, 1956): 4459–60. I have taken the Southern Manifesto and the response of the southern newspapers to *Brown* from Waldo E. Martin Jr., *Brown v. Board of Education: A Brief History with Documents* (Boston: Bedford, 1998), pp. 204, 220–21.

The story of Sean Wilentz's part in the Clinton impeachment hearings is told in my *Past Imperfect*, pp. 122–27. John Kerry's hometown newspaper reference became the Web version of an urban rumor. See www.truthorfiction.com/rumors/e/endorsements.htm. Howard Dean was interviewed on December 6, 2005, on WOAI in San Antonio. The widely reported remarks appeared at www.cnn.com/2005/POLITICS/12/06/dean.iraq.1935. President Bush channeled President Truman on more than one occasion. For the West Point commencement address in 2006, see www.whitehouse.gov/news/releases/2006/05/20060527-1.html. For the 2002 speech, see www.whitehouse.gov/news/releases/2002/06/20020601-3.html. William Henry Seward warned about the irrepressible conflict in 1858; see www.nyhistory.com/central/conflict.htm.

Stephen Breyer's *Active Liberty: Interpreting Our Democratic Constitution* (New York: Knopf, 2005) is one of the most literate and persuasive essays on our law by anyone charged with interpreting it. This may be because Breyer has spent his entire career in academe and on the bench, and not in politics. For Haskell and Levinson's final remarks on the *Sears* case, see Haskell and Levinson, "On Academic Freedom and Hypothetical Pools," p. 1594. The AHA *Statement on Standards* as revised in 2004 and approved in 2005, is online at www.historians.org/pubs/Free/ProfessionalStandards.cfm.

On Ambrose, discussed in Chapter 7, see my *Past Imperfect*, pp. 180–89. In an interview on popular history, Laurel Thatcher Ulrich was quoted in Matthew Price, "Hollow History," *Boston Globe*, October 24, 2004, p. E1. For Herbert Spencer's "first principle," see his *Social Statics* (1855; repr., New York: Appleton, 1913), p. 55. For more on the National History Standards, including the quotes from Gary Nash, see my *Past Imperfect*, pp. 105–6.

James Kirkpatrick's less-than-epic poesy appeared in *The Sea-Piece: A Narrative, Philosophical, and Descriptive Poem in Five Cantos* (London: Cooper, 1750). The quotations come from pp. xxii, xxiii, xxiv. Stephen Oates described his travail in "I Stood Accused of Plagiarism," History News Network, April 15, 2002, hnn.us/articles/658.html. One of his accusers, Michael Burlingame, replied with line and verse quoted here; see "Michael Burlingame's Response to Stephen Oates," http://historynews-network.org/articles/article.html?id=648. The quotation from Oates's *Biography as High Adventure* (Amherst: University of Massachusetts Press, 1986), appears on p. 137. Posner's views are expressed in "Plagiarism—Posner Post" April 24, 2005, www.becker-posner-blog.com/archives/2005/04/plagiarismposne.html, and in Posner's *Little Book of Plagiarism* (New York: Pantheon, 2007).

The bible of game theory is *Contributions to the Theory of Games*, 4 vols., eds. H. W. Kuhn and A. W. Tucker (Princeton: Princeton University Press, 1950–59). I have used with profit Shaun P. H. Heap and Yanis Varoufakis's *Game Theory: A Critical Text*, 2nd ed. (London: Routledge, 2004), and Peter C. Ordeshook's *Game Theory and Political Theory: An Introduction* (New York: Cambridge University Press, 1986). Sylvia Nasar's *A Beautiful Mind: a Biography of John Forbes Nash, Jr., Winner of the Nobel Prize in Economics, 1994* (New York: Simon and Schuster, 1998) is an admiring biography.

The Micmac and the French offer their conflicting accounts of the encounter described in Chapter 8 in my *Sensory Worlds in Early America* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2003), p. 4. My treatment of the philosophers in chapter 8 is confessedly episodic and anecdotal. I admit to source mining. See George Berkeley's *Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge* (1734; repr., New York: Penguin, 1988), pp. 12, 49, 79, 89.

Derrida quotations come from *Speech and Phenomena*, trans. David B. Allison (Evanston: Northwestern University Press), p. 68; *Of Grammatology*, trans. G. C. Spivak (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1974), p. 158, and "As If It Were Possible" in Michel Meyer's *Questioning Derrida* (Aldershot: Ashgate, 2001), p. 105. On Derrida, I consulted John D. Caputo, *The Prayers and Tears of Jacques Derrida* (Bloomington: Indiana University Press, 1997); Peter Fenves, "Derrida and History," in *Derrida and the Humanities*, ed. Tom Cohen (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), pp. 271–92; Christopher Norris, *Deconstruction: Theory and Practice* (London: Routledge, 2002); Barry Stocker, *Routledge Philosophy*

Guidebook to Derrida on Deconstruction (London: Routledge, 2006), and the essays in Jack Reynolds and Jonathan Roffe, eds., *Understanding Derrida* (New York: Continuum, 2004).

Richard J. Evans's take on the deconstructionists is far easier to read. In other words, good philosophy of history is argument that can be shared with non-experts. See *In Defense of History* (New York: Norton, 1999), p. 83. His lamentation on the philosophy of history appears on p. 9. But he agrees that "the theory of history is too important to be left to the theoreticians" (p. 12). This formulation of the duty of historians to examine their own discipline (arrived at independently by both him and me) originates from Georges Clemenceau's famous epigram, "La guerre! C'est une chose trop grave pour la confier à des militaires" (War is too important to be left to the generals). David D. Roberts's comment on deconstruction appears in his *Nothing but History: Reconstruction and Extremity after Metaphysics* (Berkeley: University of California Press, 1995), pp. 180, 181.

John Tosh's plea for historical awareness appears in *The Pursuit of History*, p. 22. "Wuz you dere?" was the communist refutation of scholarship contrary to the teachings of Marx and Lenin, according to the official party line. My parents, good socialists, hated it.

Gilbert Ryle, *The Concept of Mind* (London: Hutchinson, 1949), p. 16, offers the now-classic query "But where is the university?" A. J. Ayer's classic work *Language, Truth, and Logic* first appeared in 1936. I have used the later edition (London: Gollancz, 1946), pp. 100, 101, 102.

The definition of pragmatism from its founder, Charles Sanders Peirce, appears in Philip P. Wiener, ed., *Charles Sanders Peirce: Selected Writings* (New York: Dover, 1966), p. 183. William James's lectures on pragmatism, in the 1906–7 academic year, became the classic *Pragmatism*. The quotation is from Giles Gunn, ed., *William James: Pragmatism and Other Writings* (New York: Penguin, 2000), p. 113. Not only is John Dewey's *Democracy and Education: An Introduction to the Philosophy of Education* (New York: Macmillan, 1916) a classic, but it influenced the physical and psychological shape of education in New York City. Desks and chairs once bolted to the floor became movable as teachers turned classrooms into miniature democratic committees and students learned to work in teams. The quotation appears on p. 94. Dewey's presentism blossoms in his essay "Historical Judgments" in *Logic: The Theory of Inquiry* (New York: Holt, 1938), 235. A close and persuasive reading of Dewey's presentism is William H. Dray, *On History and Philosophers of History* (Leiden: E. J. Brill, 1989), 164–83.

Kurt Gödel is so difficult to follow that only a few brave souls (outside the community of mathematicians) have ventured to follow his tracks. See Rebecca Goldstein, *Incompleteness: The Proof and Paradox of Kurt Gödel* (New York: Norton, 2005). The Gödel quotation is from the book's frontispiece. David Horowitz weighs in on the majority-minority question in his *Unholy Alliance: Radical Islam and the American Left* (New York: Regnery, 2006). The quotation comes from the blurb for the book at the frontpagemagazine.com bookstore page, www.donationreport.com/init/controller/ProcessEntryCmd?key'D8QoU3WoR8. Richard Dawkins, "God's Utility Function," *Scientific American*, November 1995, p. 85, is the source for the lack of pattern in genetic activity.

Benoit B. Mandelbrot explains himself and his theory in *The Fractal Geometry of Nature* (San Francisco: W. H. Freeman, 1982). A popular version appears in James Gleick, *Chaos: Making a New Science* (New York: Viking, 1987). Georges Santayana, *The Life of Reason* (New York: Scribners, 1906), vol. 1, pp. 1–2, asks the question that will drive the five-volume survey and, on p. 2, admits that the philosopher's ambition is to speak for the entire race.

The quotation from Lord Acton in Chapter 9 is from *Lectures on Modern History* (New York: Macmillan, 1952), p. 24. O'Sullivan's Manifest Destiny can be found at www.mtholyoke.edu/acad/intrel/osulliva.htm. Theodore Roosevelt speaks in *The Man in the Arena: Selected Writings of Theodore Roosevelt* (Ferndale, Penn.: Forge, 2004), p. 20. U. B. Phillips's *American Negro Slavery* (1918; repr., New York: Appleton, 1929), pp. 454, 455, espoused the racialist view of slave character.

The discussion of the Lipstadt-Irving case appears in Jamil Zinaldin, "The Price of Truth," *AHA Perspectives*, January 2002, and Deborah Lipstadt, *History on Trial: My Day in Court with David Irving* (New York: Harper Collins, 2005), with the quotations from pp. 289–90. The judicial ruling was widely reported in the British press. See, e.g., David Pallister, "The Judgment: Judge Condemns Deliberate Falsification of Historical Record," *Guardian* (London), April 12, 2000, p. 6.

Augustine's *City of God* is grim reading for the sinner. The quotation is from Augustine, *On the Two Cities* (New York: Ungar, 1957), p. 66. For the historians of religion, see Edward Whiting Fox, "Editor's Introduction" to E. Harris Harbison, *The Age of Reformation* (Ithaca: Cornell University Press, 1955), pp. viii, ix; Harbison, *Age of Reformation*, p. 55; Arnold J. Toynbee, *A Study of History*, vol. 4, *The Breakdown of Civilizations* (1939; repr., New York: Oxford University Press, 1962), p. 227, which casts a skeptical eye on all religion.

Excerpts from Johnson and Mather texts are reproduced in Perry Miller and Thomas H. Johnson, eds., *The Puritans: A Source Book of Their Writings* (New York: Harper, 1938), pp. 144, 163; Michael P. Winship, *Making Heretics: Militant Protestantism and Free Grace in Massachusetts, 1636–1641* (Princeton: Princeton University Press, 2002), p. 230. To be fair and forthcoming, I should admit that Michael Winship is my colleague and I have spent much time with him listening and learning. Winship's take on theology is the opposite of George M. Marsden's, but when they set about their scholarly labors they converge. See Marsden, *Jonathan Edwards: A Life* (New Haven: Yale University Press, 2003), p. 502. The other quotations are from Sidney E. Ahlstrom, *A Religious History of the American People* (New Haven: Yale University Press, 1972), 1096, 13.

Steven Pinker's essay on the short-lived Harvard College curriculum requirements that I discuss in the Conclusion is "Less Faith and More Reason," *Harvard Crimson* October 27, 2006. Lawrence M. Krauss added his "amen" to Pinker in "Reason, Unfettered by Faith," *Chronicle of Higher Education*, January 12, 2007, p. B20. The last Krauss quotation comes from his *Hiding in the Mirror: The Mysterious Allure of Extra Dimensions, From Plato to String Theory and Beyond* (New York: Viking, 2005), p. 12. Stephen J. Gould's views appear in Gould, "Nonoverlapping Magisteria," *Natural History* 106 (March 1997): 16–22. Ralph Waldo Emerson, "The American Scholar," address to the Phi Beta Kappa Society of Harvard College [1837], reprinted as *The American Scholar* (New York: New York Public Library, 1901), p. 14.

A friend, reading this essay, was shocked that it made no mention of Michel Foucault. Foucault references are a staple of history dissertations these days, and I decided that I did not want to be left out of the mob, as it were. Roberts's *Nothing but History*, p. 184, offers a most succinct and sympathetic summary of Foucault: "Foucault has been a major source of the postmodern notion that 'man,' which once seemed the transcendent and enduring subject, dissolves into impersonal systems that are historically specific." Foucault himself taught us to look for the discontinuities, the interruptions that are the stuff of real lives. Instead of movements and progress, we need to probe how our own ruling assumptions govern not only our view of the past but how we constructed that past. But there is a little too much self-reflection in this for me. A sample, an apology of sorts, appears in Foucault's *Archaeology of Knowledge* (London: Routledge Classics, 2002), p. 18: "I console myself with the thought that . . . in order to carry out its task [this work] had first to free itself from these various

methods and forms of history. . . . Hence the cautious stumbling manner of this text: at every turn, it stands back, measures up what is before it, gropes towards its limits, stumbles against what it does not mean, and digs pits to mark out its own path. At every turn, it denounces any possible confusion. It rejects its identity, without previously stating: I am neither this nor that." Fair enough.

المؤلف فى سطور:

بيتر تشارلز هوفر Reter C. hoffer

أستاذ وباحث بارز فى قسم التاريخ بـ **the university of georgia**، متخصص فى التاريخ الأمريكى المبكر وتاريخ القانون، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفرد عام ١٩٧٠، وله عدد من المؤلفات منها:

- **past Imperfect: facts. Fiction. And Fraud in the Weiting of a' erican History (Public Affaris. , 2004).**
- **Server fires: the urban infernos that reshaped American History (Public Affaris. , 2006).**
- **The Brave new world: a history of early American (Johns Hopkins. 2007).**
- **The supreme court: an essential history (Kansas. 2007).**
- **The Treason Trials of Aron Burr (Kansas. 2007).**

المترجمَ في سطور:

قاسم عبده قاسم

- أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق.
- له عدة مؤلفات في تاريخ عصر سلاطين المماليك، والحروب الصليبية والفكر التاريخي، ومنهج البحث، والعلاقة بين الأدب والتاريخ.
- **ترجم عددًا مهمًا من الكتب منها:**

- ما التاريخ الآن؟

- تاريخ الحروب الصليبية.

- الفتوح العربية الكبرى.

- التاريخ الوسيط.

- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية.

- **حصل على:**

- جائزة الدولة التشجيعية ١٩٨٣م.

- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ١٩٨٣م.

- جائزة الدولة للتفوق سنة ٢٠٠٠م.

- جائزة الدولة التقديرية ٢٠٠٨م.

التصحيح اللغوى: محمد المصرى

الإشراف الفنى: حسن كامل